كم
تبعد
القاهرة؟
تأليف: آن وولف
ترجمة وتقديم: قاسم عبده قاسم
المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومي للترجمة
1053

How Many Miles to Babylon?

Travels and Adventures to Egypt and Beyond, From 1300 to 1640

by Anne Wolff

هذا الكتاب عنوانه الأصلى "كم ميلاً إلى بابليون"، وهو الاسم الذى عرفه الأوروبيون فى العصور الوسطى لمدينة القاهرة نتيجة لأسطورة قديمة. ويتناول الكتاب رحلات التجار والحجاج والمغامرين والسفراء الأوروبيين إلى مصر والبـلاد المجاورة لهـا ، وقد أوردت المؤلفة وصفًا للمدن المصرية والريف والصحراء فى اقتباسات مصورة من كتب الرحالة الذين عرضت لهم؛ مما رسم صورة حية بألوانها للقاهرة تحت حكم سلاطين المماليك، ثم حكم الولاة الأتراك العثمانيين بعد سنة ١٥١٧م، وإلى جانب ما عرض له الكتاب من ملامح العادات والتقاليد فى مصر آنذاك، كانت هناك معلومات عن النباتات والحيوانات المصرية والأحوال الاقتصادية والتجارية. ويشمل الكتاب أيضًا رحلة إلى الحجاز، وأخرى إلى بلاد الحبشة، كما يقدم – بشكل عام – صورة حيوية لمصر وعالم العصور الوسطى من القرن الرابع عشر إلى أواسط القرن السابع عشر.

تصميم: وائل أحمد

كـــم تبعـــد القـــاهـــرة ؟

رحلات ومغامرات فى مصر وما وراءها

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٠٥٣

- كم تبعد القاهرة ؟ (رحلات ومغامرات فى مصر وما وراءها)

- آن وولف

- قاسم عبده قاسم

- الطبعة الأولى ٢٠٠٦

هذه ترجمة لكتاب :

How Many Miles to Babylon ?

Travels and Adventures to Egypt and Beyond, from 1300 to 1640

By : Anne Wolff

First Published 2003 by Liverpool University Press

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084

المشروع القومى للترجمة

كم تبعد القاهرة ؟

رحلات ومغامرات فى مصر وما وراءها

(١٣٠٠ - ١٦٤٠م)

تـألـيـف : آن وولف

ترجمة وتقديم وتعليق : قاسم عبده قاسم

٢٠٠٦

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ولف ، آن
كم تبعد القاهرة : رحلات ومغامرات في مصر وما وراءها
(١٣٠٠ - ١٦٤٠م) / تأليف : آن وولف ؛ ترجمة وتقديم وتعليق :
قاسم عبده قاسم - ط١ - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦ .
٣٩٦ ص ، ١٧ × ٢٤ سم
(المشروع القومي للترجمة ؛ العدد ١٠٥٣)
١ - مصر - وصف ورحلات ٩١٦,٢٠
أ - قاسم ، قاسم عبده (مترجم ومقدم ومعلق)
ب - العنوان

رقم الإيداع ٢٠٠٦/٢١٢٠٢
الترقيم الدولي (I.S.BN. 977 - 437 - 075 - 9)
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

المحتــويات

خريطة فيليبو بيجافيتو لأفريقيا

إهداء المترجم

إلى منى .. كل المنى

قاسم عبده قاسم

مقدمة المترجم

الرحلة قراءة فى صفحة الدنيا ووسيلة رئيسية من وسائل المعرفة فى زمن كانت الجياد، فوق الأرض الصلبة ، والجمال عبر الصحراء وفوق رمالها، والسفن الشراعية فوق مياه الأنهار، أو بين أمواج البحار، أسرع وسائل المواصلات والاتصالات . واليوم، بعد التطور المذهل فى وسائل الاتصال والنقل ، لا تزال الرحلة وسيلة رئيسية للمعرفة، لسبب بسيط، أنها توفر المعرفة المباشرة من خلال المعاينة لا عن طريق وساطة أدوات النشر والاتصال . لقد كانت الرحلة، ولا تزال ، وسيلة ناجعة يتوسل بها الإنسان إلى العلم والمعرفة إذا ما كان يبحث عنها؛ بيد أن أغراض «الرحالة» اختلفت وتنوعت بقدر ما اختلفت وتنوعت أهداف الإنسان ومقاصده من وراء الرحلة ؛ فقد عرف الإنسان قديماً الرحلة الاختيارية ، والرحلة الإجبارية تحت وطأة الظروف المعاكسة ، كما عرف الرحلة الفردية والرحلة الجماعية التى اتخذت شكل الهجرة، كما عرف حديثًا أبعادًا جديدة للرحلة مثل رحلات الفضاء.

وعلى الرغم من أنه كانت ، ولا تزال ، هناك جوانب مشينة ومظلمة للرحلة ، مثل التجسس من أجل العدوان على الآخرين ، أو التخريب ، أو بسرقة ثروات الأمم الأخرى... وما إلى ذلك، فإن الإشراقات الإيجابية للرحلة قدمت خدمات جليلة للإنسانية ، وللإنسان الفرد على السواء .

كانت الرحلة الأب الشرعى للجغرافيا ؛ فلولا الرحلة لظلت معارف الإنسان عن العالم الذى يعيش فى رحابه رهن الأساطير والخيالات والأوهام (مثل شكل الأرض وحدودها، وموقع الجنة التى تصورها الأوروبيون فى مكان ما قرب الهند) . كما قدمت الرحلة إسهامات مهمة فى العلوم الإنسانية والاجتماعية ، مثل : التاريخ ، وعلم الإنسان، والأنثروبولوچيا ، وعلم الاجتماع ؛ بل إنها أثرت فى علوم مثل : الاقتصاد ، والسياسة ،

والآثار، والدراسات اللغوية ، والدراسات الشعبية ... وما إلى ذلك. باختصار وفرت الرحلة، وما زالت توفر، معرفة الإنسان بالإنسان ، وبالكون الذى يعيش فى رحابه . الرحلة حالة يتعرف فيها الإنسان على «الآخر» ، وربما يصبح أكثر استعداداً للاعتراف بوجود هذا الآخر والتعامل معه، وربما يحدث العكس تماماً . بيد أن الرحلة فى كل الأحوال نشاط إنسانى / ثقافى يختلف عن أى نشاط آخر يمارسه الإنسان.

لقد بدأ تاريخ الرحلة مع تاريخ الإنسان نفسه؛ فقد كانت هجرات الأقوام البشرية فى العصور القديمة نوعًا من الرحلة الجماعية «الإجبارية» بحثًا عن مصادر الرزق، وربما اجتمع فيها العامل الاقتصادى بعوامل اجتماعية ومعرفية بشكل بدائى . والمثير أن مثل هذه «الرحلات» الجماعية لم تترك آثاراً مكتوبة تفيد فى بناء المعرفة الإنسانية إلا فيما ندر، ولكن الرحلات الجماعية الاستعمارية (فى العالم الجديد مثلاً) تركت تراثًا غنيًا عن العالم آنذاك . والمثير أيضًا أن تراث «الرحلة» الفردية هو الذى ترك لنا الشطر الأكبر من التراث المعرفى الإنسانى فى شتى نواحى المعرفة.

وعلى الرغم من أن الرحلة الفردية كانت على مرّ عصور التاريخ تتم انطلاقًا من دوافع فردية مختلفة ؛ فالجنود ، والسفراء ، والتجار، ورجال الدين، والمغامرون، والعلماء كانوا باستمرار من العناصر المتكررة فى تاريخ الرحلة ، فإن حصادها المعرفى كان مثيراً على الدوام ، وربما كانت فيه فائدة علمية فى كثير من الأحيان . وعلى الرغم من أن الرحالة الفرديين كانوا فى أعداد لا تحصى ، فإن عدداً قليلاً منهم – بطبيعة الحال – هم الذين سجلوا رحلاتهم بشكل أو بآخر. لقد كان الرحالة – باستمرار – بمثابة العين الغريبة وآلة التصوير التى تسجل ما تراه غريبًا وغير مألوف وشاذًا بالنسبة لثقافتهم على حين يمارس أهل المجتمعات التى يزورونها حياتهم وفق نظامهم القيمى والأخلاقى وعاداتهم وتقاليدهم التى ألفوها جيلاً بعد جيل ، ولم يروا فيها أى قدر من الغرابة . ومن هنا عرفنا من كتب الرحالة الكثير من عادات الشعوب وتقاليدهم. ومن ناحية أخرى، بالغ بعض الرحالة فى الحديث عن هذه العادات والتقاليد بدافع من الرغبة فى الإغراب وإثارة الدهشة لدى السامعين والقراء فيما بعد .

* * *

وتحتل الفترة التى يمثلها عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٢هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م) مساحة مهمة فى تاريخ «الرحلة» الإنسانية عامة، والرحلة الأوروبية إلى المنطقة العربية على نحو خاص . فقد شهدت هذه الفترة عدة تطورات تاريخية مهمة بدأت بوقف الخطر المغولى فى معركة عين جالوت (٢٦ رمضان ٦٥٨هـ / سبتمبر ١٢٦٠م) ، وانتهت بسقوط دولة سلاطين المماليك بعد معركة مرج دابق ومعركة الريدانية (٩٢٢هـ / ١٥١٧م) ، مروراً بالقضاء على الوجود الصليبى فى المنطقة العربية بعد تحرير عكا بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاون يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م. وكانت النتائج المباشرة لنجاحات دولة سلاطين المماليك فى سنواتها الأولى (هزيمة لويس التاسع وأسره والقضاء على الحملة الصليبية السابعة سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، ثم القضاء على الخطر المغولى بعد هزيمة عين جالوت) أن صارت القاهرة العاصمة السياسية والاقتصادية والثقافية للعالم المسلم من ناحية، كما كانت مقصداً للزوار والتجار والسفراء والحجاج والجواسيس والمغامرين والعلماء من ناحية أخرى. وعندما احتل العثمانيون مصر، وتحولت من دولة إقليمية كبرى إلى ولاية من ولايات الدولة العثمانية ، لم تفقد مكانتها لدى الرحالة من شتى الأنواع .

كانت القاهرة أحد المقاصد المهمة للرحلة الإسلامية والأوروبية على السواء؛ إذ كانت القاهرة قد اكتسبت مكانة وأهمية متصاعدة بعد أن قام السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى بإحياء الخلافة العباسية ، إحياءً شكليًا ، سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م، وبعد أن صارت بمثابة المعقل الأخير للحضارة العربية الإسلامية. ونتيجة لتراكم السحب السياسية والاقتصادية السوداء فى مشرق العالم الإسلامى ومغربه على السواء، باتت القاهرة مقصداً وهدفًا للهاربين من الرياح السياسية والاقتصادية والثقافية المعاكسة التى هبّت على شتى أرجاء العالم الإسلامى آنذاك، كانت القوة العسكرية والسياسية للقاهرة ، والحيوية الثقافية والفكرية، والرواج الاقتصادى والنشاط التجارى الذى شهدته عاصمة الدولة الإقليمية الكبرى، قد جعل منها مزاراً للرحالة المسلمين والرحالة الأوروبيين طوال تلك الفترة، وإن اختلفت – بشكل عام – دوافع الرحالة القادمين من مختلف أنحاء «دار الإسلام» عن دوافع أولئك القادمين من الغرب الأوروبى بطبيعة الحال .

لقد كان يحكم تحركات الرحالة المسلمين فكرة أنهم داخل ديارهم «دار الإسلام» على الرغم من مضايقات بعض موظفى الجمارك المعتادة ، وقد تنوعت دوافع الرحالة المسلمين ما بين الحج، وطلب العلم، والتجارة. وكان القادمون من المغرب والأندلس وأفريقيا المسلمة يمرون بالقاهرة وهم فى طريقهم إلى الأراضى الحجازية ، كما أن هناك فكرة عامة كانت تحكم الرحلة لدى العلماء المسلمين لخصها ابن خلدون بقوله : «... والرحلة لابد منها فى طلب العلم ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»، كذلك كانت التجارة من العوامل المهمة الدامغة إلى الرحلة فى التراث العربى الإسلامى. فمن المعلوم أن التاجر العربى والمسلم كان من أشهر شخصيات تلك العصور، كما كان شخصية مهمة فى كثير من الأعمال الأدبية السردية ، وأهمها حكايات «ألف ليلة وليلة» . ومن ناحية أخرى ، كان هناك من بين الرحالة المسلمين علماء ومفكرون تركوا لنا نفائس يفخر بها التراث الإنسانى؛ إذ كان عبد الرحمن بن خلدون رحالة ، وإن كانت رحلته الإجبارية قد أنتجت لنا تعديلاً مهماً فى مقدمته الشهيرة التى كان قد كتبها فى تونس، وابن بطوطة الطنجى ترك رحلته التى تجمع معلومات مهمة فى الجغرافيا والأنثروبولوچى والتاريخ عن رقعة هائلة من العالم الذى زار معظم أنحائه، كما أن ياقوت الحموى صاحب «معجم البلدان» يقف مثالاً بارزًا على أن رحلة التاجر العربى المسلم لم تخلُ من الإنجازات العلمية الرائعة.

كانت هناك أسباب أخرى متعددة لرحلة الرحالة المسلمين إلى القاهرة فى ذلك الزمان، وبعضها كانت سفارات بتكليف من الحكام المسلمين تحمل هدايا ، وتعلن الخضوع، أو تطلب الدعم والمساندة ... أو ما شابه ذلك من أغراض . على أن أهم ما يلفت النظر فى تاريخ الرحلة العربية الإسلامية إلى القاهرة فى تلك الفترة (القرن السابع – العاشر الهجرى/ ١٣-١٦م) أن طابع المبادرة الشخصية كان العامل الحاسم فى معظم تلك الرحلات التى لم تكن الدول تمولها إلا إذا كان الرحالة يقوم بها لحساب الدولة لسبب أو لآخر.

أما أوروبا الغربية ورحالتها، فقد اختلف الأمر بالنسبة لهم إلى حد بعيد. وأول تلك الفروق أنهم جاءوا من عالم معادٍ للمسلمين ومعتدٍ عليهم فيما يُعرف باسم "الحروب الصليبية" .

على الرغم من بروز التجارة ودورها المهم فى الاقتصاد الأوروبى خاصة بالنسبة للجمهوريات التجارية الإيطالية. فقد كان القرن الحادى عشر الميلادى بالنسبة للغرب الأوروبى بداية فترة استمرت على مدى ثلاثة قرون تمثل مرحلة التكوين فى تاريخ أوروبا العصور الوسطى. وتميزت حركة التاريخ الأوروبى منذ ذلك الحين بروح الحيوية الدافقة والحماسة الجسورة التى دفعت الناس إلى السفر إلى مناطق الحدود وما وراء البحار ؛ أملاً فى تحقيق طموحاتهم . وأخذت أوروبا توقن تدريجيًا أن الحضارتين المجاورتين لها (الحضارة العربية الإسلامية والحضارة البيزنطية) أكثر رقيًا وتقدمًا من ناحية ، وأن مكاسبهما من التجارة العالمية وراء هذا الثراء والتقدم من ناحية أخرى . وقد أدى هذا بالضرورة إلى إدراك أوروبا– التى كانت مجتمعًا من المجتمعات النامية آنذاك – أن طاقتها أكبر من أن تستوعبها أراضيها الضيقة ، وأن مواردها المحدودة لن تحقق طموحها فى مشاركة الحضارتين الجارتين ثروة التجارة العالمية، فأخذت تسعى إلى التوسع خارج جلدها الضيق. وكانت الحروب الصليبية (١٠٩٥–١٢٩١م) أهم تجليات هذا الخروج الأوروبى. وفى تلك المرحلة كانت «الرحلة» الأوروبية لا تزال مدفوعة بأهداف دينية، وإن زاحمتها الدوافع السياسية والاقتصادية والعسكرية.

فقد كان الحج إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين ، التى شهدت الوقائع التاريخية لقصة المسيح على الأرض، حركة اجتماعية / ثقافية ذات مضمون دينى / عاطفى منذ وقت باكر فى تاريخ أوروبا ، وكانت من أهم مكونات الفكرة الصليبية . وتخبرنا النصوص التى تركها الرحالة الأوروبيون فى ذلك الوقت الباكر – قبل الحروب الصليبية – أن المسيحيين الكاثوليك القادمين من الغرب الأوروبى إلى فلسطين كانوا يحرصون على الأكل فى كهف أكل فيه المسيح مع حوارييه أو يستحمون فى مياه نهر الأردن التى تم تعميده فيها. وعلى الرغم من انتهاء الحروب الصليبية بعد قرنين من الصراع المسلح مع أبناء المنطقة العربية ، ظلت لهذه الرحلة جاذبيتها، بل إن مناطق فى مصر دخلت ضمن مسار الرحلة الدينية للحجاج الكاثوليك القادمين من أوروبا الغربية فى عصر سلاطين المماليك وفى العصر العثمانى.

من ناحية أخرى، لعبت تجارة ما يُسمى «الذخائر المقدسة» (أى رفات القديسين والملابس والأدوات والأشياء المادية التى يقال إن القديسين استخدموها) دوراً مهماً فى إثارة اهتمام الأوروبيين بالرحلة إلى الأرض المقدسة. وقد راجت قصص وحكايات خيالية كثيرة حول الرحلات والذخائر المقدسة؛ مما زاد من تأجج الرغبة فى الرحلة إلى الأرض المقدسة ومصر. ومن خلال الحروب الصليبية والتوغل الأوروبى فى حوض البحر المتوسط ، زادت معرفة الأوروبيين بالمنطقة العربية ، وزادت جاذبية الحج إلى الأرض المقدسة فى فلسطين، ومصر (مسار رحلة العائلة المقدسة، ودير سانت كاترين، بل والأهرام التى اعتبروها مخازن الغلال التى قام يوسف بتخزين الغلال فيها أثناء وزارته لفرعون فى القصة المشهورة دينياً).

لقد ارتبط فشل المشروع الصليبى بتصاعد الاهتمام على مستوى التجارة والدبلوماسية ، والمعرفة بالقاهرة، وجاء الرحالة من كل أرجاء أوروبا حجاجًا إلى فلسطين ومصر، وزواراً للأماكن المقدسة فى سيناء والمطرية ومصر القديمة، كما جاءوا تجاراً إلى الاسكندرية والقاهرة وبلاد الشام ، يحرصون على الربح من التجارة العالمية فى التوابل وغيرها من بضائع المحيط الهندى، وباحثين عن المومياوات التى ظن الأوروبيون أنها دواء شاف من جميع الأمراض، وزواراً وجواسيس يجمعون المعلومات ويضعون الخطط لحملات صليبية جديدة.

* * *

وهذا الكتاب المدهش يتناول عدداً من الرحلات الأوروبية إلى مصر فى الفترة التى تمتد من عصر سلاطين المماليك إلى العصر العثمانى، وإن طالت فى حالات نادرة إلى عصر محمد على (إدوارد وليم لين) ، وقد عرضت المؤلفة فى صفحات كتابها لهذه الرحلات وفق منهج سردى وصفى، وقسمت فصول الكتاب حسب الموضوعات التى احتواها فهرست الكتاب بحيث جمعت أقوال الرحالة حول موضوع بعينه . وتجولت بنا مع الرحالة ما بين ما كانت عليه الإسكندرية، وأوضاع التجار الأوروبيين وقناصل الدول الأوروبية بها ، إلى عمود السوارى الشهير والآبار الرومانية تحت أرضها، وميناء الإسكندرية وأشكال السفن، ومواعيد الرحلات وحمولات السفن، ثم الرحلة إلى القاهرة فوق صفحة النيل. وقد

أجادت المؤلفة فى وصف القاهرة من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين الذين عرضت لأعمالهم ، ثم تناولت عدة جوانب من خلال الرحلات إلى سانت كاترين ، والرحلة الوحيدة إلى أسوان والنوبة.

قدمت المؤلفة المادة التى نقلتها عن الرحالة، دونما قراءة نقدية فى معظم الأحيان، وتجاهلت ما تحمله النصوص من مبالغات كثيرة ، ولم تحاول اختبارها خصوصًا فى الأمور المتعلقة بالعادات والتقاليد التى يصعب على الرحالة ، فى زيارة عابرة، أن يعرفوا خبايا هذه العادات والتقاليد الموروثة عبر القرون. ومن ناحية أخرى، كشفت نصوص كتب الرحالة التى أوردتها المؤلفة عن روح العداء والتعصب التى ميزت الرحالة من رجال الدين الأوروبيين تجاه المسلمين، كما كشفت عن المركزية الأوروبية عندما كانوا يصفون أنفسهم دائمًا «بالمسيحيين»، وكأن المسيحيين المصريين - مثلاً - ليسوا مسيحيين ، وعندما وصف بعض الرهبان الكاثوليك رهبان دير سانت كاترين بالهراطقة ، أو عندما تصور الرهبان الذين قاموا بزيارة الحبشة أن مهمتهم «هداية» الحبشة الأرثوذكسية وإمبراطورها «الخاطئ» إلى طريق الصواب الكاثوليكى.

الرحلات التى عرضت لها المؤلفة تقدم كلها صورًا ملونة بألوان الحيوية والحماسة الدافقة للحياة المصرية على شتى مستوياتها، وعلى الرغم من أن هناك الكثير مما يستوجب اعتراض الباحثين المتخصصين - وقد سجلت ذلك فى الهوامش التى ذيلت بها صفحات الكتاب - فإن المؤلفة قدمت لوحة مثيرة كانت مزيجًا من كتابات الرحالة والمعلومات العلمية التى استقتها من المصادر والمراجع المتخصصة ، وكانت النتيجة كتابًا مذهلاً يصلح للقارئ المثقف العادى والباحث المتخصص على السواء.

ويتضمن الكتاب رحلتين كاشفتين : أولاهما قام بها مغامر إنجليزى غير معروف الاسم برفقة المحمل وقافلة الحجاج إلى الحجاز متخفيًا بمساعدة أمير الحج الذى كان مملوكًا من أصول أوروبية ، والثانية رحلة قام بها رهبان كاثوليك إلى الحبشة فى مهمة تبشيرية هدفها تحويل نجاشى الحبشة وشعبه من المسيحية الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية ، وهى محاولات باءت بالفشل من ناحية ، وكانت لها جوانبها السياسية العسكرية

من ناحية أخرى والتى تمثلت فى محاولة شن حملة عسكرية مشتركة بين الأحباش والأوروبيين ضد مصر ، ولكن المشروع باء بالفشل أيضًا .

الكتاب الذى قمت بترجمته فى هذه الصفحات كتاب مثير ومفيد، وأسلوبه سهل ومشوق، ويدل على ثقافة أدبية راقية للمؤلفة إلى جانب معلوماتها التاريخية المتنوعة والتى ساعدتها على الخوض فى تلك الجوانب التاريخية المتنوعة ما بين صفحات التاريخ الاجتماعى (فى أوروبا وفى مصر) والتاريخ الاقتصادى لحوض البحر المتوسط والبحر الأحمر، وبعض مشاهد التاريخ السياسى فى المناطق التى غطاها الكتاب. كما كشف هذا الكتاب عن بدايات علم الآثار المصرية، وما صاحب تلك البدايات من عمليات النهب والتدمير واسعة النطاق التى مارسها الأوروبيون الذين تحول «حجهم» إلى الأهرام، التى ظنوها مخازن غلال يوسف عليه السلام ، إلى ولع بالآثار المصرية ومحاولة اقتنائها بصرف النظر عن شرعية هذا الاقتناء أو عدم شرعيته.

أمًا عن الترجمة ، فإن الصعاب التى تنتج عن حبس المترجم فى عقل المؤلف معروفة لكل من يحاول أن يمارس الترجمة، ولكن تظل للترجمة دائمًا مصاعبها . وقد حاولت فى حدود طاقتى أن أقدمها للقارئ العربى بأسلوب عربى خالص ، مع تقديم التعليقات المناسبة عندما يكون هناك ما يستدعى ذلك، وأجد نفسى مدينًا بالشكر لأستاذى الدكتور مصطفى العبادى الذى اختار هذا الكتاب لى ، واختارنى له، لكى أترجمه ، والشكر لصديقى وحبيبى الأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين المجلس الأعلى للثقافة، وصديقى الراقى الدكتور عماد بدر الدين أبوغازى ، والصديقة الكريمة الدكتورة شهرت محمود أمين العالم، الذين كان لاهتمامهم بهذه الترجمة ، فى إطار الاحتفال بالذكرى الستمائة لابن خلدون ، أهم أثر فى دفعى إلى قيامى بهذه الترجمة.

ولكن، يظل القارئ هدفى ومقصدى، وأرجو أن أكون قد وفقت فى تقديم هذا الكتاب المدهش فى ثوب يستحقه الكتاب ، ويستحقه القارئ .

والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

إهداء المؤلفة

كم ميلاً إلى بابيلون ؟
ستون ميلاً وعشرة
أيمكنني الوصول إليها على ضوء شمعة ؟
نعم ، والعودة منها ثانية
إذا كان كعباك رشيقين خفيفين
تستطيع الوصول إلى هناك على ضوء شمعة

من أغانى الأطفال (١٨٠٥م)

مقدمة المؤلف

أظن أنه من العدل أن أقول إن المرء دائمًا ما ينجذب إلى البلاد التى شهدت مولده، وإننى لست استثناء فى هذا . كان والدى تاجر أقطان يعمل فى أسواق القاهرة والإسكندرية ، يبيع القطن إلى صناع الأقمشة فى مانشستر بعد الحرب العالمية الأولى. وهكذا سار على خُطى التجار السابقين الذين كانوا يشترون البضائع من مصر لسد حاجة الأسواق الأوروبية. وعلى خلاف الكثير من معاصريه ، تعلم أن يتحدث ويكتب باللغة العربية خلال السنوات الخمس التى عاشها هناك .

وقد جاءنى الإلهام بكتاب «كم ميلاً إلى بابيلون ؟ How Many Miles to Babylon» (لأن بابيلون هو الاسم الذى كان مسيحيو أوروبا فى العصور الوسطى يستخدمونه لتسمية القاهرة) أول مرة من قراءة مجلدات كتاب «رحلات إلى مصر Voyages en Egypte» الذى نشره المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة . وأود أن أشكر المدير على تفضله بالسماح لى بالاقتباس من هـذه المؤرخة التى ترجع إلى القرن السادس عشر . وأود أيضًا أن أشكر ناشرى Studium Biblicanum Fransiscanum in Jerusalem لأنهم سمحوا لى أن أقتبس من منشوراتهم لكتابات الرهبان الفرنسيسكان الأوائل فى فلسطين ومصر وما جاورها ، وأتقدم بالشكر إلى أمناء مكتبة «غرفة الخرائط Map Room» بمكتبة جامعة كمبريدج ، الذين قاموا ببحث قيم لصالحى، وإلى هيلين توكى التى أشرفت مع أندرو كيرك على طباعة النص بمطبعة جامعة ليڤربول. وقد كرس بول وچانيت ستاركى بجامعة دورام وقتهم للمشورة بالتهجئة العربية، وأمدانى باقتراحات مفيدة.

وفوق هذا وذاك أدين بدين كبير إلى المرحوم البروفيسور چون موريسون ، الزميل السابق لترينتى كوليدج ، بكامبريدج ، وأول رئيس لولفسون كولوج بكامبريدج الذى قرأ المخطوط فصلاً فصلاً، وساندنى بتشجيعه .

التصـــاريح

يدين الناشرون بالشكر لمندوبي جامعة كمبريدج؛ لأنهم سمحوا بإعادة إنتاج الرسوم التوضيحية من Atlas Historique de la Ville et des ports d'Alexandrie صفحة ٦٢ ، ومن Cairus Civtates Orbis Terrarum صفحة ١١٣، وإلى الناشر Harper and Collins Publishers لسماحهم بإعادة إنتاج خريطة من الأطلس المسمى Times Atlas of World History صفحة ١٦، وإلى La Casa Editrice Bonechi , Florence للسماح بإعادة إنتاج رسمين من كتاب ديفيد روبرتس ، الرحلة إلى مصر ، صفحة ٢٥٨ وصفحة ٢٦٥ (David Roberts , A Journey into Egypt, p. 258, p. 265) وكل جهد تم بذله للوصول إلى أصحاب حقوق النشر والطباعة سيكون محل امتنان إذا ما أحاطنا علمًا بأية أخطاء أو حذف.

قائمة الأشكال والرسوم التوضيحية

١-١١ السلطان قايتباى (صورة ربما يكون قد رسمها Cristofano dell Altissimo من المجموعة المصنوعة فى كومو على يد Paolo Giovio).

١-١٢ السلطان المملوكى قبل الأخير، قنصوه الغورى.

(Vecellio, s Renaissance Costume Book, 415, p. 130).

الفصل الثانى - مصر فى التخيل وحقائق الرحلة :

٢-١ خريطة مصر وآسيا لمارينو سانودو (رسمت حوالى سنة ١٣٣٤م لكتابه :

(Liber Secretorum Fidelium Crucis Super Terrae Sanctae).

٢-٢ يوسف يستعرض فى عربته الاستعراضية ، مع الآنية التى تحتوى على السنابل السبع الممتلئة بالقمح والسنابل السبع العجاف.

(S.J. Colvin , Florentine Picture Chronicle, Plate, 16).

٢-٣ هيرمس تريسميجستوس (موزايكو يقال إنه من صنع چيوڤانى دى ستيفانو، مرسوم على الرصيف للديومو فى سيينا).

٢-٤ تاجر من البندقية. (Vecellio,s Renaissance Costume Book, 89, p. 27).

٢-٥ امرأة من البندقية تُمشِّط شعرها.

(Vecellio's Renaissance Costume Book, 112, p. 33)

٢-٦ جندى متطوع على ظهر سفينة حربية.

(Vecellio's Renaissance Costume Book , 132 , p. 39).

٢-٧ عبد سفينة. (Vecellio,s Renaissance Costume Book, 134 , p. 40).

الفصل الثالث - ميناء الإسكندرية البحرى :

٣-١ الإسكندرية سنة ١٦١٩ .

(Atlas Historique de la Ville et des Ports d'Alexandrie , 3 Map 5).

٣-٣ تماثيل الآلهة ، قال بروسبيرو ألبينى إنها من الزجاج أو الحجر أو البرونز.

(Prospero Alpini , Historiae Naturalis Aegpti , p. 218).

٣-٤ جسد سان مرقص أثناء نقله إلى البندقية.

(موزايكو على سقف كنيسة سان مارك بالبندقية).

٣-٥ قرد يلعب فى عرض من داخل أفريقيا .

(Prospero Alpini , Histoire Naturalis Aegpti, p. 248).

٣-٦ العمود الذى يُسمى عمود بومبى.

(Description de L'Egypt, vol . V, p. Plate 34).

٣-٧ النمس أو «فأر فرعون» كما رسمه بيير بيلون.

(Saunerom [ed.] , Voyage en Egypte, de Plate 87).

الفصل الرابع - الإبحار ضد التيار إلى القاهرة :

٤-١ جمل رسمه بروسبيرو ألبينى.

(Prospero Alpini , Histoire Naturalis Aegpti , p. 249).

٤-٢ خروف بإلية. (Desciption de L'Egypte, vol . I, plate7).

٤-٣ فرس النهر كما رسمه بروسبيرو ألبينى.

(Prospero Alpini, Histaire Naturalis Aegpti, p. 247).

٤-٤ تمساح رسمه بيير بالون.

(Sauneron [ed.], Voyage en Egypte de Pierre Belon, p. 103a).

٤-٥ بسحالى رسمها بروسبيرو ألبينى.

(Prospero Alpini, Histoire Naturalés Aegpti, p. 246).

٤-٦ رى الحقول. (Description de L'Egypte, vol . II, Plate 6) .

الفصل الخامس القاهرة - «مجمع الوارد والصادر» :

٥-١ خريطة القاهرة، يحتمل أن يكون ماتيو باجانو قد رسمها بسنة ١٥٤٩م ، أو نقلاً عن حفر بندقى مأخوذ عنها:

(Georg Braun and Frans Hogenburg, Cairus Civitates Orbis Terrarum , vol . I, 1577).

٥-٢ باب النصر. (Description de L'Egypte, vol. I, plate 19).

٥-٣ باب الفتوح. (Description de L'Egypte, vol I Plate, 47).

٥-٤ درويش فى «رقصة ذكر». (E.W. Lane, The Modern Egyptians , p. 439).

٥-٥ كيف كان عقاب المجرمين؟

(Brejnik and Brejnik [ed. and trans.] voyage de Christophe Harant , facing p. 198).

٥-٦ بسيدات تركيات فى طريقهن إلى الحمامات.

(Brejnik and Brejnik [ed. and trans.] voyage de Christophe Harant, Facing, p. 178).

٥-٧ داخل حمام عمومى بالقاهرة.

(Description de L'Egypte, vol . I , plate 49).

٥-٨ احتفالات فتح الخليج بمناسبة الفيضان السنوى للنيل.

(Description de L'Egypte, vol . I, Plate 19) .

٥-٩ بركة الأزبكية، الناحية الجنوبية ، أثناء فيضان النيل.

(Description de L'Egypte, vol . I, plate 41).

٥-١٠ مدفن سان سيرجيوس (كنيسة أبى سرجة) مصر القديمة ، ويقال إنها كانت استراحة العائلة المقدسة (صورة التقطتها المؤلفة).

٥-١١ مدخل إلى القلعة وساحة العرض ١٧٩٨م.

(Description de L'Egypte, vol. I, plate 67).

٥-١٢ زرافة رسمها كرياكو الأنكونى.

(Ms. Ashburnam, 1174, Florence, Biblioteca Med. Laurenziana).

الفصل السادس - الدبلوماسية البندقية ووصول العثمانيين :

٦-١ البندقية فى القرن الخامس عشر، حفر على الخشب لإيرهارد رويتش.

(For Berhard von Breydenbach, Perigrinato Terram Sanctum, Mainz, Peter Shaffer 1486).

٦-٢ زى قديم لسفير بندقى إلى الشام وغيرها .

(Vecellio's Renaissance Costume Book , p. 621).

الفصل السابع - استكشاف الأهرام وحقول المومياوات :

٧-١ نزهة إلى الأهرام.

(Le Voyage en Egypte de George Sandys , 1611 et 1612, Facing p. 156).

٧-٢ داخل البهو الكبير فى «الهرم الأول والكبير».

(Description de L'Egypte, vol . III, Plate 46).

٧-٣ رسم لما يسمى «البئر» الذى ذكره بلينى.

(John Greaves, Pyramidiographia, p. 87).

الفصل الثامن - الحجاج إلى دير سانت كاترين :

٨-١ «نعامة وكيف تنزل عن الجمل».

(Brejnik and Brejnik [ed. and trans.] , Voyage de Christophe Harant, Facung, p. 164.

٨-٢ حفر على الخشب لدير سانت كاترين وقمتى جبل سيناء.

(Sauneron [ed.] Voyage en Egypte de Pierre Belon, p. 127 a).

٨-٣ رهبان دير سانت كاترين يسحبون الزوار إلى أعلى بواسطة الآلة الرافعة.

(da Schio [introd.] Viaggio di Filippo Pigafetta, p. 61.

٨-٤ رسم تخطيطى لدير سانت كاترين.

(Description de L'Egypte, vol . II, Plate 103, 3).

٨-٥ الكنائس الصغيرة فى الطريق إلى قمة جبل سيناء.

(Bellorini and Hoade [ed. and trans.] Fra Niccoló of Poggibonsi, facing , p. 96).

٨-٦ صورة لكريستوف هارنت.

(Brejnik and Brejenik [ed. and trans]. Voyage de Christophe Harant, Facing, p. 2).

الفصل التاسع - مغامرات مع قافلة مكة :

٩-١ الجمل يحمل المحمل. **(E.W. Lane, Modern Egyptians, p. 445).**

٩-٢ الإنكشارى فى طريقه إلى الحرب.

(N.de Nicolay, les Navigations, Peregrinations et Voyages faictes en la Turquie ... fol . 137).

الفصل العاشر - إلى الجنوب :

١٠-١ قوس النصر فى أطلال أنتينوى (الشيخ عبادة).

(Description de L'Egypte, vol., IV, Plate 57).

١٠-٢ بوابات معبد الأقصر. **(David Roberts, A Journey in Egypt , p. 25).**

١٠-٣ أحد الكباش فوق قاعدته بطريق الكباش فى الأقصر.

(Description de L'Egypte, vol. III, Plate 46).

١٠-٤ مجموعة من النوبيين. **(David Roberts , A Journey in Egypt, p. 42).**

١٠-٥ بريسترچون مصوراً على أنه ملك الهند والحبشة.

(صورة الغلاف لقصيدة عن البيرستر چون كتبها :

چويليو داتى **Guilio Dati** (١٤٤٥-١٥٢٤م) أسقف كالابريا فلورنسا ، نهاية القرن الخامس عشر).

١٠-٦ بريستر چون الحاكم المسيحى الأسطورى للحبشة.

(Vecellio's Renaissance Costume Book, 410, p. 128).

قائمة المختصرات

- BSOAS Bulletin of the School of Oriental and African Studies.
- JARCE Journal of the American Research Center in Egypt.
- JBAA Journal of the British Archaeological Association.
- JEEH Journal of European Economic History.
- JESHO Journal of the Economic and Social History of the Orient JRAS Journal of the Royal Asiatic Society.
- JWCI Journal of the Warburg and Courtauld Institute.

تقـــديم

بابليون فى مصر . تشويش غريب فى اسم استخدمه حجاج العصور الوسطى إلى الأرض المقدسة . وفكرة وجود «بابليون» فى مصر حيث قذف «نبوخذ نصر» شدرخ وميشخ وعبدنغو فى الأتون الملتهب (دانيال : ٣-٢٠) كانت فكرة تتردد غالبًا فى كتابات الرحالة الأوائل من أوروبا. وهناك أسباب مختلفة لتفسير هذا الاعتقاد الطريف. وكان يبدو أنه منذ أيام نفى اليهود من بابل (٥٩٧-٥٣٨ ق.م) أنهم عاشوا على ضفاف النيل فى موقع ما يسمى الآن مصر القديمة. وفضلاً عن ذلك ، فإن استرابون (Geography, 17 .1. 36) تحدث عن «بابليون» باعتبارها قلعة عسكرية ، تأسست قبل الرومان على أيدى اللاجئين من بابل «بابليون» القديمة. وهكذا استمر الربط بين المكانين ، وعلى أية حال ، فقد كانت مصر فى عقلية العصور الوسطى دائمًا أرض العجائب؛ إذ كانت تروى عنها حكايات غاية فى الغرابة يصدقها السذّج يضخمها ما بقى من السحر والتخمين .

وعلى الرغم من أن قصص الصليبيين الذين حاربوا فى فلسطين وبلاد الشام موثقة جيدًا، فإن قصص الأوروبيين فى مصر والشرق الأدنى بعد سنة ١٢٠٠م حتى بداية القرن السابع عشر معروفة قليلاً ، بل إن المؤرخات المتاحة من تلك الفترة ، ترسم صورة كلية عن عادات المصريين وتقاليدهم، وأوصاف الريف، وحكايات عن مدينة القاهرة الخرافية ، حيث تظهر مشاهد من التنوع المدهش ؛ إذ تتكشف بالتدريج صورة عن أرض مصر العتيقة فى أواخر العصور الوسطى وبداية عصر النهضة فى هذه الحكايات ، ومع ظهور الحقائق الراسخة، تختفى «بابليون» نبوخذ نصر فى مصر تدريجيًا فى غياهب مملكة الفولكلور.

وعلى أية حال ، فإن فن حكى القصص، سواء بالحقيقة أو الخيال، ليس فنًا سهلاً . فقد رسم هوميروس الذى كتب فى القرن الثامن ق.م لوحة كانفاه . ومؤلفاه المعروفان للإنسانيين فى إيطاليا منذ أوائل القرن الرابع عشر الإلياذة والأوديسة، انتشرا بالتالى فى جميع أنحاء أوروبا. إذ حكى عن حرب طروادة التى استمرت عشر سنوات بتركيزها تمامًا على عدد قليل من الشخصيات ، ثم ترك شخصياته تحكى، ووصف ما فعلوه ، فقدم بذلك قصة لاتُنسى. وعلى خلاف بعض المؤرخين المحدثين ، قاوم هوميروس إغراء ربط حكايته وتقييدها برأيه الشخصى، وسمح لشخصياته أن تتحدث عن نفسها لكى يحقق أقصى تأثير. وفى محاولة وصف مصر وما جاورها ، وهى أرض لم تكن معروفة فى أوروبا كلها من نهاية القرن الثالث عشر إلى بداية القرن السابع عشر ، كانت طريقة هوميروس تحمل الكثير مما هو جدير بالثناء. ولكن لوحة الكانفاه محل السؤال أكثر اتساعًا، وتحتوى على شخصيات تفوق الحصر وصفت مغامراتها على مدى فترة زمنية تمتد ثلاثمائة سنة، ومن المصادر المطبوعة الباكرة غالبًا ما يصعب اختيار قصة رحّالة واحد وتفضيلها على قصة آخر. وبعضها تكرارى مبتذل ، ولكن البعض الآخر ينبض بالحياة والحيوية، بحيث يساعد السامعين على أن يتواصلوا مع آمال الكاتب ومخاوفه عندما يجدون أنفسهم فى بلد بعيد ينأى كثيرًا عن موطنهم . وفى هذا الكتاب آمل باصطحاب القارئ على طول الطرق التى سافروا عليها (ليس بالترتيب الزمنى حتمًا) أن يمكن تكشُّف منظر بانورامى لمصر فى العصور الوسطى وعصر النهضة .

كانت التجارة قائمة على الدوام بين المسلمين والأوروبيين (لاسيما المدن والدول الإيطالية) فى أثناء الحروب الصليبية ، ولكن حجم التجارة زاد زيادة كبيرة بعد أن طرد المماليك الجيوش الصليبية نهائيًا من الشريط الساحلى لفلسطين، واستولوا على عكا سنة ١٢٩١م ، وهى ميناء كانت بمثابة الملاذ الأخير للممالك الصليبية. وهناك تاجر بندقى بارز، هو مارينو سانودو Marino Sanudo (أو Sanuto) يُسمى تور سيللوس Toresellus (ويُعرف أيضًا باسم العجوز) كان قد زار فلسطين فى الفترة من ١٢٨٥ إلى ١٢٨٦م لكى يكتسب الخبرة مع الشركة التجارية لعائلته ، عندما كان عمره خمسة عشر عامًا ،

أو ستة عشر عامًا، وفيما بعد استخدم مارينو معرفته لكى يطوّر فكرة فرض عقوبات اقتصادية ضد سلطان مصر . وكتابه، الذى نُشر فى ثلاثة مجلدات ، حمل عنوان :

Secreta fidelium crucis Super Terrae Sanctae recuperatione.

كان مصحوبًا بعشر خرائط . وفى ذلك الحين، كما هو الحال الآن ، كانت الخرائط والأوصاف الطبوغرافية التى يمكن استخدامها للمعلومات العسكرية متاحة أمام المخابرات العسكرية . ومنذ سنة ١٣٠٥م، كان البابوات قد انتقلوا إلى أفينيون، وهناك فى سنة ١٣٢١م قدم مارينو مؤلفه إلى البابا چون الثانى والعشرين.

ومع توسُّع التجارة ، أعقب ذلك أن الجزء الأساسى من المسافرين إلى مصر كانوا هم التجار الذين أسسوا محطات لهم فى المنطقة العربية، كانت واحدة من أكثرها أهمية فى ميناء الإسكندرية. ومن بين عدة دول أوروبية كانت قد أرست محطات تجارية هناك بحلول القرن الرابع عشر ، كانت أبرزها جنوه (التى صارت لها اليد العليا على بيزا) ، والبندقية ، والقطلان، والفرنسيون . وعلى الرغم من أن أعداد المقيمين الأجانب كانت تختلف سنويًا، كان هناك ثمانون بندقيًا يقيمون بالمدينة بحلول سنة ١٤٨٠م، على الرغم من أنه فى سنة ١٤٨٣م، اعتبر راهب من الدومينيكان ، هو فليكس فابرى Felix Fabri ، من أولم Ulm أن الجماعة الچنوية هى الأكثر أهمية؛ فقد زار فندقهم وأعجب بجماله وسعة مساحته .

ومع نهاية القرن الرابع عشر ، كانت البندقية قد صارت فاحشة الثراء؛ إذ كانت هذه الجمهورية البحرية تمتلك ثلاثة آلاف وثلاثمائة سفينة، وتستخدم ستة وثلاثين ألف رجل من البحارة، وكان الدوكات(*) الذهبى البندقى الصادر سنة ١٢٨٤-١٢٨٥م مقبولاً بل ومفضلاً فى كل مكان شرق المتوسط. أما الچنوية ، الأعداء والمنافسون للبنادقة على مدى زمن طويل، فقد عرقلتهم المشاجرات التى كانت تنشب باستمرار بين العائلات

(*) الدوكات : عملة أصدرتها البندقية من معدنى الذهب والفضة ؛ أى كان هناك الدوكات الفضى والدوكات الذهبى. (المترجم)

الحاكمة السائدة . وفى سنة ١٣٨٠م، وبعد المعركة الشرسة التى جرت أمام ميناء شيوجيا Chioggia فى خور البندقية ، لحقت الهزيمة بأسطولهم على أيدى البنادقة تحت قيادة الأدميرال ڤيتور بيزانى Vettor Pisani الجسور ، والذى كان قد أطلق سراحه من السجن منذ فترة وجيزة (استجابة لمطلب شعبى) بقرار من مجلس الشيوخ البندقى. وبعد هذه الهزيمة، هبطت جنوة فى بطء إلى المكان الثانى. وفى سنة ١٤٢٤م كان لدى الجنوية ثلاث وستون سفينة كبيرة هى الباقية من أكثر من ألف قارب كبير bottes كانت لهم ، ولكن فى سنة ١٤٧٣م كان هذا العدد قد تضاءل إلى ثلاثة وعشرين فقط. وحتى منتصف القرن الخامس عشر، كانت جنوة بارزة فى تجارة الرقيق فى مدينة كافا Caffa العالمية على البحر الأسود، حتى داهمها خطر الأتراك ، فاتجه الجنويون إلى استخدام خيوس Chios مركزًا للعمليات . وفى كافا كان التجار الإيطاليون يجلبون التتار والجراكسة والروس إما أسرى حرب أو من الحملات التأديبية ، وكذلك الأطفال الذين كان آباؤهم يبيعونهم إلى وكلاء السلاطين المصريين. هذه البضاعة البشرية كان يتم تسويقها جنبًا إلى جنب مع فراء الثعالب السوداء وفراء السمور، والقبعات التترية المصنوعة من الصوف والجلد، وكميات من الشمع والعسل .

وسرعان ما بات التجار البنادقة الذين اتسموا بالمرونة يتمتعون بالكثير من الامتيازات على غيرهم من الدول الأخرى ممن يعملون فى شرق المتوسط. وقد انبثقت مثل هذه الامتيازات من التشريع الصادر عن مجلس الشيوخ القوى الذى كان شديد الاهتمام بتحسين التجارة المشتركة والثروة المشتركة. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك شرط وجود أساطيل قوية مملوكة للدولة من السفن التى كانت تُصنع بسرعة شديدة وفق نموذج عام فى دار صناعة السفن، على الرغم من أن الجمهورية حافظت على احتكار كل الطرق البحرية التى تدرُّ أكبر قدر من الأرباح. وتحسنت التجارة أكثر بفضل شبكة من محطات التجارة التى كانت قد أقيمت على امتداد سواحل البحر الإدرياتى. وبالإضافة إلى ذلك ، كانت البندقية قد حصلت على بعض الجزر والموانئ الاستراتيجية اليونانية ، والتى كانت قد سقطت بأيدى البنادقة بعد انتهاكم القاسى للقسطنطينية فى أثناء الحملة الصليبية الرابعة تحت قيادة الدوج المسن إنريكو داندولو Enrico Dandolo .

كانت هذه الممتلكات البيزنطية السابقة قد استعمرتها عائلات بندقية ثرية، كانت غالبًا من الملاك الغائبين، كان ماركو سانودو (والد مارينو سانودو) ، الذى تبع إنريكو داندولو فى الحملة الصليبية الرابعة، قد استحوذ على جزيرة ناكسوس **Naxos** ، واتخذ لقب «دوق» ذا الرنة المظهرية. وفى القرن السادس عشر ، على أية حال، كان الأتراك يحتجون على مثل هذه الحالات من الاستحواذ.

وقد أصدر السيرنيسيما **Serenissima** (حكومة البندقية) مرسومًا يقضى بأنه يجب على جميع البنادقة أن يحتفظوا بسجلات دقيقة لعمليات التبادل ، حتى يمكن فرض الضرائب المناسبة للدفع مقابل ملكية الدولة المتزايدة ، وعلى الرغم من أن نظام القيد المزدوج فى حفظ الدفاتر الحسابية كان قد استخدم على أيدى الصيارفة الچنوية منذ سنة ١٣٤٠م ثم تبعهم بعد ذلك بسرعة صيارفة فلورنسا ، فإن البنادقة لم يتخلفوا كثيرًا فى هذا المجال. وعلى أية حال ، فإن دفاترهم الحسابية توضح أنهم استخدموا تنويعة من الممارسات المحاسبية التجارية . ومن خلال دراسة مثل هذه السجلات يمكن للمؤرخين أن يحصلوا على معلومات من الدرجة الأولى عن الحجم الكبير ونوعية التجارة المربحة التى كان ينقلها التجار البنادقة الذين يعملون فى مصر والشام. وقد ألقى التجار الفلورنسيون الذين اهتموا بالاحتفاظ بدفاتر السجلات **libri di ricordanze** ، التى يسجلون بها شئون أعمالهم.

وفى مكان الاجتماع بالأسواق الدولية فى الريالتو (السوق المركزى) البندقى **Venetian Rialto** كان يمكن للتجار تبادل الأخبار مع مواطنيهم، وكذلك مع التجار القادمين من أماكن أخرى فى أوروبا. فقد كانت لهم بالفعل علاقات مع روابط الألمان وغيرهم من تجار شمال أوروبا الذين كانوا يقيمون فى الفندق الفخم المسمى **Fondaco dei tedeschi**، على حين كان الفندق المجاور، فندق الأتراك **Fondaco dei Turchi** يستقبل التجار القادمين من الإمبراطورية العثمانية . وحول السوق المركزى (الريالتو) كانت المحلات تغصُّ بالبضائع الفاخرة من كل مكان بالعالم وسط رطانة باللغات الأجنبية . وأنطونيو تاجر البندقية ، (الذى صوره شكسبير فى مسرحيته بالاسم نفسه) ، لاحظ بحق عن البندقية أن «التجارة والربح فى هذه المدينة / يتكون من جميع الأمم» .

وفضلاً عن ذلك كان يمكن للبنادقة أن يمارسوا أعمالهم بثقة، وأن يعقدوا الصفقات مع ضمان أن المحاكم فى البندقية سوف تفرضها. وفى مصر كانوا يشترون التوابل، والبوتاس، والسكر (وكانت أقصاب السكر الوردية والبنفسجية من الإسكندرية ذات طعم شهى خاص) أما الحرائر الشرقية ، والمنسوجات ، والصينى، والمجوهرات (ولاسيما اللؤلؤ) ، فكانت ترد مع البضائع الواردة من الموانئ الأخرى فى شرق المتوسط . وكان يتم تخطيط نقل مثل هذه البضائع إلى أسواق الشمال باعتبارها عمليات سلمية يتم القيام بها وفقًا لشروط المعاهدات التجارية التى عقدتها الجمهورية ، التى كانت تضمن أن تدابير معينة قد اتخذت لحماية البضاعة فى أعالى البحار. وفى المراكز التجارية فى غنت ، وآراس، وكامبرى وأسواق بروج ، كان المشترون يأتون من إنجلترا وشمال فرنسا. وكانت العصبة الهانزية للتجار (ترأسها لوبيك Lübeck) تستورد مواد الرفاهية الشرقية ، ومن بينها القطيفة الثمينة، والحرير الدمشقى واللؤلؤ من أجل الأثرياء فى مدن الشمال . أما البضائع كبيرة الحجم، مثل الصابون والحبوب، فكان الأرخص نقلها بحرًا .

ومع استيراد التوابل كانت النتيجة تحسنًا هائلاً فى حفظ الطعام فى العصور الوسطى. ولم تكن التوابل تُعتبر صحية ومفيدة فحسب ، وإنما كانت تستخدم أيضًا لإخفاء الطعم المثير للشكوك فى اللحوم والأسماك التى مضى عليها وقت طويل. وفى الاستخدام اليومى بالمطبخ الإيطالى كانت هناك صلصة معروفة باسم Savore Sanguino ، أى ثرية وحمراء ، غالبًا ما كانت تجلب جاهزة لحوانيت العقاقير ، وتتكون من الزبيب الأرجوانى المطحون ، والقرفة، والصندل والسماق (يستخدم الآن فى الدباغة والصباغة فقط). وكانت هناك أنواع أخرى من الصلصلة من ضمنها البيفيراتا Peverata ، وهى خليط من اللحم والسمك والفلفل ، والقرفة ، وجوزة الطيب ، وصلصة الكاميللينا Camellina ، وهى صلصة بيضاء تتكون من خليط من السكر ، والقرفة، والقرنفل والخبز والخل. وفى إنجلترا كانت الكعكة المعروفة باسم "grete pie" أو التورتة "torta" لاتعتبر كاملة إذا أحضرت إلى المائدة يفوح منها البخار بدون ما يُضاف إليها من التوابل التى تستخدم بكثرة . أما الفواكه المسكرة المجمدة المصنوعة من القرفة ، وجوزة الطيب، والزنجبيل ، واليانسون، والسُعد ، فكانت مأخوذة عن العادات الشرقية، وكانت تُقدَّم

إلى الضيوف (نبات السُّعد gelinga كان جذوراً صينية مُرَّة يُؤتى بها من الإسكندرية، وتُستخدم بسبب خصائصها التى تبعث الحرارة فى الجسم) . وفى البندقية كان الصيادلة (العطارون) الذين تمتعوا بالمكانة نفسها التى تمتع بها الأطباء يحتفظون بأشربتهم الطبية وعقاقيرهم فى آنية من الخزف الإيطالى magolica والقصدير ذات الرقة البالغة لكى يجذبوا ربات البيوت إلى الدخول فى محلاتهم، التى تفوح منها روائح مثيرة للعطور الشرقية الغريبة.

وبالمقارنة مع العصور الحديثة كانت الاتصالات بين البلدان بطيئة ؛ حيث لم يكن هناك سوى قدر ضئيل من الخدمة البريدية بين مراكز التجارة الأوروبية، وكانت الأوقات التى يستغرقها وصول الخطابات تختلف تبعًا لاختلاف فصول السنة ما بين الشتاء والصيف، وفى عام ١٤٤٠م على سبيل المثال ، كان البريد بين البندقية وبروج فى الفترة من مارس إلى يونية يستغرق فى المتوسط ما بين عشرين إلى تسعة وعشرين يومًا، وبخلاف ذلك كان يتم استخدام حاملى الرسائل بين البيوت التجارية الكبيرة لحمل الطرود الصغيرة والخطابات. وبشكل عام كانت الطرق تبعث على الأسى والرثاء؛ لأن الطرق السريعة الرومانية القديمة كانت قد تدهورت وغطتها الحفر والقذارة (على الرغم من أنه كان هناك قدر من التحسُّن فى النصف الأخير من القرن الرابع عشر) . وكان التجار يفضلون السفر فى قوافل؛ إذ كان الأمر يتطلب حوالى سبعين دابة لحمل ما يعادل حمولة شاحنة طاقتها سبعون طنًا. وكان ما تقطعه القافلة الراكبة يتراوح ما بين عشرين إلى خمسة وعشرين ميلاً فى اليوم.

وعلى الرغم من بطء النقل، صارت الحركة والقدرة على التأقلم مع الظروف المتغيرة عاملاً رئيسيًا يؤثر على ازدهار الشركات الأرستقراطية البندقية الثرية ، وعندما سنحت الفرصة ، أمكنهم تحويل رأسمالهم بسرعة حسب رغبتهم، أولاً فى البضائع الغربية، ثم فى أسواق شرق المتوسط، اعتماداً على الموقف السياسى والتجارى فى أية لحظة ملائمة . وكان مشترو القطن الألمان من أولم ، وفرانكفورت ، وأوجسبرج ، وبائعو القطن من الشام، وموردو الصوف الإنجليزى، غير قادرين على التأقلم بسرعة مثل البنادقة، الذين كان موقعهم الجغرافى الاستراتيجى فى صالحهم إلى درجة كبيرة .

كذلك كان يتم تشجيع الأعمال بواسطة الشروط التى يضعها مجلس الشيوخ فيما يتعلق بالملاحة البندقية ؛ بحيث إن شركات العائلات الكبيرة، شأنهم شأن صغار التجار، كانوا يتمتعون بالامتيازات والحقوق من الرحلات التى كانت تنظمها الدولة. وكانت الترتيبات العادية تقضى برحيل قافلتين بحريتين سنويًا، تتكون من السفن الكبيرة ذات المجاذيف والمسلحة إلى الإسكندرية وشرق المتوسط، إحداهما فى الربيع والثانية فى الخريف . وكانت تُعرف باسم muda ، (ربما تحريف عن المدة)، وهو مصطلح ينطوى على عدة معانٍ؛ ففى بعض الأحيان كان يشير إلى الأسطول الفعلى، وفى أحيان أخرى كان يعنى وقتًا محددًا تحرم بعده السفن من التحميل ، وأحيانًا يشير إلى أعمال البحر. وكان التجار يحدون من المخاطر عن طريق التأمين ضد العواصف، والأخطار الطبيعية وحتى القرصنة – وبالتالى فإن البضائع التى كانت تُنقل فى السفن الكبيرة المسلحة المملوكة للبندقية كانت تجتذب التأمين الأكثر انخفاضًا . ومن بين جميع الأراضى الواقعة وراء البحر الأدرياتى، كانت البلاد التى يحكمها المماليك أكبر أسواق الصادرات البندقية من الأصواف الإنجليزية والفلمنكية ، والزعفران ، والقماش المقصَّب، والساتان، والمخمل، والفراء من روسيا، والزجاج الشهير من مورانو، وفضلاً عن ذلك ، وعلى الرغم من الحروب مع الأتراك فى القرن السادس عشر، فإن التجارة مع الإمبراطورية العثمانية لم تتوقف .

وإذا كانت القوة البحرية للبندقية قد حكمت تجارة التوابل الشرقية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فإن الصيارفة الأقوياء من آل ميديتشى فى فلورنسا لم يتوانوا عن نشر استطلاعاتهم هنا وهناك من أجل الحصول على نصيب لهم فى الأسواق الشرقية. ففى عام ١٤٢٢م ساعدهم نفوذهم وثرواتهم على الإشراف على تدوير حوالى مليونى فلورين(*). وفى القرن الخامس عشر، وبعد أن كان الفلورنسيون قد حصلوا على موانئ بيزا وليفورن، دشنوا سفنًا مسلحة بنوها لأنفسهم لكى تبحر إلى مصر. واشتهرت فلورنسا ، ولوكا ، وميلانو، بأنها مراكز لتجارة الحرير، وزادت صناعة الملابس لديهم من حجم الصادرات لكسوة رجال البلاط الأثرياء فى البلاط المملوكى.

(*) عملة فلورنسا التى كانت تنافس الدوكات البندقى. (المترجم)

وكان سلاطين المماليك ، الذين حكموا بوصفهم شرقيين في مصر والشام وفلسطين حتى هزيمتهم على أيدى العثمانيين الأتراك سنة ١٥١٧م ، يجمعون عوائد ضخمة من التجارة المارة من الهند والشرق الأقصى إلى أوروبا. وعلى الرغم من أنهم غالبًا ما كانوا يراعون الحفاظ على موقف متصلب وعنيد من التجار الأوروبيين، فإن الضرائب التى كانوا يأخذونها عن هذه التجارة الغنية قد ساعدتهم على دعم خزائنهم المستنزفة بحكم العادة. كذلك فإنهم كانوا يشترون الأخشاب والحديد والفضة والبضائع التى كانوا يحتاجون إليها لصناعة الأسلحة والسفن والعملات ومعدات الخيول الحربية . وعلى أية حال كانت تحدث انقلابًا فى العلاقات التجارية ، عندما يصير أحد الطرفين جشعًا أكثر مما ينبغى . وقد نشب مثل هذا الخلاف ذات مرة سنة ١٤٣٠م بين البندقية ، ومعها دول أوروبية أخرى، والسلطان الجركسى الأشرف برسباى (حكم من ١٤٢٢م إلى ١٤٣٧م) عندما قرر السلطان بسبب نقص موارده المالية أن يحتكر تجارة السكر والتوابل . فقد أصدر مرسومًا يقضى بأنه يجب على طائفة تجار الكارمية ، وهم يمثلون شركة قوية من التجار العرب كانت تربطهم شبكة علاقات محكمة ، وكانوا بحكم العادة هم المتعاملين فى توريد التوابل من الهند، واليمن، وجنوب شبه الجزيرة العربية، ويبيعونها فى الأسواق المصرية – كان مرسوم برسباى يقضى بأن يبيع الكارمية بضائعهم إليه وحده . ولما كان الكارمية متمركزين فى مصر وفى اليمن، وكانوا قد بدأوا التجارة سنة ١١٨١م ، فقد كانوا قد مدوا نطاق شبكاتهم التجارية حتى الصين، وآسيا ، وسمرقند، وهرمز، والسنغال . ولأنهم كانوا يحققون ثروة طائلة ، فقد كانوا قد قدموا هدايا هائلة إلى سلاطين مصر، بل إنهم كانوا قد أقرضوهم مبالغ ضخمة لصد هجمات المغول. وعلى الرغم من هذه الفوائد، أحس برسباى أنه سيكون من صالحه أن تكون له السيطرة الوحيدة ؛ بحيث يمكنه بالتالى أن يعهد بمبلغ يتم استثماره على نطاق واسع إلى كل الدول الأجنبية ، وليس فقط للبنادقة الذين كانوا هم أكبر المشترين، ولاشك فى أنه أفاد من عنصر المفاجأة، وحقيقة أن الاتصالات كانت بطيئة ، فنجح فى البداية فى بيع التوابل بأسعار ملتهبة . وهكذا تشجع على مد ممارسته هذه إلى تجارة القطن فى بلاد الشام.

كانت حركة النزول بالكارمية من مستوى العمل باعتبارهم تجاراً متنفذين إلى وضع الموظفين فحسب ، حركة قصيرة النظر. ورداً على هذا، ووسط أجواء من السخط المبرر، منع مجلس الشيوخ البندقى جميع الصادرات إلى مصر من العملات والسبائك وغيرها من الموارد التى كانت البلاد فى حاجة إليها، وتم إيقاف شراء التوابل ، على الرغم من أن ذلك كان مؤلماً للبنادقة . وبعد مفاوضات مطولة ، تم التغلب على الصعوبات السياسية، وأعيد إحياء التجارة، مما سبب راحة للجميع . وقد نقل الأسطول الكبير الذى غادر البندقية قاصداً بيروت والإسكندرية فى يوليو ١٤٣٣م مائة وخمسين تاجراً ، وأربعمائة وستين ألف دوكات نقداً، وإذا أضفنا إلى هذه السفن المعروفة باسم Cocce ، وهى سفن التجار المستديرة ، والتى كانت تحمل الزيوت والعسل والفواكه ، فإن القيمة الكلية لهذه الصادرات تكون قد وصلت إلى ما يقرب من مليون دوكات ، ولم يكن ممكناً لسلاطين المماليك أن يتجاهلوا مدى ما وصلت إليه قوة البندقية وثروتها فى القرن الخامس عشر .

وإلى جانب الأعداد الكبيرة من التجار المغامرين الذى سعوا وراء حظوظهم فوق مياه البحار، جاء الحجاج من كل حدب وصوب لزيارة المقامات المقدسة والأماكن المقدسة فى فلسطين ومصر. وقد شجعتهم الكنيسة على الرحيل ، ومنحتهم الغفران الذى يتم اكتسابه عند كل مزار أو مكان أشار إليه الكتاب المقدس. وكان القساوسة يباركون أولئك الراحلين وهم يرتدون ملابس الحج. وحتى لو كان الأمر يستغرق شهوراً للوصول إلى هناك ، فإن الحج صار نوعًا من المغامرة أثناء الإجازة ، بعيداً عن النظام المتكرر يوميًا ، وكانت الأوصاف الحماسية لرحلات الحجاج فى شكل كتب مصورة عن الرحلات لتثقيف أولئك الذين لم يغادروا الوطن؛ إذ كان يتم توضيح الجولات التى قاموا بها فى مصر وسيناء فى هذه الكتب المصورة لتكون بمثابة دليل للمسافرين ، وهو شىء كان بمثابة الشكل الأولى لكتيبات السفر والسياحة الحديثة.

وكانت هناك أيضًا رحلات تبشيرية قليلة يقوم بها حفنة من الرهبان الذين كانوا، بالضرورة، يتم توجيههم عبر مصر إلى إمبراطور الحبشة ، التى كانت على الرغم من كونها بلداً مسيحيًا قديمًا ، محل نظرة من كنيسة روما ترى فيها بلاداً مهرطقة، وتحتاج إلى التصحيح.

وكان المسلمون أنفسهم يعتبرون فى معظمهم غير قابلين للتعليم. وبعض مغامرات المبشرين المطولة والخطرة وردت فى هذا الكتاب بين روايات التيار الرئيسى من المسافرين إلى مصر حتى على الرغم من أنها قد تُعتبر شيئًا من قبيل الاستطراد .

وفى أعقاب ظهور الدراسات الكلاسيكية ، التى كانت بمثابة حافز للإنسانيين فى النهضة الإيطالية، جاء عدد قليل من المسافرين المتعلمين فى القرن السادس عشر، ممن كانوا قد قرأوا عن مصر فى المؤلفات التى كانت قد تُرجمت منذ زمن قريب لهردوت ، وثيوفراستوس، وديودوروس الصقلى، وبلينى، واسترابون ، إلى البلاد لكى يدرسوا نباتاتها الجديدة وحيواناتها. وقد نشر بيير بيلون دومانس Pierre Belon du Mans ، وهو طبيب من باريس، عدة دراسات عن التاريخ الطبيعى عند عودته إلى وطنه، مثلما فعل بروسبيرو ألبينى Prospero Alpini ، وهو عالم فى الطبيعة من بادوا، وقد رسم كل منهما لوحات تفصيلية لتوضيح أعمالهما .

وبالنسبة للقارئ العام فى أدب الرحلات ، تبدو معظم المؤرخات الأوروبية حتى القرن الثالث عشر متكلفة مصطنعة، بها عدد محدود من المفردات اللغوية، تتكرر فيها الكلمات نفسها بصورة رتيبة . وبعض هذه المؤرخات كتبت فى لاتينية العصور الوسطى، على حين كتب البعض الآخر فى إحدى اللغات المحلية البازغة لبلد بعينه ، ومهما كانوا واسعى الحيلة، ومهما كانوا شجعانًا ، فلم يكن كل الرحالة يعرفون كيف يحكون حكاية جيدة . وبينما كانت الحروب الصليبية تقترب من نهايتها ، هناك استثناءات بين المؤرخات المتكلفة فى تلك الفترة، وقد تم إعداد كل منهما بمساعدة معاون . فكتاب «رحلات ماركو بولو» الذى صار معروفًا للعامة عند نهاية القرن الثالث عشر بعنوان «وصف العالم Divisamont dou Monde» لم يكن ليستولى على خيال القراء لو لم يكن ماركو بولو قد تعاون مع روستيشيللو البيزى Rustichello of Pisa ، الذى كان كاتب روايات شهيرًا. وقد صار مؤلفهما المشترك من أشهر كتب الرحلات فى العالم، على الرغم من أن مصداقيته قد تكون محل تساؤل فى بعض المواضع .

أما البارون چان دى چوانفيل Baron Jean de Joinville ، كاتب سيرة حياة لويس التاسع ملك فرنسا (حكم من ١٢٢٦ إلى ١٢٧٠م) ، فقد كرَّس عمله داخل إطار

الحادثة عندما كان فى الثمانين من عمره . وفى هذا الشكل، صار حكى القصة أقل قيودًا؛ فقد كان بعض الفرسان الصليبيين فى الحقيقة أميين تقريبًا . لقد كان هدفه الأساسى أن يُبرز فضائل صديقه الملك لويس ، وأن يحكى عن المعركة الكارثة التى جرت فى المنصورة قرب دمياط فى أثناء الحملة الصليبية السابعة يوم ٥ فبراير بسنة ١٢٥٠م . بيد أن چان كان واحدًا من الرحالة القلائل فى ذلك الوقت الذين قادهم فضولهم إلى ملاحظة أمور تخرج عن نطاق الكتاب نفسه. فقد تحدث عن تكوين جيش المسلمين فى مصر، والحرس السلطانى الخاص، والمغنيين والموسيقيين الخاصين بالسلطان، والذين كانت أدواتهم الرئيسية الأبواق والطبول وأنواعًا من الدفوف . وقد رسم صورة توضيحية لمعسكر العدو، الذى كان يحيط به سور من التعريشات الخشبية، والذى كان الجانب الخارجى منه مغطى بالقماش الأزرق. وقد وصف الاغتيال الرهيب للسلطان الشاب المعظم توران شاه على أيدى أمرائه . وكان مهتمًا بعادات البدو من أهل البلاد، الذين كانوا يلبسون عباءات كبيرة من الصوف تغطى أجسادهم كلها. وفى الجو الردىء كان الرجال يسكنون خدمهم وزوجاتهم وأطفالهم فى نوع من الخيام مصنوعة من طوق من البراميل المربوطة فى أعمدة، وهو شيء أشبه بمحفات النساء، وكانوا يغطونها بجلود الماشية المعالجة بالنشادر.

وقد أدى نمو التجارة ، فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، إلى ظهور مناقشات دبلوماسية كثيرة بين المسلمين والفرنج (حسبما كان المسلمون يُعرِّفون الأوروبيين جميعًا) ، بحيث صارت اللغة ذات أهمية فائقة . فمع نهاية القرن الثالث عشر كان هناك بعض العلماء الأوروبيين يدرسون اللغة العربية بالفعل . وقد تجمع المسيحيون من بلاد كثيرة فى إسبانيا لكى يدرسوا سويًا على أيدى مدرسين يهود من الناطقين بالعربية ، وترجموا الكتب من العربية إلى اللاتينية . وقد بات جزء كبير من التراث الإغريقى معروفًا للغرب باللغة العربية من خلال الترجمات التى كانت متوفرة فى إسبانيا، ومن بين الطلبة العالميين الذين اجتمعوا فى هذا البلد كان چيرارد الكريمونى، من إيطاليا ، وهيرومان الدلماشى من ألمانيا، وأبيلارد الباثى، وميخائيل سكوت ، وكانت أول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللاتينية هى التى قام بها روبرت الشسترى وهيرمان

الدلـاشـى من أجل بيتـر مقدم دير كلونى. أمـا الراهب الدومـينيكانى ، وليـم الصـورى، الذى فوضـه البابا جـريجورى التـاسـع مصـاحـبـة مـاركو بولو ليكون مـبشـراً فى بلاط قوبيلاى خان، فكان عـالمـًا شـهيرًا فى الدراسات العربية ، ومنذ القرن السـادس عشر فصـاعدًا، كانت المطابع الأوروبية تنتج طبعات من الكتب العربيـة ، وفى سنة ١٥٣٩م ظهرت أول دراسة لاتينية عن الأجرومية العربية، وقد جمع الفيلسوف والطبيب وعـالم الطبيـعـة العربى النابه ابن سـينا (٩٨٠-١٠٣٧م) دائرة مـعـارف طبيـة هائلة، وتمت ترجمتها إلى اللاتينية على يد جيرارد الكريمونى فى القرن الثالث عشر ، وظل الكتاب المصدر للدراسات الطبية الأوروبية على مدى عدة قرون بعد ذلك.

ويبدو ، على أية حال، أن المسلمين لم يكونوا مضطرين إلى تعلم اللغات الإفرنجية وربما يكونون قد شعروا بأنهم أبعد مما يجب ، ومع بعض الاستثناءات اللافتة للنظر لم يكن مـعظم الأوروبيين الزائرين لمصر يتحدثون العربية. وكان الحكام المماليك أنفسـهم من الناطقين بالـتركية، وبذلك اختلفـوا عن السكان الأصـليين. وكـادت الأعـمـال كلها أن تُدار على الأرض المصرية من خـلال التراجمـة الذين كـانوا غـالبًا من المسيـحـيين الذين اعتنقوا الإسـلام أو من المسـيـحـيين المحليين الذين يشـغلون وظائف مربحـة. وبصـفـة خاصـة، عندما كان يتم إرسال سـفارات أوروبية مـهمة إلىٰ بلاط السلطان للتفاوض على اتفـاقيـات التـجارة ومسـائل السـيـاسـة الخـارجيـة ، كـان الحـديث يجـرى دائمـًا من خـلال مترجم . وهنـاك جـانب اهتم به المسلمون فى العـلاقات الغربية أشـار إليه كتاب «خـلاصة التجـارب»، الذى ألفه طبيب فـارسـى مجـهول فى بداية القرن السـادس عشر ، وفيـه كتب عن مـرض جديد وصفه بأنه يشـبـه «القُرحـة الأرمنيـة» أو «الزهرى الأفرنجى». وزعم أن أصل هذا المرض مـن أوروبا ، وفـيـمـا بعد عُـرف فى جـمـيـع أنحـاء العـالم المسلم باسم المرض الإفرنجى، ومن الواضح أنه مرض الزهرى .

وكـان التـجـار الأوروبيون فى غـالبـيتـهم يعـيشـون فى جـمـاعـات منعزلة فى البـلاد المسلمـة بالشـرق الأدنى، ولم يتـفـاعلوا عمـومـًا بدرجـة كـبيـرة مع الأهـالى. وفـيـمـا عدا التجـارة ، كـانت المعـامـلات مع الأوروبيين غير مرغوبة فى غـالب الأحيـان. أمـا اليـهود

الذين كان عددهم كبيرًا فى الجمارك بمصر المملوكية(*) ، وبعد سنة ١٥١٧م تحت الحكم العثمانى، فكانوا أيضًا يشغلون وظائف عليا فى البلاط وفى الدوائر الدبلوماسية . كما أن شبكتهم التجارية الواسعة فى الشرق الأوسط ومعرفتهم مختلف اللغات الأوروبية جعلهم فى وضع طيب، وغالبًا ما كانوا محل كراهية الزوار الأوروبيين الوافدين إلى مصر ، والذين استاءوا من سلطتهم ونفوذهم الظاهرين .

وباتت روايات الرحالة أكثر عددًا فى القرن السادس عشر ، عندما تدفق الأوروبيون بأعداد أكبر إلى مصر وما جاورها، ومع المزيد من توسع التجارة والنشاط التبشيرى جاء البحث عن أراضٍ جديدة لإيجاد أسواق واسعة ، والأوصاف التى كتبها الرحالة عن رحلاتهم تعززت تدريجيًا بتطور اللغات والمفردات فى اللهجات المحلية الدارجة. ومع دراسة الكُتَّاب الكلاسيكيين ونشر المعلومات الجديدة عن الأقاليم الجغرافية التى لم تكن معروفة حتى ذلك الحين، بزغ فجر أدب الرحلات، الذى جمع الزخم اللازم له فى القرون التالية. هذه المؤلفات الباكرة (التى كان ينسخها الآخرون بين الحين والحين، ممن وجدوا أن الطريق أصعب عليهم من أن يجتازوه) كانت تتدعم أحيانًا بخرائط مصورة أو برسوم توضيحية محفورة على الخشب ، وكانت تتم قراءتها بمزيد من الاهتمام فى الوطن بأوروبا، وحظيت بعض الكتب بعدة طبعات.

وحتى القرن السابع عشر، وعلى الرغم من أنه كان هناك اهتمام مطرد بالتاريخ القديم، لم يحدث أن أبحر أحد إلى مصر لمجرد المتعة أو بدافع الرغبة فى مشاهدة المبانى العتيقة وحدها؛ إذ لم يكن الرحالة يذهبون هناك مثلما فعل الأثريون فيما بعد ، والذين كانوا يحفرون الأرض بغرض الدراسة الأثرية، على الرغم من أنهم لو صادفوا قطعة فنية قديمة خاصة أو مومياء تستولى على ألبابهم أثناء حفرياتهم الاستكشافية ، فإنهم لم يكونوا يترددون فى أن يأخذوها معهم عند عودتهم إلى أوطانهم.

(*) هذا الكلام فيه مبالغة لا تساندها المصادر التاريخية ، بما فيها وثائق الجنيزا، والحقيقة أن أعداد اليهود فى الجهاز الإدارى والمالى المملوكى تقلصت كثيرًا بعد أن اقتصر العمل على المسلمين والمسيحيين المصريين الذين توارثوا الخبرة المالية. ولست أدرى لماذا يصرُّ الباحثون الأوروبيون والأمريكيون المعاصرون على «اليهود» فى أى شىء دونما مبرر علمى أو منطقى . (المترجم)

كانت لدى الرحالة الأوروبيين المسافرين إلى مصر فى العصور الوسطى فكرة ضبابية فقط عن تاريخ سلاطين المماليك ، على الرغم من أنه يحتمل أنهم قد عرفوا اسم الحاكم الجالس على العرش، وربما عرفوا أسماء أسلافه المباشرين . وعلى أية حال ، فإن القراء الحديثين يمكنهم الاطلاع على المؤرخات الإسلامية التى كتبها أمثال المقريزى (١٣٤٦-١٤٤٢م) وابن تغرى بردى (ت ١٤٧٤م) وآخر مؤرخى سلطنة المماليك ابن إياس (١٤٤٨-١٥٥٤م) الذى شهد الغزو العثمانى لمصر بسنة ١٥١٧م وسجله . وبعض الحقائق العشوائية التى أدركها الموكب المتفاوت للحجاج والتجار الأوروبيين يمكن فى أغلب الأحيان أن تتوافق مع سياق التواريخ العربية أواخر العصور الوسطى.

وبينما كان الأوروبيون الجسورون الذين تدفقوا إلى الشرق الأدنى فى هذه الفترة قد رسموا صورة قيمة للحياة فى مصر، التى لم يكن معروفًا عنها سوى القليل حتى ذلك الحين ؛ لأن الحماسة التى شهدها منتصف القرن العشرين لهذه البلاد، وخاصة بسبب الفراعنة الغامضين والهالة التى تحيط بكنوزهم الذهبية الوافرة ، قد وصلت إلى نسب هائلة . وبسبب تنظيم الرحلات كبيرة العدد، فإن فيضًا من السياح المحدثين قد غمروا العصور القديمة بموجات متزايدة باستمرار. فالقاهرة المدينة التى وصفها الرحالة الأوائل بقدر كبير من الخيال ، والذين وجد كثير منهم أن المدينة تتفوق على مدينتهم ، سرعان ما غطاها بحر من المشكلات المجهولة وغبار التلوث وزئير حركة المرور. ولكن السياح وحدهم مع القدر اليسير من الخيال، والذين يتجولون بعيدًا عن الرحلات الموجودة بحوزتهم يمكنهم أن يجدوا لمحات من بيت يعود إلى العصور الوسطى، تم إنقاذه من براثن البولدوزر، وأعيد بناؤه بحب. والسقف ذو العقود فى أحد البازارات شاهد على أصله الباكر، على حين أن البوابتين القديمتين ، باب النصر وباب الفتوح فى السور ذى الشرفات يحدد الحدود الشمالية القديمة للقاهرة ، على الرغم من أنهما فى حالة مزرية ، فما زالا مستخدمين . وإلى جنوب المدينة فى القاهرة القديمة ، ما زالت بعض الكنائس التى وصفها رحالة العصور الوسطى شاخصة أمام الأبصار. وعلى الرغم من أن ظاهرة ارتفاع فيضان النيل صيفًا لم تعد تلفت النظر، كما أن

التماسيح وأفراس النهر لاتعترض مجرى السفن النيلية ، فإن الطيور المرسومة على حوائط المقابر المنسوبة للنبلاء الفراعنة ، والتى وصفها الكُتَّاب الكلاسيكيون لا تزال تحوم فوق أدغال البوص على امتداد ضفتى النهر. وعلى الرغم من التغيرات الحضرية وما دون الحضرية التى حدثت بسرعة ، تبقى الرحلة على صفحة النهر تشبه إلى حد كبير الوصف الذى كتبه الرحالة الأوائل بهذا القدر من البهجة .

الهوامش

البراميل Bottes مقياس لحمولة السفن حتى القرن الخامس عشر على الأقل

Venetian trading networks : F.C. Lane , Andrea Barbarigo, Merchant of Venice.

يتضمن هذا الكتاب تقريرًا مفصلاً عن الأنشطة التجارية واسعة الانتشار لعائلة من التجار البنادقة ، انتشرت مجسماتهم فى جميع أنحاء أوروبا والشرق الأوسط.

(حساب القيمة المزدوجة فى مسك الدفاتر ص١٩ -ص٢٠ ، مميزات البندقية بوصفها مركزًا تجاريًا ص٤٦ ، تنظيم السناتو ص٤٧-٥١ ، توزيع التوابل فى شمال أوروبا ص٥٤-٥٦ ، النزاع حول تجارة التوابل بين مصر والبندقية ص٥٢-٥٣ ، استئناف التجارة سنة ١٤٣٢م ص٧٦-٧٧) .

Baron Jean de Joinville: Shaw (ed. and trans). Joinville and Villehardouin, Chronicles of the Crusades.

المعسكر فى مصر ص٢٠١-٢٦٤ .

الفصل الأول

حكام مصر المماليك

حتى إذا كانت نيران الحروب الصليبية المتقطعة قد خمدت فى معظمها بنهاية القرن الثالث عشر، فإن الجمرات المتوهجة كانت تثور من حين إلى آخر عندما تنبعث فيها الحياة من جراء العداوة المتبادلة ؛ ذلك أن الروايات العربية والأوروبية للحروب الصليبية اختلفت؛ لأن الآراء على كلا الجانبين كانت تضرب بجذورها فى الجهل والشك. فقد اعتبر عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) فيلسوف التاريخ العربى الكبير، أن الفرنج برابرة عاشوا دون أن يفيدوا من ضوء الشمس الساطعة فى العالم الإسلامى ؛ فالناس أغبياء فى الفهم، وألسنتهم ثقيلة. وقد وُلد ابن خلدون فى تونس، وذهب إلى القاهرة سنة ١٣٨٢م ، وصار قاضى القضاة . وعلى الرغم من أنه كان قد سمع شائعات عن أن الطلاب كانوا كثيرين فى روما وشمال البحر المتوسط، وأن الفنون والعلوم ازدهرت ، فإنه استبعدها قائلاً إن الله يعلم ما حدث فى تلك الأجزاء. وقد سلَّم المسلمون بأن الفرنج عمومًا كانوا محاربين بواسل ، ولكنهم كانوا يظنون أنهم قساة غلاظ وجهلة . ومعركة حطين بالقرب من طبرية؛ حيث هزم صلاح الدين الأيوبى «رينالد دى شاتيون» (أرناط) سنة ١١٨٦م، ومعركة عين جالوت؛ حيث قام السلطان المظفر قطز ، وقائد جيوشه الظاهر بيبرس بهزيمة المغول، لا تزالان حيتين ماثلتين فى الذاكرة العربية اليوم. وكان الرحالة الأوروبيون فى العصور الوسطى من جانبهم يزدرون الممارسات الإسلامية الغريبة عنهم مثل الختان، وتعدد الزوجات وتحريم الخمر ولحم الخنزير .

كان المماليك نخبة عسكرية فى أرضٍ غريبة ، ورجالاً مجهولين من أراضى الإستبس الأوروبية الآسيوية (الأوراسية) . ومع هذا فإنهم كسبوا الاحترام ؛ لأنهم اتصفوا بالقوة العسكرية التى ساعدتهم على هزيمة الغزاة والأوروبيين ، ومن ثم فعندما وصل الأوروبيون إلى مصر فى القرن الرابع عشر الميلادى ، وجدوا أن سلاطين المماليك قد وطدوا حكمهم تماماً على مصر والشام من القلعة فى القاهرة، وهى قلعة بدأ بناؤها تحت حكم صلاح الدين الذى تركت إدارته الحكيمة آثار الرخاء فى بناء القلاع والطرق السريعة والقنوات. وحتى الفرنج اعترفوا بفروسيته وتدينه وعدالته ، على حين جعله دانتى اليجيرى فى مكان مشرف بالمطهر (فى كتابه الكوميديا الإلهية) . وقد توفى صلاح الدين فى ٤ مارس ١١٩٣م عن عمر بلغ ٥٦ سنة . وفى نهاية حياته، بسبب تداعى صحته ، كان السلطان يرتدى باستمرار فراءً من السمور وعدداً من السترات ويجلس على حاشيه ناعمة جداً وكومة من السجاجيد. كانت سنه المتقدمة قد جعلته «ضعيفاً مثل فرخ خرج لتوه من البيضة»، وكانت ساقاه «يغطيهما قدر قليل جداً من اللحم مثل عصاتين صغيرتين »، وتوفى فقيراً جداً لدرجة أنه عندما دفن قرب الجامع الأموى الكبير بدمشق ، اضطر أصدقاؤه للبحث عن المال لنفقات جنازته.

وبعد أقل من مائة سنة بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى تحرَّك هولاكو ، حفيد جنكيز خان الذى كان قد استولى على بلاد الشام واجتاح غزة ، وطلب استسلام مصر غير المشروط. ولكن فى القاهرة قام السلطان المظفر قطز ، الذى تغاضى عن أية مفاهيم للفروسية مثل تلك التى أظهرها صلاح الدين من قبل، وقطع رأس المبعوث المغولى، محاكياً الطرق التى يستخدمها المغول، وخرج على رأس جيش كبير لمحاربتهم. وإذ تمكن قطز من استعادة غزة، واصل ضغطه مستفيداً من معرفته بأن هولاكو كان قد اضطر إلى العودة لوطنه ومعه قوة كبيرة بسبب مشكلات العرش المغولى.

كان بيبرس ، المملوك التركى القاسى وقائد جيوش قطز، ذو القامة الفارعة وصاحب الصوت الأجش والعينين الزرقاوين (كانت على عينه اليمنى سحابة بيضاء) هو الأقوى فى طرد المغول المرعبين من بلاد الشام . وعلى الرغم من أن قوات العدو كانت مستنزفة ، فإنه لم يكن عملاً عادياً ؛ لأن الفرسان المغول ، الذين لم يكن ممكناً توقعهم

مثل العاصفة الترابية، كان يمكنهم التقدم بسرعة سبعين ميلاً فى اليوم ، ويطلقون سهامهم ذات الرؤوس الصلب بدقة متناهية على مدى مائتى ياردة بكامل اندفاعها ، وكان يقال إن رائحتهم النتنة كانت تنبئ عن مقدمهم . وبعد معركة عين جالوت ، اغتال الظاهر بيبرس قطز وهو فى رحلة صيد ، وتم تنصيبه سلطانًا بدون منازع ، وحكم من سنة ١٢٦٠م إلى سنة ١٢٧٧م فى القاهرة . هذا النصر الذى تحقق سنة ١٢٦٠م، إلى جانب نجاح الأشرف خليل بن قلاون فى طرد الصليبيين من عكا سنة ١٢٩١م وفَّر مهلة مؤقتة . وفى هذه البيئة الأكثر استقرارًا تمكن السلطان الناصر محمد بن قلاون فى سلطنته الثالثة (١٣١٠-١٣٤١م) من الالتفات إلى شئون الحكم الداخلية.

منذ سنة ١٢٥٠ حتى سنة ١٣٩٠م، كان معظم سلاطين المماليك من المماليك البحرية ثم تبعهم المماليك البُرجية ، أو (الچراكسة) حتى سنة ١٥١٧م. وكان البحرية ، الذين أخذوا اسمهم من ثكناتهم على جزيرة الروضة (فى بحر النيل)، من التتار القفچاق أصلاً، وهى قبيلة تركية كانت خليطًا من الأكراد والمغول تعيش جنوب روسيا . أما البرجية فقد أخذوا اسمهم من إقامتهم فى البرج بقلعة القاهرة ، وكان معظمهم من أصول قوقازية . وكان نظام الحكم المملوكى نظامًا غير عادى؛ لأنه بشكل عام كان نظام حكم فرديًا للعبيد السابقين من ذوى الأصول الأوروبية أو المغولية الذين كان تجار النخاسة قد جلبوهم (مثل الچنوية) وهم فى سن المراهقة للسلاطين المماليك الذين فى الحكم. فإذا ما دخلوا طباق القلعة فى القاهرة ، وهى ثكنات فى مبنى كبير ذى أربعة طوابق يرتفع عاليًا فى داخل القلعة ، كان الأولاد يعتنقون الإسلام أولاً فى ظل نظام صارم من معلميهم ، ثم يتم تدريبهم فيما بعد بشكل مكثف على الفنون العسكرية ليكونوا جنودًا فرسانًا قبل عتقهم. وكان الفارس أو الأمير يتلقى إقطاعًا من الأرض بدلاً من الراتب بشرط أن يحتفظ بعدد من أجناد المماليك، والذين كان يخصص لإعالتهم ثلثى موارده عادة . ومن الناحية النظرية لم تكن الإقطاعات وراثية، على الرغم من أنه كان يصعب تطبيق ذلك فى بعض الأحيان.

الأراضى التى كان يحكمها المماليك حتى الغزو العثمانى سنة ١٥١٧م (خريطة)

كان إيمانويل بيلوتى الكريتى (ولد بكريت بسنة ١٣٧١م) ، وهو تاجر بندقى ثرى، يتاجر فى منطقة شرق المتوسط فيما بين سنة ١٣٩٦م وسنة ١٤٣٦م تقريبًا، يمتلك مخازن تجارية فى القاهرة والإسكندرية. وحياته العملية على مدى ما يزيد على ٤٠ سنة غطت عهود خمسة من سلاطين المماليك الجراكسة. وعندما كان بالقاهرة ، لاحظ إيمانويل الذى كان قد كسب صداقة السلطان الناصر فرج بن برقوق ، الطرق المستخدمة فى تدريب المماليك الجدد. فعند وصول الأولاد كان يتم تقسيمهم إلى فصول يضم كل منها خمسة وعشرين فردًا، ولكل فصل غرفته الخاصة به ، على حين تفرش الأرض بالحصير توخيًا للنظافة بدلاً من السجاد ، ثم يُعهد بهم إلى الطواشية للإشراف على تعليمهم وأحوالهم. وكان هناك لكل مجموعة من المماليك معلم يأتى إليهم يوميًا ليعلمهم القرآن الكريم، والكتابة، والصلاة، وعندما يصيرون أكبر سنًا كانوا يتعلمون مبادئ الفقه الإسلامى. وأخيرًا عندما يصلون إلى سن البلوغ كانوا يتلقون دروسًا فى مهارات السلاح وفنون الحرب. وما إن يكتمل تعليمهم حتى يتم إحضارهم أمام السلطان، ويتم اختبارهم على أيدى معلمهم فى دينهم الجديد. وقد شهد إيمانويل احتفال التخرج فى أغسطس عندما كانت القاهرة تحتفل بفيضان النيل، وتمت قيادة المماليك الصغار إلى داخل أرض العرض وهم يتناثرون «بطريقة راقصة» واحدًا تلو الآخر. وبعد ذلك ، استعرضهم السلطان ومعه ثلاثة من كبار الأمراء ، وميَّز الذين يتمتعون بقدرات خاصة بأن جذبهم إلى وسط الميدان . وفى اليوم التالى، قام الحاكم، وهو جالس فى مكانه المعتاد، بتقديم شهادات للمجندين الجدد مدون بها أسماؤهم ورواتبهم بعدد محدد من الدوكات شهريًا. وإلى جانب هذا، تم منح كل منهم حصانًا آخر لخادمه مع وعود برواتب من الطعام.

فإذا تم عتق المماليك الصغار يمنحون الإذن بترك القلعة والبحث عن سكن بالإيجار فى المدينة، وكان يتم استدعاؤهم إلى ميدان العرض ثلاث مرات أسبوعيًا للقيام بتدريباتهم، ويشاركون فى معارك وهمية لإقناع السلطان . وثمة كتاب تدريب فروسية عربى مزود بالرسوم من القرن الرابع عشر يشير إلى أن التدريبات العسكرية تطورت بسرعة إلى مسابقات منظمة، من ضمنها الكرة (البولو) ، كان يشارك فيها السلطان وأمراؤه ،

جندى مملوكى فى تدريبات الفروسية

ومباراة ضرب القرع ، وكانت هذه اللعبة عبارة عن قذف عصا من سعف النخيل وإطلاق السهام من فوق حصان يجرى على هدف أرضى، غالبًا ما يكون من ذهب أو فضة ، وبداخله حمامة مربوطة على قمة صارى مرتفع . والفائز الذى يخترق القرعة ويطلق سراح الحمامة لا يمكنه فقط الاحتفاظ بالقرعة الذهبية، وإنما أيضًا تخلع عليه خلعة تشريف من السلطان . وكان أكثر المتنافسين خبرة يمنحون لقب «الأستاذ»، وتتم ترقيتهم، وينالون مكافأة تساوى إيراد عشرين قرية. وقد رأى إيمانويل جمهرة من «الزنوج الصغار» الذين يمتلكهم سادتهم الجدد وهم ذاهبون إلى القلعة ومعهم الأكياس

لكى يأخذوا رواتبهم اليومية من الخبز واللحم والشعير لخيولهم ، وكانت هذه الرواتب العينية تمنح لهم بالإضافة إلى جامكياتهم النقدية.

نظريًا ، كان المماليك الذين ينتمون إلى أستاذ بعينه يشتركون فى رابطة ولاء قوية تجاهه وتجاه بعضهم بعضًا ، على الرغم من أنه كانت هناك دائمًا استثناءات فى هذه المنظومة؛ إذ كان حتميًا أن تفرقت الطوائف المملوكية شيعًا وأحزابًا تؤازر كل منها أستاذها فى الصراع من أجل منصب عال وفى صعود الهرم المنزلق الذى كان عرش السلطان هو قمته. وعندما كان يتم خلع أستاذ أو يموت، فغالبًا ما كان مماليكه يعانون من ضغائن سادتهم الجدد على التوالى(*).

كانت التدريبات العسكرية على ظهور الخيل، التى كانت تتضمن دروسًا عن استخدام الحربة والقوس التترى القصير، تجرى فى الميادين أسفل القلعة وعلى ضفاف النيل؛ حيث كان السلطان يحضر لمشاهدة التدريبات. كان بيبرس القوى بصفة خاصة يزور مضمار التدريب الخاص به فى «ميدان القبق» بجوار القلعة يوميًا فى وقت الظهر، ويبقى هناك حتى صلاة المغرب، وكان يُلهم القوات ويشجعها لدرجة أنه لم يكن هناك أمير أو جندى تقريبًا لم يكرس نفسه لتحسين قدراته وبراعته .

وكان المماليك السلطانية يحملون العبء الأكبر فى القتال وحراسة شخص السلطان. وكان الأكثر موهبة وطموحًا من هذه المجموعة يرتقون إلى مناصب القيادة، وأمراء العشرة، وأمراء الأربعين، وأمراء المائة، أو يصير الواحد منهم أمير مائة مقدم ألف. وعندما يتم إسناد منصب إلى أى رجل ، مثل مملوك جديد يصير فارسًا، أو تمنح هبة إلى سفير أجنبى أو أحد كبار موظفى البلاط، كان السلطان عادة ما يخلع عليه خلعة تناسب رتبته . وغالبًا ما كانت هذه الثياب التشريفية تسمى «الخلعة» . وعادة ما

(*) كانت الرابطة التى تربط بين الأمير ومماليكه تعرف برابطة «الأستاذية»؛ فالأستاذ (السيد الإقطاعى كان بمثابة «سلطان مختصر» بالنسبة لمماليكه، وكان يرعاهم ويهتم بهم أكثر من أبنائه؛ لأنهم عدته فى أى صراع. وكانت كل طائفة تنسب إلى أستاذها ؛ فالظاهرية نسبة إلى «السلطان الظاهر بيبرس» ، «والمنصورية» نسبة إلى «المنصور قلاون» ، «والناصرية» نسبة إلى «الناصر محمد بن قلاون» ... وهكذا أما رابطة الزمالة التى كانت تجمع بين المماليك فقد عرفت باسم «الخشداشية» التى كانت تربط بين المماليك المنتمين لطائفة بعينها، وكان الولاء الشخصى أساس هاتين الرابطتين . (المترجم)
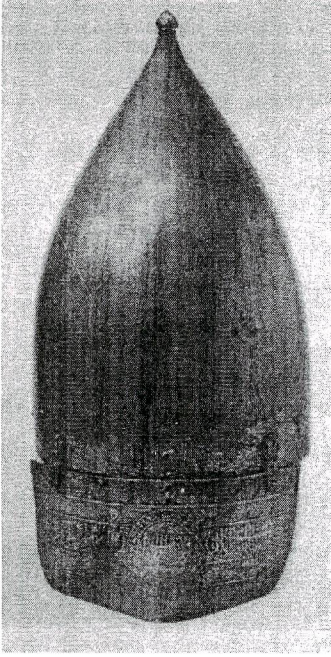
كان من الممكن التعرف على الأمير المسلم من غطاء الرأس ، ومن السيف، والمعطف المميز الذى كان يرتديه فوق قميصه التحتانى وسرواله . وكانت عباءات الأمراء ذوى المراتب العليا بأكمام مطرزة ، وغالبًا ما تُزين بالفراء الثمين مثل فراء السمور وفراء القاقم، كما كانوا يتلقون من السلطان نطاقات (أحزمة) غالية من المعادن الثمينة مرصعة بالأحجار الكريمة. أما الأحزمة الذهبية والفضية التى كانت تُمنح للمماليك من ذوى المكانة الأقل فلم تكن مزينة. وفى السنوات اللاحقة ، كان الأمراء يرتدون عباءات ذات ألوان مختلفة ، وأحيانًا ما كانت مبطنة بفرو السنجاب ، فإذا ما أمطر الجو كانوا يضعون عباءات من قماش ذى شعر خشن (الجوخ) للحماية. وعلامة على بداية فصل الصيف ، كان يُقام استعراض فيما بين ١١ مايو و ٢٦ مايو ، عندما يرتدى السلطان البياض (الملابس البيضاء)

(١-٣) خوذة السلطان برسباى

حسب العادة، وكانت تزين فى بعض الأحيان بوشاح من الحرير الأصفر ، إيذانًا
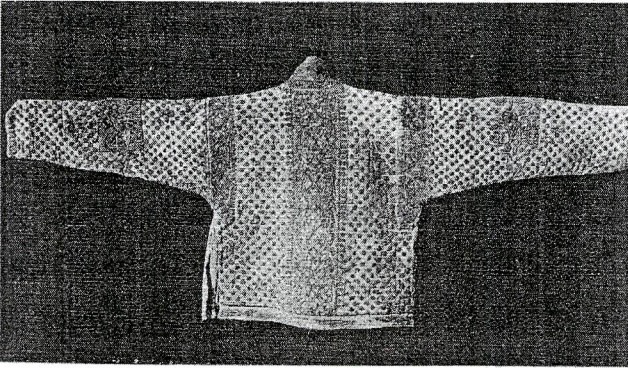
(١-٤) صديرية من الزرد باسم السلطان جقمق
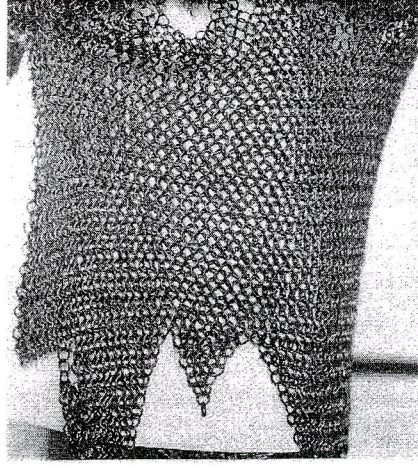
(١-٥) واق للرقبة من الزرد باسم السلطان محمد بن قلاون

بافتتاح موسم لعب الكرة (البولو) . ومع قدوم الشتاء، فيما بين ٦ نوفمبر و ٢٩ نوفمبر كان يغيرها بملابس من الصوف والفراء، وكان الأمراء يُحاكون السلطان فى تغيير ملابس الصيف والشتاء، وإن لم يكونوا دائماً يفعلون ذلك فى اليوم نفسه، سواء كانوا فى الجيش أو فى الجهاز الإدارى.
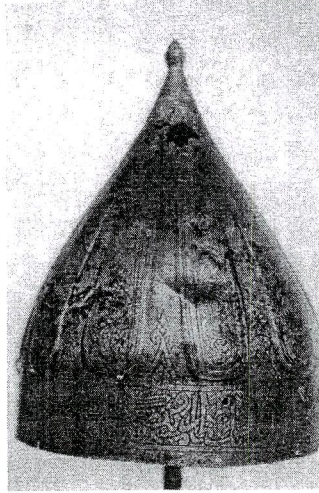
(١-٦) خوذة مملوكية

وفى سنة ١٣٢٣م شاهد راهب من كلونمل Clonmel فى أيرلندا مباراة الكرة التى أقيمت فى الميدان بالقلعة :

«هنا أرض فضاء مسطحة ومربعة تسمى الميدان Mida» ، وفى هذه البقعة كان السلطان فى بعض الأوقات يتسلى مع الأمراء وغيرهم من ضباط جيشه . والمباراة التى يلعبونها تشبه جداً اللعبة التى يلعبها الرعاة فى الأراضى المسيحية بكرة وعصاة معقوفة، باستثناء أن السلطان وأمراءه لايضربون الكرة سوى وهم على ظهور الخيل، وهم لايلعبون أبداً بطريقة عسكرية...».

والمزيد من الوصف الذى قدمه يشبه وصفاً حديثاً لمباراة فى كرة القدم :

« فى هذه البقعة توجد خيمة كبيرة فاخرة؛ حيث تجلس بها زوجة السلطان وزوجات الأمراء، بمنأى عن الضغط الرهيب من جانب المشاهدين، وتشاهدن المباراة ولاسيما بطولات السلطان، وحينما يكون عليه أن يضرب الكرة يصيح جميع المشاهدين

(١-٧) أجزاء من نطاق (حزام)
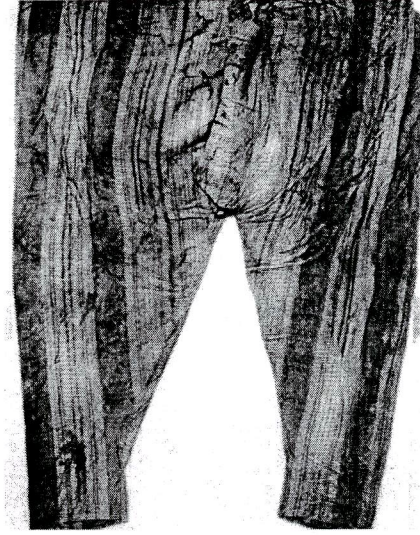
(١-٨) سروال مملوكى

ويمتدحونه، وتنطلق أصوات عدد لايحصى من الأبواق ودقات طبول مزعجة، وتتصاعد فى جلبة حتى يبدو أنهم يعرقلون حركة السماك الراحل، ويصطدمون بسكان سدوم، وبالإضافة إلى الضجة التى تحدثها الخيول وصدامات ركابها واندفاع المشاهدين من الأماكن الأخرى، يكاد المرء يعتقد أن أساس الأرض بأعمدتها يهرب مُطيحًا بنظام الكون».

وكانت أزمات ولاية العرش المتواترة تحدث فى القاهرة عندما يريد سلطان جديد أن يضمن أن مماليكه ، أو حتى أحد أبنائه، سوف يتولون المناصب العليا بعد وفاته . وإلى جانب المماليك المراهقين المُعتقين ، كان يمكن أن نجد مماليك آخرين من أمم كثيرة ، وقد قابل الرحالة الأوروبيون إلى مصر موظفين فى البلاط يشغلون مناصب عليا (وقد أطلقوا عليهم اسم المسيحيين المرتدين) ، كانوا مولودين فى إيطاليا وألمانيا والمجر وغيرها ، وتم إحضارهم قسراً إلى القاهرة بعد أسرهم وجعلهم ينبذون ديانتهم المسيحية ، وكانوا يبدون للزوار الأوروبيين أشخاصاً مؤثرين فى ملابسهم من الكتان الأبيض وعمائمهم الكبيرة.

وإذ قامت النخبة المملوكية بإزالة كل آثار الإدارة الذاتية فى مصر، فإنها قد غيَّرت بقوة من الحكومة الحضرية القائمة. فقد صار الموظفون المماليك مفتشين على

الأسـواق (المحتسب) يراقبـون طوائف أهل الحـرف ، وقد ضـاع استقلال الفقهاء ، والمهندسين، والأطباء ، والتجار، وصاروا يعتمدون على نظام الحكم. فكل جانب من جوانب التجارة الثرية كان تحت السيطرة لأغراض تتعلق بالضرائب ، كما أن جميع الأقسام كانت تُدار بواسطة جيش من الكتبة البيروقراطيين. ولكى يتم الحفاظ على المستويات العليا للمجتمع العسكرى، كان يتم استيراد المماليك الجدد بشكل مستمر . ومن الناحية المثالية كان يتم اختيار كل سلطان يرتقى العرش من بين أقوى الأمراء، على الرغم من أن البعض ارتقوا العرش من خلال المراوغات عن طريق الحريم(*) . وقد حاول بعض الحكام أن يجعلوا أبناءهم يخلفونهم ، على الرغم من أن هذه السياسة غالباً ما كانت تنتهى بكارثة وبإراقة الدماء. وبدون قوة عسكرية كافية لدعم السلطان وذهب يكفى لدفع العطايا إلى حاشيته، كان يمكن أن يتوقع الإطاحة به على يدى طامع

(١-٩) أمراء السلطان ومستشاروه فى مصر

(*) هذه مبالغة لايدعمها واقع ظروف السلطة فى عصر سلاطين المماليك الذين كانت قوتهم تعتمد على قدراتهم الذاتية من ناحية، وعدد مماليكهم من ناحية أخرى. ولما كانت الأسرة تأتى فى ذيل اهتمامات أمراء المماليك ، فإنه لم يكن هناك دور «للحريم» مثلما كان الحال زمن الأيوبيين مثلاً . (المترجم)

أقوى فى العرش ، وهى حالة أنتجت قدراً كبيراً من جنون الريبة (البارانويا). ففى أثناء فترة استمرت مائتين وأربع وستين سنة ، كان هناك مالا يقل عن خمسة وأربعين سلطانًا ارتقوا عرش السلطنة أحيانًا فى خضم صراعات السلطة الدموية الرهيبة . ومع هذا، فإن عدداً من أقوى الحكام وأكثرهم حكمة نجحوا فى بناء فترات من الاستقرار ، بحيث إنه خلال عهودهم أينعت أكثر زهور العمارة والتعليم الإسلامية إثارة للانتباه .

وكان النبى محمد (ﷺ)، الذى علَّم أتباعه القيام بالوضوء بانتظام وغسل جميع أجزاء الجسد، يَعتبر بحق مثل الكثير من الحكماء أن الإفراط منبع الأمراض الشريرة. وقد أثرت تعاليم الإسلام على الدراسات الطبية فى القاهرة المسلمة، والتى اشتهرت بمعارفها الواسعة التى وصلت ذروتها في القرن الثانى عشر. وكان البيمارستان المنصورى (مارستان قلاون) الذى برز بين عدة مستشفيات فى المدينة كانت تعالج مجانًا جميع المرضى من كل الطبقات والأديان فى نوع من الخدمة الصحية المثالية، هو أول من اعترف بالأمراض العقلية وعلاجها، ولكنه سرعان ما فتح أبوابه بوصفه مركزًا عموميًا لأولئك الذين كانوا يعانون من كل صنوف الأمراض، كان هذا البيمارستان شيئًا ، استلفت نظر الفرنج . وكانت توقف على المستشفيات ميزانيات ضخمة أتاحت للأطباء تقاضى مرتبات عالية، ووفرت للمرضى علاجًا مريحًا . وكل نوع من المرض كان يتم علاجه فى حجرات خاصة على أيدى أطباء متخصصين، ولأن الرمد كان وبائيًا فى مصر كانت هناك أقسام لأمراض العيون. أما المرضى الذين كانوا يعانون من الأرق فكانت لهم غرف منعزلة؛ حيث كان الموسيقيون ورواة القصص والحكايات يسكنونهم ويهدئون من روعهم حتى يغلبهم النعاس . وكان المرضى الفقراء الذين يتم شفاؤهم يُمنحون خمس قطع ذهبية ، مما يتيح لهم فترة من النقاهة قبل أن يعاودوا ممارسة أعمالهم . وإلى جانب ممارسة الطب كان فن صناعة العقاقير يعتبر أنبل العلوم وأشرفها . وكوهين العطار الذى ألَّف فى القاهرة كتابًا فى خمسة وعشرين فصلاً عن الأعشاب والنباتات الطبية حوالى سنة ١٢٩٥م ، نصح كل صيدلى بأن يراعى كلماته وكتاباته بالذات ؛ لأن أفكاره سوف تُعرف عن طريقها . وجنبًا إلى جنب مع دراسة الأمراض البشرية كانت دراسة الطب البيطرى، وهناك عالم بارز فى مجال علم

الحيوان هو الدميرى (ولد فى القاهرة سنة ١٣٤١م) كتب كتابًا عنوانه «حياة الحيوان» وضع به قوائم بكل الفصائل المعروفة من الحيوان ، وعاداتها وطعامها .

وإلى جانب بيلوتى الكريتى ، تم استقبال تجار أوروبيين آخرين فى البلاط المملوكى . ففى أثناء سلطنة الظاهر برقوق (سلطنته الأولى ١٣٨٢م – ١٣٨٩م ، والثانية ١٣٩٠-١٣٩٩م) مؤسس حكم المماليك البرجية – الجراكسة ، كتب برتراندو دى ميجنانيللى Bertrando de Mignanelli ، وهو تاجر إيطالى، سيرة منصفة تمامًا له باللاتينية ، نُشرت فى إيطاليا سنة ١٤١٦م . وعلى الرغم من أنها من تأليف مسيحى مؤمن، فقد كان حجم الانحياز الدينى فيها قليلاً بشكل لافت. وقد أخذ برتراندو مادته الأساسية من الأحداث المعاصرة، وكذلك من الاتصالات والعلاقات الشخصية مع كبار الأمراء. وكان برتراندو الذى ولد فى أسرة نبيلة فى سيينا سنة ١٣٧٠م ، قد استقر فى دمشق؛ حيث صار رجلاً ثريًا، وصادفه حسن الحظ فى أعماله، وقد لقى أكبر تشريف . وإذ كان يتحدث العربية بطلاقة مثلما يتحدث بالإيطالية لغته الأصلية؛ فقد كانت خدماته فى الترجمة مطلوبة سواء من جانب برقوق القوى نفسه أو من جانب الزوار الأوروبيين للبلاط المملوكى. وخدم برتراندو وسيطًا فى وفد أرسله إلى برقوق فيكونت ميلانو جيان جالياتزو Gian Galeazzo :

«فى ذلك الوقت أرسل دوق ميلانو المتميز إلى السلطان مبشره ، الأستاذ جيمس الصليبى Master James of the Cross . كان يزور دمشق ومعه بعض الجياد والكلاب وغيرها من الهدايا للسلطان ، الذى رحّب به فى حضورى بسعادة وكرم. وأرسل السلطان بدوره إلى الدوق بعض الفهود أدخلت عليه المزيد من السرور. وقد أعلى من قيمة صداقة الدوق، وأرسل خطابًا كريمًا ردًا عليه . وبناء على طلب السلطان ترجمت خطابه من العربية إلى لغتنا اللاتينية ، كما كنت قد ترجمت من قبل خطاب الكاتب إلى اللغة العربية».

كان قصد الدوق أن يمد يد الصداقة إلى السلطان ، وبناء على نصيحة الراهب چيرار التولوزى Gerard of Toulouse ، وهو راهب فرنسسكانى من دير جبل صهيون فى بيت المقدس، كان يريد الحصول على إذن لإعادة بناء كنيسة الميلاد فى بيت لحم .

وعلى الرغم من أن الإصلاحات كان يجب أن تتم على نفقة الدوق، فقد تم رفض الإذن بذلك فى البداية. بيد أن برتراندو ثابر، ولم يلبث أن حصل على الإذن بعد عدة أعمال ونفقات ومناقشات ، وعلى الرغم من أن الدوق مات، فإن برتراندو حافظ على الإذن،. أملاً فى وجود مانح آخر. وعند موته فى ٢٦ يناير سنة ١٤٥٥م ، فى الخامسة والثمانين من عمره، حمل جثمان برتراندو فى جنازة كبيرة إلى مقبرة جدوده فى كنيسة سان دومينيكوس بسيينا .

وقد حكى برتراندو أن برقوقًا عندما كان صبيًا فى بلاد الچراكسة كان مسئولاً عن إطعام الخنازير ، ثم خطفه القراصنة وباعوه إلى تاجر نخاسة . واشتراه يلبغا، أقوى أمراء القاهرة ، وتم تدريبه فى الطباق، وتلقى دروسًا فى الركوب واستخدام السلاح . وبما أنه كان يتمتع بعقلية جيدة وذاكرة حافظة ، فإن برقوق تفوق على أقرانه بسهولة فى كل شىء، ولأنه كان شديد الطموح ، ظهر أنه أفاد من كل خدعة ومن كل مكيدة مدبرة لكى يصعد مزيداً من درجات الترقى. وإذ حاز مرتبة عالية بسرعة ، تخلص من جميع الذين يحتمل أن يهددوا مسيرته إلى السلطة . وحتى الأمير بركة خشداشه (أى زميله فى الطائفة) ، الذى شاركه رحلة الصعود فى مناصب العسكرية المملوكية ، تم إبعاده إلى الإسكندرية ثم اغتياله ، وإذ كسب الولاية على السلطان الطفل «حاچى» وتزوج من أمه ، رسم برقوق لنفسه الطريق إلى العرش الذى ارتقاه فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٣٨٢م. فقد أقنع السلطان الطفل أن يتنازل عن العرش لصالحه ، ووعده بأن يلقى منه معاملة أفضل مما مضى «وقد قبل هذا فى سرور؛ لأنه كان قليل الإدراك وضعيف الهمة ، وأملاً مثل النساء فى أن يجد المزيد من المتعة فى مكان أحقر مما كان عليه فى وضعه السابق ». ولم يوافق رعايا برقوق على إمساكه بزمام السلطة المطلقة . وعلى الرغم من أنه حكم على مدى سبع سنوات فى سلام، وباعتدال وعلى نحو يثير الإعجاب ، فقد تم خلعه عن العرش، واضطر إلى الاختباء . ولكنه نجا من المزيد من الانقلابات واستعاد العرش، وألحق هزيمة منكرة بتيمورلنك الذى كان خطراً ماثلاً ، ثم تلت ذلك المزيد من المؤامرات فى مدينة القاهرة . لقد حكم مصر وبلاد الشام ، أميراً كبيراً ووصيًا على العرش وسلطانًا على مدى إحدى وعشرين سنة وسبعة وخمسين يوماً .

وعلى الرغم من أن سكان القاهرة وجدوا أن النظام المفروض عليهم كان نظامًا قمعيًا ، فإنهم قد وجدوا المتعة فى التدريبات العسكرية الاستعراضية ومظاهر التسلية، ولاسيما فى موكب المحمل بتزيين الحوانيت على طول طريق الموكب ، وكان موكب المحمل يبدأ من القلعة ، تصاحبه تدريبات بالرماح (يقوم بها صغار المماليك الرماحة)، وأمير الحج واحد من أهم موظفى البلاط . وكان الرّماحة المختارون ، وعددهم أربعون ، يركبون خلفه تمامًا يرتدون الدروع الحديدية مغطاة بالحرير الملون ، على حين كانت خيولهم مكسوة بالحراب، تزينهم البيارق الخفاقة ذات التطريز البديع، والتى كانت ترفرف دائمًا فى ميادين القتال. وفى أحيان أخرى ، كان الفرسان يصاحبهم عدد قليل من صغار الصبية ، الذين يقفون فوق ظهور الخيل، وكل منهم يلعب بحربتين . وبدلاً من ذلك ربما كان الصبية يجثمون على حدوة حصان خشبية مستقرة على نصلين لسيفين . وإذ تصاحبهم ضجة ألعاب النفط النارية وصوت الطبول العالية، كان كثير من المماليك السلطانية يلبسون ملابس ساخرة أو مخيفة ، وكان هؤلاء معروفين باسم «عفاريت المحمل»، وكانوا يقومون بمختلف صنوف المزاح والتهريج على حساب الجموع المتزاحمة ، على الرغم من أن السلطات كانت تمنع حمل السلاح، وتمنع مثل هذه المساخر بعد الغروب.

وتصور كتب الفروسية العربية الخيول ممتلئة الجسم، بأرجل قصيرة ورقبة طويلة ورأس طويل. وعادة ما كان الذيل معقودًا . أما كسوة السرج، وهى ذات تصميمات مزهرة وملونة كثيرة، ومسدلة حتى الذيل، لتصل إلى نقطة حادة على الأفخاذ . وكان الخيالة يجدلون شعورهم السوداء فى ضفائر مسدلة على ظهورهم، وفوقها قبعات صفراء أو بنية اللون تحيط بها العمائم البيضاء . وكانت لهم أثواب خارجية ملونة بياقات ، وأساور وحواشٍ مزركشة بشرائط الذهب، وتحيط الأحزمة بأوساطهم، وتحت هذه كانوا يلبسون قمصانًا ذات أكمام طويلة. وعادة ما كان الخيالة يرتدون أحذية طويلة بيضاء ، على الرغم من أنها أحيانًا كانت بنية اللون أو رمادية ، بها مهاميز طويلة ويحملون سيوفًا معقوفة . وكان هناك نوعان من الدروع على الأقل، تصنع من الجلود أو من الخشب والمعدن. وفى المناسبات قد يرتدى الخيَّال خوذة حديدية، ويحمل درعًا، وكلها تبث اللهب (كانت النار تنتج عن احتراق قطع من القماش المغموسة فى نترات البوتاسيوم)، وكانت هذه تسلية مدهشة للغاية بالنسبة لجماهير القاهرة.

وكانت هناك أحداث عظيمة أخرى تحدث مثل خروج السلطان من العاصمة إلى الحرب، أو خروجه إلى الصحراء فى رحلات الصيد بالصقور والفهود، وعندما كان السلطان قلاون يخرج للصيد كان يصحبه عادة ثلث جيشه، وكان وحده من دون أمرائه يستخدم نسراً نادراً إشارة إلى مكانته السامية، وكان السلطان الناصر محمد بن قلاون يحيط نفسه بحاشية كبيرة قوية على ظهور الخيل، والبغال، والحمير، والجمال، وكانوا يغطون الصحراء مثل الجراد فى منطقة مساحتها خمسة أميال تقريباً.

وقد شاهد المؤرخ المملوكى ابن تغرى بردى (١٤٠٩-١٤٧٠)، والذى كان ابناً لأحد الأمراء الكبار تحت السلطان برقوق وابنه السلطان فرج ، أخته الخوند الكبرى فاطمة التى كانت زوجة السلطان فرج، تشارك فى الاستعراض المبهر الذى حدث يوم الثلاثاء ٢٢ مارس ١٤١٢م ، عندما ركب السلطان من القلعة عند رحيله إلى الشام مع بقية الأمراء والجيش وهم بسلاحهم وعدتهم، وقد رتب ابن تغرى بردى أحداث حياته ترتيبا زمنياً فى كتاب «حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور»(*) :
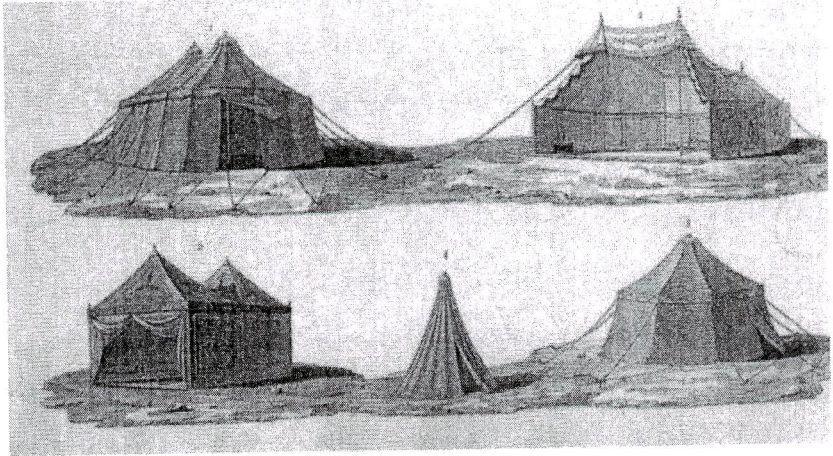
(١-١٠) الخيام المملوكية

(*) النص الذى تشير إليه المؤلفة ليس فى كتاب «حوادث الدهور»، ولكنه فى كتاب «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» (ج١٣، ص١٣٣-١٣٤) .

«ثم ركب السلطان في يوم الثلاثاء ثامن ذى الحجة (٨١٤هـ)، ونزل من قلعة الجبل ببقية أمرائه وعساكره - والجميع عليهم آلة السلاح - بزىّ لم يُر أحسن منه، بطُلْبٍ هائل جُرَّ فيه ثلاثمائة جُنيب من خواص الخيل بالسروج الذهب التى بعضها مُرصّع بالفصوص المجوهرة المثمنة ومياثرها المخمل المطرز بالزركش ، وعلى أكفالها العبى الحرير المثمنة ، وفيها العبى المزركشة بالذهب، وفيها بالكنابيش الزركش، والكنابيش المثلثة بالزركش والريش واللؤلؤ ، وكلها باللجم المسقطة بالذهب والفضة ، والبذلات اللينة والبذلات الذهب الثقيلة ، ومن وراء الجنائب المذكورة ثلاثة آلاف فرس ساقها جشاراً ثم عدد كبير من العجل التى تجرها الأبقار وعليها آلات الحصار، من مكاحل النفط الكبار ومدافع النفط المهولة ، والمناجيق العظيمة ونحو ذلك ، ثم خرجت خزانة السلاح - أعنى الزردخاناه - على أكثر من ألف جمل تحمل القرقلات ، والخوذ، والزرديات، والجواشن، والنُّشاب، والرماح، والسيوف،... وغير ذلك».

«ثم خرجت خزانة المال فى الصناديق المغطاة بالحرير الملون، وفيها زيادة على أربعمائة ألف دينار ، وجميع الطُّبال والزُّمار - مماليكه ومشترواته - بالكلفتات ، وعليهم ططريات صفر ، وغالبهم قد ناهز الحلم، بأشكال بديعة من الحسن، وقد تعلموا صناعة ضرب الطبل والزمر وأتقنوه إلى الغاية، وهذا شىء لم يفعله ملك قبله».

«ثم خرج حريم السلطان فى سبع محفات قد غشيت بالحرير المخمل الملون، ما خلا محفة الأخت فإنها غشيت بالزركش ، كونها كانت خوند الكبرى صاحبة القاعة ، ومن ورائهم نحو الثلاثين حملاً من المحاير المغشاة بالحرير والجوخ».

«ثم خرج المطبخ السلطاني، وقد ساق الرُعيان برسمه ثمانية وعشرين ألف رأس من الغنم الضأن ، وكثيراً من البقر والجاموس لحلب ألبانها، فبلغت عدة الجمال التى صحبت السلطان إلى ثلاثة وعشرين ألف جمل ، وهذا شىء كثير إلى الغاية».

وقد تم تصوير «الناصر فرج بن برقوق» فى صورة الرجل القاسى ، حتى بمستويات ذلك الزمان الذى كانت العقوبات البربرية فيه تمارس حسب أهواء الحاكم . فقبل رحيله ، دعا إلى القلعة مطلقته بنت صُرُق ، التى كان لا يزال مغرمًا بها؛ لأنه

عرف أنها كانت قد أقامت علاقة مع أحد أمرائه سببت له ضيقًا. وحسب رواية خوند الكبرى فاطمة زوجة فرج بين برقوق (وأخت جمال الدين أبى المحاسن بن تغرى بردى) التى كانت شاهدة عيان. خرجت بنت برقوق فى كامل زينتها ، ، وضربها السلطان بالمنجاة (السيف القصير) فى قاعة العواميد بالقلعة وقطع أصابعها المصبوغة بالحناء ، وصرخت وهربت ، لكنه لاحقها ، وقطع قطعة من لحم كتفها . وبعد المزيد من الضربات ، فصل رأسها عن جسدها و أمسكها من ضفائرها على حين كان قرطها الفاخر من الياقوت ما يزال فى أذنيها، وفى أثناء هذه الأحداث ، صارت حوائط القاعة والفناء الأمامى ملطخة بالدماء . وعندما تم استدعاء الأمير التعس ، أخرج السلطان فرج الرأس المقطوعة من القماش الملفوفة به، وسأله إن كان يعرف صاحبة الرأس . وعندما أحنى الرجل رأسه ، قطعها السلطان ، «... ولفهما معًا فى لحاف، وأمر بدفنهما فى قبر واحد» .

ووفقًا لرواية ابن تغرى بردى، عندما عسكر السلطان فرج فى غزة وهو على الطريق فى حملته على بلاد الشام وسَّط(*) تسعة عشر من المماليك الظاهرية (أى قطعهم بالسيف نصفين وهم من مماليك أبيه الظاهر برقوق) ، وكان سكرانًا فى ذلك الوقت لدرجة أنه لم يدر ماذا كان يفعل . كانت هذه الحملة السابعة للملك الناصر فرج على الشام، ولكن الكراهية التى كان قد زرعها فى قلوب الرجال كانت كبيرة بحيث تحولوا ضده وتم خلعه . وبعد أن حُوصر فى برج قلعة دمشق على مدى عدة أيام ، هاجمه خمسة من الفداوية بصورة بشعة ، وبعد أن جرحوه بالسكاكين ، صرعوه وخنقوه قبل أن يقضوا عليه بقطع شرايينه ويجردوه من ملابسه(**) :

«... دخل عليه ثلاثة نفر هم الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك شاه الطازى أخو

(*) وسَّط ، فعل التوسيط ، وهى إحدى وسائل عقوبة الإعدام فى عصر سلاطين المماليك. وكانت تتم بالسيف لفصل الجزء الأعلى من الجسم عن الجزء الأسفل . (المترجم)

(**) النص هنا من ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ، ج١٣، ص١٤٨) ، وقد رأيت إثباته كاملاً : لأن النص الإنجليزى مضطرب. (المترجم)

الخليفة المستعين بالله لأمه، وآخر من ثقات شيخ ، وآخر من أصحاب نوروز ، ومعهم رجلان من المشاعلية. فعندما رآهم الملك الناصر فرج قام إليهم فزعًا، وعرف فيما جاءوا ودافع عن نفسه، وضرب أحد الرجلين بالمدورة، وصرعه ، ثم قام الرجل هو ورفيقه ومشوا عليه وبأيديهم السكاكين، ومازالوا يضربونه بالسكاكين المذكورة وهو يعاركهم بيديه وليس عنده ما يدفع عن نفسه به حتى صرعاه بعدما أثخنا جراحه فى خمسة مواضع من بدنه ، وتقدم إليه بعض صبيان المشاعلية فخنقه وقام عنه، فتحرك الملك الناصر، فعاد إليه وخنقه ثانيًا حتى قوى عنده أنه مات ، فتحرك فعاد إليه ثالثًا وخنقه ، وفرى أوداجه بخنجر كان معه ، وسلبه ما عليه من الثياب، ثم سحب برجليه حتى ألقى على مزبلة مرتفعة من الأرض تحت السماء، وهو عارى البدن، يستر عورته وبعض فخذيه سراويله ، وعيناه مفتوحتان، والناس تمر به ما بين أمير وفقير، ومملوك وحر، قد صرف الله قلوبهم عن دفنه ومواراته. وبقيت الغلمان والعبيد والأوباش تعبث بلحيته وبدنه».

وقد شهد إيمانويل بيلوتى أيضًا رحيل راعيه السابق. وقد أخبروه أن الخليفة (الذى ربط بيلوتى بين منصبه ومنصب بابا روما) اعتبر أن موت السلطان كان يستحقه بسبب ظلمه للناس ولرعيته، وحقيقة أنه كان يأكل لحم الخنزير، ويشرب الخمر فى أيام الجمعة .

وكانت مواقف المسلمين تجاه المسيحيين الأجانب فى بلادهم تميل إلى التضارب والتأثر بوجهة النظر التى يأخذ بها الحاكم القائم . وكان السلاطين قبل كل شىء يتأرجحون بفعل المزايا التى يمكن كسبها من التجارة، على الرغم من أنه إذا حدث أى فعل عدائى من جانب الفرنج ، كان على الأوروبيين أن يتوقعوا ردود فعل قاسية . وغالبًا ما كانت ردود الفعل هذه توجه ضد الفرنسيسكان الذين كانوا قد جاءوا إلى فلسطين والشام ومصر سنة ١٢١٩م أثناء حياة مؤسس منظمتهم الديرية . وكان الراهب فرنسيس الأسيسى قد قام برحلة إلى الشرق الأوسط مدفوعًا بحماسته التبشيرية، وهو يؤمن (مثل غيره من الناس المتدينين الزاهدين) أن بعثته أثناء الحملة الصليبية الخامسة

سوف تنجح فى إحراز السلام. وعلى الرغم من أن السلطان الكامل الأيوبى استقبله بأكبر قدر من اللطف والرقة وقدم له الهدايا (التى رفض قبولها) ، فقد أعيد دون أن يحقق أى إنجاز للجيش الصليبى فى دمياط على الضفة الشرقية لنهر النيل .

وعلى أية حال ، فإن تقاليد سان فرنسيس استمرت ، وفى سنة ١٣٣٥م افتتح نظام الرهبان الفرنسيسكان ديرًا فى بيت المقدس، كان رئيسه راهبًا يحمل لقب راعى جبل صهيون، وبسبب المعاملة الخشنة التى عاملت السلطات الرهبان بها، كانت الحياة فى الدير صعبة فى غالب الأحيان . وإلى جانب تقديم الضيافة بقدر المستطاع ، كان من ضمن واجبات الرهبان الفرنسيسكان مساعدة الحجاج الذين يزورون المزارات المقدسة فى الأرض المقدسة، وتقديم العون الدينى للتجار الأوروبيين، الذين كانوا يحصلون منهم على الصدقات لتوفير المال اللازم لاستمرار وجودهم. وعلى أية حال ، حدث فى القرن الخامس عشر، مصادفة ، أن تحولت الأمور نحو الأفضل . ففى أثناء رئاسة الراهب فرنسيس روسو البياتشنزى (١٤٦٧-١٤٧٢م) Friar Francis Rosso of Piacenza ، أن كان هناك اثنان من الأمراء نُفيا إلى بيت المقدس ، هما الأشرف قايتباى ويشبك الفقيه. وكان قايتباى قد بيع مقابل ثلاثين دينارًا إلى أحد السلاطين السابقين، وهو السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨-١٤٥٣م) وكان من ضمن مماليكه . وفى أثناء فترة نفى الأميرين كانا ممنوعين من ركوب الخيل، أو اتخاذ الخدم، أو مغادرة المدينة، بل إنهما كانا غير قادرين حتى على زيارة منازل المسلمين الآخرين، الذين لم يكونوا يجرؤون على إظهار صداقتهم . وعلى النقيض من ذلك ، عاملهم الرهبان بقدر كبير من التعاطف، وكانوا يزودونهما بالطعام الطيب . وكان قايتباى يسره أن يزور الدير من أجل الترويح عن نفسه ، وكان الرهبان «يستقبلونه لا بوصفه سجينًا وإنما باعتباره سيدًا ، وكانوا يقدمون له الأكل بأكبر قدر من الرزانة، ويقدمون الملاعق، والحلوى، وغيرها من المأكولات الشهية ، ولكن فوق هذا كله، كان يأتى إلى المكان بشغف كبير لأنه كان يحب الخضروات والعجة التى كان الرهبان يطبخونها»(*). وإذ كان رئيس

(*) هذا النص لايمكن التحقق من مدى صدقه من المصادر التاريخية الأخرى. (المترجم)

الرهبان رجلاً حاد الذهن فقد عرف تماماً أن حظوظ هذا العالم التعس ، سواء أكانت طيبة أم رديئة ، لاتدوم على حال، ولكنها تدور مثل العجلة ، وفكر فى أن هذين الرجلين يمكن أن يعودا لحظوة السلطان بسهولة، ومن ثم أغدق عليهما الطعام والشراب وقدم لهما المال.

وعندما ثبتت براءتهما فى نهاية الأمر وعاد الأميران إلى القاهرة ، جلس قايتباى على عرش السلطنة سنة ١٤٦٨م. وحكم على مدى ثمان وعشرين سنة وصار يشبك وزيره. ومثلما يأتى النهار فى أعقاب الليل، فعندما وصل رئيس الرهبان إلى القاهرة استقبل بفرح عظيم . ومنذ ذلك الحين فصاعداً وخلال عهد قايتباى كانت للرهبان ببيت المقدس الأسبقية فى البلاط، ونعموا بالحماية الملكية بسبب الرقة والود الذى قدموه فى أثناء فترة العذاب والمحنة. وكان السلطان ينزل العقاب بكل من يسىء إليهم . وعندما سُجن الراهب جاكومو ماجنا فاكبا **Jacomo Magnavaccba** الذى صار رئيس الدير فيما بعد (١٤٧٥-١٤٧٧م) ظلماً على يد والى القدس، ذهب بنفسه إلى البلاط لكى يشكو من هذا الظلم ، وأمر يشبك بإحضار المعتدى إلى القاهرة مقيداً بالأغلال ، وعندما وصل الوالى ضُرب بقسوة أمام رئيس الرهبان ، وخُلع من منصبه، وأرسل إلى السجن ليمضى به خمس سنوات. وحُكى أن البلاد كلها كان يغشاها الرعب والخوف عندما سمعت بما جرى، لدرجة أن الأعداء الرئيسيين للرهبان كانوا يتواضعون أمامهم. لقد آتت العجة والخضروات ثمارها فى صورة أرباح مناسبة(*).

كان الملك الأشرف قايتباى ، الذى اعتبره معاصروه حاكماً حكيماً ومحترماً حتى من جانب الأمراء المحيطين بالعرش، مشهوراً بشجاعته وسعة اطلاعه . لقد كان رجلاً ذا تمييز أقام الكثير من المبانى فى القاهرة والقدس ؛ حيث بنى مدرسة ، وسرعان ما اكتملت فى سنة ١٤٨٢م. وقد أصلح الإدارة وشجع العلاقات التجارية مع الأوروبيين. وفى سنة ١٤٨٦م التقى وفداً من لورنز دى ميديتشى **Lorenzo de Medici** ، وفى السنة

(*) تقدم المؤلفة نوعاً من الحكايات نقلاً عن المصادر دونما تحقيق ، وهنا ينبغى أن لانعتبر هذه دراسة تاريخية منهجية . (المترجم)

التالية فى ١١ نوفمبر سنة ١٤٨٧م تسبب وصول زرافة جميلة جداً إلى فلورنسا فى الكثير من الإثارة . وكان قد تم إحضارها على سبيل الهدية مع أسد وحيوانات أخرى إلى المدينة بواسطة مبعوثى قايتباى «سلطان بابيلون ». ووصلت الحيوانات إلى قصر ميديتشى مع عشب أخضر (نبات النعناع) وروائح وعطور شرقية من أرض النيل. وعاشت الزرافة وقتًا طويلاً بفلورنسا، وكانوا يحتفظون بها فى إسطبل ، وترعاها الراهبات . وقال لوقا لاندوتشى **Muca Landucci** الذى دوَّن يوميات فلورنسية آنذاك، إنها كانت موضوعًا لكثير من الفنانين الذين يمكن مشاهدة رسومهم فى جميع أنحاء المدينة . وقد اعتز حكام عصر النهضة بالحيوانات الأفريقية الغريبة، وكتبت آن الفرنسية : إنها كانت ترغب فى زرافة أكثر من أى شىء آخر.

مات قايتباى فى أغسطس سنة ١٤٩٨م بعد حكم دام أكثر من تسع وعشرين سنة .
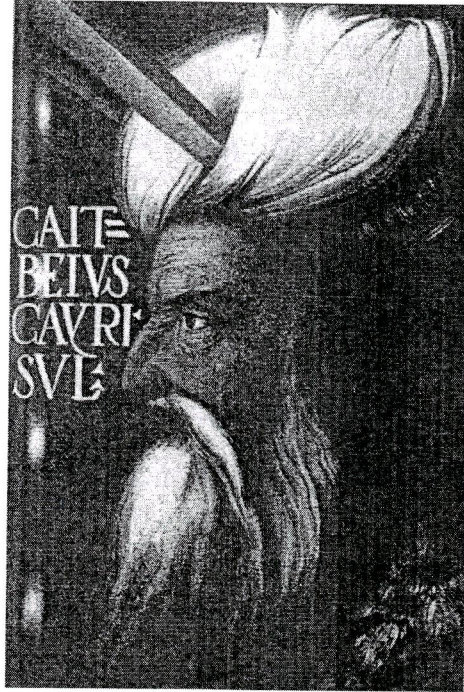
(١-١١) السلطان قايتباى

وكانت صورته ضمن مجموعة شهيرة لمشاهير الرجال فى متحف يملكه باولو چيوفيو Paolo Giovio (١٤٨٣-١٥٥٢م) بناه فيما بين سنة ١٥٣٦م وسنة ١٥٤٣م فى ڤيلا فى البورجو ڤيكو بكومو . وكان باولو كاتبًا غزير الإنتاج . ومن بين الأعمال الأدبية الكثيرة التى ألفها نشر عدة مجلدات عن المتحف ومحتوياته، وقد ضمنها تراجم قصيرة ألفّها عن الرجال المشاهير الذين يظهرون فى مجموعته، وحفر الصور فى الخشب، بما فى ذلك صورة لقايتباى وأخرى للسلطان الأخير الأشرف قنصوه الغورى (١٥٠١-١٥١٧م) قام به ثيوبالد مويللر، بعد موت باولو ، من أجل متحف Musaei Iovani Imagines ، ونشر فى بازل سنة ١٥٥٧م، وعقب موت باولو مباشرة أرسل صديقه الدوق كوسيمو دى ميديتشى الرسام كريستوفانو دل التسيمو Cristofano (di Papi) dell Altissimo إلى المتحف لكى ينسخ الصور ، وقد وضعت النسخ فيما بعد فى الأوفيزى Uffizi بفلورنسا؛ حيث تعلق الكثير منها فى الممر، ومن بينها صورة قايتباى.

وقد بالغ باولو فى الثناء على الزرافة التى أرسلها قايتباى إلى لورنزو دى ميديتشى بقوله: « على امتداد فترة طويلة كان منظرًا مدهشًا ، ليس فى تسكانيا فقط، وإنما فى جميع أنحاء إيطاليا». وقد لاحظ أن حيوانًا مثلها لم يشاهده أحد هناك منذ العصور الرومانية، وأن نقلها من الحبشة عند منابع النيل كان غاية فى الصعوبة . كذلك أرسل قايتباى فيلاً ونمرًا «إنه مرعب بوحشيته الطبيعية terrible per il natural fierezza» إلى الدوق جالياتزو سفورزا، وحكى باولو أنه كان يمكن مشاهدة الوحوش فى القلعة بميلانو .

وليس معروفًا من أين حصل باولو على الشبه الأصلى للسلاطين ، ولكن من المحتمل أنه كان ضمن صندوق من العاج وخشب الأبنوس يحتوى على منمنمات أو عملات عليها صور أحد عشر سلطانًا ، أعاره إياه النبيل ڤيرچينيو أورسينى Virgino Orsini . وقد حصل ڤيرچينيو على الصندوق بوصفه جزءًا من تبادل الهدايا قام به القرصان بربروسا أثناء إقامته فى مرسيليا . وعلى أية حال ، كانت لباولو اتصالات وعلاقات كثيرة. وقد تم ترسيمه أسقفًا فى نوسيرا Nocera سنة ١٥٣٨م ، بالإضافة إلى كونه مفكرًا إنسانيًا مشهورًا ، وعالم لغويات ومؤرخًا كان متحفه يجتذب الكثير من كل حدب وصوب ، وقد انتقل بشكل دائم إلى البلاط الإيطالى والدوائر البابوية، وتعرّف على العديد من

الأمراء والسفراء والقادة العسكريين، بالإضافة إلى اطلاعه على المراسلات والخطابات الدبلوماسية . وفى يوم ٢٩ يناير سنة ١٥٣٢م حضر مجمع الكرادلة فى بولونيا الذى قدم أثناءه المستكشف البرتغالى الفرنسيسكانى فرنسسكو ألفاريز الذى كان عائداً لتوه من الحبشة، للبابا كليمنت السابع (١٥٢٣-١٥٣٤م) أربعة خطابات (اثنان منها كانا موجهين إلى ملك البرتغال) من نجاشى الحبشة، نيجوس لبنى - دنجل الذى حكم باسم الملك داود من سنة ١٥٠٨م إلى سنة ١٥٤٠م . وقد حصل باولو الذى ترجم هذه الخطابات من البرتغالية إلى اللاتينية من أجل البابا، على صورة لنجاشى الحبشة كان ألفاريز قد جلبها إلى إيطاليا وضمها إلى مجموعته . وقد مات باولو فى فلورنسا فى ١٠ ديسمبر سنة ١٥٥٢م عندما كان فى ضيافة الدوق كوسيمو .

مع كل مظاهر الفخامة والعظمة كانت تكاليف الحفاظ على دولة سلاطين المماليك باهظة، كما كان أسلوب حياة الحاكم الفاخر ومكانته تعتمد على دفع مبالغ مالية كبيرة إلى أتباعه . وكانت الضرائب التى تُجبى من المدن والريف لاتكفى لإرضاء الجيش، ولا البلاط الثرى الكبير، مع أتباعه العديدين الذين يتطلعون دومًا إلى الهبات والعطايا . وإذ كان المماليك من الناطقين بالتركية فإنهم اختاروا الناطقين بالعربية لتسيير الجهاز الإدارى لأسباب واضحة، وكانت هناك فجوة واسعة تفصل بين الحكام وأهالى البلاد ، الذين لم يكونوا يتطلعون أبدًا أو يأملون فى الوصول إلى المناصب العسكرية والثروات الكبيرة أو السلطة السياسية ؛ إذ كانت الأحوال المعيشية للجميع موجهة حسب حاجات المماليك(*)، الذين كانوا يتقاضون جزءًا من رواتبهم عينًا. وكان الحرفيون فى أسواق القاهرة يقدمون السروج والأسلحة والدروع لفرسان المماليك، وكل أنواع الطعام خاصة الغلال. وكانت الغلال التى يجمعها السلطان والأمراء بكميات ضخمة فى الأهراء

(*) هذا كلام فيه تعميم خطير ومرسل على عواهنه، وأية قراءة فى الدراسات الحديثة عن عصر سلاطين المماليك تؤكد أن المؤلفة لاتعرف طبيعة العصر : فقد كان السلاطين يقترضون من التجار - مثلاً - كما أن طبيعة العلاقات السياسية فى ظل نظام الإقطاع العسكرى تجعل كلام المؤلفة نوعًا من «الشائعات التاريخية» . (المترجم)

والشون تساعدهم على أن يكونوا هم المحتكرين لأسواق الغلال، مما كان يتسبب أحيانًا في حدوث نقص شديد وزعزعة للاقتصاد.

وكان الأسالمة (أو المسالمة أى الذين اعتنقوا الإسلام من اليهود والنصارى حديثًا)(*) والأقباط واليهود يلعبون دورًا حيويًا فى جباية الضرائب والحسابات ، وصرافة النقود كما كانوا يرأسون دور سك النقود، على الرغم من أنهم فى أوقات الاضطرابات ، ولأنهم لايملكون أية قوة سياسية ولهم القدر القليل من الحقوق، كانوا عُرضة للاضطهاد والضغط، وبينما كان الفلاحون يتحايلون على المعيشة من أجل وجودهم على امتداد وادى النيل، فإن البدو المستقلين الذين لايخضعون للقانون ، والذين شاركوا أحيانًا فى هذه الطريقة الزراعية للحياة، كانوا هم فقط الذين يثورون ضد النير الأجنبى، ويشنون هجمات مسلحة مستمرة ضد المماليك(**). وعلى أية حال ، ففى بعض الأوقات ، كان سلاطين المماليك يتحالفون مع قبائل بدوية بعينها ، عندما يرون أن لهذا جدوى، وكانوا يعيشون بينهم ويرتدون ملابسهم. وفى مقابل الخدمات التى كانوا يؤدونها للمماليك والخدمات العسكرية كانوا يتلقون مكافآت سخية .

وعلى الرغم من أنه قد يبدو أن المماليك كانوا يبدون ظالمين لأهالى البلاد، فإن الزوار الأوروبيين فرضت عليهم شروط ألا يتعدوا على القواعد الصارمة الخاصة بالدين الإسلامى ، ولم يكونوا يسافرون بعيدًا عن الطرق المحددة، كما كانوا يدفعون الضرائب المطلوبة، وفيما عدا ذلك كانوا أحرارًا . وحتى إذا تخطى بعض الأفراد الخطوط المحظورة ، فإن العدالة لم تكن دائمًا قاسية بلا داعٍ . وقد صدرت فتوى فى القرن الرابع عشر نتيجة مزاعم بأن بعض تجار الفرنج ارتكب جنحة فى ميناء عكا أوضحت أن الحكم فى القضية كان عادلاً.

(*) استخدمت هذا المصطلح لترجمة كلمة renegades الواردة فى الأصل الإنجليزى، ومعناها «المرتد أو الخارج عن الدين» ؛ لأن مصطلح «الأسالمة أو «المسالمة» (ومفردها «أسلمى أو سلمى» كان هو المصطلح المستخدم فى عصر سلاطين المماليك للدلالة على المسلمين الجدد . (المترجم)

(**) هذه مرة أخرى إشارة إلى عدم معرفة المؤلفة بحقائق التاريخ الذى تكتب عنه ، فقد كان البدو يهاجمون المدن والقرى فى حال ضعف السلاطين ، وكان السلب والنهب هدفهم دائمًا، ولم يكن فى ذهنهم أى بعد سياسى. بل إن فرقًا منهم كانت تخدم فى الجيش المملوكى ساعة الحرب بوصفها قوات مساعدة . (المترجم)

«مدينة عكا على ساحل إقليم صفد لها ميناء يفد إليها الفرنج من البحر لكى يبيعوا ما يجلبونه معهم ويشتروا بضائع غيرها ويعودوا إلى بلادهم ، ولم يكن من عادتهم أن يحتفلوا بأعيادهم ومواسمهم علناً فى عكا كما لم يمارسوا ما اعتادوا عليه فى بلادهم ، ثم حدث فى أحد الأيام أن تجمع الفرنج سوياً، ومن بينهم أشخاص قطعوا أغصان الزيتون لهم، ووضعوا هذه الأغصان على أكتاف الحمالين مع عوارض خشبية .

(١-١٢) السلطان المملوكى قبل الأخير قنصوه الغورى

(*) لم أستطع العثور على النص الأصلى لأن المؤلفة لم تشر إلى مصدرها . (المترجم)

ثم أركب الفرنج على العوارض عدداً من صبيانهم بالطبل والزمر . وبينما كان الصبيان المذكورون فى الميناء صلُّوا علانية من أجل السلطان الملك الصالح ، ثم ذهب الجميع إلى خرائب عكا، وعلى رأس الموكب كان مقدم الإقليم والميناء وعدد من المسلمين وسيوفهم مشرعة . وعندما وصلوا الكنيسة، صلّى الصبيان ، المحمولون على أكتاف المسلمين ، للمسيح لإنقاذ ديانة الصليب، ورفع أحدهم حربة بها راية مربوطة».

وقام الحاكم المحلى بعد اعتقال الفرنج والمسلمين المتورطين فى القضية بسؤال أقرب قاضٍ عن حكم الشرع . وبعد كثير من المداولة تقرر «يجب احتجاز أولئك الفرنج هنا حتى يطلقوا سراح الأسرى المسلمين فى بلادهم ؛ لأن لديهم الوسيلة لفعل ذلك بنفوذهم وأموالهم ...»؛ لأن مثل هذا الإجراء الآن أفضل من الإعدام، أو إظهار الرحمة بهم، أو استرقاقهم، والله سبحانه وتعالى أعلم»(*).

وعند نهاية القرن الخامس عشر تصادف تدهور التدريب العسكرى التقليدى فى سلطنة المماليك مع ظهور الأسلحة النارية، التى استخدمها الأتراك العثمانيون بقدر كبير من النجاح، بل إنه فى وقت مبكر ، سنة ١٣٤٦م ، كان إدوارد الثالث ملك إنجلترا قد استخدم البنادق كسلاح سرى لهزيمة الفرنسيين فى معركة كريسى Crécy. وإذ لم يكن المماليك على استعداد لاستخدام التكنولوجيا الجديدة ، وغير جاهزين لصناعة مدفع جديد ، كانوا لا يزالون يتشبثون بمهاراتهم العسكرية القديمة القائمة على أساس الفروسية، وكانت تلك السياسة المتأخرة هى التى أفقدتهم سيادتهم وحكمهم فى معركة مرج دابق ضد الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧م. وكان الوقت قد فات حين حاول السلطان العجوز الأشرف قنصوه الغورى تحديث جيشه . وقد وصف ابن إياس المؤرخ الذى كان من أصول مملوكية زيارته سنة ١٥١٠م لتفقد المدفع الجديد الذى كان قد نصب . وحكى أنه عندما أشعلوا البارود فى المدافع كلها انفجرت : «... فلما أطلقوا فيهم البارود تفرقوا أجمعين، وبقى نحاسهم طاير مع الهوى ولم تصح منهم واحدة ... فتزايد نكد السلطان فى ذلك اليوم إلى الغاية ، ورجع إلى القلعة سريعاً ...»(*).

(*) ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور (تحقيق الدكتور محمد مصطفى، القاهرة ١٩٦٠م) الجزء الرابع، ص١٩٢ .

هوامش الفصل الأول

General: Al-Maqrizi, Histoires des sultans mamlouks de l'Egypte; Wilson (trans.), Beha Ed-Din, Life ofSaladin, vol. XIII, p. 1; Garcin, 'The Regime of the Circassian Mamluks' (sultanate of Qaitbay, pp. 295-97); Giovio, Gli elogi e vite brevemente (his portrait gallery, pp. 97-199); Rovelli, Paolo Giovio nella storia e nell'arte, pp. 25-28; Cragg, An Italian Portrait Gallery; Muntz, Le Musee de portraits de Paul Jove (possible origin of portraits, p. 260); Glubb, Soldiers of Fortune; Hildebrand, The Crusades: Islamic Perspectives; Holt, The Age of the Crusades (see especially 'Institutions of the Mamluk Sultanate', pp. 138-154; and 'Diplomatic and Commercial Relations', pp. 155-66); Lewis, The Arabs in History; Maalouf, The Crusades Through Arab Eyes; Mayer, Mamluk Costume; Weit (trans.), Ibn Iyas, Histoire des Mamlouks circassien; Leclerc, Histoire de la Medicine Arabe, I, pp. 568-70; Popper, Egypt and Syria under the Circassian Sultans; Lapidus, Muslim Cities in the Late Middle Ages, pp. 44-58 (trade and the Karimi merchants, pp. 124-127). The army: works listed by Ayalon, especially L'Esclavage du Mamelouk; 'The Plague and its Effects upon the Mamluk Army', pp. 67-73, 'Furusyya Exercises and Games in the Mamluk Sultanate', pp. 46-51;Lapidus, Muslim Cities in the Late Middle Ages, pp. 44-56; Petry, 'Late Mamluk Military Institution and Innovation', pp. 464-95; Smith (ed.), Medieval Muslim Horsemanship; Dopp (ed.), Le traite d'Emmanuel Piloti (education of young slaves, pp. 14-18); Esposito (ed.), Itinerarium Symon Semeonis (polo, p. 77); Popper, Egypt and Syria under the Circassian Sultans (sultan's emblems, of sover.eignty, bands, music and tents, classes of amirs, Mamluk army and bureaucracy, pp. 84-100). Sultan Al-Malik al-Nasir: Popper, Egypt and Syria under the Circassian Sultans, pp. 184-195 ; .Relations with the Franks: Holt, 'The Treaties of the Early Mamluk Sultans', pp.

67-76; Dopp (ed.), Le traite d'Emmanuel Piloti (favoured by Faraj, p. 20); Bellorini and Hoade (ed. and trans.), Francesco Suriano (Qaitbay in Jerusalem, pp. 126-30); Fischel (ed. and trans.), 'Ascensus Barcoch', pp. 57-74,152-72; Wansburgh, 'Venice and Florence in the Mamluk Commercial Privileges', pp. 483-95; 'A Mamluk Ambassador to Venice in 913/1507', pp. 503-30. Qaitbay and Lorenzo de' Medici: Babinger, 'Lorenzo de' Medici e la corte ottomana' (Anne of France's desire for giraffe, p. 351); del Badia (ed.), Luca Landucd (giraffe in Florence, p. 44). Justice to Franks: Atiya, 'An Unpublished XIVth Century fatwa\ pp. 55-63.

الفصل الثانى

مصر بين التخيل وحقائق الرحلة

حتى إذا كان الأوروبيون قد شعروا ببعض العداء تجاه المسلمين ، فإن ذلك لم يمنعهم من المخاطرة بحياتهم فى رحلات بحرية خطرة ، بقصد القيام برحلات حج إلى الأماكن المسيحية المقدسة وزيادة التجارة الغنية مع المسلمين . هذه النظرة الاستشرافية صارت نمطية مع رجال من أمثال فرنسسكو دى ماركو دانتينى من براتو ، وهو تاجر فلورنسى ثرى كان يضع على رأس صفحات دفاتره الحسابية عبارة «باسم الرب وباسم الربح» . كذلك كان السفر للخارج ذا طابع معين ؛ فقد صار الرحالة، بؤرة الاهتمام، شخصًا ذا أهمية عند عودته . وكانوا يعتبرون أن الفلورنسى الذى لم يكن تاجرًا ، ولم يكن قد سافر فى أنحاء العالم يشاهد الأمم والشعوب الأجنبية ثم يعود بعد ذلك إلى فلورنسا ومعه ثروة ما، رجلاً لايتمتع بأى تقدير مهما كان . وعلى أية حال، فإن التباهى بالإنجازات لم يكن يكسب الأصدقاء، كما أن التفاخر بالثروة كان يمكن أن يأتى بالضرائب غير المرغوبة، وقد حذر كوسيمو دى ميدتشى (الأكبر) (١٣٨٩-١٤٦٤م) الذى كان رجلاً حذرًا يميل إلى السرية ، والذى يخشى دائمًا من الأعداء المحتملين، حذَّر من جذب الانتباه أكثر مما ينبغى، مسديًا النصيحة بأن الحسد عُشبة ضارة لايجب ريُّها .

كان المعروف عن مصر الفرعونية قليلاً فى أوروبا القرن الرابع عشر ، وكانت تعتبر محجوبة فى ضبابية العصور القديمة، مليئة بالأسرار والعجائب . ولكن مع إحياء التعليم الكلاسيكى تكشفت بالتدريج صورة غير مكتملة لهذه البلاد العتيقة ، تتألف من الحقيقة والخيال على السواء. وقد كان چيورچيو ڤاسارى Giorgio Vasari ، فى مقدمته
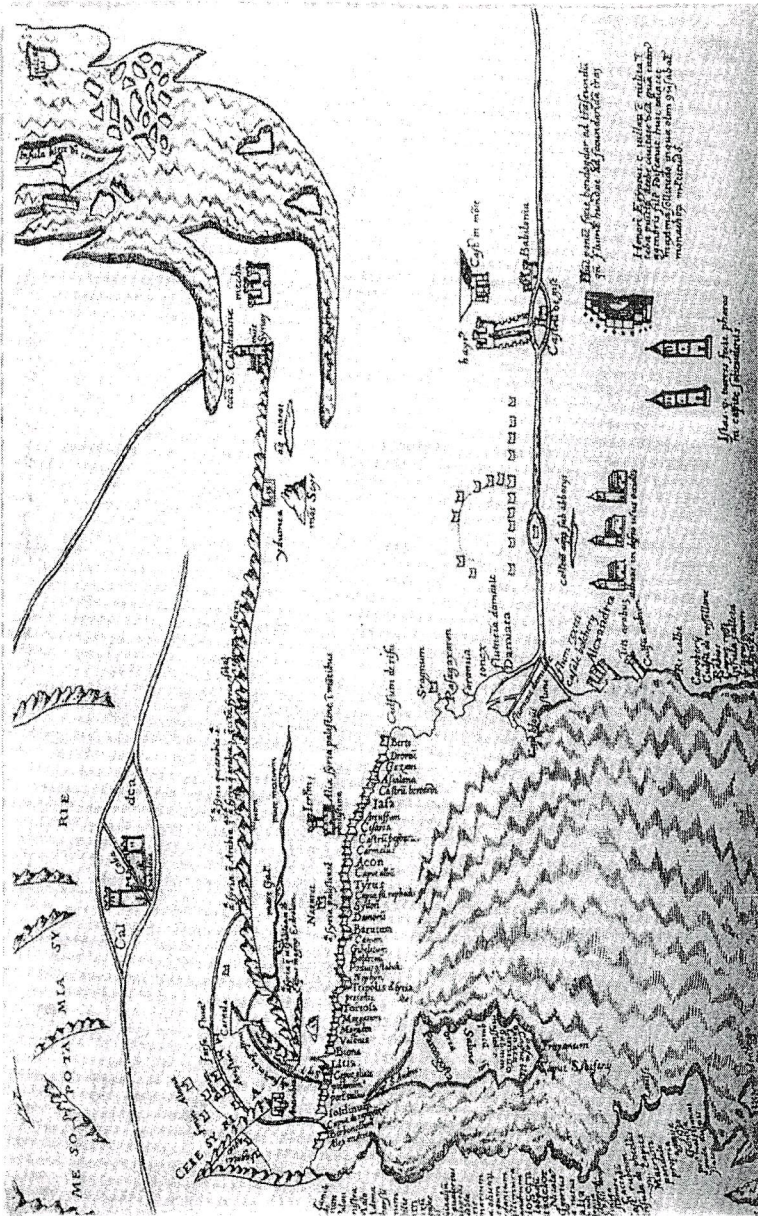
(١-٢) خريطة مصر وآسيا كما رسمها مارينو سانوتو

لكتاب «حياة الفنانين **Lives of the Artists**» مدركًا تمامًا أن جميع الذين كتبوا عن الموضوع يجمعون بحزم على أن فنون النحت والرسم كانت مستمدة بداية من الطبيعة على أيدى شعب مصر.

وقد حكت قصص الكتاب المقدس عن مصر حكاية يوسف وزير فرعون، وموسى الذى اكتشفته ابنة فرعون فى أعواد البوص (على جانبى النيل) ، وكانت مصر هى البلد التى آوت مريم ويوسف النجار ويسوع عندما هربوا من اضطهاد هيرود ، هذه الحكايات
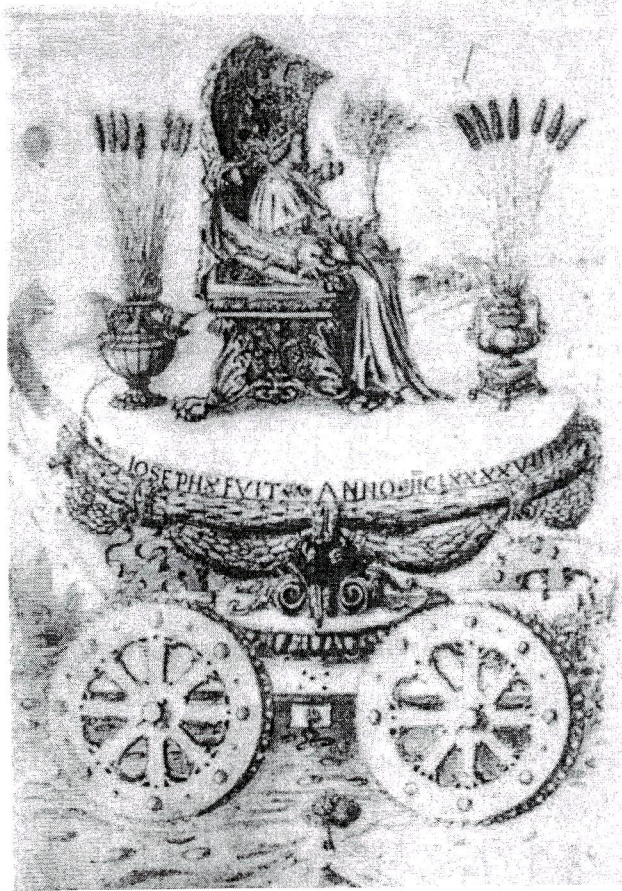
(٢-٢) يوسف يستعرض فى عربته الاحتفالية ،
مع وعائين بهما السنابل السبع المليئة والسنابل السبع العجاف من الغلال

كانت مألوفة حتى بالنسبة للأميين الذين رأوا فيها موضوعات للرسم وأعمال الفريسكو والموزايكو فى كنائسهم . أما الفنانون الذين لم يذهبوا إلى مصر على الإطلاق فقد استخدموا نماذج محلية ربما مع بعض الجمال ذات الشكل النموذجى التى رُسمت فى الصورة لإضفاء نكهة شرقية، وكانوا يرسمون انطلاقًا من خلفية من الريف المألوف لهم.

وفى إيطاليا العصور الوسطى، كادت قصص العهد القديم عن يوسف فى مصر أن تكون لها وجودها المستقل ؛ فقد كانت موضوعات شعبية لتزيين صناديق المجوهرات Cassoni فى المنازل . وفى بعض الأحيان كان يمكن رؤية يوسف مرتديًا ملابس خيالية ، مزينًا بشارات الملك وجالسًا على عربة كبيرة ، يلعب دوره فى أحد مواكب احتفالات الشوارع التى كانت تشق طريقها خلال الشوارع الضيقة فى المدن الإيطالية الرئيسية. وعادة ما كانت التريونفى Trionfi ، وهو الاسم الذى صارت تُعرف به هذه المواكب ، تجرى فى أوقات زواج الدوقات والمناسبات البهيجة فى المدينة . وكانت الشخصيات التاريخية تصور على هيئة الآلهة والربات الإغريقية الذين لعبوا أدوارًا بارزة فى العربات المزينة . وفى فلورنسا القرن السادس عشر صارت مواكب العربات هذه معقدة للغاية ، لدرجة أن بعض مديرى خشبة المسرح ومصممى الأزياء لديهم انتابهم الضجر من مجمع الآلهة الإغريقية، وبحثوا فى كل مكان آخر سعيًا وراء التجديد . وفى مسرحية Le dieci mascherate delle bufole التى أنتجها چيورچيو ڤاسارى فى سنة ١٥٦٥م من أجل التجار الإسبان فى فرنسا ظهر أوزيريس الطيب جالسًا على كتلة سوداء. كان يلبس إكليلاً من اللبلاب مصنوعًا من الحرير الأخضر على رأسه، ومعه غطاء رأس من المخمل الأحمر مزينًا بأقنعة صغيرة تمثل الأسد والذئب والرب. وقد صوّره القناع الذى يغطى وجهه فى صورة رجل عجوز ذى لحية محترم، وكان مطليًا كله بالذهب. وفوق معطفه المصنوع من الساتان الأحمر كانت عباءة ذهبية فاخرة تتدلى من على كتفيه. ومن المشكوك فيه ما إذا كانت الجماهير المصطفة على طول الطريق قد استطاعت أن تتعرف على بعض أكثر الجوانب غرابة فى الآلهة المصرية التى كان يتم استعراضها أمام نظرات الجماهير التى لايساورها شك. ولابد أن معظم هذه الجماهير لم يكونوا قد قرأوا ما كتبه الكاتب الكلاسيكى أبوليوس Apuleius الذى وصف الآلهة المصرية بتأكيد

كبير، والذى كان مصممو الملابس يستقون معلوماتهم منه، والواقع أن كل شيء كان معقداً لدرجة أن أولئك المسئولين عن الاستعراض كانوا مجبرين على إصدار كتيب لكى يفسروا أعمالهم.

وفى كنيسة سان مارك التى بُنيت على طراز البازيليكا فى البندقية القرن الحادى عشر، رُسمت قصة يوسف بالموزايكو فى سقف الرواق الشمالى. فقد رسم الفنان فى تفصيل شديد الدقة المشاهد الرئيسية لمغامراته فى مصر ، ومحاولة زوجة فرعون إغواءه، ثم حبس يوسف فى السجن، وفرعون بتاجه الذهبى فى زى كلاسيكى يحلم فى سريره، ويوسف الوزير يشرف على تخزين الغلال. وكانت هذه الغلال تشاهد مخزونة فى الأهرام ، التى صورها الفنان أبنية، وعددها خمسة ولها نوافذ . وفكرة أن الأهرام كانت مخازن الغلال للفراعنة (أو شون يوسف) لها تراث طويل استمر حتى القرن السادس عشر. وقد سببت ارتباكًا لبعض أولئك الرحالة اللاحقين الذين سافروا إلى مصر، والذين كانوا قد عرفوا الكُتَّاب الكلاسيكيين من أمثال هيرودوت الهاليكارناسى الذى زار مصر حوالى سنة ٤٥٠ ق.م ، وقد وصف هيرودوت أهرام الجيزة، وسجل طريقة بنائها مثلما حكاها له الكهنة.

كذلك كانت قصص الآباء والرهبان المسيحيين الذين عاشوا فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين مألوفة، وهم الزهاد الذين انسحبوا إلى الكهوف الموحشة وسط الخصوصية التى توفرها الصحراء المصرية المجدبة. وكانت صورهم التى اتخذت شكلاً مثاليًا ترسم على خلفية من أرض جبلية قاسية خيالية، وكان يرسمها هكذا الفنانون الذين ينتمون إلى مدرسة فلورنسا وسيينا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بصفة خاصة، كانت هذه الصور تخلق فى المشاهدين يقينًا لايتزعزع بشأن التدين المنظم للزهاد . فالقديسون من أمثال مكاريوس **Marcarius** وأونوفريوس **Onuphrius** كانوا يرسمون فى صورة الأشخاص الشاحبين شديدى الهزال ، وهم عراة عادة لا تغطيهم سوى ذقونهم الطويلة. وكانت هناك شخصيات شهيرة أخرى منهم بولس أبو الرهبنة ، وأنطونيوس المصرى النبيل، الذى ترك ضياعه الغنية ليعيش فى صومعة قاسية بالقرب من البحر الأحمر، ومريم المصرية ، التى كان الرسامون يصورونها

أحيانًا وهى تختلس النظر خارج الكهف الذى اتخذته مسكنًا . وكان يتم تصويرها متوارية وراء خصلات شعرها المتموج الطويل، وهى تحملق فى ملاك يحوم فوقها ، وهو يقدم لها فى حياء تفاحة ملفوفة فى منديل. وكانت قصص حياتهم تحظى بقراءة شعبية واسعة، وكان بعضها متضمنًا فى كتاب «الأسطورة الذهبية» **The Golden Legend** ، وهو كتاب دينى ألفه يعقوب القورينى **Jacob of Varaigne** (١٢٣٠-١٢٩٨م) ، وهو راهب دومينيكانى صار كبير أساقفة چنوا عندما كان فى السادسة والعشرين من عمره. وفى القرن الخامس عشر ، بعد اختراع الطباعة مباشرة ، ظهرت منه أكثر من مائة وخمسين طبعة ، مما جعله أكثر الكتب انتشاراً بعد الكتاب المقدس. وعلى الرغم من أن الإنسانيين فى عصر النهضة فيما بعد، والذين ظنوا ألا قيمة لها من الناحية التاريخية ،

(٢-٣) هرمس (موزايكو يقال إنه من عمل چيوڤانى دى ستيفانو **Hermes Trismegistus**)

نظروا إلى هذه القصص بازدراء ، فإنها كانت مبجلة لدى غير المتعلمين بسبب روح التدين والإيمان التى تحملها، ولاسيما إذا عززت شهرة القديس الراعى المحبوب لديهم.

وقد فُهمت مصر القديمة أيضًا باعتبارها مكانًا للسحر والتنجيم؛ إذ إن سِفْر الخروج (٧-١١) يتحدث عن الرجال الحكماء، والعرّافين والسحرة فى مصر. وهناك تصوير بالرخام الملون على أرضية من القرن الخامس عشر فى الديومو **duomo** فى سيينا يصور هرمس **Hermes Trismegistus** ، وكان فيلسوفًا مصريًا أسطوريًا، تم الربط بينه وبين الإله توت، ونسب إليه التدين والحكمة . وكل من الكُتَّاب المسيحيين والوثنيين القدامى، الذين تأثروا بتعليمه تغنوا فى مديحه . وهناك عدد من المقالات المنسوبة إليه تُعرف باسم **Corpus Hermeticum** (أعمال هرمس) ومكتوبة باليونانية تمت ترجمتها إلى اللاتينية سنة ١٤٦٣م على يد مارسيليو فيشينو **Marsilio Ficino** من أجل كوسيمو دى ميديتشى الأكبر أمير فلورنسا. وحكى مارسيليو ، الذى كلفه كوسيمو فى ذلك الوقت بترجمة مخطوط مهم لأفلاطون، أنه تلقى أمرًا بأن يُنحى هذا المخطوط جانبًا حتى ينهى الـ **Corpus** . وقد رسم الفنانون فى الديومو (ويحتمل أنهم كانوا چيوفانى دى مايسترو ستيفانو ومساعديه) هرمس المصرى مرتديًا ملابس فخمة ، يلبس قبعة طويلة ، وهو يعرض لوح القوانين على ممثلى الأهالى والسكان الإغريق فى مصر. وهناك كتابة تقرر أنه كان معاصرًا لموسى. وفى أماكن أخرى كان هذا الشخص الغامض يُصور فى لباس الملوك بعنوان **"Mercurius Re Degitto"** (مركوريوس ملك مصر) وهو يمسك بيده قزمًا عاريًا بطريقة الساحر. وبدوره كان هرمس ، مثل يوسف ، يشارك ضمن شخصيات مهرجانات الشوارع، وفى الدخول المظفر لأمراء عصر النهضة اللامعين فى القرن السادس عشر إلى مدنهم، ومعه إيزيس وأوزيريس على نفس عربة الاستعراض ، واللذان كانا قد زحفا ضمن موكب مجمع الآلهة الكلاسيكية ، الذين كان حضورهم يعتبر ضرورة لتعزيز كرامة البيت الحاكم المحلى.

وبغض النظر عن معرفتهم بالبلاد القريبة منهم نسبيًا، كانت معرفة الأوروبيين بالجغرافيا بمعناها الحديث ضئيلة . كان هناك عدد قليل من المستكشفين فى القرن

الثالث عشر، وبغض النظر عن رواية ماركو بولو، ظل الشرق محلاً للتخمين. فقد كانت كتب الرحلات المعاصرة مزيجًا من الحقيقة والخيال ، ترقعها ما جمعته المؤلفات السابقة ، لكى تزيد من عدم دقة بعض محتوياتها. وقد أخذ الناس أحد مثل هذه الكتب على أنه كُتب على يد كاتب غامض يُعرف عمومًا باسم سير چون مانديڤيل Sir John Mandeville (مات سنة ١٣٧٢م تقريبًا) ، وقد ضُفِّرت ملاحظات مانديڤيل عن رحلاته والوصف الاجتماعى مع روايات أقدم زمنًا، بما تحمله من أخطاء . وحكاياته عن العجائب كانت تدور مع الخرافات والشائعات ، لكى تُسلى قراءه وتلهيهم لدرجة أن الإقبال عليها أدى إلى ترجمة المخطوط إلى عدة لغات مختلفة منذ منتصف القرن الرابع عشر، وذلك قبل ظهور المطبعة . ويقوم ثلثا الكتاب تقريبًا على مصادر يعتد بها، ويهتمان بأقاليم ثلاثة ، كان أحدها يشمل دورة الحج المسيحية ما بين مصر والأرض المقدسة. وعلى الرغم من تخيلات مانديڤيل التى أقحمها فى الكتاب ؛ فقد تمكن الرحالة الذين اتبعوا خطاه إلى مصر من أن يروا بأنفسهم أنه كان قد وصف بدقة بعض العادات، والنبات، والحيوان، فى وادى النيل، كما صدَّق كثير منهم ما وصل إليه من استنتاجات عن أصول الأهرام؛ إذ قال مانديڤيل إن بعض الناس يواصلون القول بأنها كانت «أضرحة السادة الكبار»، ولكنه استبعد هذه الفكرة بحزم ، وأصرَّ على أن الجميع يعتقدون أنها كانت مخازن الغلال الخاصة بيوسف ، وهو ما عززته الكتب المقدسة وكتب التاريخ : «بالإضافة إلى أن الأهرام لو كانت أضرحة السادة الكبار ، لما كانت خاوية، ولما كانت بهذا الحجم الكبير وبهذا الارتفاع ، ولكان أمامها بوابات وممرات. ولهذا السبب لايجب النظر إليها على أنها مقابر» .

ومن ضمن خرافات مانديڤيل ما ذكره عن طائر العنقاء المصرى، وهو طائر خرافى اعتبر رمزًا للبعث والميلاد المتجدد. وفى عصر النهضة كان طائر العنقاء موضوعًا لمناقشات فكرية بين الإنسانيين الذين اقتبسوا الإشارات الواردة عنه لدى الكُتّاب الكلاسيكيين والكُتّاب المسيحيين الأوائل ، كما تسلل موضوع العنقاء إلى الفن الدينى . ففى سنة ١٥٧٠م، قام الفنان أنطونيو كوربريللى Antonio Corberelli بإدخال صورة العنقاء فى واجهة المنبح الرخامى المزين بالحفر الغائر فى كنيسة التاج المقدس فى ڤيتشنزا Vicenza .

وقد ظهر بجناحين مفرودين جاثمًا على حزمة من العصى كما لو كان يضرم النيران، وكانت الرأس ملونة باللون الأحمر والأزرق، وله عُرف أزرق، وينظر باتجاه الشمس التى تسطع ثلاثة أشعة منها عليه. وقد سرت شائعة بأن طائر العنقاء الحقيقى كان ريشه متداولاً، وأن البابا كليمنت الثامن قد أرسل ريشة من ريش العنقاء إلى إليزابيث الأولى فى بلاك ووتر Blackwater سنة ١٥٩٨م. وحسب رواية مانديڤيل ، أطلعه كهنة هيلوبوليس على كتاب يصف موت الطائر وقيامه بعد خمسمائة سنة. وفى نهاية الفترة جاء إلى مذبح المعبد؛ حيث احترق وصار رمادًا ، ومن الرماد خرجت دودة صارت طائرًا جديدًا، حلَّت محل الطائر القديم، وكانت رقبته صفراء والظهر أزرق نيلى، وكان ذيله شرائط حمراء وخضراء وصفراء، وكانت الرأس تحمل عُرفًا مثل عُرف الببغاء. وقد قدم مانديڤيل وصفًا بالرسم للطائر العجوز وهو يحترق فى الجمر وللبعث وعودة الحياة للطائر الذى ولد من جديد وهو يحلق بعيدًا . وقد أعلن «إننى رأيته مرتين "Vidi duabus vicibus" ، فلماذا يشك فيه قراؤه ؟ ومهما يكن من أمر، فإنه قد وصف تربية الطيور الداجنة فى وادى النيل وصفًا صحيحًا، وهو ما ذكره الكُتَّاب الكلاسيكيون، وعلى أية حال ، بقى من الناس من كان يتشكك فى حكاياته. فثمة ملاحظة ممتعة كتبها شخص ما فى القرن الثامن عشر على ما تبقى من طبعة من كتاب «الرحلات» تاريخها ١٥٠٣م، أوجزت رفض خرافات مانديڤيل : «لا داعى للسفر لكتابة مثل هذا الكلام ؛ لأن أى أحمق غريب الأطوار يمكنه فعل هذا وهو بمنزله».

ولم يكن رسم الخرائط فى القرن الرابع عشر قد تطور بعد ؛ إذ كانت الملاحة فى البحار تتم بمساعدة خرائط البحارة Portolani التى تشير إلى خطوط السواحل، والجزر والموانئ والمسافات . وكانت معظم السفن تسير بمحاذاة الشاطئ كلما أمكن ذلك، مما كان يطيل زمن الرحلة؛ لأن رجال البر والبحَّار العادى كانوا يخشون البحر المفتوح. وكانت دلتا النيل قد صارت مألوفة بفضل تأسيس المراكز التجارية والهجمات الصليبية ضد المسلمين. وقد هاجم الكاردنيال بيلاجيوس وحنا برين دمياط سنة ١٢١٩م (الحملة الصليبية الخامسة)، كما هاجمها لويس التاسع، ونزل ساحلها سنة ١٢٤٩م قبل أن يتم أسره فى المنصورة ١٢٥٠م (الحملة الصليبية السابعة)، ثم جرت بعد ذلك

بالتدريج محاولات لرسم خرائط العالم، وقد بُنى كثير منها على أساس خريطة بطليموس كلوديوس الفلكى والجغرافى الذى عاش فى القرن الثانى، وربما كان من أهالى الإسكندرية. وكانت أعماله ، مثل النسخة الغنية بالزخرفة عن أصل إغريقى (فى مكتبة مارسيانا بالبندقية) بتكليف من مكتبة الكاردينال بيساريون الطرابيزونى، كانت تعتبر من المقتنيات الثمينة، وتوضح صفحة الغلاف صورة نموذجية لبطليموس وهو بشارات الملك. وهذا الرسم الذى رسمه الفنان أظهره فى صورة من يقوم بدور مزدوج ملكًا بطلميًا على مصر وجغرافيًا تحيط به الأدوات العلمية والمخطوطات ، ولم تكن هذه الفوضى الخاصة أمرًا غير شائع.

وقد ازدهرت خرائط البحارة «البورتولونى» هذه فى تخيلات تصويرية للعالم المعروف . وثمة خريطة ملاحية جميلة مرسومة سنة ١٣٧٥م على أيدى اثنين من سكان مايوركا، أبراهام ويوفادا كريك ، صورت البحر الأحمر على أنه أحمر اللون فعلاً ، وكثرة من الجمال والأشخاص ذوى العمائم ، وظهرت الهند جنوب مصر، وهو ما كان تأكيدًا على فكرة ذائعة فى ذلك الزمان. وهناك خرائط تصويرية أخرى تحيِّر الناظرين جاءت عقب ذلك، مثل خريطة العالم اللوزنتية التى رسمت حوالى سنة ١٣٥١م لإرشاد البحارة ، وخريطة العالم البورچية قبل سنة ١٤٥٠م . وربما تكون خريطة العالم البورچية قد رسمها كُتَّاب معاصرون من الرحالة والمراقبين، تصف ما سمعوه وما شاهدوه . ولم تعتمد على العلماء القدامى، على الرغم من أن بعض الأساطير كانت متضمنة جنبًا إلى جنب مع قصص المجوس وقصص الأناجيل . وربما بتكليف من مجلس الشيوخ البندقى، تم رسم خريطة تصويرية لافتة للعالم بالألوان سنة ١٤٥٩م على يد المدعو فراماورو Fra Mauro ، الذى كان راهبًا من رهبان كمالدوليس Camaldules فى سان ميشيل بالقرب من البندقية ، وما نعرفه عن «ماورو» قليل فيما عدا أنه قد تميز فى الرياضيات والفيزياء وكان عالمًا لايُبارى فى الكوزموجرافيا (أى وصف العالم بالرسم) . وبينما اعتمد ماورو على بطليموس الجغرافى، فإنه جسَّد أيضًا الأوصاف الجغرافية التى كتبها ماركوبولو، واستخدم خرائط برتغالية عن ساحل غرب أفريقيا ، والتى كان بحوزته منها عدد كبير. وبالإضافة إلى ذلك ، أدخل معلومات استقاها من رحلات

المبشرين الجسورين ، الذين كانوا يسعون إلى تحويل الناس إلى المذهب الكاثوليكى ، والذين توغلوا فى المناطق القليلة المعروفة من أراضى الحبشة . وبينما حظى بطليموس باعتراف عام بأنه رجل عارف، فإن ماورو لم يقتنع بفكرته بأن فيضان نهر النيل كان يأتى من أقاليم «جبال القمر» الخرافية فى الحبشة، وأدخل بحذر معلومات أولية عن المنطقة جنبًا إلى جنب آراء بطليموس، كما أدخل قصص الكتاب المقدس المتكررة غالبًا عن منبع نهر النيل (الذى تسميه جيحون) باعتباره واحدًا من الأنهار الأربعة التى تنبع من جنة عدن أو «الجنة الأرضية» (تكوين ٢ ، ١٠-١٣) .

ومع تطور عمل الخرائط سجل الرحالة تجاربهم الشخصية من أجل أولئك الذين فى أوطانهم، خاصة فى خلال القرن الرابع عشر، وكان الكُتَّاب الإيطاليون هم الأبرز فى هذا المجال. وقد حُكيت التفاصيل الفردية عن الأخطار والمتاعب فى الرحلات البحرية بالرسم، وكانت هناك نصائح عملية بشأن المؤن التى ينبغى أخذها على متن السفينة ، وتحذيرات أيضًا حول العقود التى يجب إبرامها مع القبطان قبل الصعود إلى السفينة .

فى أبريل سنة ١٣٤٦م ، استعد نيكولو البوجيبونسى Niccolo of Poggibonsi (وهى بلدة ما بين سيينا وفلورنسا) للقيام برحلة حج إلى الأرض المقدسة ثم جولة ممتدة إلى الأماكن المقدسة فى مصر. وكان شخصية متفردة ذا حظ عظيم من حب الاستطلاع، «أن أزور كل شىء وألا أعود إلى بلدى دون أن أقوم بهذا» . وحكايته، وهى من أولى ما كتب فى اللغة الإيطالية ، تكشف عن أنه أحجم عن إصدار أحكام على عادات الأهالى. وقد لاحظ أن الأراضى التى كان يحكمها سلطان القاهرة تتمتع بوضع اقتصادى-جيد، وأن مدنهم لها جاذبية عظيمة ؛ لأنها غنية كثيرة السكان والطرق آمنة من المخاطر . وقد حرص نيكولو على أن يحمل معه ألواح الكتابة الجصية حتى تكون أوصافه للمواضع المقدسة والكنائس المسيحية مباشرة، وهى لا تزال ماثلة فى ذهنه. وقد استمتع بأنواع النباتات والحيوانات غير العادية التى وجدها فى الصحراء وفى الأرض المزروعة . وكانت رحلة نيكولو البحرية إلى مصر فى فصل الربيع رحلة لايُحسد عليها حتى بمعايير السفر فى القرن الرابع عشر:

«كانت قد مضت أيام قليلة من مارس فى سنة سيدنا يسوع المسيح ١٣٤٦م عندما سافرت من بوجيبونسى ، ومررت بفلورنسا وبولونيا ، ثم عن طريق قناة مائية إلى فيرارا ، ثم واصلت مع نهر البو حتى مدينة شيوجيا Chioggia ، ثم ركبت سفينة ومضيت بطريق البحر إلى مدينة البندقية الشهيرة».

وبعد أن أمضى نيكولو بضعة أيام فى البندقية ، رسم علامة الصليب فى ٦ أبريل، ثم صعد سفينة ذات صاريين وقمرتين ، وبعد اليوم الثانى من الرحلة هبت عاصفة فى تلك الليلة كانت من الشدة بحيث غرقت تسع سفن فى البحر الأدرياتى المعروف بالنسبة للملاحين باسم «خليج البحر البندقى» :

«ولم يكن باستطاعة أحد على متن السفينة أن يقف، ولا حتى يستطيع أن يرقد منبطحًا دون أن يرتطم بالجانب الآخر من السفينة حيث كان الجميع تحت السطح، ولم يكن هناك سوى البحارة أعلاه يناضلون للهروب من الهلاك . ولكن بين همهمة طلب الرحمة ، ومن بين الصرخات والعويل وضرب الصدور كان يمكن سماع : «إلام سنموت!»، وكثيراً ما ذهب قس السفينة إلى أسفل ليرى ما إذا كانت السفينة قد دُمرت، واعتاد على القول: «أيها الرهبان والناس الطيبون الآخرون صلوا لله أن ننجو من مثل هذا الموت القاسى».

ولكن العاصفة استمرت ، على الرغم من الترانيم التى أنشدت للعذراء والتوسلات للقديسين المفضلين لديهم؛ لأنهم لم ينعموا بالسلام طيلة تلك الليلة وفى أثناء اليوم التالى. وكانوا يتوقعون فى أية لحظة أن تغرق السفينة، على حين كانت البراميل تتدحرج من جانب إلى آخر فى السفينة والأشياء مختلفة الأحجام تهوى دون شفقة على رؤوسهم وأكتافهم :

«وتكسرت جميع الأشياء الفخارية، لدرجة أنه بعد العاصفة لم يكن لدينا شىء واعترفنا جميعًا بذنوبنا ، وسامح كل منا الآخر، ولم يكن بوسع أحد أن يتحدث بسبب كثرة الدموع، وقد بُحَّت أصواتنا بسبب الصراخ الكثير . وبمشيئة الرب الذى لم يرغب فى أن يموت شعبه بهذه الطريقة ، ساد الهدوء فى اليوم التالى ، وفى الصباح نظر كل

منا إلى الآخر كما لو كان قد نسيه ؛ لأننا جميعًا ظهرنا كما لو كنا خارجين من القبور، شاحبين مصفرى الوجوه ، وكل هذا بسبب الخوف».

وفى سنة ١٥٩٧م ، كتب چون دون John Donne خطابًا بالشعر إلى صديقه كريستوفر بروك Christopher Brooke يصف سفينته فى قبضة عاصفة عنيفة خلال الرحلة الطائشة تحت قيادة إيرل إسكس إلى كاديز Cadiz فى جُزر الهند الغربية . وكانت تجربته مشابهة على نحو يلفت النظر:

يرقد البعض فى قمراتهم كأنهم فى توابيتهم

يأسون على أنهم ليسوا موتى ، ولكنهم سيموتون حتمًا ،

وبما أن الخطايا التى تثقل الأرواح سوف تزحف من القبور

في يوم الدينونة، يختلس بعضهم النظر من قمراتهم

ويسألون في رعشة عن الأخبار . . .

كان من المؤسف أن نيكولو لم ينتظر لكى يسافر فى يونيو ، عندما تكون الرياح التجارية الموسمية تهب كعادتها من الغرب والشمال دون أن تثير أمواجه البحر. هذه الرياح الصيفية التى يمكن التنبؤ بها كانت تساعد الملاح على حساب طول الرحلة وتقدير زمن الوصول. وكان الراهب رحالة جسورًا وشجاعًا. ففى هذه الرحلة المهلكة نفسها ، تعرضت السفينة لهجوم قرب قبرص من سفينة مغربية من نوع يسمى البانفانو Panfano وهى سفينة طويلة مسلحة كان يستخدمها القراصنة البربر، وانضم فورًا إلى طاقم السفينة الذين تم تقسيمهم إلى ثمانية أجزاء لدفع المهاجمين :

«وجاءت إلى الجانب المحجوب عن الريح من سفينتنا تمامًا، وهنا انطلقنا لكى نأخذ الأسلحة، ونسحب أشياء كثيرة إلى أعلى الصوارى لمن كانوا فى الأعلى لكى تساعدهم على القتال، وكذلك أحجار تفوق الحصر ، وبذلك أفرغنا ما فى خزانة السلاح، ولا أعتقد أن هناك فى أية قلعة مثل هذا الكم الكثير من الأسلحة التى رأيتها فجأة فى هذه السفينة .

ولكى نسرع ، كان أحدنا يسلم الدروع ، والآخر يسلم الخوذات ، والثالث يوزع القسى والحراب فى أعداد كبيرة؛ لأن هؤلاء الناس الأشرار كانوا يتجهون نحونا بسرعة . وعندما اقتربنا ، قال القبطان للرجل الذى يمسك بالدفة : «ابق فى خط متقدم واصدمهم بقوة وثقة؛ لأن سفينتنا أحدث وأقوى من سفينتهم ، فربما يمكنك أن تمزق «البانفانو» وبينما صدمناهم بإطلاق سهامنا لأنهم لم ينتظروا الضربات ، تجنب أولئك المتوحشون على ظهر البانفانو الاصطدام، وبدأوا يلوحون ويقولون إنهم أصدقاء : وقال القبطان: «أيها الأشرار، تتظاهرون بأنكم أصدقاء؛ لأنكم تروننا، ولكن لو لم يكن الأمر كذلك لما كنتم أصدقاء». وهكذا تجاوزناهم، وكان جميع رجالنا على استعداد لقتلهم جميعًا ، أو نموت جميعًا؛ لأن هذا ما كانوا سيفعلونه بنا، وهكذا ستكون طريقة نجاتنا، ولكنهم كانوا سيحملوننا إلى أرض غريبة ويبيعوننا جميعًا ، ولهذا السبب كان كل رجل يفضل الموت على أن يُباع عبداً».

كان الأسر على أيدى المغاربة مصيراً مرعبًا؛ فإذا لم يكن هناك المال اللازم للفدية الكبيرة، فإن أولئك المسافرين التعساء الذين كانوا يُباعون فى أسواق النخاسة فى شمال أفريقيا كان يمكن أن يختفوا دونما أثر. وحتى بعد قرنين ، استمر القراصنة يهددون الملاحة. وكان خير الدين «بربروسا» (حوالى ١٤٨٢-١٥٤٦م) ، وهو قرصان جزائرى، حليفًا للسلطان سليمان الأول العثمانى، ينشر الرعب على سواحل إيطاليا. وفي إحدى الغارات أسر سبعة آلاف من السكان الذين حملوا ليباعوا رقيقًا فى القسطنطينية ، ولم يكن القراصنة المسيحيون يترددون فى التصرف على نحو مماثل. ففى سنة ١٥٧٤م ، كان تيودورينو روديتو **Teodorino Roditto** ، مبحراً بسفينته على مسافة مائة ميل من الإسكندرية، وتمت مهاجمته وسرقته وتجريده من بضاعته على أيدى سفينة مارشيز ڤيكو **Marchese Vico** ، وهو قرصان من نابولى. وأدى النقص فى قوة العمل بعد الوباء الأسود سنة ١٣٤٨م إلى جلب العبيد على نطاق واسع إلى إيطاليا. ففى سنة ١٣٣٦م صدر مرسوم فى فلورنسا يشترط أن يكون العبيد من الكفار وليسوا مسيحيين . ومع نهاية القرن الرابع عشر لم يكن هناك تقريبًا بيت من بيوت الأثرياء فى مدن الدول الإيطالية لا يأوى عبداً واحداً على الأقل، وكان كثير من

هؤلاء العبيد من التتر أو الچراكسة أو الروس أو المغاربة ، بمن فيهم أطفال فى سن التاسعة أو العاشرة، أما الأسرى المرضى والجرحى، والنساء الحوامل فى قيودهم فكانوا مجرد بضائع ترتفع قيمتها أو تنخفض، وكان الأطباء يقبلون علاجهم فى مقابل أتعابهم ، وكانت العرائس تضعن العبيد ضمن قوائم مهورهن. وعلى النقيض من الحكمة الموروثة ، لم يبدأ الرق مع ترحيل الأفريقيين للعمل فى مزارع السكر والقطن فى العالم الجديد. ولم تكن تجارة الرقيق فى غرب أفريقيا ابتكاراً من بدايات العصر الحديث حسب الافتراض الشائع حالياً ؛ إذ إن التجار الغربيين تولوا نظاماً كان سكان شمال أفريقيا نفسها قد أقاموه بالفعل ، وتولى التجار الغربيون تعديله وأفادوا منه. ولم يكن الأسرى فى القرن الرابع عشر من جميع الأنواع يردون إلى أوروبا فى سفن خاصة بالعبيد، ولكنهم كانوا ينقلون مع حمولات مختلطة على أيدى التجار، وتؤخذ عليهم جمارك مثل أية بضاعة أخرى. وكان يمكن أيضًا تأمينهم مع البضائع الأخرى التى بحوزتهم. وكانت لكل من چنوا والبندقية مراكز تجارية غنية على البحر الأسود؛ حيث كانوا يشترون الحرير والفراء، والكاڤيار، وقبل هذا وذاك العبيد. وكان التجار البنادقة يسافرون من تانا **Tana** حتى استراخان وطقشند للتفتيش على البضائع التى ستأتى فى المستقبل ، على حين كانت الحكومة فى البندقية تجهز الوثائق التى تقرر أقصى تكلفة مسموح بها لنقل العبيد

(٢-٤) تاجر من البندقية

وإطعامـهم فى رحلة الشـهـور الثـلاثة بين بحـر أزوف والوصـول . ومن كـافـا Caffa (فيـودوسيـا Feodosia فى القـرم) فى القـرن الرابع عـشـر صدَّر الچنوية حـوالى ألف وخمسمائة عبد فى السنة، كانوا كلهم تقريبًا موجهين لدعم حكم سلاطين المماليك فى مصر.

كان من نصـيب الحـاج نيكولاس دى مـارتونى Nicolas de Martoni رحلة بحـرية مخيفة، وهو موثق عام رحل من بلدة كارينولا Carinola الصغيرة بالقرب من نابلس فى يونيو سنة ١٣٨٤م ، وإذ كان الرجل صغير الحجم يملؤه الخوف ، فقد اعترف نيكولاس بأنه لم يستطع حتى أن يسبح ، وحين فكر فى أنه قد يموت فى العواصف المدمرة التى ضـربتـهم بالقـرب من كـريت ، احتـمى فـى ركن من السـفينة وهو يبكى بدموع حـارة. وبسبب كل ما عاناه من عذاب صار شعره ولحيتـه أبيض اللون، ولكنه وجد راحته فى الأفكار الدينية عن جدارة القيام بمثل هـذه الرحلة. وكان نيكولاس قد نذر نـذرًا خاصًا لسانت كاترين التى كانت أسرته قد أسست على شرفها كنيسة صـغـيرة فى بلدته، وكان هو راعيًا لها .

وفى القرن الرابع عشر، كانت هناك مجموعة صغيرة من الرحالة عبر البحار فى سفن عريضة ذات صارى واحد أو صاريين تبحر بالشراع ، وكانوا أساسًا من التجار الذين يحملون كمية متزايدة من البضائع إلى الموانئ فى جميع أنحاء الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وكانت مثل هذه السفن بطيئة ، مما كان ينتج عنه غالبًا تأخير مُحبط ، ولذلك كان من المستحيل التنبؤ بالوقت الذى تستغرقه الرحلة. ولكن بحلول القرن التالى، كان البنادقة قد طوروا خـدمة سفـر غاية فى الكفاءة ، إلى جانب تشغيل الأسـاطيل التجارية التى كانت تتاجر بين المستعمرات اليونانية المملوكة للبندقية ، والتى كانت محـاطة بتـشـريعات صـارمـة لحـمـاية الحـجـاج الذاهبين إلى الأرض المقدسـة والأكثـر جسارة من بينهم ممن كانوا يمدون رحلتهم إلى مصر وسيناء فيها . وفى دور صناعة السفن البندقية المشغولة، إلى جانب سفن الحرب القوية التى كانت تُصنع لكى تخوض معارك عديدة وحماية الغزوات الأرضية ، كانت سفن الحـجاج تبنى بحـجم كبير يكفى

لحمل ما بين مائة ومائة وسبعين مسافراً وطاقم كبير. وفى السنوات الاستثنائية كانت دور بناء السفن تستخدم حوالى أربعة آلاف رجل . وكانت الرحلة من البندقية إلى يافا والعودة حزمة واحدة، وكان المفروض نظرياً أن يتضمن ثمن الرحلة الطعام والنبيذ والرسوم والضرائب والإذن البابوى اللازم للحجاج . وكان يتم الترخيص لمرشدين خصوصيين من جانب السلطات البندقية يوجدون على الأرض فى الريالتو وسان مارك لمصاحبة المسافرين إلى أماكن إقامتهم، وينصحونهم بالحوانيت المناسبة؛ حيث يمكن شراء المؤن ويوجهونهم إلى سفنهم، وكان يتم التنبيه على المرشدين ألاّ يقبلوا من الحجاج لقاء خدماتهم سوى ما يدفعونه عن طيب خاطر، كما كانت النفحات والعطايا من الصيارفة وأصحاب الحوانيت ممنوعة، وكانت هناك قواعد مرعية لتوزيع الأرباح على أساس عادل.

وقبل الرحيل كان المسافرون يتلقون النصائح بشراء الضروريات مثل المقلاة، وإناء الطهى ، وسلة من الأغصان للتبضع على الشاطئ . وقد أضاف البعض قفص الدجاج لكى يعاد ملؤه بالدجاج من الموانئ التى سيزورونها . وكانت ثلاثة دوكات تكفى لشراء حشية (مرتبة) وملاءتين ولحاف، وكان يمكن إعادة بيعها عند العودة بنصف الثمن . وإلى جانب هذه اللوازم، كانت الأدوية المُلينة فى حالات الإمساك ، والأقراص المضادة للطاعون، وحوض الاستفراغ . وكان عدد قليل منهم لايحيط نفسه بهذه الرعاية والاهتمام . وبينما كانوا يمضون الوقت فى البندقية حتى تستعد سفنهم للإقلاع كانت هذه المدينة المدهشة توفر من المفاتن أمامهم ما يفوق الحصر؛ فقد كانت هناك نقابة من عمال القمامة تنظف شوارع المدينة على النقيض مما كان يجرى فى المدن الأخرى. وكانت إمدادات مياه الأمطار تأتى من نهر برنتا Brenta ، ويتم توجيهها فى قنوات لتصب فى خزانات كبيرة، ويتم تنقيتها بواسطة الرمال والمرشحات . وكان يمكن شرب المياه من فتحات البئر المحدبة فى الميادين، وهى تأتى من خزانات كبيرة تحت الأرض، لدرجة أنها كانت فى بعض الأحيان تملأ المنطقة المحيطة بالكامبو Campo . وكان الحجاج ، بالإضافة إلى قيامهم بجولة كانت تجرى كل يوم أحد فى بياتزا سانتو

ستيفانو **Piazza Santo Stenfano** ، يزورون مصانع الزجاج فى مورانو ؛ حيث كانوا يشاهدون الآنية غالية الثمن من البللور وغير ذلك من الأوانى الزجاجية من مختلف الأشكال، والتى كانت تُصنع وتعمل بأدق شكل فنى.

فى الموكب السخى فى عيد الجسد **Corpus Christi** فى كاتدرائية سان مارك يوم ٢٩ مايو ١٤٨٠م، انتقد الراهب فليكس فابرى **Felix Fabri** ، وهو راهب من طائفة الدومينيكان من أولم **Ulm** كان ينتظر سفينته لمواصلة رحلة الحج إلى الأرض المقدسة والأماكن المقدسة فى مصر، ملابس النساء التى كانت بالغة الإفراط، والسلوك الشائن للناس العاديين والسلوك المعيب لرجال الكنيسة فى الزحام؛ إذ كانت النسوة البندقيات الثريات تركبن العربات وهن مرتديات ثيابًا قصيرة من الحرير والدمشقى، مطرزة بالمجوهرات ، وكانت خصلات شعرهن تتوهج فى الشمس اصطناعيًا ، وكانت مرسلة بخصلات من الشعر المستعار، الذى كان يمكن مشاهدته معروضًا للبيع معلقًا يداعبه النسيم على أعمدة فى ميدان سان مارك . وكانت العرائس البندقيات محل حفاوة فى أوروبا بسبب ملابسهن الفاخرة ، وكن يرسلن شعورهن طويلة ، تنزل على ظهورهن مجدولة بالخيوط الذهبية ، وتتوجهن أكاليل مرصعة بالجواهر . وعلى النقيض من ذلك كانت الأرامل تلبسن الأسود

(٢-٥) امرأة من البندقية تُمشِّط شعرها

والحجاب، فإذا ما تزوجن ، كان عليهن فعل ذلك حتى منتصف الليل. وعلى الرغم من ثيابهن الغالية ووجوههن المصبوغة ، كانت النسوة البندقيات بشكل عام جديرات بالشفقة ؛ لأن «الموضة» كانت تلزمهن بأن يسرن على نعال يغطيها القماش بارتفاع ثلاث قبضات ، مما كان يستدعي مساندتهن من كلا الجانبين.

وفى العرض بالأسواق المزدحمة بالريالتو ، وبعيداً عن كميات الطعام الوفيرة ، كانت كميات من الشمع الأبيض والأحجار الكريمة الغريبة والجواهر. والأهم من ذلك كانت أطنان من التوابل الشرقية ، ولاسيما الفلفل غالى الثمن ، معروضة للبيع (ويكاد أن يستخدم بدلاً من العملة) فى انتظار ملء صيدليات أوروبا ومحلات العطارين بها. وفى كل سنة فى عيد الصعود (خميس الصعود) كان يمكن للحجاج أن يشاهدوا المهرجانات الفخمة عندما كان الدوج(*)، وسط أصوات الأجراس التى تدق فى المدينة كلها، يركب سفينة بها ثلاثمائة من المجدفين يسيرون به إلى داخل الخور للاحتفال بمباركة البحر ورمى خاتمه فى المياه، وكانت سفينته المزخرفة Bucentaur (على اسم حصان الإسكندر الأكبر) تُسيَّر بالمجدفين الممتازين. وكان طرازها يشبه خيمة الهيكل اليهودية ، وقد طُليت وزُينت ، وكانت تزدحم بالمعلقات الحريرية، وكانت هناك مظلة من القماش المقصب بالذهب مطرزة بالنجوم فوق الدوج ، الذى كان جالساً على عرش ذهبى، وكان هناك خمسة آلاف من الحرفيين حاضرين .

وفى سنة ١٤٨١م نشر الفارس سانتو براسكو Cavalier Santo Brasco الذى كان مسئولاً عن الإدارة المالية Quaestor مرتين فى ميلانو، والذى كان المستشار الدوقى للودفيجو سفورزا Ludovico Sforsa ، وصفاً لرحلاته إلى الأرض المقدسة ومصر، وهى رحلة قام بها فى سفينة حج مملوكة لشريف بندقى وتحت حمايته ، وهو أوجستينو كونتارينى Augustino Contarini . وكان حريصاً على تعيين أخيه إراسمو وريثاً ، فى حالة إذا ما مات فى الطريق، وحذر جميع الحجاج بأن يسيروا على نهجه

(*) الدوج Doge : لقب حاكم مدينة البندقية التى كانت جمهورية من طراز المدينة الدولة . (المترجم)

وأن يتأكدوا من وضع شئونهم بشكل منظم من أجل ذريتهم . وبالنسبة للآخرين الذين كانوا يعتزمون القيام بهذه الرحلة الشاقة، كان ينصحهم «بالذهاب إلى البندقية» ؛ لأن من هناك يمكنهم أن يقوموا برحلة أكثر راحة من أية مدينة أخرى فى العالم. وفى كل سنة كانت سفينة واحدة تنتدب وحدها للقيام بهذه الخدمة. وكان هناك ثمانون رجلاً موجودين من أجل الدفاع عن المسافرين ، وكانت الأوامر تصدر إلى السفينة بعدم التوقف فى الموانئ لأكثر من يومين أو ثلاثة سوى فى حالة الاحتماء من العواصف ، وكان هناك عقد يُبرم لتنظيم الترتيبات المالية بين القبطان والحجاج الراغبين فى القيام بالرحلة الإضافية إلى دير سانت كاترين فى سيناء .

وحثّ سانتو براسكو من يزمع القيام برحلة الحج على أن يحمل معه حقيبتين : «إحداهما مملوءة تماماً بالصبر، والأخرى بها مائتا دوكات بندقى قد سُكَّت حديثًا؛ لأن المسلمين لن يأخذوا سوى مثل هذه العملات». وأضاف أن مائة وخمسين ستكفى بالكاد ، ومائة كانت الحد الضرورى تماماً لأى رجل يرى لحياته ثمنًا ، وتعوَّد على الحياة الهنيئة فى وطنه ، مع إبقاء خمسين دوكات للمرض أو أية طوارئ أخرى، وكذلك العملات النقدية الصغيرة.

«ويجب أن يصنع معطفًا يصل إلى الأرض عندما ينام فى الهواء الطلق، وأن يشترى صندوقًا طويلاً ، وبرميلين أحدهما للنبيذ ، والثانى للماء ، وكرسياً بلا مسند، أو دلواً مغطى لليل. ولايجب أن ينسى سترة طويلة دافئة لكى يلبسها عندما يكون الجو بارداً فى رحلة العودة وكثيراً من القمصان الجيدة لكى يتجنب القمل وغيره من الأشياء غير النظيفة».

كان سانتو براسكا مدافعًا عن شراب الزنجبيل لتهدئة الدم بعد القىء ، ولكن ليس بكمية أكثر من اللازم لأنه يسخن الدم . وكان عصير الفواكه مطلوباً؛ لأنه يُبقى الإنسان حيًا فى درجة الحرارة الكبيرة.

وعلى أية حال ، فإنه ما إن صعد على متن سفينة الحج ، حتى اكتشف أن القصة مختلفة؛ فبالنسبة للمسافرين العاديين كان الوصول المبكر ضروريًا لضمان مكان فى الهواء الطلق، وبحيث لايتم حشرهم تحت السطح الرئيسى للسفينة؛ حيث يكون الجو حارًا تفوح منه رائحة مقززة، وحيث كانت الأسرَّة التى ينام عليها الحجاج متراكمة دونما فراغ بينها ، وصار النوم رفاهية بسبب الضجة ، والقمل والحشرات. وكان هذا ممتزجًا بدقات حوافر الحيوانات التى كانت مربوطة إلى جانب المطبخ على سطح السفينة فوقهم. وفى النهار كان المسافرون يمضون الوقت فى الشرب واللعب والنوم، كل حسبما يشاء. وعلى الرغم من أن القبطان كان ملزمًا بأن يقدم وجبتين ساخنتين ، وخبزا ونبيذًا جيدًا وبيضًا ولحمًا طازجًا فى كل يوم، فسرعان ما تعلم المسافرون ألا يعولوا كثيرًا على الوعود المتفائلة . والحقيقة أن اللحم الذى غالبًا ما كان يتوفر من ذبح الحيوانات المريضة كان يعلق فى الشمس الساخنة، ويقدم مع النبيذ الدافئ والمياه الملوثة . أما الخبز الطازج ، الذى كانت تزود به السفن من المخبز القريب من دار صناعة السفن الضخمة فى البندقية ، ثم يُعاد تزويدها به فى الموانئ الأجنبية ، فلم يكن يستمر وقتًا طويلاً، وبدلاً منه كان البسكويت الذى كانت له صلابة الحجر.

(٢-٦) جندى متطوع على متن سفينة

وعندما كانت تدق الطبول الأربعة ، كان على المسافرين أن يسرعوا إلى مؤخرة السفينة إذا كانوا يريدون الأكل على المائدة ، أما المتلكئون فيجبرون على الأكل على المقاعد مع المجذفين فى عز الشمس والريح . وعلى عكس الرأى الشائع فإن المجذفين لم يكونوا جميعًا من العبيد فى القرن الخامس عشر ، ولم يحدث سوى فيما بعد أن صاروا متوافقين مع صورة الأشقياء الذين يرسفون فى القيود . وعلى الرغم من أن بعضهم كانوا من دهماء السكان، فإن البعض الآخر كانوا من الفقراء الذين يسعون إلى كسب عيشهم من خلال البيع والشراء فى الموانئ، ويصلحون الأحذية ، ويقومون بأعمال الحياكة الخشنة.

(٢-٧) عبد على السفينة

وكانت الفئران الليلية الضخمة تعدو فوق وجوه المسافرين ، كما أن البحارة غير المبالين الذين ينغمسون فى ممارسات مقرفة كانوا يمشون فوق المسافرين يصيحون «بانو Pando» لتبادل المواقع لتغيير الشراع. ولم يكن عجبًا أن أصاب المرض كثيرين أو اختطفهم الموت. وكان بوسع الحجاج الأثرياء مثل النبيل سانتو براسكو أن يوفروا لأنفسهم إقامة أكثر رفاهية ، وكانوا مأمورين بأن يقدم طعامهم وشرابهم فى الأطباق والكئوس الذهبية والفضية التى تخصهم على مائدة القبطان، التى كانوا يدعون إليها فى جلسة ثانية مع دقات طبول السفينة. والواقع أن سانتو براسكو قال إن أوجستينو كونتاريني عامله «معاملة الابن» "Come Figlio" . وقد حال تأرجح السفينة وتمايلها دون الاحتفال الكامل بالقداس، ولم يتم سوى القداس الجاف . وفى بعض الأحيان كان هناك حلاق على متن السفينة، وكان عمله قاصرًا على فصد الدماء ورعاية المرضى بمساعدة الأعشاب .

وعندما كانت الحكايات الصادقة عن مصر، والتى رواها شهود العيان تنتشر عند العودة إلى الوطن ، فسرعان ما كان الأوروبيون يدركون أن الظروف السائدة ، التى تحددها وجهات النظر الصارمة للكنيسة ، لم تكن كلها شرًا وخطيئة على الرغم من كونها غريبة غير متوقعة. فمن المواجهات فى أثناء الحروب الصليبية برزت جوانب من المكاسب الإيجابية ، وهى الاتصالات السلمية المتزايدة من خلال التجارة بين الشعوب الإسلامية والشعوب المسيحية . وقد أعقب هذا زيادة مطردة فى أعداد التجار الأوروبيين المسافرين إلى ميناء الإسكندرية وميناء دمياط. وكانت مالفى وبيزا قد أسستا مراكز تجارية فى القرن العاشر، وفى سنة ١٢٣٨م تفاوض البنادقة لعقد معاهدة مع السلطان المملوكى بمقتضاها تم تأمين الأشخاص والسفن، والأملاك المنقولة؛ مما ساعدهم على المتاجرة بحرية وفق شروط متفق عليها، وأن يتم التقاضى فى المنازعات مع البنادقة وغيرهم من الأوروبيين. وكان مسموحًا لهم بالحفاظ على كنيسة صغيرة وحمام ولهم حق استيراد النبيذ لاستخدامهم الخاص ، وسرعان ما ظهر قدر كبير من المنافسة بين الأمم ومدن الدول، وصار النفوذ الحاكم فى المنطقة خاضعًا للمكسب والخسارة فى دفتر التاجر بحسب المجموعة المسيطرة.

وحتى لو كانت الاتصالات مع المسلمين من خلال المترجمين ، فإن المسافرين إلى مصر رأوا بأنفسهم مدى ثقافة المسلمين وحسن ضيافتهم ، والإدارة ذات الكفاءة والمبانى الفاخرة والثروة الطائلة . وتزاوج مع هذا ما شهدوه فى بعض الأحيان من قسوة غير متوقعة وتجليات مبهرة للأبهة الشرقية .

هوامش الفصل الثانى

Venice, general: Norwich, A History of Venice; Morris, Venice; The VenetianEmpire. Portrayal of biblical and legendary figures: Letts (ed.), Mandeville'sTravels (phoenix, p. 34 and n. 2); Demus, The Mosaics of San Marco Venice(mosaics in the vault of the Capella Zen, pp. 179-87). Representations of HermesTrismegistus: Cust, The Pavement Masters of Siena, pp. 84-86; Colvin, AFlorentine Picture Chronicle, p. 5, plate 51. Egyptian gods paraded in Florence:Anon, Le died mascherate delle bufole 1566, pp. 21, 22. Venetian fleets to the Near East, general: Hyde, 'Navigation in the Eastern Mediterranean According to Pilgrims' Books', pp. 521^1-0; F.C. Lane, Venetian Ships and Ship Builders; The Merchant Marine of the Venetian Republic; Fleets and Fairs, I, pp. 651-65. Geography: Claudius Ptolomaeus, Cosmographia; Ball, Egypt in the Classical Geographers, pp. 85-91; Kimble, Geography in the Middle Ages, p. 117 n. 2, pp. 182-83; Almagia, // Mappamondo di Era Mauro (see especially maps 16, 17, 22 for Egypt, the Nile and Abyssinia). Venice and the sea voyage: Lepschy (ed.), Viaggio in Terrasanta di Santo Brasca (treatment of Brasca by captain, p. 52; instructions for pilgrims and requirements for journey, pp. 128-30; expenses of journey, p. 144); Newett, Canon Casola, pp. 4-13; Mitchell, Spring Voyage, pp.16-61; Stewart (ed. and trans.). The Wanderings of Brother Felix Fabri (description of pilgrim galleys, conditions laid down for pilgrims, pp. 85-92; life on board ship, pp. 125-63); Bellorini and Hoade (ed. and trans.), Era Niccolo of Poggibonsi, pp. 3-6; Legrand, 'Pelerinage de Nicolas de Martoni', pp. 556-67;Bellorini and Hoade (ed. and trans.), Frescobaldi, Gucci and Sigoli, pp. 34-35; Bull (ed. and trans.). Travels ofPietro delta Valle, p. xxi. Slavery: Spufford, Power and Profit, pp. 338-41.

الفصل الثالث

ميناء الإسكندرية البحرى

عند النظرة الأولى، بالنسبة لأولئك الذين يقتربون من ساحل مصر الشمالى، كانت البلاد التى ترقد منخفضة بضوئها الخصوصى تبدو فجأة وكأنها تنهض من البحر. وفى التيارات الصفراء المائلة للخضرة لنهر النيل المتدفق كان يمكن رؤية أفراس النهر وهى تسبح فى البحر خارجة من مستنقعات الدلتا. وعندما كان المسافرون يتجمهرون على سطح المركب عند الوصول إلى الإسكندرية، كانت المدينة تبدو مكانًا متألقًا نبيلاً تُحيط بها أسوار مزدوجة حصينة تحميها «الأبراج والخنادق وآلات الحرب والقصور الجميلة بداخلها». وعند النظرة الأكثر تدقيقًا كانت الشوارع ضيقة ، وقبيحة، ومعذبة ومظلمة ، ومليئة بالتراب والقذارة.

وإذ تأسست الإسكندرية سنة ٣٣١ق.م على يد المقدونى الإسكندر الأكبر ، على موضع بلدة راكوتيس المصرية القديمة ، كان من مميزاتها أن موقعها يتوسط ما بين الميناء العميق الطبيعى إلى الشمال وبحيرة مريوط فى الجنوب، ويسهل عليها الحصول على الماء العذب والحجر الجيرى المستخدم فى أبنيتها الرائعة. هذه المدينة الهللينيستية الرفيعة ، والتى كانت عاصمة لمصر على مدى تسعمائة سنة، صارت مشهورة فى جميع أرجاء العالم المتحضر . وكانت مكتبتها الشهيرة التى نافست مكتبة أثينا، والتى أنشئت بمبادرة من البطالمة النهمين للعلم، قد ضمت المعارف المتراكمة للعلماء الذين كانوا يتجادلون ويتشاحنون بين أعمدتها وأروقتها. وبعد إعادة اكتشاف الأدب الإغريقى

واللاتينى وترجمته على أيدى الإنسانيين الإيطاليين، ثم توزيعها بالتالى من خلال الطباعة، فإن أية نظرة حتى فى أشد قوائم مكتبات عصر النهضة قصوراً سوف تشير إلى عدد الكتب التى كانت تحويها، والتى كتبها المؤلفون القدماء عن مصر؛ ذلك أن مؤلفات هيرودوت، وديودوروس الصقلى ، وسترابون ، وثيوفراستوس، وبللينى كانت بارزة . وقد نُسجت هذه التقارير مع حكايات الملكة كليوباترا الخرافية **Egypti Femina , totius orbis falwl** والروايات الخيالية الرائجة على نطاق واسع عن الإسكندر، والتى تركت أصداءها فى القرون التالية .

(٣-١) الإسكندرية lexndri Vetustissimun Aegypti Emporium بسنة ١٦١٩م

وصـارت الإسكندرية واحـدة من أوائل مـراكـز التـعـاليم المسيـحيـة وكـرسى كـبيـر الأسـاقفة . وإلى جانب الكلاسيكيات على رفـوف مكتبات عصـر النهضـة كانت هناك مـؤلفـات آباء الكنيسـة الأوائل، مـثل كليمنت السكندرى (حـوالى ١٥٠-٢١٥ تقريبًا) وتلميذه أوريجين . وفى منتصف القرن الثانى بعد الميلاد كانت المدرسة السكندرية الأفلاطونية فى الفلسفة تغذى تلاميذ من أمثال لونجينوس ، وأفلاطين ، وثيون، الذين أثرت أفكارهم على فلاسفة عصر النهضة من أمثال فلورنتين مارسيليو فيشينو Florentine Marsilio Ficino ، وفيما بعد ترجم مارسيليو مؤلفات أفلاطون، وطبعت سنة ١٤٨٤م ، وأفلوطين، وطبعت فى سنة ١٤٩٢م.

ولكن بينما استوعبت المصادر الكلاسيكية المتكشفة العلماء الأوروبيين ذوى المعرفة الواسعة ، فمن المشكوك فيه ما إذا كانت جمهرة المسافرين من الحجاج والتجار المتوجهين إلى مصر على هذا القدر من المعرفة ، على الرغم من أنه بين الحين والحين ، كانت هناك نتف من الاقتباسات من الكتاب الإغريق واللاتين تتسلل إلى روايات المسافرين وهم يمسون وترًا شخصيًا ، وهو الأمر الذى زاد فى القرن السادس عشر.

فى سنة ٦٤٢م ، عندما وصل العرب فاتحين مرتاحين بقوة صغيرة تحت قيادة أبى عبدالله عمرو بن العاص ، كانت مبانى الإسكندرية الفخمة لا تزال تشع بالحجر الجيرى والرخام الأبيض . وإذ كان منار فاروس يعلوه تمثال زيوس ، والذى بناه البطالمة، واحداً من عجائب الدنيا السبع، وربما كان ذلك بسبب ارتفاعه ما بين أربعمائة وخمسمائة قدم، ولأنه كان يطل على الميناء المزدوج فى الشرق والغرب، وكان ذلك بسبب ضوئه النارى يشع من بعيد ليلقى نوره على البحر. وحكت الأساطير العربية عن تماثيل أخرى، كان أحدها يتبع إصبعه مسار الشمس اليومى، وتمثال آخر كان يعلن ساعات اليوم فى صوت غنائى ، على حين كان تمثال ثالث يدق محذراً عندما يبحر أسطول معادٍ باتجاه الإسكندرية. وعلى الرغم من أن صلاح الدين الأيوبى قد أمر بأعمال إعادة البناء سنة ١٢٧٢م ، فإن الفنار عانى بشدة من حوالى اثنين وعشرين زلزالاً ما بين سنة ٣٢٠ وسنة ١٣٠٣م، وكان آخرها زلزالاً شديد القسوة ، ومع

الإهمال واللامبالاة زاد تدهور الفنار الذى كان مفخرة ذات يوم، حسب ما شاهده الرحالة الشهير ابن بطوطة (ولد بطنجة سنة ١٣٠٤م) فى ٥ أبريل سنة ١٣٢٦م:

«قصدت المنار فى هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدمًا . وصفته أنه بناء مربع ذاهب فى الهواء، وبابه مرتفع عن الأرض. وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه، وُضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه ، فإذا أزيلت لم يكن له سبيل . وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار، وداخل المنار بيوت كثيرة ، وعرض الممر بداخله تل مرتفع . ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد، فى بر مستطيل ، يحيط به البحر من ثلاث جهات، إلى أن يتصل البحر بسور البلد، فلا يمكن التوصل إلى المنار فى البر إلاً من المدينة وفى هذا البر المتصل مقبرة الإسكندرية. وقصدت المنار عند عودى إلى بلاد المغرب سنة خمسين وسبعمائة فوجدته قد استولى عليه الخراب، بحيث لايمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه ...».

وأحد أوائل الرحالة القدماء الأصليين هو كرياكو دى بيزيكولى **Cyriaco de Pizzicoli** (١٣٩٢-١٤٥٢م) ، وهو من أهالى أنكونا ، وقد زار مصر سنة ١٤١٢م وسنة ١٤١٨م ثم بعد ذلك سنة ١٤٣٦م . وكان كرياكو تاجرًا ومفوضًا سياسيًا يعمل فى المنطقة العربية، وأبدى اهتمامًا كبيرًا بالحيوانات غير العادية ، والعاديات ، والنقوش التى رسمها وكتبها بحروف لاتينية من أجل أصدقائه المشابهين فى عقلياتهم معه بإيطاليا . وعلى الرغم من أن خطاباته وكراسات الرسم الخاصة به مفقودة ، فقد تم نسخ المادة، وتم تداولها داخل الدوائر الإيطالية المتعلمة. وقد تضمنت مراسلاته من الإنسانيين المشهورين فى القرن الخامس عشر أمثال نيكولو نيكولى **Niccolo Niccoli** فى فلورنسا، والذى عُرف بمعرفته بالآثار والتاريخ القديم، وفيليبو ماريا ڤيكونتى **Filippo Maria Viconti** من ميلانو الذى أرسل إليه كرياكو خطابًا بمناسبة السنة الجديدة عام ١٤٤٣م . وقد حكى كرياكو إلى صديقه البابا يوچينوس الرابع سنة ١٤٤١م أنه كان قد وصل إلى الإسكندرية أنبل مدينة فى مصر، على متن سفينة تحت قيادة ربَّان اسمه بنڤينوتو سكو تيجولو من أنكونا **Benvenuto Scotigolo of Ancona** ، وأنه شاهد بقايا المنار القديم العالى والعظيم، وأسوار المدينة الممتازة والبوابات الضخمة . وفيما بعد،
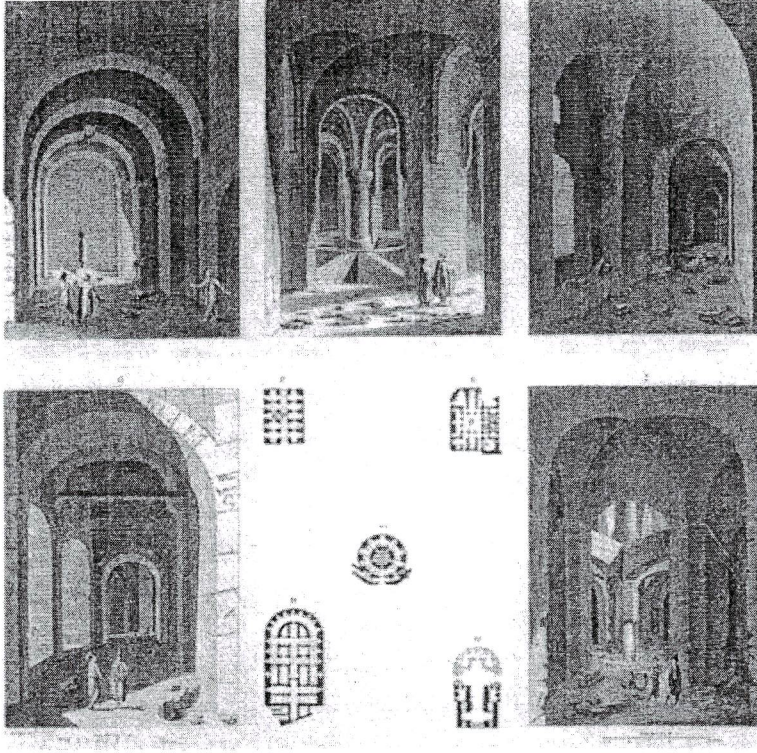
(٣-٢) داخل جزء من السور المزدوج للمدينة

فى سنة ١٤٤٧م ، حاز كرياكو نسخة من كتاب «الجغرافيا» لإسترابون (وقد وقَّع بإمضائه على الورقة ١٨ وعلى الورقة ١٩) مع وصفه الطبوغرافى للمدينة البطلمية فى الفصل السابع عشر. ولم تلبث آثار المنار كافة أن اندثرت عندما بنى السلطان الأشرف قايتباى قلعة ومسجداً فى الموقع للدفاع ضد الأتراك فى يونيو ويوليو سنة ١٤٧٧م. وقد زاد الأتراك العثمانيون من تحصين القلعة بعد سنة ١٥١٧م بالمدفعية لصد هجمات القراصنة. وقد ذهب كرياكو بعد زيارته لمصر إلى مدينة ميستراس **Mystras** الجميلة ، ببيوتها المتناغمة المنسجمة والمزينة بالفريسكو ، فى تلال البلوبونيز اليونانية لكى يزور مدرسة الدراسات الكلاسيكية التى أسسها الفيلسوف چورچ بليثون چيمستوس **George Plethon Gemistus** .

وعلى الرغم من أن العرب قد حصنوا الإسكندرية بأسوار عظيمة ، فإن هذه الأسوار لم تضم سوى ما يقرب من نصف المنطقة التى كانت تشغلها المدينة فى الأصل ، وبمرور الوقت راحت كثير من المبانى المتألقة ضحية الإهمال. وعلى أية حال فإنه بسبب المرافئ اللطيفة ، استمرت أهميتها باعتبارها الميناء الرئيسى فى مصر، وبحلول القرن الرابع عشر كانت الجماعات التجارية الفرنجية المتباينة قد صارت راسخة تماماً . ومنذ العصور البطلمية وجدت مجموعة يهودية مزدهرة ومحترمة وبقيت هناك، وكان بعض اليهود موظفين فى الميناء تحت سلطة الحكام المسلمين .

عند بداية القرن الخامس عشر كان إيمانويل بيلوتى Emanuel Piloti ، التاجر البندقى القادم من كريت ، والذى أقام بالمدينة فترة طويلة، يدرك تماماً حجم التجارة التى تمر من خلال مبنى الجمارك بالإسكندرية على الشاطئ. وفى روايته عن مصر ، والتى بدأها بسنة ١٤٢٠م كان بوسعه أن يتحدث بثقة وهو يؤكد أنه «بدون مدينة الإسكندرية، لايمكن أن تبقى القاهرة ومعها مصر بأسرها».

فقد كانت للفلفل والتوابل من الأهمية ما جعل واحداً من أبواب الإسكندرية الأربعة وهو الباب الجنوبى (بمواجهة بوابة البحر التى تقع على البحر شمالاً) يُسمى «باب الفلفل» أو «باب التوابل» ، وكانت البضائع تدخل إلى المدينة على ظهور الإبل «قادمة من النيل عن طريق قناة صناعية إلى الإسكندرية (الخليج الناصرى) . ومن البوابتين الأخريين كان باب رشيد يواجه الباب الشرقى، والأصغر قرب القلعة القديمة، ويقع باتجاه الغرب . وكان الفلفل يعتبر ذا قيمة كبيرة لدرجة أنه كان يستخدم أحياناً كعملة بين التجار ، الذين كانوا يدفعون هذه البضاعة مقابل نقل بضائعهم ورسوم الدخول .

وبعد أن أبحر ڤاسكو دى جاما من نهر تاجوس بسنة ١٤٩٧م بأربع سفن تحت رعاية الملك مانويل Manoel «المحظوظ»، دار حول رأس الرجاء الصالح، وأرسى على شاطئ بالقرب من قاليقوط (كالكتا) على الساحل الغربى للهند فى ١٧ مايو بسنة ١٤٩٨م . وأكد السانودرى (أى ملك البحر) وهو الحاكم الهندوسى لقاليقوط على القول بأن قاليقوط كانت دائماً مفتوحة لكل من يرغب فى المتاجرة هناك، وأنه يمكن للبرتغاليين أن يشتروا ما يريدون، من الفلفل ، بشرط أن يدفعوا الثمن المستحق . وعلى الرغم من هذا التشجيع ،

عانى التجار البرتغاليون الأوائل من هجمات قاتلة من جانب القرويين المجاورين، على الرغم من أن ذلك لم يمنع قدوم بعثات أخرى، استحوذت على مئات الأطنان من التوابل التى تسببت فى إثراء لشبونة . وهكذا تعرض احتكار التوابل فى التجارة البرية عن طريق البحر الأحمر والقاهرة ، والذى كان حتى ذلك الحين من حق المماليك، فجأة وبقسوة ، للعرقلة ، وكان هذا مما ينذر بسوء العاقبة . فبالنسبة لتجار البندقية وسلاطين مصر، كانت خسارة عوائد هذه التجارة بمثابة حرمان الوليد من اللبن، ولم يكن يوجد بالقاهرة سوى القليل من التوابل عند بداية القرن السادس عشر، كما أن الأسعار كانت متقلبة بشكل كبير. وعلى أية حال، فقرب منتصف ذلك القرن، وبسبب وجود السفن التركية (والتى تم بناؤها فى السويس) فى البحر الأحمر وفى المحيط الهندى، والتى أرسلت لدفع السفن البرتغالية، وكذلك بسبب الصعوبات المتزايدة التى واجهها البرتغاليون للحفاظ على الخدمة المنتظمة على امتداد الطريق الطويل من البرتغال ، تم إحياء طريق التوابل القديم المار بمصر على نحو ما .

وعلى الرغم من أوامر التحريم التى كان الفاتيكان يُصدرها بصفة دورية بمنع توريد الأخشاب والحديد إلى الكفار (أى المسلمين) ، فإن هذه التعبيرات النكدة كانت تلقى التجاهل من غالبية التجار الذين كانوا يربحون من هذه التجارة، والذين كانوا يتاجرون بعيداً عن القيود التى تفرضها كنيسة روما ، عبر السوق المركزى، الريالتو ، البندقى. ومن حين إلى آخر كانت العلاقات المتغيرة بين المسلمين والدول الأوروبية عرضة لاتخاذ إجراء صارم ، لاسيما بعد الهجوم الوحشى على مواطنى مدينة الإسكندرية الآمنين تحت ذريعة القيام بحملة صليبية جديدة سنة ١٣٦٥م ؛ إذ إن بطرس لوزنيان ، ملك قبرص ، بعد أن أمضى سنتين يجوب بلاطات حكام أوروبا سعياً للحصول على دعم لمغامرته ، قام فى النهاية على رأس أسطول كان قد جمعه من عناصر مختلفة ، بالإبحار من رودس قاصداً هدفه الذى لم يُفصح عنه لشركائه حتى صاروا فى عرض البحر.

وفى مساء ٩ أكتوبر ، ظن مواطنو الإسكندرية فى البداية أن أشرعة الأسطول الحربى المكون من مائة وخمس وستين سفينة هى أشرعة أسطول بندقى أكبر من المعتاد قد جاء إلى الميناء من أجل معرض الخريف، ومعه سفن أخرى كثيرة من حول

البحر المتوسط. وخرج التجار والشباب الآمنون للفرجة والمشاهدة ، وهم غير مستعدين لأى عدو. وعلى أية حال ، دبَّ الذعر فى الناس عندما دخلت قوات بطرس الميناء الغربى المعروف باسم «باب السلسلة»، والذى كان مخصصًا لسفن المسلمين، والذى كان يتم تأمينه عادة بسلسلة ليلاً ضد القراصنة، ولم يتردد المؤرخ المقريزى فى وصف هجوم الغزاة ، عند الحديث عن الأعداد الكبيرة من الشهداء المسلمين الذين سقطوا وهم يحاولون عبثًا الدفاع عن مدينتهم، وفى غمرة شراهة الفرنج للحصول على المغانم لم يبقوا على أحد: سواء من الأهالى المسيحيين أو اليهود بل حتى التجار الأوروبيين الذين تم نهبهم جميعًا دونما تمييز. وتم بيع خمسة آلاف من السكان فى أسواق النخاسة. وكان هناك موكب حزين من دواب الحمل قد سيق إلى الشاطئ لكى يتم ذبحها فى نهاية الرحلة ، على حين تصاعدت فى جميع أرجاء المدينة رائحة القتل . ولكن قوات بطرس التى كانت على هذا القدر الجشع فى السلب تعين عليهم أن يرموا من السفن المحملة بأكثر من طاقتها الكثير من الأشياء الثمينة فى البحر عندما أبحروا عائدين إلى بلادهم . وعلى مدى شهور بعد ذلك كان الغواصون يأتون من المدينة المصابة لكى يستخرجوا ما يمكنهم من خليج أبى قير . أما البنادقة ، الذين كانوا ميالين إلى تشجيع الحملة ، وكانوا مهتمين بنجاحها بطبيعة الحال، فقد استاءوا من بطرس إلى أبعد الحدود، الذى لم يكتف بالإخلال بوعده بشأن تاريخ الهجوم فقط، وإنما تسبب فى خسائر جسيمة أيضًا فى تجارتهم، بل إنه تسبب فى معاناة قنصلهم أندريا ڤينييرAndrea Venier أثناء النهب. وعلى الرغم من أن الجنوية ، الذين كانت سفنهم راسية فى الميناء ، لم يشاركوا فى البداية فى الهجوم، فإنهم عندما شاهدوا هزيمة المسلمين لم يستطيعوا مقاومة الانضمام إلى عمليات النهب العام. وفى أوروبا أظهرت الدعاية تحريفًا آخر. ففى كتاب «حكاية الراهب Monk's Tale» وصف شوسر Chaucer ، بطرس ملك قبرص بأنه «لطيف وصادق، ذلك الذى غزا الإسكندرية بحق السلاح ، وأنزل البلاء بالوثنيين أيضًا» . وكما هو الحال دائمًا كانت الحقيقة أولى ضحايا الحرب، وتوقف الأمر على الجانب الذى تؤازره .

نتيجة لهذا الهجوم ، أخذ المسلمون ثأرهم؛ فقد تم القبض على كثير من المسيحيين المحليين وسجنوا ، ولفترة من الزمن لم يجرؤ أحد من التجار الفرنج على السفر إلى الإسكندرية ، كما أن أسعار التوابل الشرقية ارتفعت إلى مستويات فلكية، فضلاً عن أن الحادث الذى ظل عالقًا لبعض الوقت فى أذهان سلاطين المماليك، تسبب فى أن يكون سلوكهم غاضبًا مرتابًا . وعلى أية حال، كانت التجارة أهم كثيرًا من أن يتم تجاهلها إلى ما لا نهاية ؛ إذ كان الفرنج والسلاطين كل منهم بحاجة إلى الآخر.

كانت الأنباء الصحيحة فى مواجهة الشائعات نادرة كما كانت الاتصالات بطيئة ، بيد أن المعلومات العملية كانت متاحة للتجار فى الكتيبات مثل La Practica della Mercatura الذى ألفه المدعو فرنسسكو بالدوتشى بيجولوتى Francesco Balduci Pegolotti الذى كتب تحديداً عن «الأشياء التى يحتاج التجار لمعرفتها فى أنحاء العالم المختلفة» . وباعتباره واحداً من أكثر الوكلاء ثقة لشركة باردى Bardi القوية بفلورنسا ، ومع مصالحه واسعة الانتشار فى مجال العمل فى جميع أنحاء شرق المتوسط ، كان فرنسسكو الرجل المثالى الذى ينصح التجار فيما يتعلق بحالة العملة فى المنطقة العربية، والموازين والمكاييل والمقاييس الخاصة بأنواع خاصة من البضائع وأنماط التجارة المتداولة فى الإسكندرية وفى موانئ شرق المتوسط. وقد استخدمت شركات كثيرة وكلاء مقيمين بالإسكندرية وغيرها للشراء والبيع ، وللإشراف على تحميل بضائعهم ، ويبقيهم على معرفة بالرسوم المتقلبة ويحمى مصالحهم المالية. وكان مهماً أن تقوم رابطة من الثقة بين جميع الأطراف . وكما يمكن أن نتوقع ، إذا ما كانت الشركة المتاجرة والموجودة فى الوطن غنية وذات نفوذ، كان الوكيل يميل إلى إعطاء الأولوية للتجار الأثرياء ، أما التجار الأفقر الذين يحصلون على عوائد صغيرة ، فربما كانوا يجدون بضائعهم موضوعة بشكل سيئ فى عنابر السفن، غير محمية من العوامل الطبيعية، أو مخبأة فى أماكن لايمكن الوصول إليها، بحيث لم يكونوا يستطيعون عرضها أمام المشترين فى الموانئ التى يزورونها . وقد حثَّ أندريا بارباريجو Andrea Barbarigo ، وهو تاجر متوسط المكانة من البندقية ، وكيله أندريا كابللو على تحميل قماشه جيداً فى مكانه، وليس حيث يمكن أن يتلف بفعل الشمس والمياه المالحة. وعلى أية حال ، فإن المبالغ الكبيرة كان يمكن أن يجنيها القادر والمحظوظ ، حتى على الرغم من أن التجارة

كانت دائمًا تحت رحمة الأخطار مثل غرق السفينة والقرصنة ، وخاضعة للضرائب الباهظة التى كان يفرضها الحكام المماليك والأتراك. ودفتر الحسابات من سنة ١٤٧٠م إلى سنة ١٤٨١م لتاجر آخر من البندقية ، هو ألفيس ميشيل Alvise Michiel ، يوضح أنه عندما افتتح الدفتر كان هناك ما يزيد على ١٠٤٤٠ دوكات فى حساب رأس المال، وسبعة آلاف وسبعمائة دوكات ربحًا فى حساب الربح والخسارة. وكان العمل الرئيسى الذى تم تسجيله هو شراء زيت فى أبوليا وشحنه إلى الإسكندرية؛ حيث تم استيراد بعض الفلفل إلى الوطن، وكان حجم شحناته يستحق غالبًا ثلاثة آلاف دوكات. وحتى السفن التجارية الصغيرة تمامًا كان مطلوبًا أن تقل اثنين من الكتبة لكى يسجلا البضائع المحملة أساسًا .

وفى سلسلة تجار القرن السادس عشر جاء عدد قليل من الباحثين محبى الاستطلاع الذين اهتموا بالحيوانات الغريبة ، والنباتات العجيبة ، والآثار الموجودة فى مصر. وكان بروسبيرو ألبينى Prospero Alpini (الذى ولد فى ماروستيكا ١٥٥٣م) والذى أبحر إلى الاسكندرية بسنة ١٥٨٢م ، طبيبًا وعالمًا فى الطبيعة تخرج من جامعة پادوا المشهورة ، والتى كانت قبلة للطلاب من شتى أنحاء أوربا. واشتهرت پادوا بمدرستها الطبية التقدمية، حيث كانت الجثث يتم تشريحها على مسرح بيضاوى، كانت به قناة من المياه الجارية تجرى تحت منضدة العمليات، يراقبه طلاب الطب من صفوف المقاعد العالية المتراصة.

كان بروسبيرو ، الذى صاحب جيورجيو إيمو Goprgio Emo، قنصل البندقية الجديد، باعتباره مستشاره الطبى، مقتنعًا بأن دراسته للطب منقوصة بدون فحص النباتات النادرة والحيوانات النادرة فى بيئتها الطبيعية ، والتى اشتهرت بها مصر ، كما وصفها بالفعل كثير من الكُتَّاب الإغريق واللاتين . ولأن نشوب وباء فى القاهرة أخَّر رحلته إلى الصعيد، فقد أمضى بعض الوقت فى دراسة الحياة الطبيعية بالدلتا . وكان عالمًا بالنباتات على نحو منهجى ، وكانت كتاباته تزينها فى النهاية رسوم توضيحية ببعض المشابهات المتوحشة بالتماسيح وأفراس النهر التى كانت شائعة آنذاك فى

شمال مصر. وإلى جانب تسجيل النباتات والحيوانات النادرة ، رسم بروسبيرو لوحات لبعض تماثيل الأوشابتى (أطلق عليه اسم الأصنام **Idola**) مصنوعة من الزجاج ، والحجارة والبرونز . وفى سنة ١٥٨٨م، قام ألويسيوس دوناتو **Aloysius Donato**، الذى كان نائب قنصل البندقية القائم فى الإسكندرية بجلب بعض المومياوات ، ولكنه سرعان ما أدرك أنها إذا لم تُخبأ بشكل جيد فى البضاعة بعيداً عن عيون البحارة على ظهر السفينة، فسوف يُطاح بها من فوق السفينة؛ إذ كان من المعتقد أن مثل هذه الجثث الرهيبة تجلب النحس.
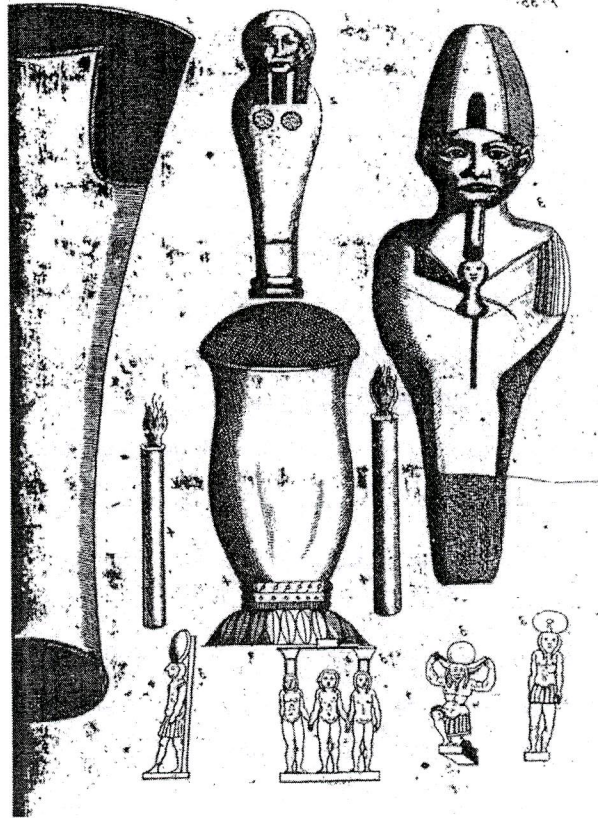
(٣-٣) الأصنام التى قال بروسبيرو ألبينى إنها من الزجاج والحجارة

وحسب رواية التاجر إيمانويل بيلوتى ، كانت مدينة الإسكندرية تُدار بطريقة سيئة على أيدى المماليك ، الذين لم يهتموا بالحفاظ عليها إلاً قليلاً . وبعد نهب الإسكندرية سنة ١٣٦٥م من قبل الملك بطرس لوزنيان ، تزايد معدل التدهور، ورأى إيمانويل فى زمانه، أن سعر بيت معين ، كان يساوى قبل ذلك ثلاثة أو أربعة آلاف دوكات ، صار يساوى أربعمائة فقط لكى تُستخدم مواد البناء التى به. وعلى مرٍّ السنين كان الموزايكو ، الذى تم قطعه من حجارة متعددة الألوان على شكل مربعات ودوائر فى نماذج جذابة ، يستخرج من أرضيات المساكن ويُعاد تجميعه ، لكى يزين مبانى القاهرة.

وتمامًا مثل التجار الفرنج المتنوعين الذين رسوا فى الميناء ، وصل عدد من الحجاج الأوروبيين ، سعيًا وراء الغفران البابوى الذى كان يُمنح فى الأماكن المقدسة الأسطورية فى مصر. وكانت رحلتهم الاعتيادية ، والتى عادة ما كانت امتدادًا للزيارة إلى الأرض المقدسة، تسير وفق دورة سياحية كانت تشمل الإسكندرية والقاهرة وحدائق النخيل فى المطرية ودير سانت كاترين فى سيناء . وحتى على الرغم من أن الحج كان يُعتبر مغامرة ووسيلة لمشاهدة بلد أجنبى، فإن الطريق كانت طويلة وصعبة ، ومات كثيرون أثناء المحاولة.

ومن أمثال حجاج القرن الرابع عشر إلى الأرض المقدسة ومصر كان الراهب الفرنسسكانى الأيرلندى سيمون سميونيس **Symon Semeonis** وصديقه المحبوب هوجو المنير **Hugo Le Lumineur** ، ففى سنة ١٣٢٣م أبحرا من دبلن إلى هوليهيد ، وبدءا رحلتهما التى استغرقت ستة أشهر عبر أوروبا، وأخذتهم الطريق إلى المرور عبر مدن مثل شستر ، وليشفيلد ، ولندن، وكانتربورى، ودوفر؛ حيث أبحرا قاصدين فرنسا، ومضيا بطريق البر إلى نيس مرورًا بباريس، ولم يكن يفوق حماسة سيمون للندن سوى إعجابه بباريس، التى وصفها بأنها «مرآة ومصباح كل الفضائل الأخلاقية واللاهوتية» . ومن نيس ، استقلا سفينة من جنوه، ووصلا فى نهاية المطاف إلى البندقية يوم ٢٨ يونيو ١٣٢٤م. وإذ كان سيمون عاطفيًا مشبوبًا، فقد اعتبر أن المدينة تستحق أن توضع بين النجوم ونجوم الثريا السبع اللامعات . وربما كان سيمون أنجلو- أيرلندى الأصل ، وكان مراقبًا ذكيًا واسع الخيال ؛ فقد وصف بقدر كبير من الدقة الكثير من التفاصيل

عن المسافات والأسعار ، كما وصف عادات الناس فى البلاد التى مرَّ بها. وباستمراره فى الحياة الديرية فى أيرلندا كان يعرف بعض الكُتَّاب اللاتين، كما كانت له بعض المعرفة (على غير المعتاد) بالقرآن ، على الرغم من أن قراءته له لم تؤدِ سوى إلى استفحال كراهيته للدين الإسلامى، وهو موقف يتوافق كلية مع تلك العصور . وبعد إقامة قصيرة فى القاهرة ، تم إجباره على أن يمضى فى رحلته وحيداً ؛ حيث إن رفيقه الحبيب هوجو «صاحب الذكرى السعيدة»، الذى كان يتوجع دونما راحة على مدى خمسة أسابيع ، من الحمى والدوسنتاريا ، مات بمدينة القاهرة يوم ٢٦ نوفمبر فى منزل أحد المسلمين . « وكانت الخسارة فادحة ، وبين الدموع الفياضة والحزن والنواح دفن سيمون جسد صديقه ، وتركه مسجى إلى الأبد فى أرض غريبة . وفى النهاية، عندما تلاشت الصدمة الأولى، «بدأت أتوقف عن النحيب، وأسيطر على دموعى برجولة ، مودعًا روح أخى وأعز رفاقى بين يدى الله العظيم، الذى يستدعى أولئك الذين يحبهم ويحيى من قتلهم مرة أخرى».

كانت العلاقات بين الفرنج والمسلمين فى مصر مستقرة سنة ١٣٢٤م أثناء السلطنة الثالثة للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون (١٣١٠-١٣٤١م) . وحتى مع ذلك ، كان جميع من يصلون إلى الإسكندرية يخضعون لتفتيش صارم على أيدى موظفى الجمارك فى مبنى الموازين التابع للجمارك Dogana del Gabbano بالقرب من باب البحر. وكان ربابنة السفن يجدون مدخل الميناء ضيقًا وصعبًا، وأن عليهم أن يحذروا الجنوح على الصخور المسنونة التى تختفى تحت سطح المياه. وكان البحر، الذى كاد أن يصل إلى بوابة المدينة، كريه الرائحة؛ لأنه غالبًا ما كان يتلوث بالطحالب والحطام. وعندما كانت سفينة تصل الميناء، كان الموظفون الذين فى نوبة المراقبة ببرج الحراسة على تل صغير فى المدينة، يرفعون علمًا للتحذير والتنبيه ، ويأمرون بإزالة الدفة والشراع حتى يتم دفع كل الرسوم المستحقة . وحينذاك فقط كان يمكن للمسافرين المنهكين مغادرة السفينة، وكانت الجمال والحمير على جانب الرصيف تحمل البضائع والأمتعة لتثمينها فى مبنى الجمارك . وعلى الرغم من أن الرسوم تنوعت، فإن ضريبة مقدارها عشرة بالمائة، بالإضافة إلى سمسرة قدرها ٢ بالمائة كانت معتادة على

جميع الضرائب، وكذلك رسم قدره ربع بالمائة. وكان يجب أيضًا الإعلان عن النقود التى كان يُحصَّل عليها اثنان بالمائة. وبعد الهبوط من السفينة مباشرة، كانت تهاجمهم مناظر وأصوات الأذان للصلاة ، مع أصوات الجموع التى تصيح بمختلف اللغات ، ونهيق الحمير والروائح المقرفة المنبعثة من الروث والقذارة.

وبينما كان الراهبان الأيرلنديان سيمون وهوجو فى انتظار الإذن بدخول المدينة، تم احتجازهما داخل السور المزدوج لبوابة الجمارك، وشتمهم المسلمون الفضوليون لأنهما مسيحيان. وبينما كان الموظفون يفحصون أمتعتهما ، وجدوا بعض الصور للمسيح ومريم العذراء، ويوحنا المعمدان ، أحضراها باحترام وتبجيل من أيرلندا . وبدأ المسلمون الذين انفجروا فى السباب بصوت عالٍ يبصقون على مثل هذه الأشياء الملعونة المملوكة للكفار. وخوفًا من المسلمين ورغبة فى استرضائهم ، كان بعض المسيحيين المرتدين [أى الأوروبيين الذين تركوا دينهم] يصيحون بأنهما جاسوسان بالتأكيد، وأنه لا خير من وصولهما إلى هناك ، ويجب طردهما من المدينة وإجبارهما على الرجوع إلى بلاد النصارى أو عبدة الأصنام التى جاءوا منها. وإذ خطرت لسيمون إجابة ما، قال :

«إذا كان محمد هو النبى الحقيقى، فلتبقوا إذن فى سلام مع الذين معه ويمتدحونه ، ولكن بالنسبة لنا ليس هناك رب آخر غير يسوع المسيح ونحن أبناؤه الذين تبناهم ولسنا جواسيس ، وإنما نريد زيارة مقبرته المجيدة ، ونلثمها بشفاهنا، ونبللها بدموعنا»(*).

ولم يكن رجال الكنيسة الفقراء موضع ترحيب من الموظفين البيروقراطيين فى مصر بصفة خاصة؛ فقد كان يمكن الحصول منهم على القليل من المال؛ لأنهم كانوا يعفون من الضرائب المعتادة التى تفرض على التجار.

(*) المدهش أن المؤلفة ، التى تبدو سعة اطلاعها واضحة جلية، تأخذ مثل هذه الرواية على علاتها، ولاتحاول قراءتها قراءة نقدية على الرغم من أنها قالت صراحة فى الصفحة السابقة إن الراهب الأيرلندى كان يمقت الإسلام بشدة . (المترجم)

وحتى زمن الفتح الإسلامى كانت غالبية الأهالى المصريين مسيحيين، ينتمون إلى الكنيسة القبطية فى القاهرة(*). ولكن بعض الطوائف المسيحية المختلفة فى القرن الرابع عشر فى مصر تسببت فى إرباك الغربيين الذين لم يكن باستطاعتهم الحديث بلغتهم. والأقباط ، الذين يسمون غالبًا اليعاقبة (نسبة إلى يعقوب البراذعى من بلاد الشام) كان يتم الخلط بينهم وبين «مسيحيى الزنار» (أى الموارنة) . وكان هناك اعتقاد بأن زنارهم كان نسخة عن الزنار الذى كانت تلبسه مريم العذراء فى صعودها إلى السماء.

وبأمر من الوالى ، أخذ سيمون وصديقه إلى فندق Fondaco قنصل مرسيليا؛ حيث استراحا لمدة خمسة أيام فى الكنيسة الداخلية حتى منحا الإذن بمواصلة رحلتهما ، وفى الطريق إلى مكان إقامتهما كان الواقفون فى الجوار يشتمونهما ، على الرغم من أن ذلك لم يحل دون أن يلاحظ سيمون المجموعة المتنوعة من الملابس، فى الشوارع المزدحمة ؛ إذ كان الأثيوبيون ذوو البشرة الداكنة من الداخل يختلطون بالمسلمين واليهود والأقباط، الذين كان يمكن تمييزهم من عمائمهم ذات الألوان المختلفة . وشاهد سيمون الأمراء والأثرياء والفرسان المسلمين يرتدون مناطقهم (الأحزمة) العريضة المطرزة بالذهب والفضة «مثل أحزمة النساء» . كما كانت النسوة تتغطين بملاءات من الكتان أو القطن أكثر بياضًا من الثلج ، ولم يكن يبدو منهن سوى العيون بصعوبة من وراء خمار ضيق من الحرير الأسود. وكانت جميع النسوة ، وخاصة من الطبقات الراقية ، ترتدين سراويل حريرية فاخرة بالذهب تصل إلى أعقابهن تقليدًا لزى الفرسان. كما كانت بعض النساء ترتدين الأخفاف، والبعض الآخر ترتدين الأحذية الطويلة الحمراء أو البيضاء . وقد قارن سيمون بين أحذيتهن وسراويلهن وزينتهن وبين ملابس «الشياطين التخيلية التى كانت تُشاهد فى مسرحيات المعجزات» :

«كان التتر والأتراك وبعض الشوام من بين رجال عديدين مسلحين يحرسون المدينة، ولم تكن على ظهورهم أو رؤوسهم دروع تحميهم وباستثناء بعض القادة ، نادرًا ما كان

(*) الكنيسة القبطية لها اسم رسمى وهو الكرازة المرقصية بالإسكندرية، أو كنيسة الإسكندرية، ولم تكن أبدًا تسمى الكنيسة القبطية بالقاهرة: لأنها تأسست فى الإسكندرية قبل بناء القاهرة نفسها بثلاثة قرون ونصف على الأقل . (المترجم)

معهم درع أو صديرية، وكانوا يضعون على رؤوسهم خوذة صغيرة مربوطة برباط من القماش المجدول مع قماش من الكتان حسب عادة المسلمين. كما كان بعضهم يحمل قوسًا وسيفًا محدبًا فى حزامه. وتشبه خيولهم التى تثير التراب بحوافرها فى الشوارع خيول البربر وتضاهيها فى الحجم ، وهى سريعة الجرى وتوضع فى إسطبل دونما فراش أو علف، ولكن طعامها كان يوضع فى كيس مربوط بالرأس بطريقة تجعل الحصان قادرا على وضع فمه داخل الكيس . ونادرًا ما يلبس المسلمون الأحزمة ، أو لا يلبسونها على الإطلاق، وإنما يربطون فوطة حول خصورهم ، ثم يبسطونها أمامهم وقت الصلاة ، وهم لايلبسون الأحذية طويلة الرقبة ، بل يلبسون الأخفاف الحمراء التى لاتغطى سوى مقدمة أقدامهم . أما سائقو الجمال (الجمَّالون) والفقراء فهم وحدهم الذين يلبسون الأحذية نفسها التى يلبسها الصبيان الأيرلنديون. وكان الفرسان من كبار الأمراء وموظفى الدولة هم فقط الذين يلبسون الأحذية طويلة الرقبة من الجلد الأحمر أو الأبيض، والتى تصل إلى الركبة ، كما كانت ثيابهم الغالية تُحاط بمناطق (أحزمة) من الحرير المطرز بالفضة التى يتباهون بها كثيرًا » .

كانت النُزُل (الفنادق Fondachi) من شتى الأحجام متاحة باعتبارها ملاذًا للزوار الأوروبيين. وكان يمكن الاحتفاظ بالحيوانات والبضائع فى أمان فى الأفنية الكبيرة ذات الأروقة، على حين كانت المكاتب وغرف الاستقبال وعنابر النوم بالدور الأعلى. وكان المسلمون يفرضون حظر تجول صارمًا ، ويأمرون بإغلاق البوابات الكبيرة ذات المدخل المزدوج تمامًا أثناء الليل وأثناء صلاة الجمعة. وفى بعض الأحيان كانت هذه الفنادق تضم حدائق غناء حيث كانت الأشجار، والنباتات الغريبة توفر الراحة والظل كما كانت الحيوانات البرية المستأنسة تتجول بحرية فى أرباض الحديقة . وإذ كان البنادقة حانقين من المضايقات الصغيرة التى كان المسلمون يوجهونها لهم، فإنهم احتفظوا بخنزير فى فندقهم تظاهرًا بالشجاعة . ولم يكن الطعام مجانيًا ، على الرغم من أنه كان هناك استخدام للحمام وأفران الخبز. وفوق هذا وذاك كانت هناك أماكن يمكن للرحالة أن يرتاحوا فيها، أو يحضروا الصلاة بالكنيسة الصغيرة الملحقة أو حتى يراجعوا طبيبًا فى الفنادق الكبرى. وكانت مثل هذه المنشآت تؤجر من السلاطين، ولكن تديرها الدول الأجنبية ؛ حيث تسود قوانين كل دولة وإدارتها على حدة .

وكان جميع من يطلبون الإقامة ممن يمكن قبولهم يتلقون ما يعينهم على الإقامة من القنصل الموجود، والذى عادة ما كان أحد كبار التجار . وحسب ما يقوله بيلوتى الكويتى العارف ببواطن الأمور، كان لكل دولة أوروبية قنصلها الخاص فى العادة، وكان يقوم بالتفاوض من أجل مواطنيه (وأحيانا من أجل رجال من جنسيات أخرى) ويرعى أحوالهم ويهتم ببضائعهم وشحنها . وكانوا يتلقون مكافأة بنسبة مئوية معينة من الأموال التى كانت تمر بأيديهم . وفى مسائل المنازعات، حيث لاتكون هناك ترضية من جانب الأمير فى الإسكندرية ، كان للقناصل الحق فى الذهاب بقضيتهم إلى القاهرة . وقد تم انتخاب قنصل عام من أكثر الأمم تجارة فى ذلك الحين من جانب رفاقه ، وهو منصب لم يكن بلا مصاعب؛ فإذا ما ثار حنق السلطان بسبب ما، وأدى النزاع إلى إثارة استيائه ، فغالبًا ما كان القنصل سيئ الحظ، ودونما ذنب جناه، يجد نفسه مقيدًا بالأغلال فى السجن، بل ويعانى الباستينادو bastinado ، (أى الضرب بالفلقة) . وكانت توجد فى كثير من الفنادق كنائس صغيرة خاصة ملحقة كما كانت بعض القنصليات الكبرى تمتلك كنائس . وكان المسافرون يتعبدون فى كنيسة سانت مارى الجنوية، وكنيسة سانت نيكولاس البيزية، وكنيسة سانت ميشيل المملوكة للبنادقة . وبمجاملة من اليعاقبة كان دفن الموتى يتم فى مقابر سانت ميشيل .

فى ٢٧ سبتمبر ١٣٨٤م وصل لورنزو موروسينى Lorenzo Morosini ، القبطان البندقى النبيل لسفينة تدعى البولا Pola ، وكانت سفينة تجارية جديدة ذات اثنى عشر برميلاً من البندقية، وأرسى فى خضم ارتفاع متضخم للمياه بميناء الإسكندرية . وعلى متن السفينة كانت هناك فرقة من أربعة عشر تسكانيًا ، ومن ضمنهم ثلاثة مواطنين من أعيان فلورنسا ، هم ليوناردو دى فريسكوبالدى Lionardo di Frescobaldi وچيورچيو جوتشى Giorgio Gucci ، وسيمون سيمولى سيجولى Simon Sigoli يصحبهم خدمهم ، وكانوا جميعًا فى رحلة حج إلى مصر والأرض المقدسة. وكان أطباء ليوناردو فى البندقية قد نصحوه بعدم القيام بالرحلة ولاسيما الجولة السياحية الممتدة إلى مصر ؛ حيث إنه كان قد مرض فى رحلته من فلورنسا إلى البندقية. ولكن بعد أن كان ليوناردو قد أقنع أصدقاءه بالسماح له بأن يمضى حسبما كان مخططًا، وضع لورنزو موروسينى كابينته

قرب دفة السفينة تحت تصرفه . وهكذا بعد أن تناول هذا الفريق العشاء الربانى المقدس، صعدوا على متن قارب شراعى بستة عشر مجذافًا لكى ينقلهم إلى السفينة «بولا» التى صعدوا إليها بعد رسم علامة الصليب المقدس، وفى النهاية رحلوا يوم ٤ سبتمبر . ولأن الربان كان تواقًا إلى الإبحار ، فإن المركب الصغير ذا المجانيف لم يكن قد استكمل فى دار بناء السفن سواء فى سطحه أو أداة رفع المرساة ، ولهذا بقى كثير من العمال على متن السفينة. وبالإضافة إلى المسافرين الذين دفعوا سبع عشرة دوكات لكل منهم، كانت السفينة تحتوى على قماش من لمبارديا ، وسبائك فضية ، ونحاس ، وزيت ، وزعفران. وفى أثناء حجهم كتب ليوناردو وچيورچيو وسيمون تقارير حيوية مستقلة عن رحلتهم لخدمهم الذين كانوا فى خدمتهم ولأولئك الذين فى أرض الوطن ممن كانوا يفكرون فى القيام بمغامرات فيما وراء البحار.

وعلى الرغم من سوء حال المدينة، وجد جميع الحجاج الكثير ليفعلوه ؛ إذ إن المرشدين من الأهالى الذين عملوا مترجمين لم يضيعوا وقتًا فى توجيه زبائنهم للمعالم التاريخية الأسطورية، وفى العصور الوسطى كانت هناك أسطورة عربية ذائعة تربط مقبرة الإسكندرية بموقع تحت مسجد النبى دانيال فى وسط المدينة – وهى قصة مستمرة حتى اليوم. وكانت هناك شائعة مؤداها أن هناك صورة مدهشة وعجيبة لملك متوج يرقد فى قبة تحت الأرض. وكان المسجد قد بُنى حول ميدان مفتوح ، مزروع بصفوف من الأشجار ، وله فناء داخلى جميل مرفوع على أعمدة كثيرة . ولأن مسجد النبى دانيال كان المسجد الرئيسى بالمدينة، فقد كانت جميع المساجد الأخرى تتبعه فى رفع الأذان .

ولكن فوق هذا وذاك، كانت المواقع المسيحية لها الأولوية فى الجولة بالمدينة. ووفقًا للتراث كان مُرقص الرسول قد وصل إلى الإسكندرية وأدخل المسيحية إلى مصر سنة ٤١-٤٢م أو سنة ٤٢-٤٣ ميلادية . وكان يتم أخذ الرحالة إلى الكنيسة ، التى يزعمون أنها قامت فى مكان إعدامه فى المكان الواقع بمنطقة تعرف باسم بوكلى bucholi (أى ساحة الماشية) داخل الأسوار شرق المدينة. وقد أحاطها الأقباط بالرعاية ، وكانت «صغيرة مظلمة فقيرة رديئة الصيانة» . وبالنسبة للأوروبيين الفضوليين الذين كانوا يحضرون الخدمات الكنسية القبطية، كانت طقوس الأقباط تبدو غريبة وشاذة إلى

حد ما . وفى كل مرة كان القساوسة يحتفلون بالقداس كانوا ينشدون «هالوليا» عدة مرات، على حين يضربون لوحة صغيرة بالعصى وسط صيحات الفرح. وكان يُطلب من المصلين أن يخلعوا أحذيتهم عند دخول الكنيسة، وكان أصغر قسيس يلمس أيدى جميع الحاضرين. كانوا يصلون للبابا ويصرحون بأنهم على نفس دين ملك الحبشة، المسمى برسترچون(*). Prester Johm ، وبالقرب من الكنيسة كان الشارع الطويل الواسع ؛ حيث كان يقال إن القديس مرقص قد تم سحبه مربوطًا بذيل حصان، إلى المكان الذى استشهد فيه رميًا بالصخور والأحجار.

وعلى مدى عدة قرون كانت البندقية مهتمة بامتلاك القديس مرقص . فحوالى سنة ٨٢٨م أو بسنة ٨٢٩م ، زُعم بأن جثمان القديس قد نُقل إلى مدينتهم فى برميل لحم خنزير محفوظ على أيدى اثنين من التجار البنادقة هما : بوونو دى مالاموكا Buono di Malamocca وروستيكو دى تورسيللو Rustico di Torcello ، بمساعدة اثنين من الرهبان اليونانيين هما : ستاور ياكوس وتيودور Stauriacus and Theodore . ويحكى التراث أن الجسد المقدس الذى كان ملفوفًا فى كفن ، تم حمله عبر بوابات الميناء إلى سفينة بندقية كانت بالانتظار فى الميناء. وكانت الرائحة المنبعثة من الحزمة قد أثارت شكوك الموظفين المسلمين. «ولو أن جميع التوابل التى فى العالم تجمعت فى الإسكندرية لما عطّرت المدينة بهذه القوة»، حسبما كتب أحد المؤرخين فى القرن الثالث عشر ، وهو مارتينو دا كنالس Martino da Canals . وعلى أية حال ، فإن التاجرين اللذين أدركا المخاطر المحدقة بهما، احتاطا بتغطية حملهما الثمين بجثث الخنازير ، التى هرب المسلمون الأتقياء عند رؤيتها مرعوبين . وعندما أبحرت السفينة إلى عرض البحر فى سلام، قام البحارة الفرحون بنجاحهم برفع الجثة عاليًا، ملفوفة فى كيس بطرف عارضة الشراع، وواصلوا رحلتهم إلى البندقية . ولم يُضيِّع آباء المدينة الذين

(*) هذا اسم شخصية أسطورية شاع فى أوروبا العصور الوسطى أنه فى مكان ما قرب الجنة الأرضية ، فى الهند أو الحبشة، وكانوا يتوهمون أنه سيهاجم المسلمين ويقضى عليهم . (المترجم)

اعتبروا أنفسهم أول أبناء القديس مرقص (الذى يعتقد أنه كان الرسول إلى منطقة شمال البحر الإدرياتى) وقتًا فى وضع العظام المبجلة فى قصر الدوق حتى يحين الوقت الذى يتم فيه بناء كنيسة جديدة بهذا الشرف. وعندما تم تكريس بازيليكا سان مارك (القديس مرقص) عند نهاية القرن الحادى عشر وضمت الرفات المقدسة ، صارت أهم مركز دينى فى منطقة البحر الإدرياتى، وأثرًا يتسم بالفخامة البيزنطية لتعزيز مكانة جمهورية البندقية المتصاعدة . مثل هذا الاستيلاء الجرىء على مكافأة سماوية مُشتهاة تمت الدعاية له بالرسوم فى الموزايكو الذى عُمل فى القرن الثانى عشر فى **Capella di Clemente** فى الديومو . وإذ كان هذا الرسم بالموزايكو يُشاهد بأعين الكثير من الحجاج المسافرين من جميع أنحاء أوروبا، فقد كان بمثابة إقرار يبرهن على حق أبناء البندقية فى أن يكونوا أصحاب الحق فى ملكية الذخائر المقدسة. ومثل فيلم كارتون ، تتكشف القصة برسم أقواس كلاسيكية كُتب تحتها «الإسكندرية». وتستمر بمشهد يُظهر نقل جثة سان مارك من التابوت الحجرى، ثم الجسد يمسكه الذراعان القويان للتاجرين اللذين
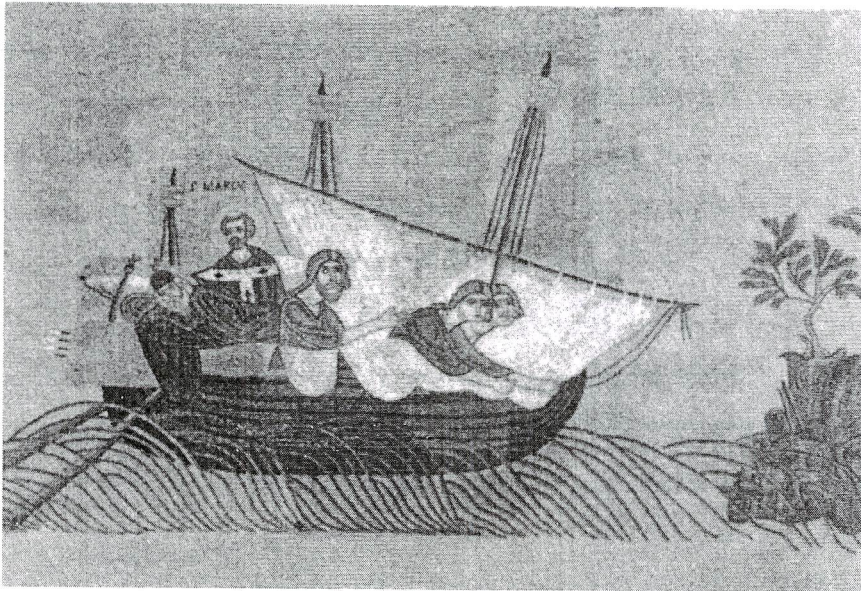
(٣-٤) جسد القديس مرقص خلال نقله إلى البندقية

يساعدهما ستاورياكوس وتيودور اللذان يضعان قبعتين طويلتين ، ثم يأتى بعد ذلك التاجران ومعهما الجثة محشورة فى سلة معلقة فوق كتفيهما على عمود، ينظر إليهما موظف جمارك مسلم. وكان يمكن معرفة هذا فى التو من كلمتى «خنزير ، خنزير» . ويلى هذا فحص الحراس للقارب ذى الصوارى الثلاثة فى الميناء، ومغادرة السفينة، وبقدر ما من الرضى عن المهمة التى تم إنجازها، عندما خرجت السفينة إلى عرض البحر ، يقرأ الربان «ما إن استردوا الجسد حتى أخذوه وهربوا». ويُصوِّر المشهد الأخير تجمع القساوسة بتيجانهم ، وهم يرفلون فى أغلى ثيابهم، يتحرقون شوقًا لامتلاك مكافأتهم الثمينة على جانب الرصيف .

وإذ تزايدت قوة البندقية ، فإن حيازتها العظام المقدسة زادتها قوة. وكان يمكن مشاهدة رأس سانت چورچيو وذراعه اليسرى يغطيها اللحم فى كنيسة سانت چيورچيو . وفى أماكن أخرى كانت رأسا سانت كوزماس وسانت دميان فى إناء مطلى بالذهب والذراع اليسرى لسانت لوشيا العذراء ، ورأس سانت چيمس الأصغر ، على الرغم من أنه كان يلفت النظر أن هذا الأخير يمكن مشاهدته أيضًا فى كومبو ستلا فى غاليثيا بإسبانيا، وفوق هذا وذاك كان القديسون الذين لايرقى إليهم الشك يوفرون بؤرة مربحة لتعزيز صناعة السياحة فى العصور الوسطى.

بيد أن مرقص لم يكن بأى حال القديس الوحيد الذى اشتهرت به الإسكندرية ، فقد كانت كاترين الشهيدة العذراء مساوية له على الأقل فى أهميتها بالنسبة للحجاج الزائرين . فوفقًا لأسطورة شعبية ، كانت الشهيدة غادة حسناء من أصل راق احتجت علانية إلى مكسنتيوس ضد عبادة الأصنام الوثنية ، وبعد أن تحملت الكثير من المحن ، بما فى ذلك محاولة كسرها على عجلة بمسامير لجعلها ترتد، أمر الإمبراطور غاضبًا بقطع رأسها . ومن أوداجها المقطوعة تدفق اللبن بدلاً من الدماء حسبما قيل، على حين استنزلت القديسة البركات على جميع من سوف يتذكرونها . وكانت هناك صياغات عديدة لهذه الحكاية النابضة بالألوان . وفيما بعد شاع الاعتقاد بأن جسدها ، «الذى كان يُشعُِ ضياء» ، قد نقل إلى قمة جبل كاترين ، إحدى أعلى قمتين بجبل سيناء، حيث

يرقد جسدها مكتملاً كله على مدى عدة مئات من السنين. ومن هناك تم نقله بإجلال على أيدى الرهبان المسيحيين الزاهدين ، الذين تنبهوا إلى وجوده برؤيا أو حلم ، إلى البازيليكا فى الوادى أسفل الجبل. وتلقف فنانو عصر النهضة شعار كاترين وعجلتها وخلدوا الإعجاب بها ورسموا موضوعهم فى عدة هيئات حسب اختيار رعاتهم. وقد أخذوا مصدرهم من كتاب **Legenda Sanctorum** الذى جمعه چاكوب ڤورينى **Jacob Voraigne** . وكان دير سانت كاترين يمثل النقطة الأسمى فى جولة الحجاج المسيحيين، ذلك أن الرحلة الطويلة عبر صحراء سيناء كانت شاقة وخطيرة ، وكان الكثير من قرارات الغفران البابوية تمنح مكافأة لقاء تسلق القمتين التوأم للجبال والتعبد عند مقبرة القديسة . وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، تعرضت الكنيسة التى كانت علامة على موتها المزعوم فى الإسكندرية للسلب على أيدى المسلمين ، وباتت فى حال مزرية ، ولكن السلطان العثمانى مراد الثالث (ت ١٥٩٥م) أمر بإعادة بنائها من جديد، وهو عمل من أعمال التقوى اعتبره الأهالى أمراً مدهشاً .

وقبل الصعود إلى السفينة بولا التى ألقت مرساتها فى البندقية، كان ليوناردو دى فريسكوبالدى، على الرغم من مرضه ، قد اختار بعناية صندوقاً صغيراً أخذه على سطح السفينة ليحفظ فيه أسفار الكتاب المقدس ، «وكتاب الأخلاق لجريجورى الكبير، وأكواب من الفضة وأشياء أخرى فاخرة» ؛ فقد كان ليوناردو رجلاً واسع الحيلة داهية :

«ومن الصندوق فككنا أحد تلك الأربطة الموضوعة فى الجزء الأسفل من الغطاء وأفرغنا جزءاً بخنجر صغير خبأنا فيه ستمائة دوكات جديدة لكل منا نحن الثلاثة مائتا دوكات ، وحملت أنا مائتى دوكات من العملات الفضية البندقية الرديئة ومائة من الدوكات الذهبية ، وموازنة تصل إلى سبعمائة دوكات لكل شخص حملناها فى خطابات موجهة إلى جويدو دى ريتشى **Guido de Ricci**».

كان جويدو دى ريتشى هو الوكيل السكندرى لشركة بورتينارى التجارية القوية فى فلورنسا . وكان التوسكانيون الذين يعرفون أن المسلمين يفضلون العملات المسكوكة حديثاً هم أول المسافرين الإيطاليين الذين وضعوا قوائم بنفقاتهم التى أنفقوها فى مصر.

وقرر جيورجيو جوتشى، الذى كان بمثـابة أمـين خـزانة الفـريق، أنه منـذ الخروج من فلورنسـا حتى العودة إليها ، كانت مصروفات كل واحد منهم «لكل واحد وخادم واحد» ثلاثمائة فلورين ذهبى. بيد أن المصروفات التفصيلية لم يتم حسابها سوى منذ يوم وصولهم إلى الإسكندرية ، عندما وضعوا خزانة مشتركة ، حتى اليوم الذى وصلوا فيه دمشق . وكان لابد من تحذير المجموعة فى البندقية قبل الرحيل من أن المسافرين يجب أن يحرصوا على أن يحملوا معهم مبلغًا كبيرًا من النقود. ففى سنة ١٤٣١، حذَّر أحد القساوسة واسمه ماريانو دا سيينا Mariano da Siena ، الحجاج المسافرين إلى أرض السلطان من أنه لايجب الذهاب إلى فلسطين، إذا لم تتـوفـر له الوسـيلة لذلك ؛ لأن ذلك سـيكون كـارثة على جلده ؛ إذ إنه سـوف يشق نصـفين ، أو سـيكون على الحجاج الآخرين أن يدفعـوا بدلاً منـه، أو يتخلى عن دينه . كانت عقـوبة التوسيط (أى قطع الجسد إلى نصفين بالسيف من عند الخصر) تنزل بسيئى الحظ عقوبة معروفة ، إذا ما حدث أن كافرًا أثار غضب السلطات التى تتحكم بها النزوات(*).

فى سنة ١٣٨٤م كان لابد لليوناردو ومعظم المسافرين الآخرين إلى مصر أن يُعرَّفوا بموقف العملة. فقد كان من المعروف أن المسلمين يقبلون الدوكات البندقى والفلورين الفلورنسى، لثبات وزنهما وحجمهما، على النقيض من الدينار المحلى الذى كان يمكن أن يختلف وزنًا وحجمًا. وفى كتابه الذى ألفه من أجل التجار، قرر فرانسسكو بيجولوتى أنه بالإسكندرية كان البيزنت الذهبى أو الفلورين (الفلورين الذهبى Fiorentino d'oro الجميل الذى نقش على ظهره السوسن الفلورنسى) يمكن أن يشترى كل أنواع البضائع؛ لأن العملات كانت ثابتة الوزن . وبحلول سنة ١٣٩٨م كانت هناك حاجة ماسة

(*) هذا كلام لاتسنده الحقائق التاريخية، فقد كانت السلطات المملوكية ترى فى التجارة موردًا مهمًا من موارد البلاد، ولذلك كان هناك حرص دائم على سلامتهم باستثناء الأوقات التى تشهد عدوانًا من القراصنة الأوروبيين أو هجومًا على السواحل المصرية مثلما فعل بطرس لوزنيان بسنة ١٣٦٥م كما أشارت المؤلفة . ومن ناحية أخرى، كانت هناك اتفاقيات تنظم أحوال التجار الأجانب فى أراضى سلطنة المماليك. وعلى أية حال ، فإن المؤلفة تظهر ميلاً غير مبرر لتصديق رواية هذا الرجل الذى قالت إنه كان يمقت الإسلام والمسلمين ، كما أن التوسيط كان عقوبة يمكن أن يقع تحت طائلها أى أحد بما فيهم المماليك أنفسهم . (المترجم)

إلى الفضة بمصر (استوردت سفينة Pola سبائك فضية) ، ولم يكن سك الدراهم الفضية يحدث كثيراً، وكان السبب فى ذلك راجعاً على الأكثر إلى حقيقة أنه كان هناك طلب كبير على المشغولات الفضية، بما فى ذلك التجهيزات المكلفة لخيول المماليك. ومع ارتقاء السلطان فرج بن برقوق العرش بسنة صارت العملات النحاسية(*) هى السائدة فى معظم تعاملات السكان ، ووفقًا لما قاله ليوناردو دى فريسكو بالدى، فمن بين جميع العملات الفضية لم يكن يُقبل غير العملة الفضية البندقية . وعلى مدى فترة قصيرة منذ سنة ١٤٢٢م ، كان الفلورين الفلورنسى معاصراً للدوكات البندقى حتى صدر أمر بسنة ١٤٢٥م من السلطان الأشرف برسباى يمنع رسميًا استخدام العملة الأجنبية، والتى حلَّ محلها الدينار الأشرفى. وعلى الرغم من هذا المرسوم ، فقد استمر تداول الدوكات والفلورين .

وبعد أن كان الربان البندقى لورنزو موروسينى قد أحضر السفينة بولا إلى داخل الميناء الشرقى يوم ٢٧ سبتمبر كانت السفينة راسية تضرب فى مرتفع خشن . وفى النهاية خلع موظفو الميناء الأشرعة والدفة ، وأخذت أسماء مجموعة ليوناردو دى فريسكو بالدى ومعهم جميع المسافرين المتعبين الذين كانوا على متن السفينة . ولاشك فى أن أخبار وصول السفينة كانت قد أرسلت من عليها بواسطة الحمام الزاجل إلى أمير الإسكندرية ، الذى نقل بدوره المعلومات إلى السلطان فى القاهرة ، وكان الحمام الزاجل السلطانى الذى يربى فى أبراج الحمام بالقلعة، ويؤخذ فى أبراج إلى الساحل، له علامات مميزة ، ولم يكن مسموحًا لأحد سوى السلطان بفض الرسالة المربوطة بالذيل . وهكذا كان الحاكم أول من يعرف أخبار وصول السفن ومغادرتها من الميناء ، وكان يعرف على الفور البضاعة الغالية التى كانت تفرض عليها رسوم باهظة تملأ خزانته . وحتى إذا كان يضيع الوقت فى التسلية ، يلعب (البولو) الكرة، أو فى رحلات

(*) كانت تعرف باسم «الفلوس»، وكانت تُقيم بالوزن فى بداية الأمر، ثم صارت بالعدد ، وصارت قاعدة السعر بدلاً من الذهب والفضة ؛ مما أدى إلى التضخم وتفاقم الأزمة المالية على النحو الذى رصده المؤرخ تقى الدين المقريزى، فى كتابه الصغير الرائع «شذور العقود فى أخبار النقود»، وفى صفحات كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك»، وقد كانت الأسباب وراء اختفاء الفضة، أو ندرتها، منذ أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر ، أسباب أعمق كثيراً من تجهيزات خيول المماليك . (المترجم)

الصيد مع صقوره الغالية، كانت تصحبه سلة بها الحمام الزاجل . وكانت الصقور من الأهمية بالنسبة للحكام المصريين لدرجة أنهم كانوا على استعداد لدفع ١٥٠ قطعة للصقر الحى ونصف ذلك الثمن فى الصقر الذى كان يموت أثناء الطريق.

وإذا ما دخلت مجموعة ليوناردو مبنى الجمارك الكبير تم تسجيلهم بأيدى موظفى الضرائب، وتم عدُّهم مثل الحيوانات، «وتم تفتيشهم حتى تحت اللحم». وبعد أن فكت جميع حقائبهم وحزمهم ، وفُتشت بدقة، جعلوهم يدفعون نسبة ٢ بالمائة على النقود الذهبية والفضية وعلى أشيائهم ، وكذلك دفع كل منهم دوكات واحدة إتاوة . وعلى الرغم من أن ليوناردو كان رجل دين، فإنه كان ذا خلق ملتهب، ولكن حتى إذا لم تعجبه هذه المعاملة ، فقد كان من حسن التدبر أن يبقى صامتًا : «حقًا أننى شككت فى أنهم لن يعثروا على الستمائة دوكات التى كنت قد وضعتها فى حشايا الصندوق؛ لأننا سوف

(٣-٥) قرد معروض ، من داخل أفريقيا

نخسرها ، وسوف نلقى معاملة أشد سوءًا». ولكن بفضل الرب لم تتحقق مخاوفه . وفى مقابل الحجاج الذين يحملون أمتعتهم الشخصية، كان التجار من كل دولة كبرى مع الكميات الكبيرة من البضائع لهم الحق (وفقًا لاتفاقيات منفصلة) فى استخدام الحوانيت الواسعة المغلقة والمغطاة داخل السياج ؛ حيث كانت عملياتهم التجارية تجرى تحت عيون المفتشين اليقظة .

كانت مجموعة ليوناردو ، وكذلك الراهبان الأيرلنديان سيمون وهوجو، يقيمون بفندق مرسيليا ؛ حيث خُصصت لهم أربع غرف أعلى فناء خصص فيه لكل منهم مساحة وقفص يشبه قفص الدجاج وفردوا حشاياهم فيه . وفى الأسفل تحت غرفهم كان يوجد عقد غير مسقوف قائم على أعمدة يشبه رواق الرهبان. وعندما اتفقوا على سعر إقامتهم، قدم لهم القنصل زملاءه فى المدينة وهم قناصل البنادقة ، والقطلان، والچنوية، ثم قدمهم إلى جويدو دى ريتشى (وكيل شركة بورتينارى فى فلورنسا)، وقدموا له خطابات التوصية ، وقد لقوا استقبالاً حسنًا من الجميع، وتمت دعوتهم إلى المآدب واصطحابهم خلال المدينة كما لو كانوا سفراء.

وقد مرَّ المسافرون ، وهم فى طريقهم إلى سكنهم، عبر شارع السوق الضيِّق؛ حيث كانت الحوانيت والسقائف مغطاة بالحصير الذى يحميها من الحرارة . وكان يباع فى البازار خليط من جميع أنواع البضائع الغريبة، وأنواع كثيرة من التوابل، وأخشاب الصندل، والقرنفل ، والصينى، والياقوت، واللؤلؤ . وكانت الحيوانات والطيور البرية معروضة، وقد جُلبت من داخل القارة الأفريقية : النعام ، والببغاوات زاهية الألوان ، والطيور الصياحة ، والقرود ، وأشبال القرود، والفهود، و«هو حيوان مرعب إذا نظرت إليه وله رأس ورقبة تشبه الأسد، ويميل فروه إلى الاحمرار، وبه بقع سوداء على الجسد».

وبسبب المزيد من التدهور الذى حاق بالإسكندرية تحت الحكم التركى ، يبدو أنه لم يتبقَ بها سوى عدد قليل من السكان. وبحلول سنة ١٥٧٧م كان قنصل البنادقة قد انتقل إلى القاهرة ، تاركًا مكانه نائبًا له . وكان أهم قنصل بقى فى المدينة هو القنصل الفرنسى. هذا المنصب المربح، الذى كان يمكن أن يُباع ويُشترى ، بقى تحت سلطة

مرسيليا وثبته ملك فرنسا . وقبل ذلك بوقت قصير ، كانت هناك سيدة غامضة ومجهولة «سيدة فرنسية ، شغلت عن جدارة منصب قنصل الإسكندرية بمالها من سلطة ، وربحت من ورائه فوائد عديدة» . وتحت حكم الأتراك العثمانيين، احتفظ معظم القناصل باثنين من الإنكشارية لحمايتهم والعديد من التراجمة فى ملابس بنفسجية لترجمة ما يدور بينهم وبين الموظفين الأتراك .

خلال الوقت الطويل الذى تاجر فيه إيمانويل بيلوتى فى مصر ، صار هذا التاجر البندقى مقرباً جداً من البلاط فى حكم السلطان الناصر فرج بن برقوق . وعلى الرغم من قسوة فرج، فإنه كان شخصية مأساوية على نحو ما، وقد حاول الدفاع عن بلاد الشام ضد تيمورلنك والمغول. وقد أظهر الود تجاه إيمانويل الذى كان رجلاً اجتماعياً متعدد الجوانب، وله ميزة الكلام باليونانية والعربية ، على الرغم من أنه لم يكن يعرف التركية، وهى اللغة التى كان يتحدث بها سلاطين المماليك.

ولكن إيمانويل بيلوتى، وربما لأنه كان مقرباً من السلطان الناصر فرج ، صار بؤرة الانتباه غير الودى عندما لاحت نُذُر المتاعب لجماعة البنادقة فى الإسكندرية ؛ ذلك أن قرصاناً مسلحاً، اسمه بطرس لاراندا Peter Laranda ، كان قد استولى على سفينة مصرية وعليها غنائم كثيرة تصل إلى حوالى سبعمائة كيس من البضائع . وعلى متنها كان حوالى مائة أسير مسلم باعهم فيما بعد إلى جاكوبو كريسبو Jacapo Crispo ، دوق ناكسوس . وكان دوقات ناكسوس هم الرؤساء الإقطاعيين والتابعين للبندقية منذ استيلاء مارينو سانوتو على الجزيرة Naxas بسنة ١٢٠٧م ، وقد ظلوا مواطنين بنادقة يتحدثون باللهجة البندقية ، وكانوا حكاماً كاثوليك مكروهين يحكمون شعباً يونانياً ومقر حكمهم فى الكاسترو Kastro ، وهى القلعة ذات الاثنى عشر برجاً ، تعلو أحد التلال وتحميها أسوار حصينة بناها البندقى، دوق ماركو سانوتو الأول . وقد نشروا أنفسهم حول الريف فى بيوت ريفية ذات أسوار بها شرفات وأبراج يربض بها الجنود، تشبه إلى حد ما الأبراج التى تُزين المنازل فى شمال كومبريا Cumbria على حدود اسكتلندا . وعلى أية حال، بقيت علاقاتهم بالبندقية متقلبة. وفى سنة ١٣٩٧م عاد الدوق نيكولو أدولدو Niccolo Adoldo أمير سيريفوس Serifos ، الذى كان يقيم عادة فى البندقية،

إلى ضيعته فى ناكسوس مع عصبة من اللصوص الكريتيين ورمى بعدد من أعيان الجزيرة فى السجن؛ حيث تعرضوا بالتالى للتعذيب . وزعم أن سكان الجزيرة لم يكونوا قد دفعوا له مبلغًا كافيًا من الضرائب . وبما أن أماكن وجود المال لم يتم الكشف عنها - لو كانت موجودة أصلاً - تم دفع سكان الجزيرة التعساء بسرعة من فوق أسوار المدينة ليلقوا حتفهم . لقد كانت تواريخ هذه المناطق جزر الكيكلاديس Cyclades غالبًا دموية، وكان من المعتاد لأمراء القراصنة الذين يحكمون جزر البحر الإيجى، تحت سيادة البندقية، أن يجلبوا العوائد، ويستخرجوا الضرائب الباهظة من الناس. وعلى أية حال ، ففى هذه المناسبة ، كانت جمهورية البندقية ، التى غالبًا ما كانت تتعامى عن الاضطرابات المحلية، مجبرة على التدخل. وتم الحكم على نيكولو بالسجن لمدة عامين، وعزل من منصبه ، ومنع من زيارة الجزيرة ثانيــة. أما جاكوبوكريســبو ، الذى كـان الدوق سنة ١٤٠٢م فبدا أنه يتبـع نماذج القرصنــة التى مـارسـها الحكـام الســابقـون فى ناكسـوس . وربما يكون السلطان فرج بن برقوق قد شجعته حوادث سنة ١٣٩٧م ، فقد كان من المفهوم أن يتوجه فرج إلى البندقية لجبر الأضرار التى لحقت به فى المنطقة.

وبناء على هذا هدد السلطان الشاب فى القلعة بالقاهرة بالاستيلاء على جميع سفن البندقية فى الميناء ، ومعها البضائع الجاهزة للشحن ، ما لم توافق البندقية على العمل من أجل إطلاق سراح الأسرى. وقرر القنصل ومجلس التجار البنادقة فى الإسكندرية، والذين كانوا يتوقون إلى تجنب الصراع الشخصى. وأن يحافظوا على العلاقة بالحاكم الذى لم يكن ممكنًا التنبؤ بتصرفاته ، والذى كان عدائيًا فى بعض الأحيان ، أن يستجيبوا للطلب ، ومن ثم قبلوا مبلغ الألفى دوكات التى كان السلطان قد أرسلها فدية . وبسبب قدرات إيمانويل اللغوية ومعرفته بالمنطقة ، كان هو الاختيار الواضح للمجلس لكى يتوسط بين السلطان فرج والدوق . وعلى الرغم من تردده ، وافق فى نهاية المطاف على أن ينطلق فى مهمته إلى ناكسوس. وبعد شهرين من المفاوضات، التى شملت أربعة آلاف دوكات بندقى، نجح إيمانويل فى إعادة الأسرى الذين أطلق سراحهم وعاد ظافراً إلى الاسكندرية. وقبل الرحيل من الجزيرة، كان المسلمون قد أمروا بصناعة راية ذهبية تحمل شعار القديس مرقص، حتى يمكن لإيمانويل أن يعود به إلى السفينة التى كان

قد استأجرها للرحلة، وبدا على أية حال أن الراية لم تكن منحة ؛ لأن إيمانويل حكى أنه شخصياً قد اضطر إلى أن يدفع فى مقابلها خمساً وثلاثين دوكات.

وعند الوصول إلى الميناء ، وسط تهليل المواطنين سار فى طابور مع الأسرى ومعه الراية، وتم الترحيب به فى منزل الأمير والى الإسكندرية فى أطراف المدينة . ولكن التجار الأوروبيين، الذين خشوا غضب الناس الذى قد يشتعل من جراء استعراض الراية البندقية ، هربوا من المدينة بعد إغلاق أبواب فنادقهم وأغلقوا نوافذهم، ولم يرجعوا سوى عندما تحققوا أنهم آمنون.

وبعد ثلاثة أيام ، سافر إيمانويل مع الأسرى وفريق كبير من الناس إلى القاهرة . وبسبب جهوده الناجحة ، استقبله فرج استقبالاً مهيباً مشرفًا ، وأعلن على الملأ تفضيل البنادقة على من سواهم من التجار الأوروبيين. ومكافأة لإيمانويل ، تم منحه ، بناءً على طلبه حق استيراد خمسة براميل من النبيذ الحلو **malvoisie** شهرياً إلى ثغر الإسكندرية معفاة من الضرائب . وكان لهذا أن يعود عليه بربح قدره خمسين دوكات فى كل مرة، على الرغم من أنه كان يعرف أن السلطان لم يكن يوفى دائمًا بوعده . كما أمر فرج بتعويضه عن مبلغ الألفى دوكات التى كان قد صرفها زيادة، على الرغم من أنه لم يسجل ما إذا كان ذلك قد حظى بالتشريف .

كان إيمانويل ، بشخصيته الودودة الجذابة، يحظى بشعبية بين رفاقه التجار من جميع المشارب والأعراق ، والذين أطلقوا عليه بدافع العاطفة اسم «مانولى **Mannoli**». وعادة ما كان يستفيد من حظوته فى الدوائر الراقية ، لدرجة أنه فتح ثغرة فى مبنى الجمارك المجاور لمخزنه الخاص، بحيث كان يخرج منه بضائعه لتجنب دفع الضرائب . وقد وصف واردات الأقمشة الصوفية من إقليم الفلاندرز ، وبرشلونه ، والبندقية . وكان يتم استيراد كميات كبيرة من المرجان من برشلونة ، أما النحاس الأصفر والأحمر، وألواح الفضة ، والحرير والمخمل، وقماش **Zambelloci** (وكان يصنع من شعر الماعز أو وبر الجمال الطويل ويفضله الأغنياء كثيراً) والزعفران وفراء الفقمة والسمور الذى كانت تصدره روسيا ، فكان يتم شحنها من البندقية . وبالإضافة إلى التوابل

التى كانت تساوى مبالغ طائلة من العملات الذهبية ، كما كان يتم تصدير كميات كبيرة من السكر والعطور والكتان الفاخر والحرير الذى كان جزء منه يُنسج فى ورش الإسكندرية المشهورة على الرغم من التدهور، فى غرب المدينة، إلى جانب المواد الغذائية المحلية مثل العنب والسكر والليمون والتمور والمخللات .

وإلى ثغر الإسكندرية كان يفد صبية فى سن المراهقة من الرقيق المسيحيين المخطوفين من منطقة القوقاز وما حولها، ثم يتحولون إلى الإسلام، ويتعلمون الفنون العسكرية لضمان دوام استمرار النظام المملوكى بالقاهرة. والعبيد الآخرون فى الإسكندرية كانوا يؤسرون من داخل أفريقيا، ويتم تصديرهم بأعداد كبيرة إلى البندقية وكل أنحاء إيطاليا . وكانوا يعملون خدمًا للعائلات (وخاصة الإناث) ، والذين كانت أعدادهم قد تناقصت بعد الوباء الأسود فى القرن الرابع عشر . وكان التتر قد حافظوا على سوق للرقيق مزدهرة في فندقهم بالإسكندرية حيث كان الرجال والنساء والأولاد والبنات المسيحيون يُباعون يوميًا وفقًا لتصنيفهم بأسعار رخيصة جداً . وكان يتم فحص أطرافهم أولاً لرؤية ما إذا كانت سليمة، أو قوية ، أو مريضة ، أو عاجزة ، وكان البنادقة يسافرون إلى جميع أنحاء الدنيا لجمع الشباب وبيعهم فى مصر .

وفى كل سنة أثناء فترة التحميل فى شهر سبتمبر (المدة) Muda ، كانت تصل الأساطيل من جميع أنحاء البحر المتوسط من أجل التبادل السنوى الكبير للبضائع . وكانوا يأخذون البضائع التى كانت قد جلبت عبر الصحراء إلى القاهرة على ظهور الجمال من البحر الأحمر فى أبريل ومايو ويونيو، ثم تنقل فى النيل وخليج الإسكندرية أثناء الفيضان. وعلى الرغم من أن تجارة الشتاء لم تكن تتوقف تمامًا ، فإن معظم السفن كانت تغادر قبل منتصف نوفمبر قبل أن تخلى رياح الخريف مكانها لعواصف البحر . وأولئك الحجاج الذين يسافرون فى هذه الفترة فى أرجاء البلاد كانوا يسارعون إلى الإسكندرية لضمان مكان لهم على إحدى السفن المغادرة المزدحمة. وتحت حكم العثمانيين ، الذين استخدموا مصر بمثابة شونة للغلال، كانت أساطيل سفن النقل ، التى كانت عرضة لهجمات القراصنة بشكل متزايد ، ترسل إلى موانئ الدلتا مرتين فى السنة لحمل القمح والسكر والأرز لإطعام سكان القسطنطينية المتزايدين باستمرار .
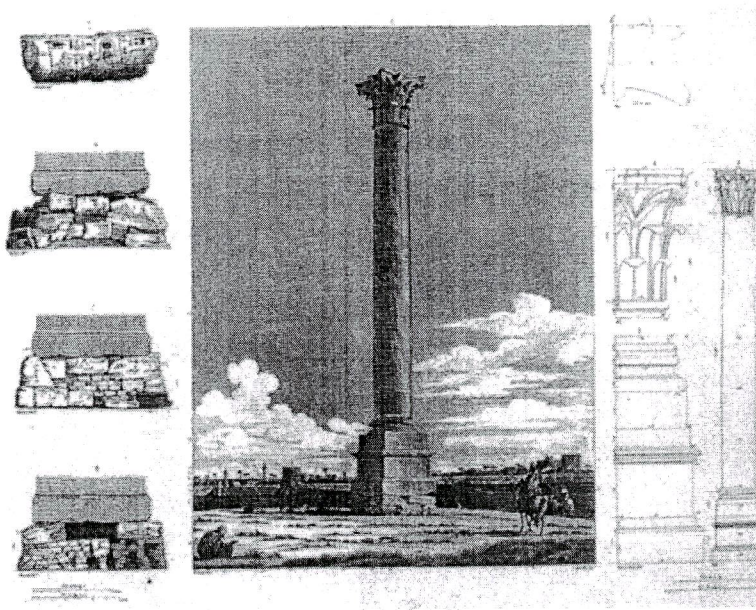
(٣-٦) عمود السوارى بالإسكندرية (أو ما كان يسمى عمود بومبى)

وعلى الرغم من أن الزوار الأوائل فى فترة العصور الوسطى لم يكونوا بصفة عامة يهتمون بالآثار ، فإن معظمهم قد اجتذبهم عمود طويل مذهل يرتفع ثمانين قدمًا، تعلوه تيجان بزخارف مورقة ، قرب باب الفلفل خارج أسوار المدينة . وقد كرَّسه بريفكتور مصر پوبليوس لدقلديانوس، سنة ٣٠٠ ميلادية ، وكان الاسم الشائع له عند الأوروبيين «عمود بومبى»(*) ، وقد أخطأ كرياكو الأنكونى **Cyriaco of Ancona**، الذى حاول أن يحلَّ غموض نقش التكريس المزعوم، فى قراءة بعض الحروف اليونانية ، وأعلن أنها جزء من اسم دينوكراتيس **Deinocarates** المهندس المعمارى للإسكندر الأكبر، وأعلن أن العمود كان «العمود السكندرى للملك».

(*) المقصود «عمود السوارى» الذى استرعى انتباه كل الرحالة الذين زاروا الإسكندرية فى تلك العصور من الرحالة المسلمين والأوروبيين على السواء . (المترجم)

وكان آخرون يتأملون ويفكرون فى «المسلتين» اللتين تغطيهما كتابات غريبة وأشياء أخرى عجيبة، وقالوا إنهما فى موقع قصر كليوباترا الذى كان بجانب الميناء، وكانت إحداهما لا تزال منتصبة على حين كانت الأخرى ترقد مكسورة على الأرض . وقد قارنهما البعض بالمسلات التى كانت تثير الانتباه كثيراً فى روما، التى أعيد ترميمها من الأطلال القديمة بحماسة فى القرن السادس عشر لكى تزين الميادين أمام الكنائس المهمة. وفى سنة ١٥٨٨م كتب ميشيل ميركارتى، وهو رجل آثار من روما، أول مقالة (ونقل عن تسعة وسبعين كاتبًا قديمًا) عن المسلات فى مدينته . وعلاوة على ذلك ، كان واحدًا من الكُتَّاب الذين حاولوا فى القرن السادس عشر حل الكتابات الهيروغليفية على المسلات التى فحصها . ومن بين روايات الرحالة المعاصرين عن مصر، والتى اقتبسها ميشيل كانت رواية الحسن بن محمد الوزان الفاسى المعروف باسم ليو الأفريقى ، الذى كان القراصنة قد أسروه بالقرب من ساحل جربة فى تونس سنة ١٥١٨م . وفيما بعد تم تقديم ليو إلى البابا ليو التاسع ، ابن لورنزو دى ميديتشى ، الذى عمَّده فى روما باسم چيوڤانى ليونى **Giovanni Loene** . وعندما تم أسره ، كان مع ليو الأفريقى مسودة بالعربية لكتابه «تاريخ ووصف أفريقيا والأشياء المهمة التى بها»، وقد ترجم واستكمل بالإيطالية سنة ١٥٢٦م، ونشره الناشر النشيط راموسيو **Ramusio** فى سنة ١٥٥٠م . وكان ليو قد زار الإسكندرية على ما يبدو فيما بين سنة ١٥١٥م وسنة ١٥١٧م، وكتب عن مبانيها القديمة، بما فى ذلك الفنار والأعمدة المحطمة .
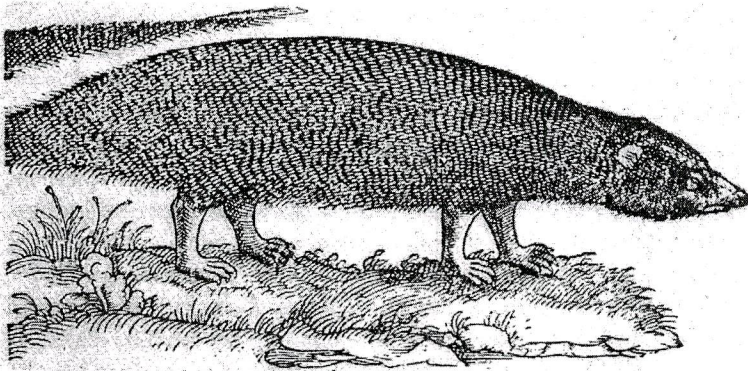
(٣-٧) النمس (أو فأر فرعون) كما رسمه بيير بيلون

وفى سنة ١٥٤٧م سافر بيير بيلون دى مانس Pierre Belon du Mans (١٥١٨– ١٥٦٤م)، وهو طبيب فرنسى وعالم طبيعة، إلى الإسكندرية من القسطنطينية فى قافلة للسفير الفرنسى فوميه M. Fumet ، الذى كان قد أرسله الملك هنرى الثانى ملك فرنسا إلى بلاط السلطان العثمانى. وقد بدأ بيير تعليمه الطبى صبيًا فى صيدلية قبل أن يسافر إلى أوروبا للدراسة على أيدى مدرسين من أمثال فاليريوس كورديبوس Valerius Cordibus فى ويتنبرج . ومن بين رعاته كان كرادلة تورنون واللورين، وقد عدَّ رونسارد من بين معارفه. ولم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره عندما وصل إلى مصر حيث أمضى شهرى سبتمبر وأكتوبر . ومنذ بداية زيارته كان واضحًا أنه لايرى غير الريف الذى يحوى النباتات والحيوانات والزواحف الغريبة . ولم يُضيِّع كلماته فى تسجيل الحوادث والناس الذين قابلهم فى الرحلة، وهو مثل بروسبيرو ألبينى كان يملؤه الفضول عن كل أنواع النباتات الطبية فى مواطنها إلى جانب النباتات والحيوانات عامة. واعتاد سؤال التجار وفحص الفصائل والأنواع المختلفة فى سوق الإسكندرية وجلد النعامة وريشها المعروض للبيع، ملاحظًا أن الريش الذى يزين عمائم الأتراك كان يستخدم فى فرنسا لتزيين قبعات الفرسان الفرنسيين وأغطية رأس المشاة.

وهناك حيوانان على وجه خاص استوليا على اهتمام بيير، النمس (أو فأر فرعون) والضبع. وللنمس أنف سوداء مدبب ، وأذنان مستديرتان رماديتان وذيل طويل ، أما فراؤه ، الذى يشبه فراء الذئب ، فيميل إلى البياض أو أصفر اللون به تقاطعات رمادية . وهو يحافظ على نظافته قدر الإمكان ويصيد الفئران المنزلية . ولأنه يتميز بالبراعة والرشاقة ، فإنه يعيش على الفرائس الأخرى مثل الثعابين، والسحالى ، والضفادع ، والحلزون ، والدجاج . وعلى الرغم من أنه صغير الحجم، فإنه لايخشى القتال ضد كلب كبير بندية ، فإذا ما صادف قطًا يخنقه بعضَّات من أسنانه . وكان مسيو بينوا باديولوس من أفينون، القنصل الفرنسى الذى عمل أيضًا لصالح أبناء فلورنسا بالإسكندرية ، يمتلك ضبعًا قال عنه بيير إنه كان أليفًا جدا لدرجة أنه عندما كان يلعب مع البشر كان يقضم بخفة أنوفهم وآذانهم وشفاههم دون أن يسبب لهم أذى. والسبب فى أن مثل هذا

الحيوان المتوحش ، الذى يصعب استئناسه عادة ، كان أليفًا إلى هذا الحد ، كان راجعًا إلى أنه منذ مولده قد أرضع بلبن آدمي. وكان له أنف مدبب مثل القط، وكانت عيناه تبرقان وحمراوين، وكان جسمه المائل إلى البياض ملونًا ببقع سوداء. كما كانت قدماه وساقاه سوداء وله ذيل طويل. وكان مسيو باديولس جامعًا للآثار المصرية، وأظهر لبيير تماثيله، وأوانيه ، ونقوده الأثرية ، وكذلك البردى الذى وجد داخل بعض المومياوات . وبعد أن قام بيير بمزيد من الرحلات فى المنطقة العربية عاد إلى باريس؛ حيث منح حق استخدام سكن فى سان چيرمان، وكذلك فى قلعة مدريد لمساعدته على أن يكتب فى سلام مؤلفاته المتنوعة عن التاريخ الطبيعى لمصر. وذات مساء فى سنة ١٥٦٤م انتهت حياته وهو فى سن السادسة والأربعين عندما هجم عليه اللصوص واغتالوه بقسوة فى غابة بولونيا **Bois de Boulogne** . وحتى فى مسافة زمنية قصيرة كان قد عزم على أن يستكمل العمل الذى برهن على أنه أساس لعلم الحيوان. وكان بيير مفكرًا إنسانيًا حقيقيًا من عصر النهضة، وترجم ثيوفراستوس وديسقوريدس ، واستخدم معارفهما أساسًا يمكن منه أن يبنى ملاحظاته الخاصة.

وإلى جانب الأمطار التى تنزل عليها فى الشتاء، كانت الإسكندرية تعتمد على الفيضان السنوى للنيل، الذى كان يتم توجيهه من الخليج لكى يفيض أسفل الأسس الجنوبية للأسوار . وفى سنة ١٤٢٢م ، أعطى چلبرت دى لانوى **Gilbert de Lannoy** تقريرًا للملك هنرى الخامس ملك إنجلترا عن حالة إقليم الإسكندرية. وتحدث عن حاجز حديدى فى الخليج إلى الجنوب الشرقى فى خندق؛ حيث وُضعت أنابيب لتحويل المياه إلى المدينة. ولأن مياه الفيضان كانت مليئة بالطمى، فكانت غير صالحة للشرب كما هى، وكان على الناس أن ينتظروا إلى شهر نوفمبر حتى تصفو . وكانت المياه تجرى عبر القنوات القديمة إلى أماكن تخزينها تحت الأرض وفى الخزانات الخاصة تحت الأرض قبل أن تتدفق فى الميناء. وكثير من الخزانات القديمة كانت ذات عقود مبنية من الرخام المعشّق بالرصاص ، وبالآجر وكتل الصخور ، وكانت كبيرة بما يكفى حتى لمرور الجنود بحرابهم من خلالها راكبين، وكان بعضها كبيرًا جدًا وعميقًا ، بها صفان من العواميد أحدهما فوق الآخر، مقسمة إلى أربعة أجزاء أو أكثر بها فتحات مستديرة فى الحوائط

بحيث يمكن للمرء أن ينزل عليها إلى أسفل فى سهولة. وكانت هناك خزانات أخرى معزولة ، وتُملأ بواسطة الآلات والسواقى التى تربط بها الجرار، والمركبة فوق الآبار الكبيرة التى تتصل بأقرب قناة تحت الأرض. كذلك كانت هناك آبار قليلة تغذيها أمطار الشتاء . وكان صمويل كيشيل Samuel Kiechel (١٥٦٣-١٦١٩م) ، وهو رحالة ألمانى ذكى من أولم جاء إلى الإسكندرية من بيت المقدس فى سنة ١٥٨٨م، يغمره الفضول حول الآبار، ومن ثم قضى جزءًا من وقته فى النزول على الجوانب ذات الفتحات إلى خزانات المياه القديمة تحت الأرض. وبينما كان معجبًا ببنائها ، رأى أنها قد صارت ملاذًا للصوص والشحاذين الذين كان يمكنهم استخدامها أماكن للاختباء قبل أن يخرجوا لسرقة المساكن أعلاها.

وبعد أن تدفق ماء الفيضان فى القنوات تحت الأرض من خليج الإسكندرية ، حذر بروسبيرو ألبينى من بادوا أولئك الذين يستخدمون الماء العذب الذى يختلط بالبقايا العفنة فى الأماكن تحت الأرض. وقال إن الخليط غير صحى لدرجة أن أولئك الذين يشربونه يعانون الكثير من الطواعين والحميات . وفى هذا الوقت أيضًا كانت تفوح رائحة بغيضة من القذارة النتنة التى يحركها تدفق ماء الفيضان ، وهو ما كان ملحوظًا بشكل خاص بالقرب من الميناء.

وعند وصول فيليبو بيجافيتا Filippo Pigafetta من ڤيتشنزا Vicenza إلى الإسكندرية فى سنة ١٥٧٧م، كان بالفعل مسافرًا موسميًا . فقد جاء من عائلة من المستكشفين ، وكان عمه النبيل أنطونيو قد رافق ماجيلان البرتغالى (الذى عاش بعده) فى رحلته حول العالم، وكان فيليبو الابن الطبيعى لماتيو بيجافيتا Matteo Pigafetta الذى كان يسميه «عمى» ، وقد نال فيليبو اعتراف معاصريه بأنه فيلسوف ، وعالم رياضيات، ودارس للكُتَّاب الكلاسيكيين الذين درس فى كتبهم الشئون العسكرية والبحرية. وكان كاتبًا مدهشًا يحب التفاصيل ، وقد خاض حروبًا كثيرة، وكان محظوظًا؛ لأن له أصدقاء كثيرين من ذوى النفوذ.

وإلى جانب وصفه لمصر، كتب فيليبو باستفاضة عن رحلاته الأخرى. وفى تقرير لاحق أنتج موجزًا ساحرًا عن زيارته للبلاط الإنجليزى فى عصر الملكة إليزابيث الأولى سنة ١٥٨٢م. ووجد الرحلة بطيئة من ڤيتشنزا، بسرعة ثلاثين ميلاً فى اليوم إذا حالفهم الحظ؛ لأنهم فى بعض الأوقات كانوا يضطرون إلى حمل العربة. وفى دوڤر فتشت الجمارك حقائبهم تفتيشًا دقيقًا بحثًا عن أية مواد دينية هدامة ، لكنهم عندما أخرجوا الخطابات من وزير خارجية إليزابيث فرنسيس والسنجهام Francis Walsingham ، سُمح لهم بالمرور . وكانت الطرق التى تحف بها الغابات إلى لندن خطيرة تغص بقطاع الطرق، ولكن عند الوصول سرهم أن يجدوا مسكنًا جيدًا به حديقة زهور جميلة وجذابة . ولاحظ فيليبو أن والسنجهام يتحدث لغة إيطالية جميلة «مثل النبلاء الإنجليز» . ففى البلاط كان يوجد عدد من الموسيقيين الإيطاليين ورجال البلاط ذوى الزينة الغالية ، وعلى الرغم من قلة عددهم كانوا هم الأكثر نبلاً على الجزيرة. وعندما دخل الغرفة التى كانت الملكة تستخدمها للمقابلات الرسمية، خلع فيليبو غطاء رأسه وشاهدها جالسة على كرسى من الذهب مغطى بقماش مطرز بخيوط الذهب والمخمل الذهبى. ووصفها بأنها «رفيعة ذات وجه طويل، وليست قبيحة» ، وقرر أنها تعرف اليونانية، واللاتينية، والإيطالية، والفرنسية، والإسبانية. وبعد ذلك مباشرة شاهدها تذهب للصلاة فى كنيسة صغيرة وسط الأصوات المنبعثة من الأرغن. وقد تبعتها سيدات البلاط فى طابور طويل والزهور فى شعورهن.

اتخذت حكاية فيليبو عن مصر ، شكل يوميات سائح ، مثل حكايته عن زيارته الإنجليزية، على الرغم من أنه كان يكرر نفسه غالبًا فى غمرة حماسته لإيراد أدق التفاصيل فى الحكاية . وفضلاً عن كونه حاجًا متدينًا ، فمن المحتمل تمامًا أنه كان مبعوثًا إلى مصر فى مهمة جاسوسية ؛ إذ إن عنوانًا مطولاً فى كتابه يذكر القوات العسكرية للأتراك العثمانيين الذين كانوا يحتلون مصر. فقد كان تهديد الجيوش التركية فى أوروبا كبيرًا، وحذر فيليبو جميع الكاثوليك ودعاهم إلى الاتحاد فى مواجهة الخطر. وعلى الرغم من أن حكايته عن مصر لم تُنشر فى حياته، فقد أهدى فيليبو أحد المخطوطات إلى البابا سيكستوس الخامس الذى كان قد أرسله إلى ملك فارس للتحالف ضد الأتراك .
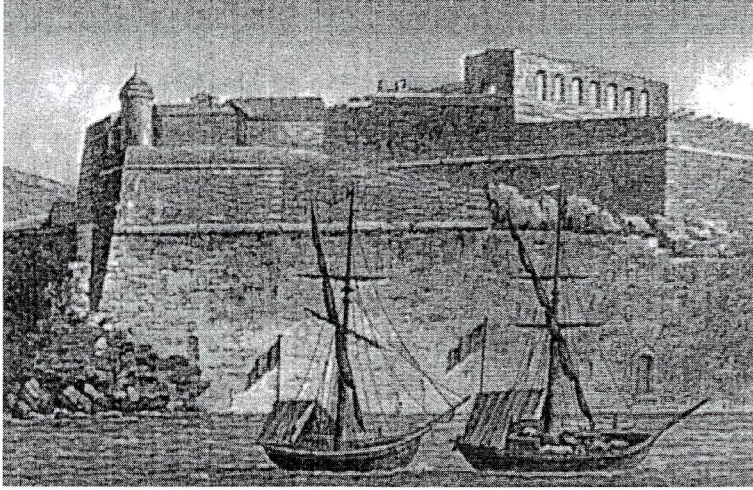
(٣-٨) قلعة قايتباى فى موقع الفنار القديم

وعلى الرغم من أن التجسس على الأتراك كان خطراً على الزائر الأوروبى، فإن فيليبو وصف قلعة قايتباى القديمة بدقة شديدة بسورها المنيع ذى الشرفات كما وصف مدى الحراسة العسكرية، وأكد أن هناك كمية من قطع المدفعية فى القلعة على الرغم من أنه لم يرها، ولذلك أحصى عدد الفتحات التى يمكن استخدامها للمدافع كما حدد وجهتها . وقد وصف ثلاثة أبراج أخرى تحرس الميناء ، وكان البرج الذى يُسمح للأوربيين باستخدامه عرضة للريح القوية التى تهب من الشرق . وفضلاً عن ذلك حذَّر من الصخور الخطرة المختفية فى المناطق الضحلة بالميناء.

وفى أثناء فترة الشهر ونصف الشهر التى قضاها فيليبو فى الإسكندرية، لاحظ أن المناطق المأهولة الباقية كانت مقسمة بشكل عام إلى ثلاثة أجزاء منفصلة . فقد كان البازار مزدهراً مع حى الأعمال والفنادق ، فيما عدا أن الفندق الفرنسى كان يقع وراءه فى الشارع نفسه . وكانت المنطقة المجاورة لكنيسة القديس مرقص يسكنها الأقباط واليونانيون ، وبعض القبارصة والفرنج الذين لايرغبون فى الإقامة بفنادقهم . أما الجزء الثالث والأجمل فكان يمتد من باب رشيد حتى وسط المدينة تقريباً ؛ حيث كانت توجد

بعض المنازل الجيدة جداً، والمساجد والنباتات. وهنا وهناك على امتداد الشارع كانت هناك أعمدة كثيرة منحوتة من الحجر نفسه الموجود فى ميدان كنيسة القديس مرقص على الرغم من أنها كانت أصغر . وفيما عدا ذلك، باستثناء الحمامات القريبة من القلعة القديمة وعدد قليل من المنازل بجوار باب الفلفل، كان كل شىء أطلالاً خربة ، وكان الحجر يتفتت إلى مسحوق بفعل رياح الصحراء الساخنة. وقد وجد فيليبو أنها «شىء جدير بالشفقة Cosa degna di compassione».

وخارج المدينة شاهد مجموعة من البيوت الجديدة تحيط بها الحدائق والبساتين ، وتمتد على مساحة حوالى ربع ميل بالقرب من الشاطئ على السهل بين البرزخ والأسوار. وهناك كان يعيش اليهود والأجانب بتجارتهم، والموظفون الأتراك ، الذين كانوا جميعًا يفضلون نسيم البحر العليل عن الهواء الساكن داخل المدينة ، وكانت هناك أيضًا بعض الحوانيت الصغيرة وسوق للأغذية ومبنى شيده أحد الباشوات ليستفيد منه . وكانت هناك منطقة لبناء السفن غرب البرزخ ، ولم يكن فى المنطقة الواقعة إلى الشرق شىء سوى بعض خيام البدو التى كانت فتحاتها بعيدة عن مهب الريح. وداخل الأسوار كان هناك طريقان باقيان يتقاطعان فى وسط المدينة للربط بين البوابات الأربع على غرار المدينة اليونانية القديمة التى كانت شوارعها شبكة تتقاطع رأسيًا وأفقيًا .

كانت أسوار المدينة ذات الشرفات الدفاعية تضم الكثير من الحجارة القديمة المأخوذة من المبانى القديمة ، وقد قارن فيليبو هندستها المعمارية بمبانى القسطنطينية وسالونيكا . وكانت تتخللها حجرات على مسافات منتظمة ترتبط بالدرج لإيواء الحامية. وكان بعضها مهجوراً وخطيراً ، ولاحظ فيليبو أنه كانت هناك آنذاك أوكار وأعشاش للغربان وغيرها من الطيور، وكان يمكن مشاهدة الذئاب والثعالب بها. وفى أثناء العصر المملوكى، عندما يكون هناك شك فى هجوم على المدينة، كان يتم تجنيد الأوروبيين الموجودين لملء شرفات القتال فى الأسوار؛ حيث يُجبرون على إضاءة المشكاوات (الفوانيس) التى تشبه ما هو موجود بالكنائس القبطية ليلاً . وفيما بين الأسوار المزدوجة كان هناك ممر عريض يمكن للناس أن يسيروا فيه بأمان .

وظهرت البوابات الضخمة الثلاث : باب البحر، وباب رشيد، وباب الفلفل (فقد كانت البوابة الغربية قرب القلعة القديمة أصغر) أكبر من بوابات المدن الأوروبية ومختلفة عنها . فقد كانت أسسها ، من الأعتاب والأعمدة ، وكل منها من قطعة واحدة من الحجر، مقطوعة من حجر الجرانيت الذى أطلق عليه فيليبو اسم **Pietra tebaica** . وكان ذلك الحجر شبيهًا بأحجار مسلات الإسكندرية ، التى ربط بيير بيلون بين تجزيعاتها المختلفة من لونين أو ثلاثة ألوان وبين النقاط على صدر طائر الزرزور. وكانت بوابتا رشيد والفلفل تضمان أربعة أبواب فى الأسوار التى تقود إلى الخارج عن طريق ردهة ذات عقود. وكان أحد الأبواب يتيح الدخول من الخارج فى مواجهة الباب الذى يؤدى إلى داخل ردهة المدينة. وكان البابان الآخران يفتحان على جانبى الممشى . أما باب البحر على الشاطئ ، فكان استثناء من حيث إنه لم يكن له بوابة على الجانب الأيسر؛ حيث كان مبنى الجمارك قائمًا بساحاته المفتوحة والمغطاة . ولم تكن البوابات الرئيسية يحرسها رجال مسلحون ، وإنما كان يتولى حراستها بعض السكندريين الذين كانوا يفتحونها ويغلقونها بمفاتيح خشبية . وكان موظفو الجمارك اليهود يفتشون المسافرين القادمين والمغادرين بهمة شديدة كما يفحصون حقائبهم وأكياسهم .

وقد غادر فيليبو قاصدًا القاهرة مع نيكولو جويستيانو **Niccolo Guistiano** ، وهو تاجر جنوى ، يوم ٧ فبراير بسنة ١٥٧٨م، وقد انضما إلى قافلة كبيرة من المراكب فى رشيد، وكان قائدها الذى لم يكن عليه أن يدفع رسومًا جمركية ، يكفر عن ذنب اقترفه . وكان فيليبو قد وجد هواء الشتاء فى الإسكندرية «ملبدًا بالغيوم وموحشًا **"torbida e malen- conica"** كان من الصعب التنفس، ولم تكن الحياة محتملة بسبب المطر والرياح والطين . وفى الليل كان من الضرورى وجود بطانيتين ، وفى النهار كان لابد من ارتداء ملابس ثقيلة للتدفئة . وفى الصباح الباكر كان هناك ضباب رقيق لطيف ، بارد وغير صحى يتكون أثناء الليل تفوح منه رائحة الكبريت ، ثم يتفرق فيما بعد بفعل الشمس المشرقة».

ومن حين إلى آخر كان مواطنو الإسكندرية ينتعشون وتدب فيهم الحركة بوصول بعض السفراء المهمين من أوروبا فى طريقهم إلى بلاط الحاكم فى القاهرة . وفى سنة ١٥١٢م،

كان دومنيكو تريڤيزان Domenico Trevisan ، السفير البندقى فوق العادة ، قد أرسل فى مهمة إلى السلطان المملوكى قبل الأخير، قنصوه الغورى (١٥٠١-١٥١٧م) . وفى تقريره البليغ إلى الحكومة البندقية ، لم يترك سكرتير السفير، زكريا باجانى Zaccaria Pagani شاردة ولا واردة لإخبار أعضائها بتفاصيل التكريم الذى لاقوه فى بعثتهم. وكان التجار البنادقة فى الإسكندرية قد أرسلوا إلى سفينة السفير الراسية فى الميناء قاربين كبيرين Palischermi مزينين ، وقد غطى سطحهما بقماش قرمزى لنقله إلى رصيف الميناء. وكان فى انتظار المجموعة والى الإسكندرية ومرافقوه ووزير (أحد أرباب الأقلام وهو من كبار موظفى السلطان) . وكان الأمير قد أحضر سبعة خيول إلى جانب الرصيف لكى يركبها السفير وأسرته. وقد كشف هذا عن مكانة السفير؛ حيث لم يكن مسموحًا بركوب الخيل فى مصر سوى للموظفين المماليك والسفراء، وكان على جميع الآخرين امتطاء البغال والحمير والجمال. وعندما صار الموكب على مرمى سهم من فندق البنادقة ، وجدوا الطريق مُزينًا بالقماش الأحمر. وكان باب الفندق مغطى بالقماش القرمزى والحرير الأحمر مع رُنك الأمير (شعار النبالة الخاص بأسرته).

وعند الوصول إلى مكان سكن الأمير تم تبادل الرسميات فى فناء كبير مفتوح؛ حيث دُعى دومينكو للجلوس على مصطبة . وكان الأمير الذى انتظره قد جلس على مصطبة مماثلة بالقرب منه ومصطبته مغطاة بسجادة غالية الثمن . وكان المسافرون العاديون مثل ليوناردو دى فريسكوبالدى وأصدقائه التوسكانيين فى سنة ١٣٨٤م، الذين سعوا للحصول على تصاريح للسفر إلى مصر والخدمات مثل الشراء، مجبرين على خلع أحذيتهم وجواربهم قبل الدخول إلى الفناء. وعندما دخلوا ، كان عليهم الركوع على ركبهم وتقبيل الأرض ثلاث مرات، وبعد أن ارتقوا الدرج إلى قاعة الاجتماعات والمقابلات الرسمية لم توجه إليهم الدعوة إلى الجلوس، ولم يُسمح لهم بالوقوف على السجادة التى تغطى المصطبة التى كان الأمير يجلس القرفصاء عليها مثل الخياط.

وقد تأثر زكريا باجانى كثيرًا ببيت الضيافة الفاخر الذى خُصص لجماعته .كانت الأرضيات الرخامية من الحجارة الغالية كما كانت الأبواب ، التى كان عددها أكثر من

ستين بابًا ، فكانت مطعمة بالعاج والأبنوس . وقدر أن تكلفتها لابد أن تزيد على سبعين ألف دوكات ، وهو مبلغ لايُصدق فى رأيه . وقد أرسل الأمير للسفير الكثير من السلال المليئة بالطعام، ومن ضمنها عشرة خراف مخصية Castroni ، وثلاث سلال من البازلاء الطازجة ، وسلتين من الفجل، وسلتين من البرتقال ، وعشرة أزواج من الدجاج . وفى مقابل هذا قدمت جماعة البنادقة هدايا فاخرة من القماش بما فى ذلك قطعة خاصة من القماش المقصب بالذهب لثوب ، ونسيج فضى من برسشيا Brescia. كانت هذه هدايا محبوبة ؛ لأن الأمراء المماليك كانوا يبتهجون بلبس القماش البندقى ، وكانت نساؤهم تفرح بارتداء الأقمشة المصنوعة فى ريمس Rheims. وكان السفير قد جلب بستة قوالب من الجبن من البندقية هدية شخصية للأمير، كانت هذه الهدايا الثمينة مجرد عينات صغيرة لتلك الهدايا التى نقلت عن طريق النهر من رشيد إلى قنصوه الغورى، وزوجته الأساسية وموظفيه بالقاهرة ، وتقرير زكريا التالى عن استقبالهم فى القلعة فى بداية شهر مايو أشبه مايكون بحكاية خرافية خرجت من ألف ليلة وليلة .

هوامش الفصل الثالث

Alexandria, foundation and early history: Fraser, Ptolemaic Alexandria. Lighthouse: Breccia, Alexandria ad Aegyptum, pp. 107-10; Fraser, Ptolemaic Alexandria, I, p. 20; Forster, Alexandria, pp. 145-52; Pharos and Pharillon, pp. 15-24; Gibb (ed.), Ibn Battuta, Travels, p. 46; Lehmann, Cyriacus of Ancona's Egyptian Visit, p. 13; Van Essen, 'Cyriaque d'Ancone', p. 297. Traditions of Coptic church in Alexandria: Burmester, Ancient Coptic Churches of Cairo, pp. 7-9. Trade, general: valuable general reading in works listed by Ashtor; Braudel, Wheels of Commerce, II (difficulties of Portuguese in maintaining spice route, pp. 543-70); F.C. Lane, Fleets and fairs, pp. 649-65; Day, Medieval Market Economy, p. 126; Heyd, Histoire du Commerce du Levant, II (ports, ships, pp. 427-37; spices, pp. 443-47; taxes and flotillas, pp. 449-53; slaves, pp. 556-53; cotton and sugar, pp. 611-14; pepper, pp. 658-61); F.C. Lane, fleets and Fairs,pp. 649-65; Lapidus, Muslim Cities in the Late Middle Ages, pp. 6, 24; Van Gennep, 'Le Ducat Venetien en Egypte', pp. 373-81, 494-508. Fondachi: Heyd,Histoire du Commerce du Levant, II, pp. 430-34. Italian traders: Evans (ed.),Francesco fegolotti, La Practica della Mercatura, pp. 69-72; Dopp (ed.), Le traited'EmmanuelPiloti (price of houses, products of Alexandria, pp. 36-38; commerceof Cairo and Alexandria with Europe and the Middle East, pp. 45-76); F.C. Lane, Andrea Barbarigo, Merchant of Venice (company's agents in Egypt and Syria, pp.93-113). Attack by Peter Lusignan: Runciman, History of the Crusades, III, pp441-49; Holt, Age of the Crusades, pp.125-27; Canal and cisterns: Breccia, Alexandria ad Aegyptum, pp. 78-83; Heyd, Histoire du Commerce du Levant, II, pp. 436-37; da Schio (introd.), Viaggio di Filippo Pigafetta, pp. 86-88; Sauneron (ed.), Voyage en Egypte de Pierre Belon, p. 94b; Voyages en Egypte, S. Kiechel, H. Teufel, pp. 34-36; Dopp (ed.), Le traite d'Emmanuele Piloti, pp. 23-24.

Venetian attack on Naxos: Dopp (ed.), Le traite d'Emmanuel Piloti, pp. 95-103. Topography, importance of port: Dopp (ed.), Le traite d'Emmanuel Piloti, pp. 6-10; da Schio (introd.), Viaggio di Filippo Pigafetta (fortifications, gates, walls, Church of St Mark, pp. 65-86). Ruined state: Dopp (ed.), Le traite d'Emmanuel Piloti, p. 6; da Schio (ed.), Viaggio di Filippo Pigafetta, p. 92. Further observations by pilgrims: Esposito (ed.), Itinerarium Symon Semeonis (religion, manners and customs, pp. 45-65); Bellorini and Hoade (ed. and trans.), Frescobaldi, GucciandSigoli, pp. 149-150; Sauneron (ed.), Voyage en Egypte de Pierre Belon (fauna, pp. 93a-95b). Venetian embassy: Barozzi (ed.), Zaccaria Pagani, Viaggio di Domenico Trevisan, pp. 12-19.

الفصل الرابع

الإبحار ضد التيار إلى القاهرة

«عندما جئت الإسكندرية ، وهى مدينة فى مصر ، رحلت عن هذه الأماكن يدفعنى الشوق إلى التجديد (مثل رجل عطشان يشتاق للماء) كما هو معلوم للكافة، وركبت النيل، ووصلت إلى القاهرة».

Ludovico di Varthema, Travels in Egypt, Syria and Arabia

وما إن يترك المسافرون ميناء الإسكندرية المتدهور الصاخب حتى يبتلعهم جو الريف؛ حيث كان الفلاحون يتابعون دورة حياتهم اليومية حسب إيقاع النيل منذ أيام الفراعنة . ولا يهم من هو الغازى الذى غزا الأرض، والذى سيتراجع فيما بعد مثل المد والجزر، استمرت حياة الأهالى المصريين على مثالها الجامد ، الذى كان يختلف بحسب مستويات الضرائب الباهظة التى كانت قد فرضت لإثراء الحكام.

وفى ٥ أكتوبر ١٣٨٢م، وبعد أسبوع من الراحة والفُرجة ، أعد ليوناردو فريسكوبالدى ورفاقه العدة للانطلاق صوب القاهرة. مع افتراض أن الخمر الذى منح لهم أثناء اجتماعهم مع والى الإسكندرية على سبيل المجاملة قد نفد ؛ لأن التوسكانيين طلبوا من القنصل البندقى أن يملأ برميلهم بالنبيذ الحلو من أجل الرحلة.

ولما دفعوا رسوم الخروج من المدينة بمقدار أربعة دوكات لكل منهم، عُهد بهم إلى مرشدهم المسلم الذى كان سيوجههم هو وابنه إلى المترجم، وهو بندقى اعتنق الإسلام ويشغل منصبًا كبيرًا فى بلاد السلطان برقوق. كان سعيد آنذاك رجلاً عجوزًا فى

السعبين من عمره، وكان سيمون سيجولى يرى أنه رجل طيب تمامًا، قياسًا على كونه مسلمًا. وقد أخبر سيمون فى حياته أنه كان قد صحب الحجاج الذين ذهبوا إلى دير سانت كاترين والضريح المقدس سبعًا وستين مـرة. وكان أحـد الحجـاج الذين اعتنى بهـم تمامًا سنة ١٣٤٧م هو نيكولو دى بوجيبونسى فى رحلته إلى دير سانت كاترين .

امتطت المجموعة الحمير، وخرجوا من الإسكندرية ومعهم الجمال تحمل أمتعتهم. وقد أتاح الطريق لهم منظراً جيداً للأسوار العالية التى ترصعها الأبراج وتحيط بها الخنادق المائية . وعلى بُعد ميل أو أكثر من المدينة «وفى حرارة عالية جداً لامثيل لها»، وصلوا إلى فوة على القناة التى تمد بحيرة مريوط والإسكندرية بالمياه العذبة . وعلى الرغم من أن بداية أكتوبر تُعتبر علامة على نهاية فيضان النيل، كانت الميـاه العالية ما زالت تفيض على السهول المجاورة ، التى تشبـه البحـر، وكان ذلك منظراً مدهشًا
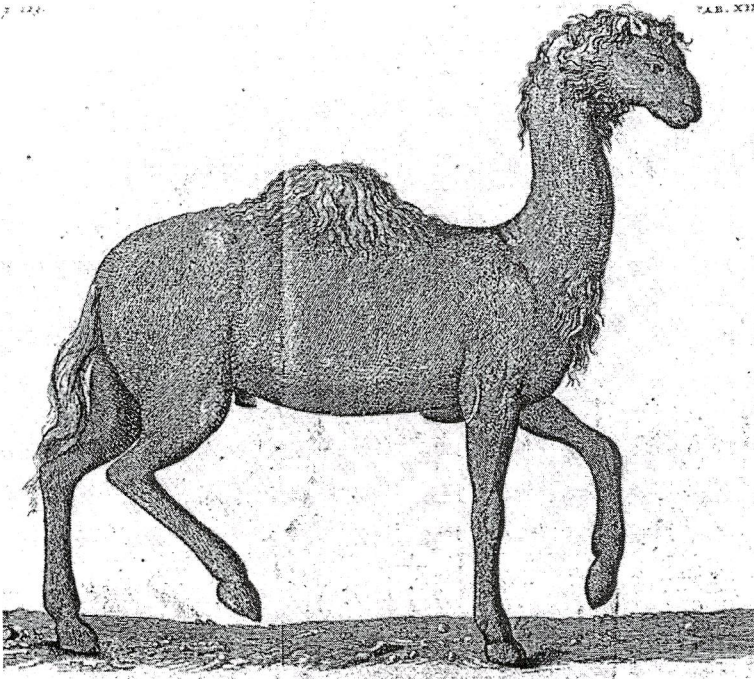
٤-١ جمل رسمه بروسبيرو ألبينى

فى عيون الفرنج الذين كانت أنهار بلادهم تكاد تجف فى حرارة الصيف. وما إن غاضت مياه الفيضان، حتى قلب الفلاحون الطين بفئوسهم أو ساقوا الماشية لبذر الغلال فى الأرض الطرية، وهى ممارسة كانت قد بقيت دونما تغيير من أيام الفراعنة. وكانت دلتا النيل، إحدى أخصب أراضى الدنيا، تُغل محصولين كل موسم.

وقد بدأ السلطان الناصر محمد بن قلاون، فى أثناء سلطنته الثالثة (١٣١٠-١٣٤١م) عدة مشروعات هندسية طموحة ومكلفة للتحكم فى مياه النيل، كانت من بينها القناة المكسوة بالآجر، التى عرفت باسم خليج الإسكندرية . وقد ظل الخليج صالحًا للملاحة طوال العام معظم فترات القرن الرابع عشر بفضل جهوده . وقد تم حفر الخليج مرتين سنة ١٣٢٦م ، وعلى الرغم من أن السلطان برسباى أمر بالمزيد من الإصلاحات فإنها لم تُعمِّر طويلاً. وبسبب المشكلات الاقتصادية تبنى كثير من خلفاء الناصر محمد بن قلاون سياسة يوم بيوم لصيانة نظام التحكم فى مياه النيل التى تعتمد على الحلول المسكنة . وفى القرن السادس عشر ، تحت الحكم العثمانى، بدا أن أعمال صيانة مرافق الرى قد عفا عليها الزمن، ولذلك فبدلاً من قيام المسافرين برحلة ترفيهية على صفحة مياه الخليج فى فوة، كانوا يضطرون غالبًا إلى الركوب حتى ميناء رشيد على امتداد طريق رملى قرب الساحل تحف به على الجانبين أشجار ذات أوراق خفيفة وبساتين النخيل العالى.

وكان المراكبية يجذفون أو يسحبون القارب النيلى مسطح القاع الذى يركبه التوسكانيون، وقدَّر ليوناردو دى فريسكو بالدى عمق المياه بأربعة عشر براكيو Braccia(*) . وعلى مسافة خمسة وثلاثين ميلاً من الإسكندرية شاهدوا دمنهور تتراجع باتجاه أراضى العرب على الجانب الأيمن، تحيط بها بلاد تصلح للصيد وإقامة المخيمات ، وفى الطريق صادوا كميات كبيرة من الأسماك الجيدة والجميلة ، على الرغم من أنهم وجدوا زيت الطهو كريهًا، ومروا على «عدد كبير من الحدائق الجميلة اللطيفة بها أجمل أنواع الفواكه : البرتقال، والليمون، والتفاح، والجوز، والبلح ، والتين، والرمان، والبطيخ ، والقرفة»،

(*) البراكيو braccio (جمعها براكيا braccia) : وحدة قياس إيطالية تساوى حوالى ثلث المتر تقريبًا.

بالإضافة إلى شجر الموز، لم يكن ليوناردو قد رأى أبدًا أشجار الجميز «سميكة وعالية مثل أشجار البلوط بأوراق صغيرة ، وتطرح ثمارًا بيضاء حوالى سبع مرات فى السنة». وعندما كانت ريح الشتاء تجلب المطر ويكبر السمان ؛ لأنه يتغذى على البلح ، كان التجار الأوروبيون يأتون بالأقواس والشباك لاصطياد طيور القمارى والطيور المهاجرة . وحول الإسكندرية كان يمكن رؤية الكثير من الضواحى والبيوت الجميلة «على الطراز الإسلامى» . وكانت الحدائق تحوى من الآبار والقنوات الصغيرة ببوابات خشبية لاتفتح إلا عند الضـــرورة . وبحلول سنة ١٥٧٧ رأى فيليبو بيجافيتا من فينشنزا أن كثيرًا من المنازل كانت خاوية ، وكان أصحابها قد هجروها ، وامتدت إليها يد الإهمال . ومع هذا، فإنه استمتع بالراحة فى ظلال الأشجار وصيد الأسماك فى الخليج ببعض الخبز الذى كان يرميه فى الماء الراكد . وكانت بنات البدو اللاتى يعملن فى الأرض تسلين المجموعة بالغناء والرقص، وتضفن إلى المرح برفع تنانيرهن لإظهار «الأمام والخلف» دونما خجل .

فى حاشية السفير الفرنسى إلى البلاط العثمانى، اضطر الطبيب الباريسى بيير بيلون إلى الركوب على امتداد الطريق الساحلى إلى رشيد لكى يصل إلى فرع النيل؛ حيث كان الفيضان يكاد يغطى كل القرى الصغيرة المجاورة، التى لم تكن تظهر منها سوى ذروتها فوق الماء. وعلى مسافة حوالى نصف فرسخ(*) من المدينة ، وصلوا إلى بلاد رملية مفتوحة؛ حيث وجد بيير نباتًا شوكيًا يسميه العرب «قالى»، وكانوا يجففونه لاستخدامه وقودًا؛ لأن خشب الوقود كان شحيحًا . وكان العرب يخلطون الرماد بالحجر الجيرى (الذى يسميه بيير صودا Soda) ، ويتم حفظها بعناية لبيعها للبنادقة . ثم يتم تقويتها على شكل كتلة متحجرة تشحن على السفن التجارية للتصدير إلى البندقية باعتبار أنها من مكونات الزجاج البللورى الشهير. وكان صانعو الزجاج فى مورانو يخلطون المادة المستوردة بالبللور الصحرى من باقيا ، ويصنعون العجينة للكثير من مصنوعاتهم من زجاج الكريستال الفاخر. وكانت من ضمن هذه أشياء راقية

(*) يتراوح الفرسخ ما بين ٢,٤ من الميل ،و٤,٦ من الميل . (المترجم)

مطلوبة مثل الكئوس، والزبديات ، والطاسات ، والمصابيح المعلقة، والكئوس الكبيرة ، والأباريق، وأوعية الذخائر الدينية، التى كان عليها إقبال كبير جداً فى أوروبا. وكان بعضها مما يناسب السوق المصرى، يُصدر إلى الإسكندرية والقاهرة عن طريق تجار من أمثال التاجر البندقى إيمانويل بيلوتى. وفى ذلك الوقت كانت المادتان الخام الأساسيتان فى العجينة الزجاجية هى مادة السيليكا التى كان يمكن الحصول عليها من الرمال أو صخور الكوارتز البللورية ، ورماد الصودا المأخوذ من الأعشاب والنباتات المحروقة التى تجىء أصلاً من الشريط الساحلى، والتى كانت تجلب من بلاد الشام ومن الإسكندرية . أما المواد التى تساعد على استقرار العجينة الزجاجية، مثل الحجر الجيرى، والذى لم يكن متاحًا فى مورانو ، فكان موجوداً بكميات صغيرة فى رماد الصودا، وكان يتم امتصاصه تلقائيًا فى الخليط .

وحول الريف المنبسط فى دلتا مصر كانت تنتشر بنايات غريبة ذات قباب لتربية الدجاج ، وكانت هى نفسها تستخدم منذ أيام الفراعنة . ولاحظ بيير الذى كان قارئًا للكُتَّاب الكلاسيكيين، أن المصريين فقط هم الذين حافظوا على العادات والأساليب القديمة، فبدلاً من وضع البيض تحت جناحى الدجاجة، كان يوضع فى أفران مغطاة بالروث المأخوذ من الإصطبل ، وهذا عبارة عن روث البقر والماعز مختلطًا بالقش، وكانت توقد ويعاد ملؤها على فترات لتنظيم الحرارة . وكان يمكن تسخين ما يصل إلى ثلاثة أو أربعة آلاف بيضة يحضرها القرويون المحليون ليتم تسخينها معًا بهذه الطريقة وبينما كان إيمانويل بيلوتى يعيش فى القاهرة، والذى كان يتردد كثيراً على مفرخة بين القاهرة ومصر القديمة (الفسطاط) ، سمع الفلاحون يصيحون بصوت عال فى الشوارع بعد الأيام المحددة لحضانة البيض : «فقس الكتاكتيت جاهز، وسوف تخرج غداً». وشاهد صاحب المفرخة يسوق الكتاكيت بطول الشوارع المزدحمة ؛ حيث تبعثروا بين المشاة وحوافر الحيوانات، لكى يعاد تجميعهم بمعجزة مرة أخرى فى وسط الطريق . وإذ كانت الكتاكيت تغرف بالحمل، وتُباع بالوزن لا بالعدد، كان يتم تعبئتها بالمجرفة فى الأقفاص وأرجلها تبرز من جميع الزوايا لتُباع إلى الزبائن على أبواب بيوتهم.
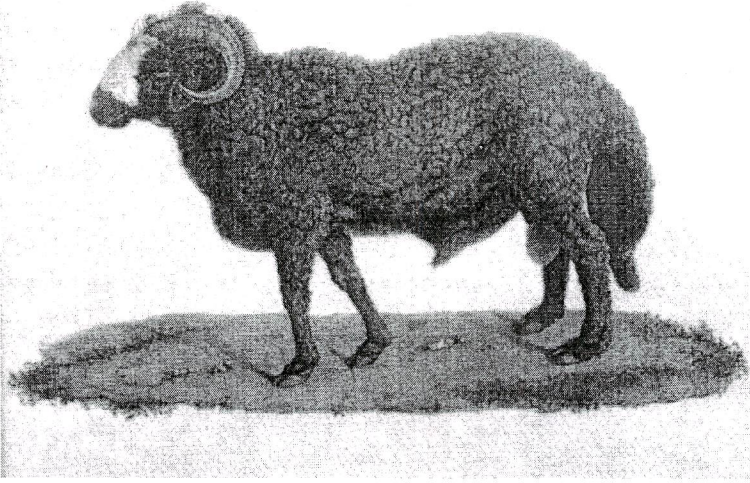
(٤-٢) خروف نو إلية

أما الأغنام التى كان يتم تربيتها فى الريف فكانت لها ذيول سمينة وثقيلة (إلية) تثير الدهشة، وكان السلطان الناصر محمد بن قلاون قد شجَّع التركمان على إحضار قطعانهم من بلاد الشام إلى مصر لتحسين السلالات المحلية، بل إنه احتفظ بقطيع مختار ملكًا له بالقرب من القاهرة، بالإضافة إلى مقتنياته من الخيول والجمال الغالية . وكانت قطعان الماعز ذات الآذان الطويلة تجوب الأرض لكى تلتقط ما تستطيع من الفضلات ، وراقب بيير بيلون رعاة الماعز يقضون الوقت وهم ينخلون الرمال بحثًا عن العملات الأثرية الفاخرة والميداليات من الذهب والفضة.

وعلى امتداد ثلاثة فراسخ (حوالى ١٢ كم) على طول الطريق إلى رشيد من الإسكندرية وجدت مجموعة بيير وعاء مملوءًا بماء النيل الطيب قدمه الأتراك «حبًا فى الله» من القرب الجلدية التى أحضرتها الجمال؛ ذلك أن إعادة توفير المياه على طول الطرق الرئيسية للمسافرين كان يعتبر صدقة كبيرة الثواب والأجر. وبينما هم يتابعون السير بحذاء شاطئ البحر المتوسط داهمهم ظلام الليل، على الرغم من أنهم لم يتوقفوا حتى وصلوا إلى المياه الحلوة المندفعة من أحد فرعى النيل، وبعد أن خاضوا فيها فى المكان الذى تصب فيه فى البحر، صادفوا بيت صياد سمك على شاطئ البحر.

وكان هناك القليل باستثناء الملح، الذى كان يستخدم لعمل البطارخ التى كانت تصنع من سمك البورى، وهى ممارسة كانت قد استمرت على مدى القرون.

وعندما فاض نهر النيل، كانت أفراس النهر تنتهز فرصة الفيضان، وتجوس الشاطئ فى الجو الطيب، وتلتهم المزروعات الشهية المغرية التى تصل إليها، وعندما كان السكان يرونها قادمة كانوا يشعلون النيران فى ممراتها لكى يخيفوها ويدفعوها إلى الهرب قبل أن تحدث المزيد من الأضرار . ولأن الأوروبيين لم يروا فى بلادهم أبداً هذه الحيوانات التى ليس لها شعر، بنية اللون، الغريبة ، والتى لاقرون لها على رؤوسها الضخمة، وآذانها الضئيلة المدببة وأقدامها الصغيرة التى تشبه أقدام الخنازير وذيولها الصغيرة المشابهة لذيول الخنازير وجسمها الضخم الذى يشبه حجم الفيل، أطلقوا عليها اسم «أفراس النهر». وكانوا يخافون من وثباته المرحة فى الماء؛ لأنها كان يمكن أن تقلب المركب النهرى المسطح الذى كان يشق طريقه بين تيارات نهر النيل.

كانت التماسيح أسوأ كثيراً من أفراس النهر، بأعينها الخنزيرية الشريرة ، وأرجلها القصيرة، وأقدامها الطويلة المنقطة، وذيلها الضارب وأنيابها التى تنهش بها ،
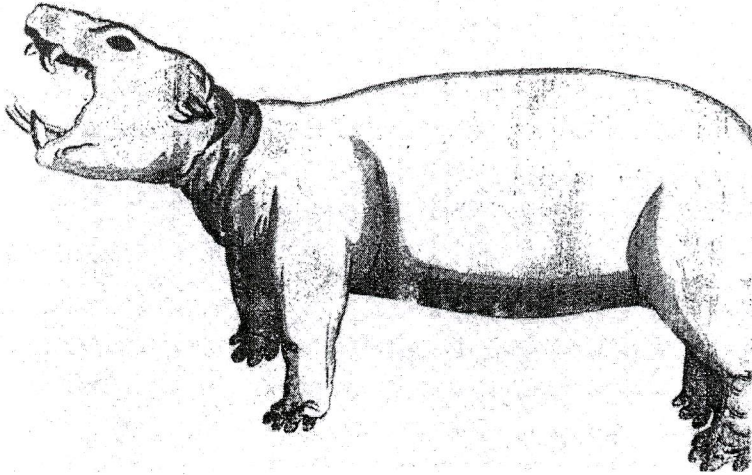
(٤-٣) فرس النهر كما رسمه برسبيرو ألبينى

تلتهم الإنسان والحيوان على السواء. وكانت التماسيح تكمن فى الأماكن الضحلة على امتداد الشاطئ، بل إنها كانت فى بعض الأحيان تغزو القرى بحثًا عن فريسة ، وتكشف محتويات المعدة عن جثث أطفال مخزنة ، وجثث كلاب وغيرها من الحيوانات، وكان هناك طائر أسود اللون أو أبيض يشاهد أحيانًا جاثمًا فوق رؤوس التماسيح ، ومن حين إلى آخر يغوص داخل أفواهها لكى يلتقط بقايا الطعام (وصفه هرودوت **Histo-ries , II, 48** وبلينى **Natural Hist. 37.90**). وكان البيض الذى تضعه إناث التماسيح على ضفة النهر يفقس فى الرمال بفعل حرارة الشمس، وإذا لم يكن هناك النمس الذى يلتهم هذا البيض ، لاجتاحت التماسيح البلاد تمامًا ، والتى كان بعضها ينمو ليصل إلى طول كبير . وكان الفلاحون الجسورون يصيدونها ، عندما يكون ذلك ممكنًا ، وذلك بأن ينصبوا لها أفخاخًا بقطع من اللحم توضع فى حفرة مغطاة بالخضروات غطاء خفيفًا . وعندما تسقط التماسيح فى الحفرة يتم ربطها بالحبال جيداً، وتؤخذ للبيع فى أقفاص حديدية إلى القاهرة . وكان هناك إقبال كبير على جلودها السميكة ، ليس فقط لاستخدامها تذكاراً يوضع على الحوائط، ولكنها كانت تستخدم أيضًا فى تكسية أبواب الحصون، بل إن البعض قالوا إن لحمها لذيذ الطعم مثل لحوم الدجاج، وكان يمكن أن نجد لحم التماسيح معروضًا للبيع فى السوق بالقاهرة، حيث كان من الأطعمة الشعبية.
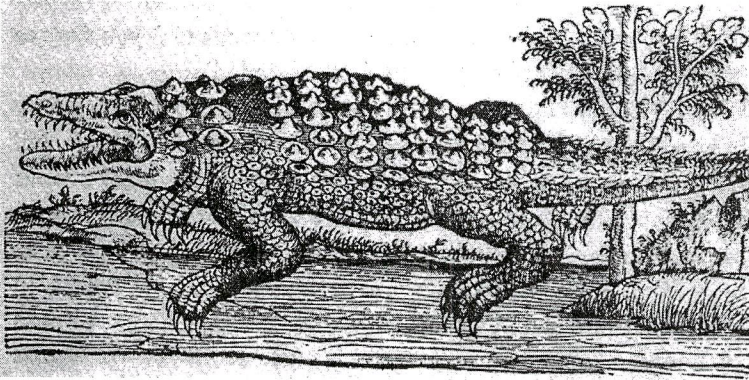
(٤-٤) التمساح كما رسمة ببير بيلون

وعلى الرغم من كل هذه المخاطر ، كان النيل، الطريق السريع لمصر ، مبجلاً من المسافرين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر؛ لأنه أحد الأنهار الأربعة (ويسمى جيحون) التي تنبع من جنة عدن، ويشمل كل أرض الحبشة (تكوين ٢ : ١٠-١٣) ، وكان من يصل هناك ينال الغفران. كان فرانسسكو سوريانو Francesco Suriano ، وهو راهب فرنسيسكاني ولد بالبندقية سنة ١٤٥٠م لعائلة بحرية تجارية غنية، يعرف مصر جيداً؛ فقد أمضى وقتًا في طفولته على سفينة عمه التجارية التي كانت تتاجر على امتداد سواحل البحر المتوسط. وكان يتحدث اليونانية والعربية ، وصار على ألفة بالحياة في المدن البحرية عندما كان يزور الفنادق في الموانئ التي كان ينزل بها. ولكنه في سن الخامسة والعشرين توقف عن العمل تاجراً، وانضم للرهبان الفرنسيكان . وفي الحال أفاد رؤساؤه من معرفته باللغات وخبرته بالمنطقة العربية. وبعد إقامته أولاً في فلسطين ١٤٩٣-١٥١٥م ، تولى منصب الأب الوصي على دير الفرنسيسكان بجبل صهيون في القدس . في ذلك الوقت كان المنصب قوياً في أراضي المماليك، ويكاد يقارب منصب البابا نفسه . وكانت واجبات فرانسيسكو تتضمن القيام بالخدمة المقدسة في الأضرحة ، ورعاية الحجاج في الأرض المقدسة وتقديم المساعدة الدينية للتجار الأوروبيين في مصر والمنطقة العربية . وبالإضافة إلى ذلك، اعتاد أن يقول الخطبة وتقديم المواعظ في الصوم الكبير لجماعة التجار في القاهرة والإسكندرية (وفي مقابل هذا كان يُمنح الصدقات لدعم الرهبان ، والتي كانت ميزانيتهم من أوروبا ضئيلة أحيانًا) . في هذه الأوقات كثيراً ما كان فرانسيكو يستخدم النيل طريقًا مائيًا: «لمياهه هذه الخاصية ، حسبما كانت تجربتي في أثناء إقامتي الطويلة في القاهرة، وهي أن شربها على معدة خاوية، كانت تشبعك وكأنك أكلت، كما أن شربها بعد الوجبات حتى تمتلئ يطهر الجسد مثل دواء الرواند دون أذى أو تسرع» . وقد امتدح الكتاب القدامى خصائص مياه النيل؛ فقد عرف جالينوس خصالاً ثلاث: الطعم الطيب، ووضوح اللون، والرائحة الزكية. وكان المصريون يقومون بتنقية المياه من الشوائب بملء أواني كبيرة، ثم يحكون حفنة من اللوز على جوانب الإناء، ثم يزيلونه بأكفهم ، ثم يغمسون أذرعتهم حتى الكتف

فى الإناء، ثم يضعون اللوز ليكون بمثابة مصفاة فى البقاع(*). وبعد ثلاث أو أربع ساعات تكون المياه قد صارت نقية مثل الزجاج ، ويمكن تفريغه فى أوانى أصغر حجماً . وعندما ركب فرانسيسكو سوريانو السفينة فى رحلة الأيام الأربعة ليلقى مواعظه فى الإسكندرية شتاء، غالبًا ما كان يرى البحارة يقفزون فى المياه لسحب المركب من ركام رملى بعد أن تكون قد ارتطمت بالقاع. وعندما كان يقوم بالرحلة نفسها بعد الفيضان فى خليج الإسكندرية فى الصيف كان من رأيه أنه «شىء عجيب أن ترى العيد والبهجة لدى جميع الناس فى الإسكندرية عندما تصلهم المياه المذكورة». وفى ذلك الوقت كان يتم اصطياد الكثير من التماسيح .

كان ميناء رشيد الواقع على ضفة المصب الغربى الرئيسى للنيل تظلله أشجار النخيل، كما وصفت المدينة بأنها «مدينة جميلة بلا أسوار». وحتى القوارب الكبيرة كان يمكنها أن ترسو أمام المنازل المبنية من الآجر . وداخل المدينة كان هناك فندق كبير مملوك للبنادقة ، الذين كانوا هناك لمراقبة أحجام البضائع والشحنات التى يتم تسليمها إلى المستودعات والقوارب الذاهبة إلى القاهرة والآتية منها . وكانت كل من رشيد ودمياط ، على الفرع الشرقى للنيل ، محصنة ضد هجمات القراصنة بقلاع قوية منيعة عند مدخل النيل. وكان يمكن لبعض السفن النهرية المسطحة الكبيرة التى تحمل حمولات إلى الإسكندرية أن تغامر بالخروج إلى البحر المتوسط ، متحدية الركام الرملى فى المناطق الضحلة والأمواج المرتفعة التى تثيرها الرياح الشمالية عندما كانت تواجه التيارات القوية المندفعة من مصب النيل. كما كان يمكن لهذه المنطقة أن تكون شاطئًا خطيراً على نحو ما عاناه الرحالة الشاب هانز كريستوف تويفل **Hans Christoph Teufel** بارون جوندرستاف **Gunderstaf** فى النمسا. ففى يوم ٩ ديسمبر ١٥٨٨م ، استقل سفينة من دمياط إلى طرابلس الشام. ولأن الوقت كان شتاء ، وهو وقت تكون فيه

(*) هذا الوصف لعملية تنقية المياه يقترب مما ذكره المقريزى عن استخدام نوى المشمش فى قاع «الزير» الفخارى ليكون بمثابة مصفاة لتنقية المياه . وربما يكون كلام المقريزى هو الأكثر دقة ، لأن اللوز ليس متوفراً فى مصر . (المترجم)

المواصلات البحرية قليلة للغاية ، كان يتعين على المسافرين أن يدفعوا ضعف الأجر إلى ربان السفينة التى حجزوا أماكن للسفر على متنها. وقبل أيام ثلاثة ، كانت السفينة قد رست فى البحر المفتوح بعد أن أفرغت حمولتها ، ومن ثم ، كان لابد من نقل المجموعة بالقوارب على مدى ثمانية أميال تقريبًا للوصول إليها، ولكن القارب تشحَّط بهم على ركام رملى عند مصب النهر فى البحر. وقد أدى اضطراب البحر إلى إبعادهم عن المجرى والأمواج تترى واحدة بعد الأخرى، بحيث إن قاربهم المسطح امتلأ بالماء بدرجة خطيرة . وإذ طلب المسافرون مساعدة الرب القدير، استطاعوا من خلال الدفع بكل قوتهم بالمجاذيف وأعواد الخشب إخراج القارب والوصول إلى السفينة التى فردت أشرعتها قبل المساء، وعبر جميع المسافرين عن شكرهم للرب بنجاتهم .

وقصة يوهان وايلد Johann Walld (ولد ١٥٨٥-؟) ، وهو جندى من أهالى نورمبرج Nuremberg ، من أكثر القصص التى كتبها رحالة أوروبى إلى مصر فى بداية القرن السابع عشر إثارة للدهشة . كان يوهان ابنًا لهانز وايلد وزوجته كاترين، وتم تعميده فى نورمبرج يوم ٢٦ أو ٢٧ ديسمبر ١٥٩٨ م. وفيما عدا ذلك فإننا لانعرف عنه شيئًا سوى أنه ربما يكون قد نال قدرًا طيبًا من التعليم، وذلك لأنه اقتبس عن الكلاسيكيات فى روايته عن تجربته، وأنه كان يعرف اللاتينية. وفى سن التاسعة عشرة ذهب إلى المجر لمحاربة الأتراك العثمانيين فى جيش رودلف الثانى . فقد كان يوهان قد ولد فى القرن الذى كان يُنظر فيه إلى الأتراك على أنهم «الرعب الحالى للعالم»، على الرغم من أنهم وجدوا أنفسهم سنة ١٦٠٣م يحاربون على جبهتين ضد الفرس تحت حكم الرجل القوى شاه عباس (١٥٥٧-١٦٢٩م) فى الشرق وحكام أسرة الهابسبورج Habsburgs فى المغرب .

وعلى الرغم من تحمل يوهان ومعاناته لقدر كبير من الحرمان، فإنه قرر أن يكتب تقريرًا محكمًا عن مغامراته، كما كتب وصفًا تصويريًا عن سلوك الناس فى مصر وعاداتهم . وكان يحب أن يعيش حياة الجنود، وكان رجلاً شجاعًا يسعد حينما تنفذ رائحة البارود إلى منخريه، ويسمع كرات المدافع تصفر حول أذنيه . بيد أن سوء حظه ظهر عندما كان يحارب فى المجر فى جيش الإمبراطور رودلف الثانى وتم أسره . وبعد ذلك بعشر
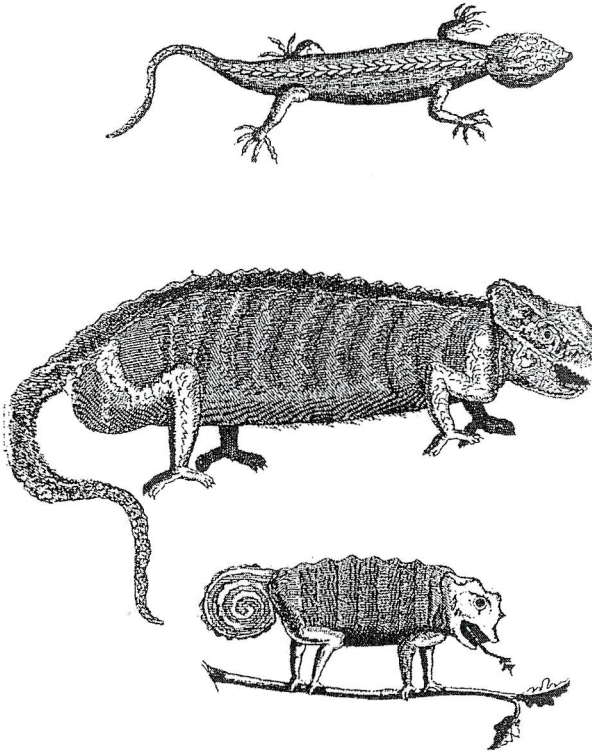
(٤-٥) السحالى كما رسمها بروسبيرو ألبينى

سنوات كان قد أبيع إلى تركى قص شعره ، وهو ما جعله يشعر بقدر كبير من الأسى. وبعد أن تنقل بين أيدى عدد من السادة الأتراك، اشتراه أحد الباشوات الذى مارس عقوبات بدنية قاسية على عبده التعس لقاء أخطاء مزعومة ، وفى النهاية أخذه إلى القسطنطينية. وبعد موت الباشا، تم بيع يوهان مقابل ستين دوكات إلى تاجر رقيق كان يسافر مرتين سنوياً من القسطنطينية لكى يبيع عبيده، مع غيره من البضائع ، فى القاهرة. وفى أثناء الطريق ، كان من عادته أن يتوقف فى دمياط أو رشيد لشراء الأرز ، وهكذا تصادف أنه بعد نزول يوهان إلى الإسكندرية مع أحد رفاقه من العبيد، مضيا إلى رشيد استعداداً لنقل البضاعة فى النيل إلى القاهرة ، وبعد أن بحثا دون جدوى

عن مكان للإقامة فى المدينة، أمر التاجر يوهان ورفاقه بحمل جميع البضائع إلى أحد المساجد؛ حيث يمكنهم أن يأووا إليه انتظاراً لمركب تقلهم. وحسب تعبير يوهان :

«هذه الكنيسة [المسجد] لم يكن يغلق أبداً ، لا بالليل ولا بالنهار، وكثير من المتسولين والمتشردين يرقدون هناك طوال الليل. ولم يستطع سيدى أن يجد مسكنًا؛ لأن جميع الغرف كانت مشغولة، وهذا هو السبب فى اضطرارنا للرضى بكنيسة . وعندما حلَّ الليل جاء الحافظ(*). لإضاءة المصباح . ولكنه عندما رآنا أيضًا نرقد هناك، حذر سيدى من أنه يجب أن يحترس تماماً ويراقب ما معه؛ لأن هناك كثيراً من اللصوص. وعندما سمع سيدى هذا طلب من (خادم المسجد) الحافظ أن يملأ المصابيح التى فوقنا عن آخرها بالزيت ، حتى تظل مشتعلة طوال الليل بحيث يمكننا أن نرى. أما بالنسبة لنا، فكان علينا أن نتولى المراقبة طوال الليل واحداً بعد الآخر ، وكنا ثلاثة من الأسرى الشباب، وكذلك الخادم الخصوصى لسيدى . وعندما كنا نتولى المراقبة فى النصف الأول من الليل، قال سيدنا إننا يجب أن ننام وهو ما فعلناه، وكان هو وخادمه الخصوصى يرغبان فى تولى الحراسة بقية الليل حتى طلوع النهار. ولكن بينما كانت لا تزال هناك ساعة على بداية النهار، ناما هما أيضًا ، ثم جاء أحد اللصوص يريد استخراج النقود من ملابس سيدى. وقد أيقظه هذا وبدأ فى الصياح : «حرامى، لص اصحوا امسكوا اللص» . وقد خفنا جميعًا وقفزنا واقفين، ولكن المصابيح كانت قد انطفأت، وكان الظلام حالكًا ، لدرجة أننا لم نتمكن من رؤية اللص . ومن المؤكد أنه لم يكن قد غادر الكنيسة، ولكنه كان قد رقد فى أحد الأركان وتظاهر بالنوم. وإلى جانب هذا كان هناك عدد كبير جداً من المسلمين(**) العراة والشحاذين . فمن الذى كان بإمكانه أن يجد اللص من بين أكثر من مائتين من الحفاة؟ وفى مصر وكذلك فى شبه الجزيرة العربية جرت العادة

(*) يستخدم يوهان المصطلحات الكنسية التى ربما لم يكن يعرف غيرها؛ فالمسجد بالنسبة له كنيسة، كما أن خادم المسجد، هو «حافظ المقدسات» فى الكنيسة ... وهكذا . (المترجم)

(**) استخدم يوهان لفظ "Moors" للدلالة على المسلمين، وهو مصطلح كان الأوروبيون الغربيون يستخدمونه كثيراً، وهو عبارة عن نوع من الخليط بين المغاربة خاصة والمسلمين بصفة عامة، انتقل من الأندلس وإسبانيا بسبب الدور المهم للمغاربة فى المواجهات بين المسلمين والأوروبيين هناك . (المترجم)

على أنه لم يكن ممكنًا القبض على أى شخص أو اتهامه بشىء ما إذا لم يتم القبض عليه «متلبسا مفضوحًا» ، ولم يوجد الشىء معه ؛ عندها فقط يمكن تصديق التهمة ، وينال اللص العقوبة التى يستحقها».

وعندما سطح ضوء النهار، بحثوا عما إذا كان اللص قد أخذ شيئًا ، ولكنهم وجدوا أنه لم يأخذ شيئًا باستثناء ثلاثة أو أربعة دوكات أخذها من معطف الخادم الخاص للتاجر، كان قد وضعها به ، واستمرت رحلتهم مع المزيد من المخاطر:

«فى اليوم الثالث ، وفى الصباح الباكر، حملنا متاعنا مرة أخرى إلى قارب أقلع قاصداً القاهرة ، ولكن القارب الذى تم تحميله جيداً حمل عدداً قليلاً من الأتراك . وقد سافرنا طوال ذلك اليوم (بينما كان ضوء النهار لا يزال ساطعًا وعلى مدى ثلاث ساعات أخرى فى الليل)؛ لأن الريح كانت مواتية ، ثم توقف الملاح قرب إحدى القرى، ثم أرخى الشراع وربط المركب إلى الشاطئ ، ونلنا قدراً من الراحة، وأكلنا وشربنا ، كل حسب ما كان قد أحضره وما كان يريده . وبعد أن أكلنا وشربنا رقدنا فى المركب ونمنا، وأخذ كل منا سلاحه معه، كما حشا كلٌّ منا بندقيته، وأخذ كل منا احتياطه بقدر ما يمكن . ولكن عندما مرَّ منتصف الليل وغطَّ الجميع فى نوم عميق اندلعت صرخات عالية على سطح مركبنا ، لدرجة أننا خفنا ونحن نيام، ولانعرف ما يجرى. لكن أحد الخدم العرب على المركب صاح من تلقاء نفسه «انهضوا أيها السادة سلحوا أنفسهم، اللصوص اقتربوا جداً». وأمسك الأتراك ببنادقهم وأقواسهم وكذلك سيوفهم ، ولكنهم لم يروا شيئًا ، وصاحوا على الرجل الذى صاح فى البداية «يا كلب يا وقح ، أين هم اللصوص؟» ولكنه أجاب «انظروا الآن فى الماء ، ألا ترون القارب؟».

ونظروا حولهم فى كل مكان ، وفى البداية لم يتمكنوا من رؤية شىء ؛ لأن الظلام كان دامسًا ودهمهم الخوف ، ولكنهم بسرعان ما رأوا القارب آتيًا باتجاههم فى صمت ورجلاً جالسًا فيه يتجه صوب الشاطئ على مرمى حجر ، ثم صوب أحد الأتراك بندقيته بدقة بالغة بحيث سقط المهاجم فى المياه . وعند هذا هبَّ رفاق الرجل على أقدامهم فى مركبهم ، وقذفوا سهامهم التى سقطت بكثافة على جماعة يوهان كما لو

كانت تمطر ثلجًا . وفى اليوم التالى، تمكن المسافرون من تضميد جروحهم بمساعدة حزمة من أدوات الحلاق، التى كان من عادة الأتراك حملها معهم فى رحلاتهم. ولما كان قراصنة النيل سباحين مهرة، فإنهم كانوا أحيانًا يفاجئون النائمين بسرعة الصعود إلى المركب، والإمساك بأكبر قدر ممكن ، بل إنهم يقتلون المسافرين وينهبون الغنائم، وكان بعض المسافرين يضعون شموعًا موقدة حول حافة مركبهم ، ويطلقون النار من بنادقهم بين الفينة والفينة لإخافة المغيرين.

وإذا أرضى صمويل كيشل فضوله بشأن خزانات الإسكندرية ، رحل إلى القاهرة مع نائب القنصل البندقى بالإسكندرية ، وكان من حسن حظه الذهاب مع واحد له تجربة ؛ لأن القنصل كان قد استأجر سفينة لمجموعة من أربعة أشخاص كان على متنها اثنان من الإنكشارية يتسلح كل منهما ببندقية كبيرة. وتم تحذير صمويل من أنه منذ ثلاثة أسابيع مضت فقط، كان تاجر بندقى ، يصحبه اثنان من الإنكشارية ومالك السفينة، وحمولة المركب وجميع من فيها، قد اختفوا تمامًا ، ويفترض أنهم قد قتلوا .

وبدأت جماعة صمويل الرحلة تصحبهم ريح شمالية طيبة. ولكن فى اليوم التالى، هبَّت عاصفة عاتية من الجنوب الغربى، مما سبب لهم السكون، فى جو حار، وكان من بواعث العصبية أن يمضوا ضد الضوء وضد التيار، على الرغم من أنه عند سكون الريح كانت طواقم البحارة غالبًا ما تلجأ إلى الشاطئ لسحب المركب بالحبال . وعندما صارت الأحوال مواتية، امتلأت الأشرعة ، وانسابت السفن التى يظللها الحصير المنتشرة أعلاها فى وسط المركب من حرارة الشمس، صاعدة ضد التيار وهى تمر بالقرى المتتابعة . وعلى طول ضفة النهر كانت مشاهد الزراعة بلانهاية، مع المشاهد الفاتنة للثيران وهى تدير السواقى والفلاحين وهم يعملون على شواديفهم. وعند فيضان النيل كان الرعاة يجبرون قطعانهم على عبور النهر سباحة مسافة تصل إلى ميلين ونصف الميل. وإذ يخلعون ملابسهم، كانوا يربطون أنبوبين طويلين من البوص تحت إبطهم حتى أفخاذهم ، ويسوقون القطيع إلى السباحة إلى الأمام، ويتم توجيهه بعصى. وكانت هناك أعداد من الأولاد والبنات فى حوالى الرابعة عشرة من عمرهم ،
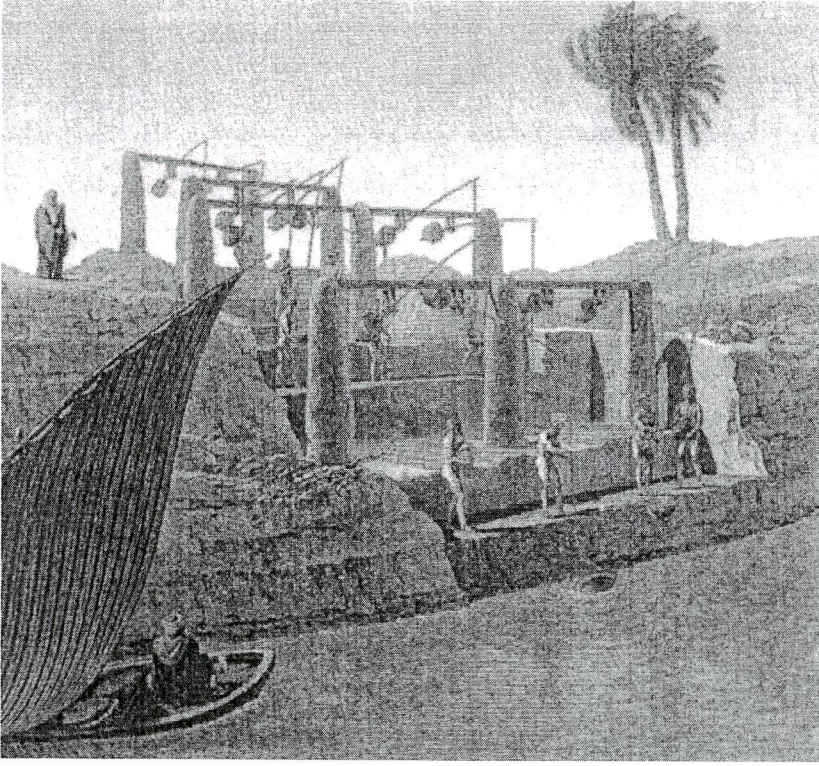
٤-٦ رى الحقـول

وكلهم عراة تقريباً ، يشحذون الليمون الذى كانوا يلتقطونه دونما أى خجل من العُرى. وفى بعض الأحيان كانت البنات ترتدين أحزمة من الجلد تتدلى فوق قطعة صغيرة من الجلد باتساع حوالى خمسة أصابع ، مقطوعة إلى شرائط تتدلى فوق عوراتهن. وكانت شرائط الجلد تنحنى وتتطاير تحت رحمة الريح أثناء جريهن ، ولكن بعضهن كن يرحبن بالكشف عن هذه العورة لقاء قطعة من البسكويت(*).

(*) هذه الصورة التى تفوح منها رائحة المبالغة تكشف عن «ذهنية» الغرب الأوروبى التى لا تزال ترى فى غير أوروبا، قوماً من الهمج والمتخلفين الذين ينتظرون المخلص الأوروبى، وهذه الذهنية لا تزال تكشف عن نفسها فى «الأفلام» الأمريكية، كما كشفت عن نفسها فى معظم كتب «الرحلات الغربية» . (المترجم)

هوامش الفصل الرابع

River Nile, flora, fauna: Crawford, 'Some Medieval Theories About the Nile', pp.6-29; Bellorini and Hoade (ed. and trans.), Frescobaldi, Gucci and Sigoli (sluice-gates, height of canal 20 braccia on 5-6 October, pp. 42-43); Francesco Suriano,pp. 193-95; Fra Niccolo of Poggibonsi, p. 86; Leo Africanus, La Descrittione dell'Africa (danger from hippos, f. 98 v., r.); Alpinus, Historiae Naturalis Aegypti,pp. 218, 247; Belon, Portraits d'Oyseax, pp. 119, 105-106; Sauneron (ed.),Voyage en Egypte de Pierre Belon, pp. 97a-102a; Esposito (ed.), Itinerarium Symon Semeonis, pp. 65-71; Bellorini and Hoade (ed. and trans.), Fra Niccolo of Poggibonsi, p. 86.; da Schio (introd.), Viaggio di Filippo Pigafetta, pp. 94-99. Rearing of chickens: Jacquet, 'Des couveuses artificiels', pp. 165-74; Dopp (ed.), Le traite d'Emmanuel Piloti, pp. 38-40; da Schio (introd.), Viaggio di Filippo Pigafetta, pp. 156-57. Glass and glassmaking: Honey, Glass, pp. 50-53; Dorigato, Murano Glass Museum, p. 17; Sauneron (ed.), Voyage en Egypte de Pierre Belon, p. 97a, b. Adventures on the journey: Volkoff (ed.), Le voyage de Johann Wild, pp. 10-18; Sauneron (ed.), Voyages en Egypt, S. Kiechel, H. Teufel, pp. 43-47.

الفصل الخامس

القاهرة : "مجمع الوارد والصادر"

بينما كانت الشام قد عانت من هجمات المغول الضارية ومن حروب الصليبيين ، نجت القاهرة تقريبًا من أية مضايقات . وكان السلام الذى نعمت به القاهرة قد ساعدها على أن تصير العاصمة الثقافية الأسطورية للعالم العربى، وقد انبهر الزوار الأجانب جميعًا بالثراء والغنى الذى تكشف أمامهم بالقاهرة ، وتفوق ابن بطوطة (ولد بطنجة سنة ١٣٠٤م) على نفسه عندما أملى مذكراته عند عودته على محمد بن جُزى ، كاتب السلطان آنذاك :

«ثم وصلت إلى مدينة مصر ، وهى أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة ، المتناهية فى كثرة العمارة، المتناهية بالحسن والنضارة، ومجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم ، وجاهل، وجاد، وهازل، وحليم، وسفيه، ووضيع ، ونبيه ، وشريف ، ومشروف، ومنكر ، ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها».

كانت القاهرة زمن سلاطين المماليك بمثابة ستارة المسرح الخلفية التى جرت عليها حكايات ألف ليلة وليلة الخيالية ، هذه الخيالات الرومانسية التى كانت تمسك بأيدى السامعين، وتجوب بهم الأسواق والمنازل، ليشاهدوا الحياة المتواضعة والراقية فى الشوارع، وكل ما يمس نسيج الحياة بين الناس. وكان خط السماء اللامتناهى فى تنوعه ما بين المآذن والقباب التى نراها فى العاصمة يستلفت نظر جميع الزوار الأوروبيين،

الذين كانوا يسارعون إلى المقارنة بين حجم القاهرة وميلانو والبندقية وباريس أو أية مدينة من مدنهم:

«لاضـرورة لأن أكـتب عن ثروات القـاهرة ؛ لأنه لايمكن تعـدادهـا على الورق أو وصفها بالكلام . إنها تتكون من الذهب والفضة ، والقماش المعمول من الذهب والحرير، والقطن، والكتان ، ومن البضائع المزخرفة ، والجواهر ، واللآلئ ، وغيرها من الأحجار الكريمة، وأوانى الذهب والبرونز الذى لا يُضاهى فى زخارفه الإسلامية ، والمصنوعات الزجاجية والمزينة بشكل بالغ الجمال ، والتى كانت تصنع فى دمشق عامة ، وزيت البلسم ، والعسل، والفلفل ، والسكر ، ومختلف أنـواع التوابل ، وجواهـر لاتُعد ولاتُحصى من كل الأنواع».

ومع بداية القرن الرابع عشر ، كان سكان القاهرة حوالى ربع مليون نسمة تقريباً ، على الرغم من أن الزوار كانوا يبالغون فى الرقم بسبب الزحام الذى كانوا يصطدمون به فى الشوارع. ولكن بسبب نسبة الوفيات العالية التى سببها وباء الطاعون (وغيره من الأوبئة الأشد فتكًا)، التى كانت تنشب على فترات متقاربة بشكل مُحبِّط ، فإن هذا الرقم كان يتأرجح بشكل واسع. ولم تكن المذابح والرعب هى الكوارث الوحيدة التى جلبها المغول فى طموحهم لغزو العالم؛ فإن ما يسمى الموت الأسود **Black Death**(*)، الذى لم يكن ممكنًا إيقافه مثل فرسان مناطق الإستبس الذين قادهم جنكيز خان ، والذى كان مدمراً مثل النار الإغريقية التى تشتعل فى الماء، قد سار فى مسار قاسٍ لايرحم من وسط آسيا إلى منطقة البحر الأسود فى سنة ١٣٤٦م ، قبل أن يستجمع قواه لحصد أرواح السكان فى أوروبا. وقالت الشائعات إنه فى سنة ١٣٤٧م، عندما ضرب الوباء جيشًا تتريًا كان تحت قيادة الخان يانع بك يحاصر ميناء كافا ، الذى

(*) عرف هذا الوباء المدمر فى المصادر التاريخية لعصر سلاطين المماليك باسم «الفناء الكبير»، وقد حدث ٧٤٨-٧٤٩هـ أثناء حكم السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاون، وسبب خسائر فادحة فى الأرواح والاقتصاد وتسبب فى انكماش القاهرة وتقلص مساحتها بشكل كبير .

انظر: قاسم عبده قاسم ، عصر سلاطين المماليك ، (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٨م) ص٢٤٢ وما بعدها .

(٥-١) مخطط القاهرة كما رسمها ماتيو باجانو ١٥٤٩م

كان بحوزة الچنوية، أمر بقذف رؤوس رجاله المصابين بالمنجنيقات داخل القلعة لنشر العدوى بين المدافعين، وهى سابقة كانت تنذر بحرب الجراثيم . كانت قوافل طريق الحرير من الصين ، عن طريق بغداد، ونهر دجلة وأرمينيا إلى محطات مخازن التجار الإيطاليين فى القرم، والتى جلبت للتجار ثروات تفوق الخيال ، هى التى نقلت العدوى آنذاك ، لقد حاز الموت قصب السبق على الثروة . وقد تسرب الوباء إلى السفن التى تحمل حمولتها القاتلة من الفئران ، مع الهاربين من المنطقة ، والذين هرب بعضهم إلى الإسكندرية خوفًا من أهوال الوباء . ومن الإسكندرية وبلاد الشام بسنة ١٣٤٧-١٣٤٨م، انتشر الوباء بسرعة فى جميع أنحاء مصر، وربما أهلك ثلثى السكان. ولأن الناس لم يعرفوا على من يصبون اللوم، أخذ الناس ينشرون الحكايات عن كيفية انتشار الوباء القاتل الذى حمله الفراء المستورد للحكام المماليك لكى يزينوا به ملابسهم .

وبينما كان التاجر البندقى إيمانويل بيلوتى بالقاهرة فى زيارة عمل ، لاحظ انخفاض النيل بسنة ١٤٠٢م ، والمجاعة التى نجمت عن ذلك بعد عامين فى سنة ١٤٠٥م ، والتى عانى الناس الواهنون المزيد من موجات الوباء الكبرى التى كانت كارثية فى آثارها أكثر مما كانت قبل بست بسنوات . وكانت غربلة السكان على هذا النحو تسبب مشكلات اقتصادية كبرى للسلطنة؛ لأنها كانت تؤثر بشكل خاص على الجيش المملوكى السلطانى والفلاحين المعدمين الذين كانوا يفلحون الأرض . ومثلما هو الحال فى البلاد الأخرى، كان الوباء السبب فى تناقص أعمال البناء والصناعات اليدوية . وفى ذروته كانت الشوارع تغط بالموتى الذين كانوا يبقون مطروحين فى أماكنهم حتى يتم حمل أجسادهم بعيدًا لدفنهم.

وبينما كان يوهان وايلد أسيرًا عاش فى القاهرة من بسنة ١٦٠٦م لمدة أربع سنوات تقريبًا . وكان من بين أولئك القلائل المحظوظين الذين نجوا من وباء الطاعون. وعند بدايته المفاجئة اكتشف يوهان دملاً صغيرًا على جسده فى حجم البندقة تقريبًا، وبسرعة بالغة كبر حتى صار فى حجم البيضة، وكان فى بسواد الفحم. وفى اليوم التالى انفتح الورم من تلقاء نفسه تاركًا فى مكانه فجوة تكفى لوضع بيضة حمامة، وبعدها رقد بلا حراك ، وقد انتابته حمى شديدة على مدى أيام ثلاثة . وعندما استدعى

الحلاق لفحصه، تردد الرجل فى علاج الفجوة ، خوفًا من أن يموت مريضه «بين يديه»؛ لأن الفجوة كانت قريبة من قلبه . وعلى مدى أربعة أسابيع رقد يوهان وسط معاناة شديدة ، ولكن بعد ثلاثة أشهر من المرض حكى أن الرب جاء لمساعدته وخلصه. قلائل هم الذين كانوا ينجون من الطاعون بعد إصابتهم، وكانت مشاهد الخراب فى كل مكان ، ففى فلورنسا حكى چيوڤانى بوكاشيو Giovanni Boccaccio أن الوباء «كان يكشف عن نفسه أولاً بظهور ورم معين فى ثنية الفخذ أو تحت الإبط ، وكان بعض الأورام يكبر حتى يصير فى حجم التفاحة ، وبعضها فى حجم البيضة». وعندما كان الطاعون ينشب مخالبه لم يكن بوسع المسلمين والمسيحيين على السواء سوى الصلاة لله القدير، وكان معظم الناس يرون فى الوباء إرادة الله التى يجب أن يتحملوها بشكل قدرى. وحتى الأطباء فى البيمارستان (المستشفى) الذى بناه السلطان المنصور قلاون، بمعداتهم الطبية والجراحية المتقدمة، الإبر البرونزية لخياطة الجروح ، وأنابيب الأذن ، والملاقط ، وأدوات الضغط على اللسان، وبوصفاتهم الطبية المكتوبة بعناية، لم يكن بمقدورهم أن يتصدوا لهجوم الموت الضارى على مثل هذه الأعداد. لقد كان الوباء بمثابة دراس الرب وكان عالم المسلمين والفرنج بمثابة الأرض التى تتم عليها عملية درس الغلال (أى فصل الحبوب عن القش بالمدراس) .

كان الفاطميون الذين فتحوا مصر(*) سنة ٩٦٩م وحكموها حتى سنة ١١٧١م، قد حصنوا القاهرة بأسوار منيعة أحاطت بمساحة تقترب من نصف ميل مربع. ومن ناحية الغرب كان يمد القاهرة الخليج الحاكمى، الذى كان يخترق السهل خارجًا من النيل قبالة الروضة، وهى الجزيرة الواقعة شمال الفسطاط، وكان بمثابة خندق مائى خارج التحصينات القديمة من الآجر. وفيما بعد صار الخليج طريقًا مائيًا يمرُّ فى وسط النمو الحضرى المتوسع. وإلى الشمال من المدينة حيث كانت التحصينات هى الأقوى، تم بناء بوابتين حجريتين على أيدى مهندسين معماريين من الرها؛ باب الفتوح الذى

(*) قالت المؤلفة إن الفاطميين «غزوا» Conquered القاهرة، والحقيقة أنهم هم الذين بنوها، ولهذا أعدت صياغة الجملة على هذا النحو . (المترجم)

بُنى سنة ١٠٨٧م ، وباب النصر القريب من الجانب الشرقى. وإلى الجنوب يقع باب زويلة على حين كانت هناك بوابات أخرى تفتح على الشرق والغرب. وضمت المدينة سلسلة من الشوارع التى تجرى ما بين الجنوب والشمال وشارعًا رئيسيًا يصل ما بين باب الفتوح وباب زويلة، وبذلك يقسم المدينة قسمين تقريبًا. وكان القصران الفاخران للخلفاء القاطميين، القصر الشرقى الكبير، والقصر الغربى الصغير، يقعان فى مركز المدينة.

ومنذ البداية استمرت القاهرة (والتى حرفها التجار الإيطاليون فيما بعد إلى كايرو Cairo) التى بنيت على حافة الصحراء ، حسبما كانت عادة الحكام العرب الأوائل ، فى النمو والتوسع . وبحلول القرن الرابع عشر، كان باب زويلة، البوابة التى بناها الفاطميون فى السور الجنوبى، قد صار جزءًا مندمجًا فى وسط المدينة . وفى النهاية صارت القاهرة وما يحيط بها مقسمة إلى ثلاثة أقسام : المدينة الرئيسية ، القاهرة، والضاحية التى كانت قد نمت حول ميناء بولاق النهرى على بعد حوالى كيلو متر واحد إلى الشمال، ومنطقة الفسطاط المتدهورة إلى حد ما (والمعروفة أيضًا باسم مصر القديمة أو بابليون) على مسافة اثنين أو ثلاثة كيلومترات إلى الجنوب الغربى. وكان فى هذا المكان أن أقام أبوعبدالله عمرو بن العاص، فاتح مصر العربى، خيمته للمرة الأولى سنة ٦٤٠م بالقرب من الحصن الرومانى الذى بناه الإمبراطور هادريان. وفيما بين النهر والمدينة الرئيسية كانت الأرض خضراء وبها الأشجار والبساتين ، ولكنها كانت عرضة لمياه فيضان النيل.

بعد أن وصف فيليبو بيجافيتا تحصينات الإسكندرية أبحر عكس التيار صوب القاهرة سنة ١٥٧٧م. ومع اهتمامه بالطبوغرافيا خطا بعناية حول الجزء الحضرى من المدينة وحسب أن طولها حوالى ستة آلاف وخمسمائة وعشر خطوات (٦٥١٠) "de uomo ordinario" (للرجل العادى) ، مما يجعلها حوالى ثلاثة أميال وربع الميل على ما يبدو. ووصف القاهرة بأنها تأخذ شكل نصف قمر له أركان واسعة بدلاً من القرون الضيقة ، وجانبها المقعر يتبع انحناء نهر النيل. وفى ذلك الوقت كان معظم السور الفاطمى القديم قد تهدم ولم يعد يستخدم. وشاهد فيليبو الطريق يخرج من
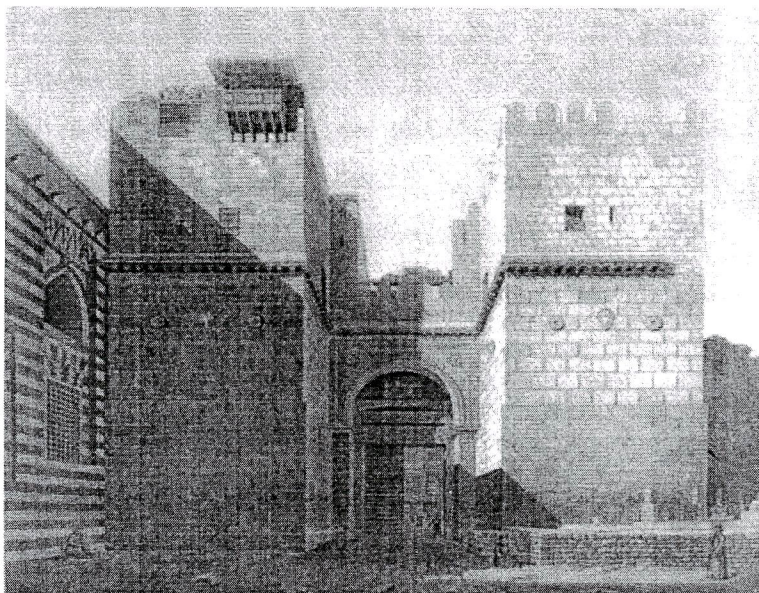
(٥-٢) باب النصر
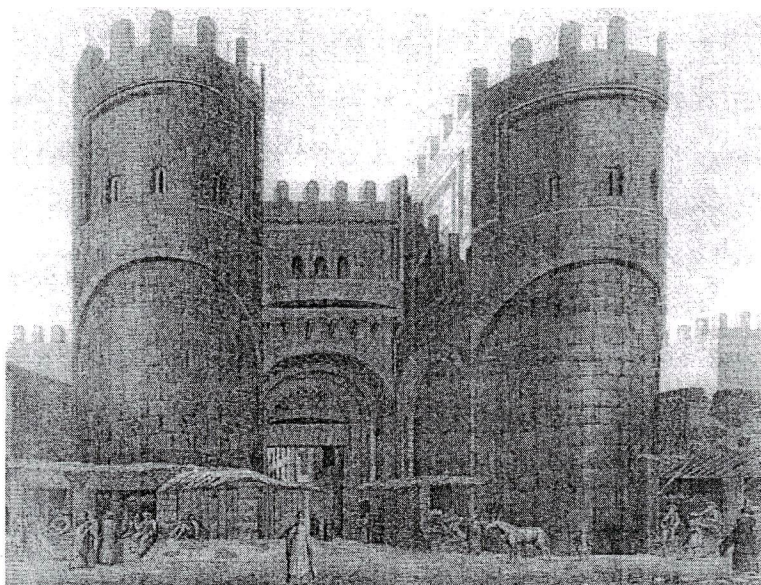
(٥-٣) باب الفتوح

ميناء بولاق عبر بساتين البرتقال وأشجار السنط وأحراش النخيل التى كانت من الكثافة بحيث كان من الصعب أن يرى الباب الذى يسميه «باب البحر»(*) (ربما كان هذا «باب النيل» أو Parto del Mare) الذى كان يؤدى إلى شارع باب النيل الذى كان يعبر الخليج الناصرى. هذا الخليج حفره السلطان الناصر محمد بن قلاون أثناء فترة سلطنته الثالثة فيما بين سنة ١٣١٠ وسنة ١٣٤١م ووصله بالخليج الكبير فى القاهرة.

وإلى الشمال من القاهرة كانت طرق القوافل من غزة وبلاد الشام تؤدى إلى باب الفتوح وباب النصر التى كانت تستوعب داخلها، وتطرح خارجها بعضًا من أثمن البضائع فى العالم. وكان لكل من البوابتين مداخل مهيبة تحميها أبراج ذات مقدمات محدبة ، وكانت العقود تغطى المداخل كما كانت الدواخل الباردة ذات القباب تحتوى على أبواب خشبية ذات عوارض حديدية متينة. ونظر فيليبو إلى بوابتين أخريين ناحية الجنوب : المدخل الرومانى الضخم بأبراجه المستديرة التى تؤدى إلى مصر القديمة من ناحية النيل، والبوابة الثانية ، تحيط بها القوافل من الجنوب والبربر الذين كانوا يجلبون مجموعات غالية من الببغاوات الملونة ، والنعام، وقرود البابون. وبحلول القرن السادس عشر، كان باب زويلة بشرائطه الملونة ذات اللون الأصفر والداكن والأبيض المائل للصفرة على الحدود الجنوبية للمدينة الفاطمية ترتفع علامة بارزة من بين الأسواق المحيطة، وبالقرب من باب زويلة ارتفعت المئذنتان الرائعتان لمسجد السلطان المؤيد شيخ الذى بنى فى القرن الخامس عشر (حكم المؤيد شيخ من ١٤١٢ إلى ١٤٢١م) وعبر باب زويلة كان يجرى الشارع الرئيسى، ويمد طريقه باتجاه الشمال من باب الفتوح إلى القلعة . وقد وصف فيليبو جميع البوابات بأنها كبيرة جداً، لها عتب مستقر على قواعد جرانتية مربعة قطعت كل منها من قطعة كبيرة طويلة مفردة . ولأنها كانت مشهورة فى جميع

(*) «باب البحر» هى التسمية التى كانت تطلق على المنطقة القريبة من محطة السكك الحديدية الرئيسية فى ميدان رمسيس الآن، وكانت فى المنطقة المؤدية إلى شارع الجلاء حاليًا، وكانت تُباع فيها أنواع ياميش رمضان. ومن المعلوم أن هناك قنطرة كان يتم العبور عليها بالقرب من شارع عماد الدين حاليًا تؤدى إلى باب البحر، وقد ذكرتها المصادر باسم «قنطرة الدكة» نسبة إلى «دكة» المحتسب .

وقد شاهدت فى طفولتى منطقة باب البحر ، وذهبت إليها مرارًا وأتذكرها جيدًا . (المترجم)

أنحاء المنطقة العربية، كانت محط الإعجاب باعتبارها أمثلة ممتازة على العمارة الحربية، ومن الشارع الرئيسى خرجت متاهة مربكة معقدة من الحارات المتربة الضيقة غير المرصوفة ، والتى كان الكثير منها ينتهى إلى زقاق مسدود، وكان يمكن إغلاقها أثناء الليل ضد العناصر الإجرامية التى كانت تسكن الضواحى.

ومع نهاية القرن السادس عشر ، لم يكن باقيًا من أسوار المدينة القديمة سوى جزء على امتداد الجانب الشمالى وبجوار القلعة إلى الجنوب الشرقى. وكان النيل يشكل حدودًا طبيعية من ناحية الغرب. وإلى شمال القلعة نعى فيليبو الفخامة المتهدمة لمقابر سلاطين المماليك الجراكسة ، والتى كان من بينها مقابر السلاطين المشهورين من أمثال برقوق وقايتباى . وكان هناك طريق يجرى وسط هذه المبانى التذكارية الفخمة، ولكل منها مسجد بقبة ومئذنة وفناء وحديقة. وظن أن القرافة إلى الشمال «شيئًا يستحق العجب، أن ترى هذا العدد الكثير جدًا من المبانى الكبيرة جدًا والمشيدة بعناية ، والتى كانت تتم صيانتها بشكل جيد، ولكنها آنذاك كانت قد خربت ؛ لأن أصحابها ماتوا، فلا أحد يهتم بالحفاظ عليها».

وبعيدًا عن الطاعون، كان مرض الرمد منتشرًا بشكل وبائى بين السكان المصريين منذ أيام الفراعنة. وبعد ثلاثة أشهر فقط من الاسترقاق فى القاهرة، كان من سوء حظ يوهان وايلد أن يتحمل مرضًا أصاب عينه، واستمر ثمانية أيام، جعله يخشى من أن يُصاب بالعمى ، وبنعمة الرب، على أية حال، وباستخدام بياض البيض وماء الورد تم شفاؤه. وقد نسب المرض إلى الحرارة الشديدة التى أثرت على الرأس والعينين، على الرغم من أن آخرين قالوا إنها كانت بسبب الذباب الذى لايُحصى وسط التراب ، والذى كان يثور جُزافًا فى هبوب ريح مفاجئة تتلوى على طول الشوارع الضيقة وفى الحارات. وقد بذلت السلطات محاولات واعية لكى تنظم طوائف العمال نوى الأجور المتدنية فى فرق لغسيل الطرق وإزالة النفايات . وباعتبار ذلك جزءًا من واجباتهم المدنية ، صدرت الأوامر إلى أرباب الحوانيت لطلاء ممتلكاتهم باللون الأبيض، وأن يكنسوا المناطق أمامهم، وأن يعلقوا مصابيح ليلية، وأن يحتفظوا بدلاء المياه لإطفاء الحرائق.

وكانت هناك جنسيات متعددة تزيد من السكان فى المدن - الشوام، والأحباش والمغاربة والروم(*) - يعيشون فى أحيائهم الخاصة، على حين كان الشحاذون يجوبون أنحاء المدينة ، يعيشون على رعاية الأمراء على حين يفيدون من الصدقات والمأوى من المساجد. وكانوا يلجأون إلى حيل شيطانية لاستخراج المال من المارة، ويدّعون مرضهم بأمراض تثير الشفقة، ويزعمون بتر أطرافهم بالتنكر الكريه ، وهم يقظون ماكرون ، وقد يلجأون إلى لعنة من يرفضون إعطاءهم. وفى أثناء حكم المماليك، كان هناك «سلطان» للحرافيش ، وكان بوسعه بوصفه «ضامن الحرافيش» (أى كبيرهم وممثلهم) أن يتفاوض مع السلطات . وكانت «القرافة» توفر المأوى بين المقابر لأكثر أقسام السكان فقراً. وكان النشالون يندسون فى ظلال الأضرحة ، كما أن العشاق كانوا يجدون فيها ملاذاً للقاءاتهم الخفية . وكان المتزاحمون فى الشوارع يفسحون الطريق للدراويش «وهم عرايا كما ولدتهم أمهاتهم» . وعلى الرغم من أن الأوروبيين كانوا يظنون أنهم مجانين، فإنهم كانوا يسرقون طعامهم من الحوانيت بإرادتهم، وهو سلوك كان يتغاضى عنه السكان المتسامحون الذين كانوا يبجلون بركتهم المزعومة. وإذ كانت المساجد الكبيرة والمدارس الضخمة ترصع بين القصرين ، الشريان الرئيسى للمدينة، فإنها كانت محاطة بآلاف الحوانيت والسقائف؛ حيث كانت تباع البضائع من كل نوع والطعام الجاهز مثل ما يسمى كعك العسل المصنوع من العصائر ، والذى كان معروضاً فى الأسواق. وثمة جانب آخر من الحياة تمثل فى مجتمع الشذوذ الجنسى بالقاهرة. وكان هؤلاء يرتدون الملابس الحريرية الغريبة ، ويجتمعون فى مجالس بمساكنهم الأنيقة ، وينغمسون فى شرب الكحوليات وإلقاء النكات البذيئة.

(*) وضعت المؤلفة اليهود ضمن هذه الجنسيات ، وهى مغالطة لأن اليهودية ديانة وليست جنسية أو قومية، كما أنهم أتباع دين وليسوا أمة قومية. والأغرب من هذا أن المؤلفة وضعت الأقباط ضمن هؤلاء الأجانب !! والأقباط مصريون يعتنقون الدين المسيحى، ويشتركون فى وطنهم مع المصريين المسلمين. ولكنها عين الغرب وعقليته !!! ومن ناحية أخرى لم يكن اليهود فى مصر زمن المماليك يعيشون فى حى خاص بهم (جيتو) فى القاهرة، أو غيرها . كما أن القول بأن الأقباط عاشوا فى أحياء خاصة بهم قول يغالط أبسط حقائق التاريخ المصرى . (المترجم)

وعلى الرغم من المعارضة الأولية من الأصوليين المتدينين، صار شرب القهوة أمراً مسليًا من الناحية الاجتماعية لتمضية الوقت فى القاهرة أوائل القرن السادس عشر . وبسرعة انتشرت المقاهى فى جميع أنحاء المدينة؛ حيث كان الرجال يتكاسلون فى سرور فى الجلسات، ويرتشفون القهوة المغلية لتوها، والتى كانت بمثابة حافز على تبادل الأحاديث ، من الفناجين اللطيفة. هذه المؤسسات سرعان ما صارت أماكن لقاء شعبية لكل طبقات المجتمع. وإذ كانت تُضاء ليلاً بالمصابيح المعلقة ، كان مشهدها يبعث على البهجة؛ حيث كان رواة الحكايات يسردون حكاياتهم، والموسيقيون يعزفون على ناياتهم ورباباتهم ومزاميرهم وأعوادهم . وكان الوقت يمضى فى مباريات طويلة فى النرد، والشطرنج ، كما كان الزبائن يتسلون أيضًا بعروض الشباب الجميلة الذين يلبسون ملابس فاخرة تزينها أحزمة من الذهب أو الفضة عرضها قدر راحة اليد، ويرقصون على أنغام الطبل والمزمار . وفى مثل هذه الأمسية ، رأى يوهان وايلد شابًا يتقدم وسط الزحام وبدأ يرقص وهو يدور حول نفسه، وفى كلتا يديه كان يمسك قطعتين من الخشب يضربهما ببعضهما بمهارة شديدة على أنغام الموسيقى. وفى بعض الأحيان كان يثنى ركبته ويصفق بيديه على صدره أو على فخذيه ، ويقوم ثانية لمواصلة عرضه. وبعد أن قام الشاب بلفتته الأخيرة اختلط بالمتفرجين، وطلب منهم ما يقدمونه من نقود تقديراً لأدائه . وعلى أية حال كان يوهان مشمئزًا من السلوك الفاسق للأتراك اليقظين النهمين فى الزحام، والذين كانوا يعربدون فى مثل هذه العروض: «لأن هؤلاء الأوغاد المقززين الكافرين هم النجساء الحقيقيون الذين يدنسون هؤلاء الصبيان . وما هذه العروض سوى حيلة يتوسلون بها لممارسة الفسق والخلاعة ؛ لأنهم غالبًا عندما يمنحون المال يكرسون أنفسهم للخداع ، ويقبلونهم دونما خشية من أحد» . وقدر يوهان أنه كان يوجد حوالى مائة مقهى فى القاهرة، وإذا كان هناك تركى أو مسلم أو عربى مضطراً لعدم شرب القهوة طوال يوم كامل، فإنه لايستطيع أن يكون سعيداً أو يتمتع بصحة طيبة، بل إنهم كانوا يأخذون القهوة معهم لتسندهم عندما يسافرون فى أرجاء البلاد ، وكانوا يغلونها فى أثناء الرحلة ، ويشربونها ساخنة للغاية وقوية . وسرعان ما أخذ المسافرون الأوروبيون عنهم هذه العادة، وكانوا يجلبون القهوة معهم عند عودتهم إلى بلادهم،

(٥-٤) درويش فى رقصة ذكر

وفى سنة ١٥٨٧م كان عالم الطبيعة الإيطالى هو أول من رسم رسمًا لنبات القهوة على سبيل التجديد فى مجموعته التى رسمها لنباتات مصر.

كان الصخب العام للشوارع يتصاعد بالمشعوذين البارعين ، وسحرة الثعابين الجسورين، ومجموعات من الموسيقيين الذين كانت أنغامهم الأجشة المتماوجة غريبة تمامًا على آذان الأوروبيين . وكانت الأمسيات تكتسى حيوية بالنساء اللاتى كن ينغمسن فى إنشاد الأغانى مصحوبة بالطبول والعود . وقد وصف يوهان مغنية فاتنة ترتدى ثيابًا لطيفة من الساتان والتفتاه ، وتزين رأسها عملات ذهبية . كانت تغنى مع رفيقاتها، ثم رقصت وذراعاها ممدودتان. كانت تلك الفنانات المعروفات باسم «الغوازى» مطلوبات للترفيه عن الحريم فى حفلات الزواج ، وحفلات الختان، وأعياد الميلاد؛ وفى أيام رمضان(*). وغالبًا ما كنّ يلجأن إلى الدعارة، ولذلك لم يكن يحظين بالاحترام . كانت العروض الكوميدية

(*) ربما كان هذا من خيال الأسير الألمانى : لأن المصادر التى بحوزتنا لاتذكر شيئًا عن احتفال المصريين آنذاك بأعياد الميلاد، ومن المؤكد أنهم لم يكونوا يحيون ليالى رمضان بمشاهدة الراقصات . (المترجم)

التى تقدم قصصًا عن الخلاعة والمسرحيات الهزلية الاجتماعية ، والتى تضيئها الفوانيس والمشاعل ، تجرى فى الطرق العامة، وفيها كانت النساء تأخذ أدوارًا تمامًا مثل المهرجين والحمقى . وكان يتم ضرب النساء بقسوة، وتلقى على مسامعهن نكات بذيئة. وإذا ما سُئل أحد ولم يُجب فى الحال كان هو أيضًا يتلقى ضربة على الظهر. كان النشالون واللصوص يندسون بين المتفرجين ، وقد اختطف لص عمامة يوهان من فوق رأسه وجرى بها، على حين عانى آخرون من فقدان معاطفهم التى انتزعت من فوق ظهورهم بخشونة .

كانت الحمير الطيعة التى لاتعرف التعب تشق طريقها وسط الزحام. وكان بعض هذه الحيوانات سهلة الانقياد تُجمع ليؤجرها من يرغب فى أركان الشوارع. وكانت تحمل فى صبر ودونما شكوى كل أنواع الركاب: السيدات المحجبات الأنيقات والمتفاخرات ، تجلسن على البراذع المزخرفة والخدم والمرافقون على الجانبين فى زيارتهن للحمامات ؛ والتجار الذاهبون لمباشرة أعمالهم، والأجانب الوافدون حديثًا إلى القاهرة - فى الحقيقة كل واحد باستثناء القلة ذات الامتياز الذين كانوا يمتطون البغال أو الخيول . وبالإضافة إلى هذا كانت هناك صفوف من الإبل تشق طريقها إلى النيل جيئةً وذهابًا ، وهى تحمل المياه فى القرب الجلدية المصنوعة من جلود الماعز لإعادة ملء الجرار والأزيار الموضوعة فى أفنية المنازل الخاصة . كانت المدينة وما يحيط بها تحظى بنظام جيد الترتيب للمحطات الثابتة والأسعار الثابتة لاستئجار الإبل. وبعد الغزو العثمانى، صُدم الأتراك الوافدون بما بدا لهم أنه سلوك غير أخلاقى وغير مقبول من النساء المصريات اللاتى يركبن الحمير، بحيث تظهرن أمام العامة. واعتبروا ذلك عيبًا خطيرًا ؛ لأن فى بلادهم كانت العاهرات تُجرَّس على ظهور الحمير عقابًا لهن. وخلال الزحام كان يندس سقاؤو الماء الجوالون الذين كانوا يبيعون مياه النيل للمارة من القرب ذات الرائحة الكريهة التى يحملونها لقاء مبالغ تافهة . وعندما ينخفض منسوب مياه النيل ، كان يتم جلب هذه المياه من ساحل النيل الذى يكون قد تلوث من القذارة وبول الإبل.

في سنة ١٣٨٢م، قام الأمير جركس الخليلي، الذي كان من كبار أمراء السلطان برقوق ، ببناء الخان الكبير الذي يتكون من ثلاثة طوابق خارج بين القصرين . كان بناء مرتفعًا قويًا صار خانًا(*) لإقامة التجار الأغنياء ، لاسيما من فارس، والذين كانوا يبيعون البضائع عالية الجودة ، مثل القماش المقصب بالذهب، والسجاجيد ، والأحجار الكريمة واللآلئ . وفي سنة ١٥١١م أعاد السلطان قنصوه الغوري بناء خان الخليلي، وحوَّله إلى قصر تجاري لطيف له نافورة في الوسط. وظل المركز التجاري الرئيسي، وحافظ على شهرته بالثراء والفخامة . وكانت الأسواق الكبيرة التي تجتذب الجماهير المتزاحمة تنعقد في يومي الاثنين والثلاثاء ، ويُباع فيها كل ما يمكن للنقود أن تشتريه تقريبًا. وكان الأوروبيون ينظرون في حسد إلى النماذج الجميلة للسيوف المكفتة بالفضة والذهب والمجلوبة من دمشق مع الخناجر والبنادق ، وتجهيزات الخيول الغالية والسروج المصنوعة بمهارة، والتي كان الأتراك يقتنونها لخيولهم، إلى جانب الحرير والكتان الفاخر للف عمائمهم . وفي المجمع السكني كان يقوم مبنى كبير ذو فناء رطب الهواء في الوسط والغرف من حوله. وقد لاحظ فيليبو بيجافيتا كمية كبيرة للبيع من نبات ينمو في الصعيد، كانت تنتج عنه صبغة حمراء كانت شائعة الاستخدام لطلاء أظافر النساء وصبغ شعرهن وذيول الخيول الغالية وأعرافها . وعرف أن تجارة هذا النبات كانت تدرُّ ربحًا قدره ثلاثمائة ألف دوكات سنويًا(**).

وخلف حوانيت خان الخليلي كانت توجد محلات صغيرة تعرض العنبر ، والمرّ ، وتنويعة مُحيرة من العطور. وفي أماكن أخرى كان الجزارون وبائعو اللحم والسمك

(*) كانت نُزُل التجار المسلمين في مصر، وغيرها من البلاد العربية، تُسمى «الخان»، على حين كانت الأماكن الخاصة بالتجار الأوروبيين هي «الفنادق»، وكان «الخان» يضم حجرات للإقامة في الأدوار العليا، ومعارض للبضائع في الدور الأرضي. أما الفنادق فكانت تضم كنائس صغيرة Chapel ، وبعضها كان فيه «معصرة» و «فرن» . (المترجم)

(**) من الواضح أن المقصود هنا هو نبات «الحناء» (الحنة) الذي ما زال الصعيد الأعلى مشهورًا به حتى الآن، ولكن الحناء لاتستخدم في طلاء الأظافر كما قالت المؤلفة، نقلاً عن الرحالة، وإنما تُخضّب بها الأكف والأقدام وصباغة الشعر . (المترجم)

(٥-٥) كيف كان يتم عقاب المجرمين

والغلال والخضروات والخبز يمدون طاولاتهم. وبغض النظر عن جنسية التاجر أو مكانته، كانت عمليات التبادل التجارى تحت مراقبة المراقبين الذين كانوا يفحصون موازين أصحاب الحوانيت . وإذا ما اكتشف عمل فيه غش أو خطأ، كانت تتم معاقبة المجرم فى العادة بقسوة ، كانت تؤدى أحيانًا إلى إزهاق روحه . أما الباعة الجائلون الذين كانوا يبيعون الطعام من منزل إلى آخر، والذين كانوا يظنون أنهم يهربون من المراقب (المحتسب) فكانوا على خطأ؛ لأنه إذا ما اكتشف أنهم يغشُّون ، كان يتم تجريسهم فى الشوارع، وقد ربط حبل طويل فى منخار الغشاش. وحول الرقبة كان يتم تعليق جرس كبير يُضرب عليه أحد الإنكشارية بعصى خشبية إعلانًا عن جريمة البائع، وفى نهاية هذا المشهد المهين كان يتم فرض غرامة مناسبة عليه .

كانت كثير من الحوانيت المفردة تتخذ شكل تجويف فى جدار له مصاريع خشبية تغلق فى الليل بشكل مأمون. وكانت الأرضية مرتفعة المستوى وبها «مصطبة» بارتفاع

قدمين أو ثلاثة يجلس صاحب الحانوت وزبائنه عليها. ومثل هذه الحوانيت كان مسرحاً لبعض مشاهد ألف ليلة وليلة التى كانت تُروى على مسامع أعداد لاتحصى من السامعين. وتحكى «حكاية السمسار النصرانى» عن صاحب دكان كانت له مقابلة مثيرة مع زبونة غامضة ، ورفعت حجابها لتكشف عن زوج من العيون السوداء المغرية، قبل أن تسأل عن ثمن قطعة حرير. ومن المؤكد أن مثل هذا الاستهلال المراوغ ، الذى يبشر ببدء صفقة تجارية صعبة ، كان يثير شهية السامعين لاسيما إذا كان يمكنهم التعرف على الأماكن التى تتحدث عنها حكايات ألف ليلة وليلة . فقد كان دكان معروف الإسكافى فى الدرب الأحمر على ما يقال خارج باب زويلة ؛ حيث كان يتم الإعدام علانية، وحيث كانت البوابة تلطخ بالدماء النازفة من الرؤوس المقطوعة ، والتى كانت تترك على باب زويلة حتى تتعفن فى حرارة الجو، وهى مغروسة فى مشكات مدببة. ومنذ العصور الفرعونية كان هناك تراث طويل من الحكايات وروايتها فى مصر . فقد كان بوسع السامعين المسترخين فى المقاهى أن يتعرفوا على حكاية «البحار الغريق» (من التراث المصرى القديم)، وهى حكاية كتبها أحد الكتبة ، عن ابن آمينى، المدعو آمن – عا، وقد دونت فى الأصل على بردية يرجع تاريخها إلى أوائل عصر المملكة الوسطى. وقد بدأت متاعب البحار على هذا النحو :

«هبّت ريح عاصفة ونحن فى البحر، وقبل أن نطأ الأرض ارتفعت الريح، ولكنها تكررت بموجة ارتفاعها ثمانية أذرع ... ثم تحطم القارب. ولم ينجُ أحد ممن كانوا على متنه».

وإذا أمضى أياماً ثلاثة وحيداً على جزيرة رمته عليها أمواج البحر، نام فى كابينة من خشب، واغتنم فرصة العتمة قبل أن يمد ساقيه ويمشى بحثًا عن شىء يأكله . ووجد وفرة من الفواكه والخضروات ، فأطفأ النار وقدم قرباناً للآلهة. وفجأة جاء ثعبان عملاق، جسده مصفح بالذهب، فأخذ البحار بفمه ووضعه فى بيته . ومن شدة خوف البحار خشى أن يبتلعه ، وبعد هذه الفترة المرعبة كشف الثعبان عن نفسه فى صورة المحسن وإن كان شخصية حزينة إلى حد ما معلناً أنه أمير پونت ، التى يأتى منها كل

المرّ الذى على الجزيرة ، وقال : « لاتخف أيها الصغير، ولايشحب لونك». وتنبأ بأن أسيره سوف يتم إنقاذه على أيدى قوم يعرفهم ، ويعود لكى يموت فى قريته : «كم يكون سعيداً هذا الذى يحكى ماذاقه بعد أن تكون الأمور المؤلمة قد انقضت».

وصل كريستوفر هارانت Christopher Harant (١٥٦٤-١٦٢١م) ، أمير بولزيك وبرزدروزيك Polzic and Berzdruzic ، وهو رجل نبيل لطيف المظهر ، من براغ، فى صيف سنة ١٥٩٨م. وكان بصحبته شقيق زوجته مسيو دى سرنين M.de Cernin وأصدقاء آخرون كانوا قد سافروا سوياً من بيت المقدس فى رحلة حج. وفيما بعد صار كريستوفر أرمل ، وكان رجلاً أريحياً متعلماً مبتهجاً بلا هموم ، متعلماً حسب تقاليد تلك الفترة ، وكان يمكنه الحديث باليونانية واللاتينية والإسبانية والإيطالية والألمانية . وكان أيضاً موسيقياً بارعاً ومغنياً يحظى بالقبول . وقد رصَّع حكايته بحرية باقتباسات من الكتاب المقدس ، ومن الكلاسيكيات، ومن الأسطورة الذهبية، والشعارات المتعارضة من مختلف البلاد، وكذلك إشارات من كتب إرشاد المسافرين المتاحة فى ذلك الزمان. كان الملك رودلف البوهيمى إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى ألمانيا ، والذى كان من آل الهابسبورج بدمائه ، ولكنه كان تشيكى الهوى، يبتهج بصحبة الفنانين، والعلماء، وقبل أولئك وهؤلاء، المنجمين الذين لم يكن يستكثر ثمناً لصحبتهم . ومن بين هؤلاء كان تايكو براهى Tycho Brahe من الدانمرك ، والألمانى يوهان كپلر Johann Kepler وكوبرنيكوس Copernicus، بل إن رودلف كان يلعب فى الخفاء مع الكيميائى الإنجليزى غريب الأطوار چون دى John Dee ، الذى غالباً ما كانت تستشيره الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا. وعندما قام الجيش التركى بغزو المجر سنة ١٥٩١م ، خدم كريستوفر ست سنوات فى المدفعية مع الجيش الإمبراطورى المدافع عنها. وبعد هذه الحملة الطويلة المظفرة ، عاد إلى وطنه ، ولكن صدمه موت زوجته فى شبابها ، وعهد بطفليه الاثنين إلى والديه لرعايتهما، وانطلق فى رحلة حج إلى الأراضى التى يحكمها الأتراك. وإذ نجا كريستوفر من حجه الخطير فيما وراء البحار، عاد مرة أخرى إلى موطنه، ولكن بعد فترة هادئة قضاها يكتب مذكراته مُحاطاً بكتبه ، حمل السلاح مرة أخرى؛ حيث تم أسره بعد هزيمة الجيوش البروتستانتية التى حاربت فى معركة الجبل

الأبيض بالقرب من براغ ضد الإمبراطور فرديناند الثانى . وباعتباره زعيمًا لخمسة وعشرين أرستقراطيًا من التشيك وآخر ممثل للنبلاء فى مملكة بوهيميا ، كان كريستوفر أول من صعد إلى المشنقة ليتم إعدامه جزاء على تمردهم على الإمبراطور المنتصر . وبشجاعة نموذجية نمطية كانت كلماته الأخيرة شكرًا للرب الذى حفظه من كل الأخطار بعيدًا عن وطنه بحيث يمكن أن يموت «على يدى الجلاد».

عندما وصل كريستوفر وزمرته إلى القاهرة، استقبلهم بحفاوة قنصل ملك فرنسا، وهو رجل واسع المعرفة يمكنه التحدث بعدة لغات . وعند نهاية القرن السادس عشر ، كان الفرنسيون يتمتعون بامتيازات فى المدينة؛ لأنهم كانوا قد تفاوضوا على اتفاقيات تجارية تعطيهم أفضلية مع الأتراك العثمانيين الذين كانوا يتحالفون معهم ضد الهابسبورج. وبعد أن غادر دمشق، كانت رحلة كريستوفر النهرية قد انتهت على نحو سيء؛ حيث كان الملاح قد احتال على زمرة الأصدقاء، فبدلاً من أن يرسو بهم عند بولاق ألقى بهم عند قرية خارج المدينة بلا اكتراث، وكانوا مجبرين على كراء الحمير وركوبها خلال القرية إلى مرسى على نهر النيل؛ حيث كانت مجموعة من موظفى الجمارك الأتراك واليهود جالسين تحت ظلال شجرة جميز كبيرة. وتم استجواب المسافرين بدقة عن تحركاتهم، وعندما سمع الموظفون أنهم جاءوا من القدس، وأنهم فى الطريق إلى سيناء، وعلى الرغم من احتجاجات كريستوفر بأنهم لايحملون شيئًا سوى بعض الأوانى الفخارية والخشبية والحجرية تلقوا أمرًا بفتح كل ما معهم للتفتيش، ودفع كل منهم قرشًا كبيرًا . وقد لاحظ كريستوفر أن الأتراك كانوا ميَّالين إلى أن يتساهلوا ، ولكن اليهود هم الذين كانوا مصممين بشكل صارم.

كان النيل عاليًا لدرجة أنهم قابلوا بركتين عميقتين من مياه الفيضان قبل الوصول إلى المدينة. ولأنهم لم يرغبوا فى السباحة عراة مثلما يفعل الأهالى، أجروا بعض الخيول المجهزة بالسروج ، كلَّفت كلاً منهم أربع قطع نقدية (مدينى) . وكانت الخيول تضطر أحيانًا إلى السباحة ، ولكن راكبيها كانوا يتشبثون على ظهورها مثل القرود، وقد سحبوا سيقانهم إلى أعلى، مما أبقاهم غير مبللين . ولم تكن هناك خيول متاحة لعبور البركة الثانية ، ولذلك لم يكن هناك لعبورها سوى أن يدفع كل منهم اثنتين أو ثلاث

قطع نقدية (مدينى) للمكارية مقابل ركوبهم الحمير، وعلى الجانب الآخر ، هاجمهم بعض الأتراك المتغطرسين الذين حاولوا بقسوة أن يدفعوا حماليهم فى المياه . وعلى الرغم من أنه كانت هناك محاولات للسيطرة على فيضان النيل بإحاطة القاهرة بالجسور الطينية المكلفة ، فإنها كانت كثيراً ما تنهار ، وفى نهاية الأمر صار عبء صيانتها على السكان المحليين الذين لم تكن جهودهم حماسية فى هذا الصدد.

وعندما وصلوا إلى القاهرة كان النهار قد انتصف تقريبًا . وإذ ساروا وفق التوجيهات الواضحة التى تلقوها من قنصلهم فى دمشق، شقوا طريقهم صوب منزل القنصل الفرنسى دونما مساعدة تقريبًا . ووجدوا القنصل رجلاً مهذبًا رقيق الحاشية ، يعيش عيشة راضية ولديه الكثير من الخدم ، ويرتدى الملابس الحريرية مثل السادة الأتراك . وتجاذب الحديث مع ضيوفه باللغة الإيطالية، ودعاهم فى الحال إلى تناول العشاء. وبعد الوجبة ، وعندما عرف القنصل من ضيوفه البلاد التى جاءوا منها ، اندهش من أنهم جرؤوا على زيارة بلاد كانوا فى حالة حرب معها. ومن ثم أشار عليهم بأن يتحاشوا الظهور، ولايجعلوا أحدًا يعرف من هم، فى حالة إذا ما تم القبض عليهم وأودعوا السجن بصورة دائمة. وفوق هذا وذاك ، حذرهم من الكلام مع اليهود، الذين سيكونون أقدر من غيرهم على فهم طريقة كلامهم، وسوف يعرفون البلاد التى جاءوا منها أصلاً .

وسكن كريستوفر وأصدقاوه فى بيت كبير مبنى من الحجر يطل على الخليج، بجوار بيت القنصل ، الذى كان قد تركه للتجار والحجاج الذين يجيئون من البلاد التابعة لرعايته. وكان البيت من طابقين أو ثلاثة طوابق بدون سقف ، ويشبه بيوتًا كثيرة أخرى فى القاهرة . ففى أثناء الحكم التركى، تم بناء الكثير من الأبنية العلمانية على ضفاف الخليج الحاكمى، وقد استثمر الأمراء مبالغ طائلة فى القصور والمبانى التى كانوا يعرضونها للإيجار . كانت المنازل الفسيحة العالية ذات الأفنية ، ومنطقة استقبال مركزية وشرفات تطل على الجهة البحرية لسكنى النخبة فى المدينة، وكانت هناك حجرات خاصة للنساء، اللاتى كن ينظرن على المناطق المفتوحة بألوان أسوارها وأرضياتها الرخامية. وغالبًا ما كان بها عدد من المطابخ وحمامات . وبعض البيوت كانت محاطة بالحدائق ،

وكانت بيوت أخرى تضم ضياعًا صغيرة فيها طواحين ومزارع ، كما توجد بها اصطبلات للخيول الثمينة ، وفيما بعد كانت هذه البيوت الكبيرة كثيراً ما تخضع للتقسيم بسبب الورثة العديدين وتعقيدات الملكية. ولحل المنازعات ، كان القاضى يرسل بنَّاءً لتقسيمها بشكل رأسى. وفى كل مكان بالمدينة، كان يبدو أن بيوت القاهرة إما نصف مبنية أو نصف آيلة للسقوط.

كان بيت القنصل الفرنسى يحتوى على باب صغير يفتح على الخليج؛ حيث كان يمكن استدعاء قارب يستقله الركاب الذين يشيرون بأصابعهم فى الاتجاه الذى يريدون الذهاب إليه، وعند العودة إلى مسكنهم ، بعد زيارة مضيفهم، قضى كريستوفر ومسيو سيرنان بعض الوقت يتطلعون إلى أعداد من المراكب تنساب مارة على صفحة مياه الفيضان فى الخليج ، وبعد الغروب شاهد كريستوفر فريقًا من الأتراك حسنى الهندام فى قارب، وقد جلسوا وسيقانهم متعارضة فى دائرة تحيط بها كمية من الأزهار كانت تُعطِّر الجو. وكانوا يتطلعون إلى النوافذ حولهم، ويستمتعون بالموسيقى من فرقة تصاحبهم . وكان الأتراك مشدودين، ولكن الناظرين كانوا يكتمون ضحكاتهم ؛ فبالنسبة لهم كانت الموسيقى أشبه بخنزيرة تصرخ وجحش يدق الطبول .

كان بيتهم يحتوى فقط أربع أو خمس حجرات، ولكنها كانت حجرات واسعة وعالية. وكان القش يستبدل يوميًا على الأرضيات، ويُعاد ملء الخزانات بالمياه العذبة فى إحدى الغرف التى تبرد الهواء . ولم تكن هناك أرائك للجلوس عليها، ولذلك كان على كل واحد أن يتصرف «بمقعدته الطبيعية الخاصة» . وكان يمكن مشاهدة نوافذ قليلة بزجاج داكن ملون ، صغيرة ومرتفعة ، ولايمكن فتحها ، وفى الأسفل ، كانت هناك فتحات أخرى، تغلق بنوع من المصاريع مثل غطاء يمكن رفعه ، مثل تلك المصاريع التى تؤمن السقائف فى الشوارع . وكان هناك خادم يتولى الطبخ والتسوق ، وكان يشترى البلح والليمون، والسمك الطازج والخبز الأبيض لقاء مبلغ زهيد، على الرغم من أن كريستوفر كان يود لو استبدل بالليمون والرمان تفاحة واحدة، ومثل هذه الواردات من القسطنطينية كانت مرتفعة الثمن على أية حال. كانت مياه النيل فقط متوفرة للشرب؛ حيث إن الخمور كانت ممنوعة بشكل صارم سوى على مائدة القنصل ، وبدلاً من الضيوف البشر

الآخرين، كان القنصل يحتفظ بجميع أنواع الحيوانات الغريبة فى المنزل : القرود، والنمس، والسحالى تحت رعاية شخص مسئول عنها .

وفى البداية ظنت المجموعة أن هذه الحيوانات ستكون مصدر تسلية لهم، لاسيما أثناء القيلولة فى حر النهار، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن الحيوانات مصدر إزعاج خاصة فى أثناء طقوسها الليلية حين تتردد فى البيت أصوات ضرباتها وقرضها وصراخها .

ونال الإحباط من كريستوفر وزوج شقيقته عندما حاولا القيام بالزيارة المعتادة إلى الأهرام وأبى الهول؛ حيث كانت مياه الفيضان تغطى الطريق بغزارة ، وبدلاً من ذلك قاما بجولة فى المدينة ، مما جعلهما يحظيان بمشاهد متنوعة متفرقة . وفى وكالة الجلابة التى لم تكن بعيدة عن خان الخليلى ، كان يوجد سوق الرقيق فى شارع ضيق ، حيث شاهدا عدداً كبيراً من الرجال والنساء من كل الأعمار ومن جميع البلاد معروضين للبيع، وكان المغاربة(*) هم الأكثرية :

«كان معظمهم عراة سوى من خرقة من قماش تستر عورتهم ... وشاهدنا المشترين يجيئون إليهم، يفحصون هذا أو ذاك ، ويمسكونهم ويمدونهم ويسحبونهم مثل الحيوانات ... ورأينا آخرين يجبرون العبيد على الجرى، أو القفز ، لكى يحكموا على قدرتهم البدنية، وكان هؤلاء العبيد مصفدين بالأغلال أو منضمين إلى بعضهم البعض فى مجموعات».

وكان مسيو دى سرنين حريصًا على أن يشترى صبيًا مغربيًا بأى ثمن، ولم يتم إقناعه بالعدول عن هذا إلا بصعوبة بالغة. وأكد كريستوفر على الصعوبات التى سوف يواجهونها ؛ لأنه لم يكن من حقهم، ولأنهم على أى حال لن يستطيعوا أن يأخذوه بالمركب إلى الإسكندرية.

(*) استخدمت الكاتبة لفظ Moors الذى يدل على المغاربة، وعلى المسلمين فى آنٍ معًا، ولاشك فى أن هناك خطأ ما : لأن الشريعة تمنع استرقاق المسلمين . (المترجم)

وساقتهم أقدامهم إلى سوق الخيل بالقرب من القلعة؛ حيث كانت الخيول العربية والمصرية والجمال والحمير وغيرها من الحيوانات معروضة للبيع . وقد ابتهج التشيك إلى أقصى حد بالخيول الرشيقة، التى كانت كبيرة ، وقوية ورشيقة ، لها أعراف تلمع لايمكن لأى وصف أن يوفيها حقها . وكانت سريعة بطبيعتها ، مسوسة جيداً وباختصار لايوجد لها نظير فى جميع أنحاء العالم. كان حكام مصر باستمرار يدللون خيولهم ويعزونها، وكان للسلطان الناصر محمد بن قلاون ولع بجمع الخيول، وكان بوسعه أن يتذكر أسماء جميع الخيول التى كان قد اشتراها ونسلها ، وكان يحفظ سجلات بهذا في ديوان خاص . وفى سنة ١٣١٥م حاز على فرس جميلة بمبلغ هائل وصل إلى ستمائة ألف درهم ، منها مائتان وتسعون ألف درهم نقداً بالإضافة إلى قرية قرب حلب.

وتأسف الأصدقاء بسبب قلة ما معهم من نقود وصعوبات الحصول على إذن لشراء الخيول ونقل الحيوانات عن طريق البحر. ورأى كريستوفر حكام القاهرة يركبون خيولهم فى زهو وخيلاء ، وهى مزينة بشكل ثرى بالسروج المطرزة وعُدة الخيل المزينة والمطعمة بالذهب والفضة. وكل من كان يحق له ركوب الخيل كان لديه حصان واحد على الأقل، إذا لم يكن لديه حصانان، وكانوا يمتطون خيولهم حتى لعبور الطريق وزيارة جيرانهم . وكانت غطرسة الخيالة الأتراك بلا حدود، ولاسيما إذا قابلوا أجانب مسيحيين ممن كانوا يتصورون أنهم يعيقون سيرهم فى الشارع. وكانت جماعة من هذه القوات، قد قصدت ممارسة الرياضة ، صوبوا حرابهم عمداً إلى مجموعة كريستوفر عندما كانوا بصحبة القنصل الفرنسى . وعندما سألوا الإنكشارى الذى كان بصحبتهم لماذا يتم السماح بمثل هذا السلوك؟ أخبرهم أن من بين الخيالة كان الشاب المفضل لدى الباشا الحاكم، ولم يكن أحد يجرؤ على تصحيح سلوكه . وفى أثناء مرورهم على ميدان كان الجنود الأتراك يمارسون فيه التدريب بسلاحهم ، جعل الأتراك خيولهم تعدو بسرعة، وهم يصوبون سهامهم وحرابهم نحوهم مباشرة. ولكن بسبب وجود الإنكشارى معهم، والمكلف بحمايتهم ، حال دون قتلهم .

وعندما كان يوهان وايلد عبدًا تحمل الكثير من العوز والحرمان في مصر ، وقد اعتبر هذا كله جميعًا بشكل فلسفي إرادة الرب. فبعد أن أخذه سيده التركي إلى القاهرة تم بيعه مرة أخرى، في هذه المرة إلى تاجر فارسي قاسٍ عامله بأقسى معاملة. ولم يعانِ يوهان مهانة العرض في سوق الرقيق ، على الرغم من أنه كان يعرض حول الشوارع عندما كان يتم التفاوض على بيعه بالإعلان من خلال طرف ثالث. وبالنسبة للفارسي كان على يوهان أن يتسوق ، ويطبخ، ويتصرف بوصفه خادمًا عموميًا لإرضاء حاجات طاغية غالبًا ما كان يكافئه بالضربات ، ومن خلال صفقات العمل الماكرة صار سيده غنيًا ؛ فقد كان يبيع بضائعه ذات النوعية الراقية في خان الخليلي، ثم بعد ذلك أخذ يوهان معه في رحلات تجارة إلى فلسطين وبلاد الشام، بل أخذه معه إلى مدينة مكة المكرمة . وليس واضحًا ما إذا كان يوهان قد أُجبر على اعتناق الإسلام، ولكن من الصعب أن نعتقد أنه قد سمح لواحد من النصارى أن يدخل إلى واحد من الحرمين الشريفين لدى المسلمين، على الرغم من أنه كان يتحدث بعض العربية ؛ لأن سيده الفارسي المتحكم أمره بأن يتعلمها .

وعندما أعفي يوهان مؤقتًا من مهامه ، انتهز الفرصة للاستحمام في حمام مفتوح لكل الوافدين، والتي كان يقدر عددها بحوالي مائة حمام في جميع أنحاء المدينة . وكان مسموحًا للرجال والنساء بالاستحمام في أيام مختلفة ، وأخبروا يوهان بمرح النساء في أثناء استحمامهن، وعن زينة شعورهن المتقنة، وعن استخدام اللدائن المزيلة للشعر . والأفكار عن هذه الإناث الممنوعات لابد من أنها كانت حافزًا لخيالات الذكور. وإذ كن يحيين حياة فارغة معزولة في البيت، فقد كانت لدى السيدات الثريات العبيد الذين يلبون أية إيماءة منهن ، وكانت ثيابهن الطويلة مكلفة ورشيقة ، وعيونهن مكحلة بالكحل ، وشعرهن الذي تغطيه أرقى وأفخر أنواع الطرح، كان يُخضب بالحناء. وكن يتزين بالمجوهرات بشكل لافت للنظر؛ فمن آذانهن المخرومة تتدلى الحلقان المزخرفة ، وكانت القلائد وصفوف الغوايش والأساور تزين أعناقهن وأذرعتهن وكعوبهن . وكن يطلين أظافر أيديهن والأصبعين الأولين من أيديهن بالأحمر والأبيض. وكن يرتدين قمصانًا ضيقة مستقيمة
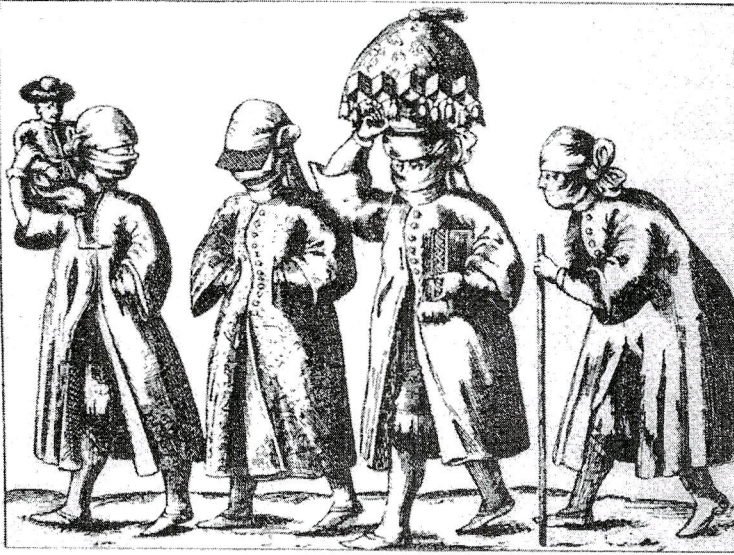
(٥-٦) سيدات تركيات ذاهبات إلى الحمامات

ذات أكمام واسعة جداً من الصوف، أو التفتاه الملون . أما سراويلهن الحريرية ذات الحزام ، والتى كانت تصل إلى الأرض، فكانت واسعة وطويلة مثل سراويل البحارة، وسيقانهن تغطيها جوارب خفيفة، وتلبس شباشب خفيفة فى أقدامهن . كانت أماكن الحريم تقع بين الممرات الملتوية فى الأدوار العليا من البيوت ، تخفيها ستائر من الخشب المخروط على شكل شبكات (الأرابيسك) . وهناك كانت السيدات الجالسات على أريكة تتسلين مع صديقاتهن فى الغرف الرطبة الهواء، والتى تُزينها الأسقف ذات الرسوم والنحت الغنى، كما كنّ يرتدين قبعات طويلة مزخرفة زخرفة معقدة باللآلئ وغيرها من الأحجار الكريمة، وبها ريشات طويلة ضاربة إلى أعلى فى أحد الجانبين. وأخبروا يوهان أنه فى الأيام التى كانت الزوجات يذهبن فيها إلى الحمامات العامة، كان الأزواج يضطرون إلى الإشراف على تجهيزات الطعام أثناء غيابهن، وإلا اعتبر ذلك عيبًا كبيرًا، وكانت ربات البيوت يحرصن على أن تكون خادماتهن من الإناث بصحبتهنّ ؛ لأنهن لم يكن يثقن فى سلوك أزواجهن أثناء غيابهن . وكان من الواضح أيضًا أن النساء كن يبتهجن بالإفلات من أزواجهن، عندما يتركن المنزل أحيانًا من باب جانبى،

وبذلك يتجنبن البواب الجالس على مصطبته عند المدخل الرئيسى، الذى يؤدى إلى الفناء الرئيسى المحجوب عن الشارع. وكان رداؤهن الخارجى يغطيهن من شعر الرأس إلى أخمص القدم عند خروجهن من المنزل، ويضمن لهن ألا يعرفهن أحد. وكان المكارية يذهبون بهن حيثما يرغبن ، وصليل السلاسل حول رقبة الحمار، يجلجل على طول الطريق فى الحوارى.
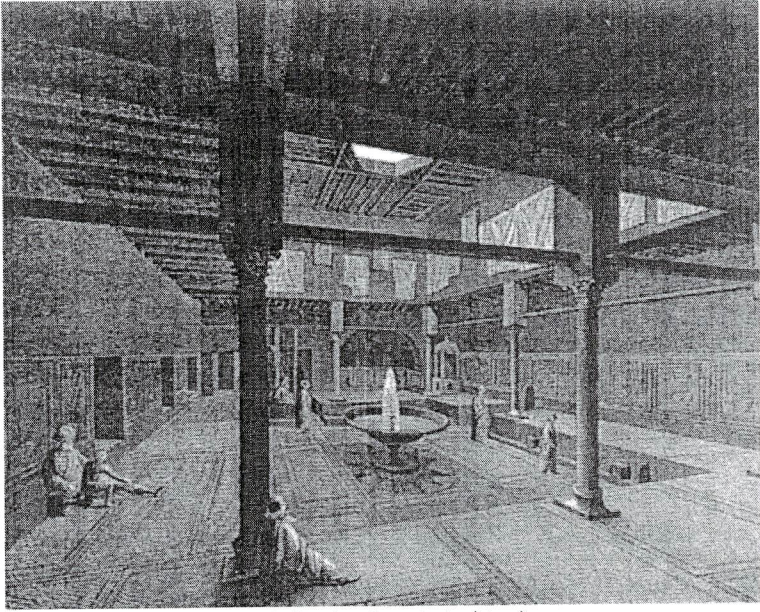
(٥-٧) داخل حمام عام بالقاهرة

وقد وردت قصص النساء اللاتى تبتهج بالخداع ضمن حكايات ألف ليلة وليلة الشعبية. وحكايات زوجات التجار الثلاث فى الحمامات تحكى عن أنهن كن يتنافسن على الفوز بثوب من القماش المنسوج بخيوط الذهب ، معلق فى الحمام ، وتحاول كل منهن أن تتفوق على الأخرى بحكاية عن خداعها لزوجها لتمضية الوقت مع حبيبها . وكان الثوب المكافأة سيمنح لمن تحكم الحمامية أنها حبكت أكثر الخطط براعة وحذقًا . فى هذه الحكاية، على أية حال، احتفظت الحمامية بالثوب لنفسها، ووصمت النساء الثلاث جميعًا بالخطيئة . أما فى المنازل الأكثر ثراء ، فكانت توجد حمامات بمياه

جارية فى الطابق الأعلى. وبالرغم من صغر حجمها ، كانت لها أسقف مقببة تضيئها قطع صغيرة من الزجاج الملون مثبتة فى السقف. وفى مثل هذه الحالات، ربما لم تكن لدى النساء التعيسات المقيدات بهذا الشكل ، أعذار لقضاء الوقت فى الحمامات العامة لتدبير المكائد مع صديقاتهن .

أما الرجال فإنهم كانوا يخلعون ملابسهم فى الغرف على جانبى الفناء الرئيسى، ثم يلفون أنفسهم فى مآزر من قماش أزرق، ويتركون أنفسهم لرفاهية المتعة. ويخرج العرق من كل المسام، ثم يتمددون على المساند الرخامية؛ حيث يتم تدليك أطرافهم وطرقعة مفاصلهم . وبعد أن يتم غسل أجسادهم فى النهاية، ويجففون بالمناشف التى تلفهم، كان يتم قص شعرهم وتتم إزالة الشعر من وجوههم. وكان يمكنهم قضاء الوقت فى الحمامات وهم جالسون حتى أعناقهم فى حمام كبير مستدير تحت القبة؛ حيث كانت النافورة تدور والمياه الساخنة والباردة تتدفق عبر أنابيب منفصلة . وكان هناك درج يوفر مقاعد مناسبة فى أعماق مختلفة حول الحافة . لقد كانت الحمامات أماكن يمكن فيها تقديم كل ضروب الراحة الممتعة وتلبية كل الحاجات السرية فى وسط الأبخرة المتصاعدة من خلال المهاجع فى الغرف الرخامية.

كانت القناة الرئيسية فى القاهرة، مع الخليج الناصرى وقنوات جانبية صغيرة ، تحتجز مياه فيضان النيل التى كانت تركد مع المزيد من تدهور نوعيتها حوالى تسعة أشهر فى السنة. وبالتدريج ، تصير القنوات الجافة ممتلئة بالقمامة التى تقذف من النوافذ فى البيوت على الضفتين، ولأنه لم يكن من الممكن تحمل الرائحة النتنة، صار من المستحيل البقاء فى الغرف المطلة عليها. ولكن مع وصول شهر مايو كان الوالى يجلب فرقًا من المساجين والشحاذين يعملون على تطهير المجرى، وكانوا ينقلون بالعربات المخلفات إلى التلال والكيمان خارج المدينة، وينظفون مجرى المياه استعداداً لتدفق المياه الجديدة . وبوصفه مهندسًا خبيرًا مجريًا ، قدَّر فيليبو بيجافيتا أن القناة الرئيسية يمكن مدها لكى تعود ثانية إلى النيل بقدر قليل من المصروفات تدفعها الحكومة، وستكون راحة كبيرة للناس الذين لن يكون عليهم أن يعانوا من المياه الراكدة وجفافها المستمر والرائحة النتنة التى تصاحب ذلك .

وفى شهر أغسطس ، عندما يصل الفيضان مداه، جرت العادة منذ أيام الفراعنة على قياس الفيضان ، مما يساعد الكتبة على التنبؤ بخصوبة الأرض وتقدير مستوى الضرائب للعام المقبل. ويوجد مقياس النيل، وهو عمود يرجع تاريخه إلى القرن التاسع عليه علامات متدرجة كل منها ذراع ، فى مبنى صغير مزين بأعمدة كلاسيكية يمكن الوصول إليه بدرج هابط ، فى جنوب جزيرة الروضة . وكان من المواقع «التى يجب رؤيتها» فى القاهرة. وقد وصفه بيلوتى، التاجر البندقى، بأنه «مرتفع وسميك، من الرخام ، لونه أحمر قانى أو بنفسجى ». وقد أخذت قلعة الروضة جزءًا كبيرًا من الجزيرة، وقد بنيت سنة ١٢٤١م ، تحتوى على قصور ومساجد وإسطبلات لكى تكون سكنًا للمماليك البحرية التى كانت أعدادهم فى تزايد(*). فإذا ما وصلت مياه الفيضان المقياس الحرج ، أى ستة عشر ذراعًا(**) ، على درجات عمود المقياس كان يمكن أن تتجمع كل دواعى القلق على أحوال مصر على مدى الاثنى عشر شهرًا التالية . وجرت العادة على الكشف عن مقياس النيل يوميًا بواسطة رجال يمتطون الخيل ويحملون رايات على أكتافهم، وبعد ذلك يركبون عبر أنحاء المدينة لكى يطمئنوا الناس أن «البحر زاد». أما الفيضانات الضعيفة فكانت تجعل الجماعات الدينية تخرج إلى الصحراء حول السلطان الذى يرتدى ملابس بسيطة تضرعًا إلى الله فى صلاة الاستسقاء . وعلى الرغم من أن السلطان المؤيد شيخ كان يعانى متاعب صحية ،، فإنه قطع نهر النيل سباحة فى شجاعة سنة ١٤١٩م، ولم يمض فعله اليائس دونما مكافأة؛ لأن النهر زاد بعد ذلك.

(*) تصرفت فى ترجمة العبارة الأخيرة بحيث تكون صحيحة تاريخيًا ؛ لأن الترجمة الحرفية تقول : «... لكى تكون سكنًا لجزء من الجيش المتزايد العدد جدًا من المماليك الملكية»؛ والمعروف أن الصالح نجم الدين أيوب قد بنى قلعة الروضة ليسكن بها المماليك الذين عرفوا باسم «البحرية» ، ربما نسبة إلى «بحر» النيل حسب رأى بعض المؤرخين، وهى الفرقة التى كان لها النصيب الأكبر فى هزيمة الحملة السابعة على المنصورة، ثم اغتيال توران شاه ونقل السلطة إلى «شجرة الدر» أول سلاطين المماليك ، وقد انتقلت «طباق» المماليك (الثكنات) بعد ذلك إلى القلعة . (المترجم)

(**) كان وصول مقياس النيل ستة عشر ذراعًا علامة الوفاء ؛ لأن ارتفاع النيل إلى هذا الحد كان يعنى إمكانية رى معظم الأراضى الزراعية . ولكن فى أواخر عصر سلاطين المماليك ، ونتيجة إهمال وسائل الرى كانت هناك مساحات كبيرة من الأراضى لاتروى عند هذا الارتفاع . (المترجم)

وعندما كانت المياه تصل ذروتها ، كان يتم الاحتفال بوفاء النيل فيما بين ٦ و ١٦ أغسطس، وفى أثناء هذا الاحتفال لم يكن يفكر فى النوم سوى نفر قليل من الناس. وكانت قمة الفرح والابتهاج تأتى عندما يصل السلطان على ظهر حصانه ، وسط الصيحات المتصاعدة من الزحام، ويضرب بمعوله الذهبى ثلاث ضربات على سد الخليج ذى القاعدة العريضة والعالى الذى كان قد تم بناؤه لحجز الخليج عن النهر على الضفة اليمنى. وبعد هذا رأى إيمانويل بيلوتى «أنه تم إنجاز العمل بعدد كبير من الرجال بالمعاول أسرعوا لتوسيع الفتحة» . وعندما تدفقت المياه فى الخليج ، كان الناس يغنون ويرقصون فى فرح . وفى وسط الفيضان، كانت البيوت الأنيقة بشرفاتها والمناظر الخاصة (جمع منظرة وهى مبانى تشرف على المياه مباشرة) المطلة على الخليج محل طلب كبير من الجمهور لمشاهدة الاحتفالات، وكانت النوافذ مزدحمة ؛ حيث كانت السفينة المزدانة بالزهور وأغصان الشجر تنساب مارة بالمياه المتدفقة إلى داخل الخليج، تصحبها فرقعة الألعاب النارية.
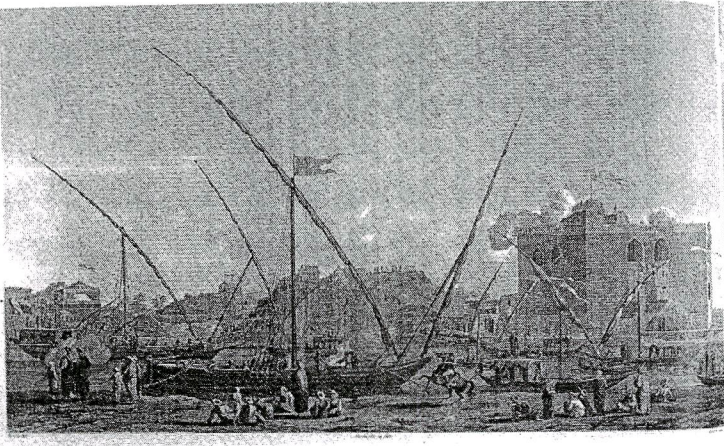
(٥-٨) احتفالات كسر الخليج عند فيضان النيل السنوى

وبعد أن جاء الأتراك إلى السلطة ، استمرت الاحتفالات . وبعد ذلك بحوالى ٢٥٠ عامًا ، شاهد يوهان وايلد الباشا يمضى نازلاً من القلعة لحضور مهرجان استمر ثلاثة أيام وثلاث ليال. كانت هناك حوالى ستين سفينة مزينة مغطاة بالسجاجيد، وقد علقت

على قمتها رايات وبيارق، وقد طليت بألوان مختلفة تعبيراً عن الفرح . ونصبت المنصَّات والجسور على القوارب التى كانت مغطاة بالكتان الفاخر الملون، وقد أحاطت بها الستائر . وكانت هذه قد تم إعدادها بواسطة الأمراء والأعيان تكريماً للوالى. وعندما صعد الباشا على ظهر السفينة، أطلقت المدافع من القوارب المحيطة تحية له. وإذ كان الباشا، الذى كان على سفينته أربعة مدافع كبيرة بإطلاقها رداً للتحية من الأعيان. ومع الباشا تجمع الأسطول الصغير فى المساء بالقرب من مصر القديمة ليقود الطريق، وفى ذلك الحين كان عدد الأسطول قد تزايد ليصل إلى حوالى مائة سفينة. وكانت الألعاب النارية تُطلق لتسلية الجماهير من المتفرجين ، وقد غطت الأضواء المنبعثة من المصابيح القوارب كلها. لقد كان مشهداً عظيماً. وفى اليوم الرابع ، عندما تم كسر الخليج، دوى فجأة انفجار مروع عندما وقع انفجار للألعاب النارية ، وقذف مُجسم قلعتين كبيرتين على كلا ضفتى النهر مما أصاب المشاهدين بالذهول. وكانت اللوحات علامة الذروة فى العرض وكان للباشا وحده أن يرمى النقود وسلال الطعام على سطح الماء من أجل الفقراء الذين كانوا يسبحون لإمساكها ، كان قارب الباشا عبارة عن سفينة كبيرة بالمجاذيف ، مطلية كلها ولامعة، وعادة ما تبقى راسية على ساحل بولاق. وعلى الرغم من أنها كانت أصغر ، فقد قارنها فيليبو بيجافيتا بالسفينة Bucintoro التى كانت مخصصة لدوج البندقية . كانت مقدمة السفينة ومؤخرتها قديمة الطراز al antica تحاكى تلك التى رآها منحوتة على الأعمدة فى روما والقسطنطينية ، وتصور أن السفينة مشابهة للسفينة الكبيرة الفاخرة التى كانت تنقل كليوباترا وحاشيتها على امتداد نهر النيل.

كانت هذه الأحداث السنوية مصدر سرور للأغنياء والفقراء على السواء، وكانت الجماهير تمضى الوقت فى مشاهدة لاعبى الشوارع مع حيواناتهم التى تقدم العروض المسلية قرب الماء على طول الطريق المؤدى إلى بولاق. وكانت ألعابهم تتضمن القرود والدببة التى ترقص وتقفز. كما كان يجرى تمثيل المشاهد القصيرة، وتلعب فيها الحيوانات دور البشر لتبين كيف كان الخدم والزوجات الكسالى يتصرفون عندما يكون أسيادهم خارج المنزل. وقد رأى يوهان وايلد صاحب حمار يقدم عروضه فى الشارع وهو يلف عصابة على عينى الحمار ويدور به ثلاث مرات، ثم سحب خاتماً من إصبعه ،

واندس فى الزحام حيث خبأ الخاتم تحت ثياب أحد المشاهدين . وفى ثقة بما يتوقعه أمر الحمار أن يسير تجاه المشاهد الذى أخفى الخاتم. وما إن وصل الحيوان إلى الرجل حتى توقف أمامه. وفى انتصار أعلن المشعوذ أن الحمار قد وجد الخاتم، وعاد إليه أمام الجميع . وكان العقاب سينزل بالحمار إذا لم يكن قد أشار إلى الشخص الصحيح؛ فقد تناله الضربات . وغالبًا ما كانت الحمير تشترك فى تمثيليات الشوارع من هذا النوع. وقد ضحك كريستوفر هارانت على حيوان مدرب عندما سمع صاحبه يعلن فى صوت عالٍ أن الناس فى جميع أنحاء المدينة يبحثون عن الحمير لتنقل الأحجار وغيرها من المواد لبناء ساحة مبنى كبير. فقد رأى الحمار يسقط ، متظاهرًا بالموت، وبقى كجثة وعيناه مغلقتان ، وأرجله فى الهواء كأنما ضربه الوباء. وأخذ سيده ينوح على فقدانه حماره بكل أسى، وحاول عبثًا أن يحرك أرجله، ومع أنه تذمر وأخذ يضرب الحيوان، فإنه ظل راقدًا بلا حراك ، واستأنف صاحب الحمار قصته :

«اعلموا أيها المشاهدون الأعزاء ، أن غدًا سيكون هناك موكب لاستقبال السلطان، وأن أجمل النساء سوف يركبن أجمل الحمير، وأن الحمير سوف تمنح بهذه المناسبة المياه العذبة وتختار الشعير».

وما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى قفز الحمار على أرجله واقفًا ، وبدأ يرقص فرحًا.

وبالإضافة إلى مياه الفيضان الباردة فى الخليج، كانت توجد فى غرب المدينة برك للترويح والمسرة، تصطف على ضفافها البيوت الرئيسية وقصور الأعيان والموظفين الأغنياء. وإن أخفت أسرارها وراء الأبواب المزدوجة الكبيرة كانت أفنيتها الكبيرة محجوبة وراء هذه الأبواب ، ومعها الأجنحة المنفصلة للرجال والنساء ، ولها أرضيات من الفسيفساء المطعمة بالذهب والأحجار الكريمة، وكانت هناك نوافير تعمل فى الحدائق المعزولة وصفوف طويلة من الإسطبلات للخيول. وكان سطح بركة الفيل ، جنوب القلعة ، مغطى بقوارب النزهة وزنابق الماء الصفراء ، وكان هناك مضمار لسباق الخيل بجوارها . وإلى جنوب مصر القديمة كانت بركة الحبش وبركة قارون، وقد جاء وصف مسراتها فى حكاية الطبيب اليهودى التى جاءت فى حكايات «ألف ليلة وليلة» . وفى الشمال الغربى كانت بركة الأزبكية توفر مكانًا للاسترخاء والراحة أيام الجمعة بعد
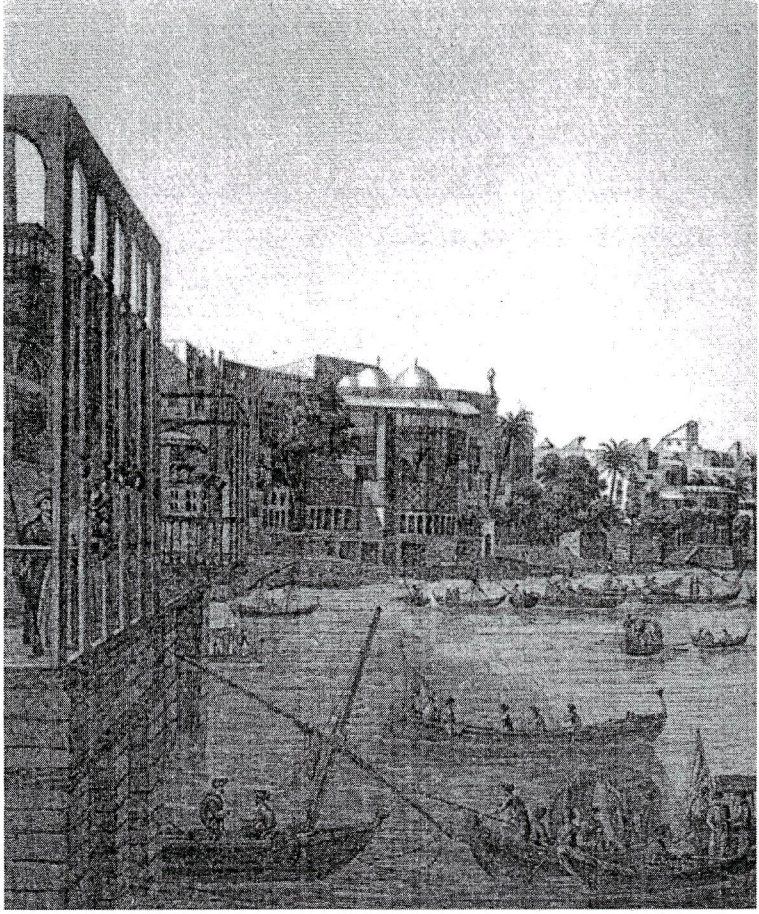
(٥-٩) حديقة الأزبكية ، الجانب الجنوبى، أثناء فيضان النيل

الصلاة فى المسجد . وكانت هناك حديقة ومنتزه يتمشى فيه الناس . وكان الماء فى هذه البركة يستمر لأشهر قليلة فقط بعدها تصير غير صحية ومصدراً للمرض والعدوى حتى تمتلئ من جديد عن طريق القنوات بالفيضان الجديد فى الصيف. وعندما تكون ممتلئة كانت البرك تجتذب الطيور من كل الأنواع ؛ حيث تضفى متعة على أولئك الذين يحبون الوقوف فى النوافذ للتصويب نحوها بقسيهم. ومن المدهش أن الطيور كانت تستمر فى القدوم إلى المياه بأعداد كبيرة.

وحتى فى القرن السادس عشر كانت القاهرة تسمى «بابيلون» أو «بابيلون مصر» عند الأوروبيين. وكان موقع «بابيلون» ، بداية الحصن الذى بناه هادريان قديماً، والذى ذكره بطليموس الجغرافى (Geography 4.5)، وفيما بعد نشأ حى مسيحى فى هذه الناحية كان مقراً لواحدة من أوائل الأسقفيات . ووفقًا للتراث القبطى، اختبأت العائلة المقدسة فى هذا المكان عندما كانت هاربة من اضطهادات هيرود. وقيل إنهم غادروا فى مركب بشراع بعد ذلك قاصدين الصعيد، حتى ارتاحوا أخيراً فى كهف قرب أسيوط حيث شُيد الدير المبارك فى القرن الرابع الميلادى.

ومن حين إلى آخر ، خلال فترات الاضطهاد الدينى، كان المسيحيون وكنائسهم فى مصر القديمة عرضة للهجوم من جانب عامة المسلمين. وأثناء رحلة الحج التى قام بها سايمون سيميونيس، الراهب القادم من دبلن ، سنة ١٣٢٤م ، علم أنه من سنة ١٣٢٠م إلى سنة ١٣٢٣م أعدم عدد من المسيحيين كما أغلقت الكنائس(*). ولهذا السبب كانت المبانى متواضعة متوارية بين البيوت المحيطة حتى لاتلفت الانتباه. وعلى خلاف الكنائس فى أوروبا لم تكن لها أبراج ، وكانت نوافذها عالية وأبوابها صغيرة ضيقة . وعلى النقيض من ذلك، كانت الدواخل المعتمة، ذات الطراز البازيليكى ، غنية بزخارفها وتضيؤها مصابيح معلقة ، أحياناً من الزجاج الملون بألوان المجوهرات بتصميمات معقدة وكتابات عربية ، أو بزجاج أبيض وبها مقابض . وكانت هياكل الكنائس من الخشب الداكن الصلب الذى تثريه رقائق العاج والأبنوس ، ومزين بالنقوش العربية والنماذج الهندسية ومطعم بصلبان ونجوم محفورة من العاج ببراعة. وكانت أبواب الهياكل مغطاة بالحرير الفاخر أو بستائر القماش المقصب، على حين كان بيض النعام

(*) حدثت سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م بعض حوادث العنف من جراء الحريق الذى التهم أجزاء كبيرة من القاهرة ودبره عدد من الرهبان النصارى الملكانيين (الروم الأرثوذكس) ، ففرض السلطان الناصر محمد بن قلاون على النصارى، واليهود، قيوداً فى ملابسهم ، وطردوا من دواوين السلطان والأمراء، وأغلقت كنائسهم . ولكن الثابت من كل المصادر التاريخية أن أحداً من أهل الذمة لم يُقتل. انظر: قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر من الفتح الإسلامى حتى نهاية المماليك (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط ٢٠٠٢م) ، ص١٧٧-١٧٨ . (المترجم)

(٥-١٠) سرداب كنيسة أبوسرجه ، مصر القديمة، قيل إنها كانت مكان راحة العائلة المقدسة

معلقًا فى الواجـهة على سـبيل الزينة . وخلف الهيكل كان المذبح الرئيسى تعلوه ظلَّة مسـتقرة على أعمـدة، وكانت الرسوم على الجدران للقديسين حُماة المكان والمشاهد المستمدة من الكتاب المقدس. وفى أرضية الرواق كان الصـهريج ، وهو حوض مربع

مغطى بالخشب ويستخدم لغسل الأرجل فى خميس العهد . وكانت الصلاة تؤدى والجماعة وقوف ، والإنشاد الرتيب للقساوسة مصحوبًا (بالنسبة للأذن الأوروبية) بموسيقى حادة ونشاز مع دقات الصنوج والمثلثات (آلات موسيقية مثلثة الشكل) .

وبالنسبة للحجاج الأوروبيين كانت كنيسة أبو سرجة مكانًا ذا قدسية خاصة؛ إذ قيل إن رواقه كان الكهف الذى آوى السيدة مريم العذراء ويسوع . وبالقدر الواجب من التبجيل ذهب سايمون الراهب الأيرلندى لكى يصلى هناك يوم ٢ فبراير ١٣٢٤م.

«مريم المقدسة فى الكهف Sancta Maria de la Cave الذى يوجد فيه تحت المذبح العالى ذلك المكان ذو القدسية القصوى ؛ حيث يقال إن العذراء المجيدة بقيت مختبئة ومعها ابنها يسوع فائق الحلاوة... وهنا أيضًا يوجد بئر حجرى اعتادت أن تحمم فيه الطفل ، وفى مواجهته إلى اليسار يوجد مذبح تكريمًا للعذراء ، وفيه احتفلت أنا الراهب سايمون بصلاة القداس فى عيد طهارة العذراء».

وكان يمكن لسايمون أن يتعبد فى الرواق (الذى يحتمل أنه يرجع إلى القرن الثانى أو الثالث، وربما يرجع تاريخه إلى القرن السادس)، الذى يقع تحت مركز جوقة المنشدين وجزء من هيكل الكنيسة الرئيسية ، ويمكن الوصول إليه عن طريق درجين، أحدهما من الجناح الشمالى للكنيسة ، والآخر من الجناح الجنوبى. ولا يزال مكانًا صامتًا يتكون من صحن الكنيسة الذى يعلوه سقف ذو قباب والجانبان الشمالى والجنوبى مقسمان بتسعة أعمدة . والمذبح فى الناحية الشرقية، ارتفاعه حوالى عشرين بوصة ، يقع فى موضع منعزل شبه دائرى تحت سقف قبة. ومياه النيل التى ترشح عادة فى الرواق كانت موضع تبجيل بسبب ارتباطها بمثل هذا المكان المقدس. وفى سنة ١٣٨٤م سمع التوسكانى چيورچيو جوتشى صلاة القداس هناك عدة مرات مع كثير من رفاقه ، «واعترف وتناول من راهبين أقل مرتبة (وصى جبل صهيون والأخ نيقولا من كانديا ورفيقه) وجدناهما هناك، قدما من القدس فى عمل لرؤية السلطان والحصول منه على تصريحات معينة لتزيين بعض كنائسهم».

ووصف سايمون الراهب «كنيسة مجيدة أخرى فى هذه المادة نفسها، معروفة باسم Sancta Maria della Scala، وهو اسم صحيح؛ لأن الدخول إليها عن طريق الدرج». والصعود إلى «الكنيسة المعلقة» (وقد سميت بهذا الاسم؛ لأنها معلقة بين برجين رومانيين) عن طريق درج مبنى بالقرب من الحصن المركزى فى الناحية الجنوبية من القلعة الرومانية المبنية بالآجر الأحمر، ببرجيها الضخمين . وكان يمكن لسايمون أن يعجب بالداخل بجماله الفريد، مع أجنحة مقسمة بأعمدة من الرخام الأبيض (وأحدهما من البازلت) وتيجانها على الطراز الكورنثى، ومنبر الوعظ القديم الأصلى مسنود بخمسة عشر عاموداً إسطوانيًا على الطراز الإسلامى مغطاة بشرائط رأسية من الرخام الملون مرتبة فى سبعة أزواج، وليس فيها زوجان متشابهان، وفى وسطها عمود مفرد.

وبالقرب من كنيسة أبى سرجة مبنى كبير سامق مكرس لسانت بربارة، وهى قديسة عذراء شهيدة أخرى فى الهيكل الأوسط . وكانت شهرة بربارة بأنها كانت غادة حسناء للغاية قد ذاعت فى كتاب «الأسطورة الذهبية» ذائعة الانتشار. وتحكى الحكاية عن سيدة شجاعة عنيدة اعتنقت المسيحية على يدى أوريجين (السكندرى) ، ولكنها أُعدمت بعد ذلك على يدى أبيها الوثنى ديوسقوروس عندما كان مكسنيوس يحكم مصر. وسرعان ما جاء الرد حثيثًا ، إذ تحكى أسطورة أخرى أن الأب القاسى صرعته صاعقة فى الحال وحولته إلى رماد . (ليس هناك دليل على وجود بربارة، ولكن مذهبها صار قويًا فى القرن التاسع عندما كانوا يتضرعون إليها ضد خطر البرق)، وعندما حاول سايمون زيارة الكنيسة كانت لا تزال مغلقة بعد اضطهادات المسلمين ولخيبة أمله لم يستطع أن يرى «جسدها الغالى» . وعلى أية حال ، فبعد سنوات ست، أى سنة ١٣٣٠م وجد حاج اسمه أنطونيو ريبالدى الكنيسة مفتوحة، واستطاع أن يلمس الجثة ويقبلها .

وصل نيكولاس دى مارتونى ، من أعيان كارينولا، الذى نجا بمعجزة من رحلته البحرية المرعبة إلى الإسكندرية فى يوليو سنة ١٣٩٨م، فى نهاية المطاف إلى القاهرة يوم ١٩ أغسطس . وإذ كان حاجًا تقيًا حرص نيكولاس على زيارة بابيلون؛ حيث حظى بمقابلة طويلة مع بطريرك الكنيسة القبطية . وناقشا على مدى ساعتين طبيعة المسيح وقدسيته، وتكلما عن وصول نيقولاس والرحلة ودعا البطريرك زواره الإيطاليين إلى وجبة

تضمنت «الخبز والعسل وأطباق كبيرة من البيض والتين والخوخ والجبن» . وقال نيكولاس إنهم شربوا أفضل المياه مع الوجبة ؛ لأن الخمر لم يكن يُشرب هناك . وعند الرحيل باركهم البطريرك ومد الصليب (الذى يحمله بيده دائمًا) إليهم لكى يقبلوه . وقليل من الأوروبيين المسيحيين كرسوا وقتًا لوصف معبد بن عزرا اليهودى بسقفه من أشغال الأرابيسك ، والقريب من الكنائس القبطية . وربما لم يخبرهم مرشدوهم بالروابط القوية التى تربط المعبد بحياة موسى.

بينما كانت السفن القادمة من الجنوب تبحر مع التيار فى نهر النيل من مناطق الصعيد ، ترسو فى ميناء مصر القديمة ، إلى الجنوب من المدينة (وهو ميناء بابيلون الرومانى القديم) ، كان ميناء بولاق الكبير المزدهر إلى الشمال يستقبل أساطيل القوارب والمراكب تزرع مجرى النيل جيئةً وذهابًا من البحر المتوسط. وكانت ضاحية بولاق قد صارت مزدهرة على طراز حديث : فقد وصف فيليبلو بيجافيتا بعض «المنازل الجميلة والحدائق على امتداد الشاطئ، والتى بناها من قبل الأمراء المماليك الذين اعتادوا على الذهاب إلى هناك طلبًا للمتعة»، وقال إنه حتى اليوم، ما زال الناس من القاهرة يأتون أيام السبت لكى يتسلوا مع أحبائهم ، ولكى يأكلوا فى الهواء الطلق فى الحدائق وتحت الأشجار بمناظرها الخلابة. وفى سنة ١٥٧١م بنى الأتراك العثمانيون جامعًا مهمًا بالقرب من النهر، وله أكبر قبة حجرية فى القاهرة . وكان المسافرون القادمون من الدلتا يواجهون بالجمارك التى لا فكاك منها، وتأخذ منهم بعض الرسوم المرهقة على بضائعهم وأموالهم.

وكان فيليبو قد أرسى بجوار Dogana del Rey ، وهو مبنى كبير على ضفة النهر به موظفون يهود يرتدون عمائم صفراء، تستخدمهم الإدارة. وزعم أنهم بدوا أكثر تشددا فى الإشراف على الرسوم المحصلة من الفرنج أكثر من الجنسيات الأخرى. وضايقه أنه على الرغم من الوصول فى عطلة السبت اليهودية ، كان اليهود لا يزالون يعملون، وتم إجباره على الدفع . وشكا كثيرون من المعاملة السيئة التى لاقوها من موظفى الجمارك اليهود النهابين الذين كانوا يجلسون مستريحين على الأرائك إلى جانب المخازن فى ظل شجر الجميز انتظارًا لنزول المسافرين على رصيف الميناء.

وعلى الرغم من أن فيليبو احتج بقوة بأنهم لايحملون معهم شيئًا ذا قيمة، وسيكون إجهادًا لهم فك حقائبهم، فقد تم إجبارهم بعد مناقشة طويلة مع الموظفين على الانصياع وإظهار كل شيء معهم، وكانت النتيجة أن كل شخص قد دفع مجبرًا قرشًا كبيرًا .

وحتى قبل مائتى سنة من ذلك التاريخ كانت بولاق قد صارت بالفعل ميناء يعج بالحركة والنشاط . فقد كان الفلورنسى ليوناردو دى فريسكوبالدى، عند وصوله فى أكتوبر سنة ١٣٦٤م مندهشًا من رؤية سفن المسلمين محملة بالبضائع، وأنه على الرغم من حقيقة أنها كانت بلادًا مسلمة «فقد كان فى كل سفينة منها عدد كبير من النساء الوضيعات تاجرات كبيرات جدًا كن ذاهبات إلى الإسكندرية وعبر الجزيرة إلى رشيد لمباشرة أعمالهن التجارية». وبعد أن نزلت جماعة ليوناردو من المركب ، لمحوا السلطان برقوق نفسه، عائدًا مع حاشيته الضخمة من الصيد . وقدروه بأنه «رجل يناهز الخامسة والأربعين من عمره، ذو مظهر لطيف للغاية». كان المشهد مؤثرًا ؛ إذ كان حوالى مائة ألف رجل على خيولهم بصحبة السلطان(*)، وكذلك عدد كبير جدًا من الصقور والباز ، وكلاب الصيد ، وكلاب المطاردة . وكان الأشد تأثيرًا هو :

«خيمة كبيرة جدًا ، من بين أغلى الأشياء فى العالم ، وهى كبيرة جدًا بحيث إن هناك مائة جمل لحملها ؛ لأنها مقسمة إلى قطع كثيرة جدا ولها كثير من الصوارى الخشبية تستخدم فى نصبها، وإنها لحقيقة أنه عندما يتم نصب هذه الخيمة المذكورة ، يقال إنها تحتوى على عدد كبير جدًا من الغرف والقاعات ، لدرجة أنه فى المساء لايعرف أحد فى أى من هذه الغرف ينام السلطان ليلاً، ربما باستثناء من هم موضع ثقته» .

وعندما تتم إقامة جميع الخيام الكبيرة لحاشية السلطان فى مكانها ، يشبه المعسكر الضخم مدينة، وبها شوارع عادية فيها أرباب الحرف العديدون «أحدهم يبيع هذا، والآخر يبيع ذلك». وكانت قطعان الجمال كبيرة العدد ضرورية لحمل الطعام وعلف

(*) هذه مبالغة كبيرة جدًا خاصة إذا عرفنا أن مشتريات السلاطين من المماليك فى فترة المماليك البحرية (التى كانت فترة القوة والازدهار) لم تكن تزيد عن ثمانمائة مملوك : فإذا أضفنا غيرهم من مماليك الأمراء فإنهم كانوا عدة آلاف قليلة لايمكن أن تصل إلى هذا الرقم . (المترجم)

الدواب لتلبية حاجات هؤلاء السكان الجوالين الذين كانوا يعسكرون على مسافة حوالى خمسة عشر ميلاً من القاهرة فى سرياقوس بالصحراء ، بالقرب من دير أبو هور القبطى. ومثل هذه الأديرة كانت فى الغالب مقصداً لرحلات المتعة؛ حيث كان شرب الخمر فى الحدائق التى كان يمكن للضيوف الاسترخاء بها من حرارة الصحراء ، وينغمسون فى حبهم لحكاية الحكايات وتلاوة الشعر. وعلم التوسكانيون أن عظمة السلطان بلغت أنه يُغيِّر ملابسه ، التى كانت ذات قيمة بالغة ، ثلاث مرات يومياً ، ثم توضع بعد ذلك فى غرفة لكى «تخلع» على رجال بلاطه (خلعة) ورفاقه المقربين . وحتى لو كانت فى هذه الحكاية مبالغة، فإن الثوب الذى كان يلبسه الحاكم فى القرن الرابع عشر صار هدية معتادة كان يمكن للموظفين اعتبارها حقًا لهم مثل رواتبهم .

وبعد مغادرة بولاق، قاد التوسكانيين مرشدهم الأمين سعيد على طول الطريق خلال الكروم، وحدائق النخيل العالى، والبرتقال، والليمون، والجميز إلى مترجم برقوق الكبير موظف البلاط المهم المسئول عن الأجانب الذين يزورون المدينة . وعبروا قنطرة على قناة فرعية خارجة من خليج كبير يقطع المدينة. ولكن على الرغم من حرص سعيد فإنهم لقوا استقبالاً مهينًا عندما وصلوا إلى المسكن : «عندما وصلنا المنزل، حيث يتم وضع جميع الحجاج ، حصل المترجم على أربعة دوكات من كل منا ، دون أن يقدم لنا سريراً أو أى شىء آخر فى الدنيا، سوى الإقامة بالمنزل».

كان ليوناردو دى فريسكو بالدى رجلاً منغمساً فى العقائد المسيحية الصارمة فى القرن الرابع عشر؛ إذ كان مهتمًا بصفة أساسية بروح كبير التراجمة ، وكان بندقيًا اعتنق الإسلام «متزوجًا من إحدى بناتنا الفلورنسيات»، التى كانت قد أسلمت هى الأخرى. وكان والدها فلورنسيًا قد اعتنق الإسلام، كان يشغل المنصب قبل زوج ابنته فى البلاط. وكان ليوناردو قد أحضر عدة خطابات إلى كبير التراجمة ، أرسلها إليه أصدقاء قدامى فى البندقية ومن قنصل البنادقة فى الإسكندرية. وعلى الرغم من أن المترجم ظهر مسروراً برؤيتها، «فالحق أنه حزن قليلاً لأن الخطاب الذى جاءه من البندقية أخبره بموت أبيه، ولم يكن يعرف ذلك». أما ليوناردو الذى أزعجه أن الرجل يعيش فى حال من اللعنة، فقد عمل جاهداً على أن يجعله يرى خطأ أساليبه .

ولذلك فإنه مع رئيس رهبان دير جبل صهيون القدس (وهو رجل راق من البندقية)، حاولا أن يقنعاه أن يطلب من الراهب أن يصلى من أجل روح أبيه، وأن يتلو الصلوات الجريجورية :

«وبعد مداولات طويلة بفن عظيم ، وبنعمة الرب، جعلناه يقبل. وكُنَّا نرغب فى الحديث مع الزوجة للحديث فى الموضوع، ونرى إذا ما كنا سنجنى أية ثمرة كرامة للرب، ولم يرغب هو، قائلاً: على الرغم من أنها ابنة مسيحى فلورنسى ، فإنها لاتعرف شيئًا عن ديننا ، وقد رزقت منى بعدة أبناء ، كلهم مسلمون، وأشك فى أنها لو كشفت الموضوع فأنا وأنتم من الهالكين . ولكنى أعدكم إذا ما أرسلنى السلطان إلى الإسكندرية، وإذا ما استطعت بطريقة شريفة أن أعود إلى الغرب، فإننى سأفعل هذا».

وعندما حصل ليوناردو ورفاقه على هذا الوعد المريب، غادروا على مضض ، على الرغم من أن ليوناردو كان مقتنعًا بأنه كان من الصعب على المترجم أن يترك زوجتيه وأطفاله وثرواته ووظيفته النافذة ؛ فقد كان منصبه منصبًا فخمًا جدًا ، وقد لاحظ جيورجيو جوتشى أنه إلى جانب رسوم قدرها أربعة دوكات عن كل فرد كان راتب كبير التراجمة بالقاهرة ١٥٨ دوكات ، ومرة أخرى للحصول على إذن مغادرة المدينة والذهاب عبر الصحراء ستة دوكات ». وكانت هناك رسوم إجبارية أخرى من ضمنها دوكات ونصف دوكات للنزول بمتعلقاتهم فى بولاق .

وإلى الجنوب الشرقى من القاهرة ، كانت القلعة على جرف جبلى عالٍ منحوتة من الحجر الجيرى بتلال المقطم تشرف على المدينة والأهرامات . ومنذ بداية القرن الثالث عشر كانت مقر الحكم ومكان إقامة سلاطين المماليك ، وبعد سنة ١٥١٧م كانت مكان إقامة الأتراك العثمانيين. وكانت قلعة ذات دفاعات متينة ، وقد بنى معظمها بأيدى الأسرى الصليبيين الذين عملوا حجارين ومشرفين، ومات منهم الكثير فى أثناء البناء .

وتحت حكم السلطان القوى الناصر محمد قلاون صار ميدان الرميلة إلى الغرب من القلعة موضعًا للأسواق العسكرية الكبرى وأرضًا لتدريب المماليك. وربما كان هذا هو المكان الذى شاهد فيه ليوناردو دى فريسكو بالدى عدداً من الجواهرية فى
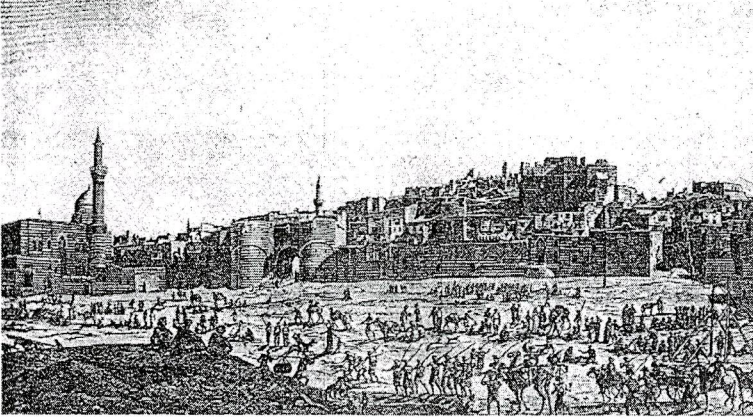
(٥-١١) مدخل القلعة وأرض الميدان سنة ١٧٩٨م

«ساحة قرب القلعة»، باعة الأحجار الكريمة، والزمرد ، والياقوت، والتركواز، واللآلئ . وقد اشترى أندريا ، خادم فرنشسكو رينوتشى، لزوجته بعض اللآلئ الكبيرة حملها إليها ليوناردو بعد موت أندريا بدمشق .

وكان الناصر محمد قد شيَّد بالقرب من الميدان سوراً حول الفناء الأسفل فى غرب القلعة ليكون مقراً للإسطبل السلطانى ؛ حيث كانت تجرى العناية بخيوله التى بلغت عدتها ٤٨٠٠ يقوم على رعايتها ثمانمائة من الأطباء البيطريين والسيَّاس، وكانوا يأخذونها يومياً للتريض فى مراعيها على ضفاف النيل . وبالإضافة إلى هذا كان هناك محل لإيواء خمسة آلاف من جمال الركوب ، وعدد لايحصى من الكلاب وفهود الصيد، وكان الصعود من الإسطبلات إلى القلعة من خلال بوابة السلسلة على طول طريق خاص يؤدى إلى الحوش السلطانى الذى يضم القصور . وقد بنى الناصر محمد ، الذى زاد أعداد مماليكه السلطانية زيادة كبيرة ، اثنى عشر من طباق القلعة لهم مع مساكن للخدم، ومدارس وحمامات فى الحوش الشمالى قرب المدخل الرئيسى .

وبالإضافة إلى ذلك ، هدم كثيراً من المبانى القائمة فى الحوش السلطانى؛ حيث بنى جامعه الرشيق الفاخر، وقاعة العدل، والقصر الأبلق بخطوطه السوداء والبيضاء، وأروقته وغرفه الشامخة التى كانت تستخدم فى الاحتفالات الرسمية واجتماعات الدولة .

وإلى جنوب هذه كان مقر إقامة السلطان ومساكنه الخاصة، يحيط بها سور، حيث قامت في نهاية الأمر شبكة معقدة من القصور ، وغرف الاجتماعات ، والعديد من الأجنحة والمشايات والحدائق، وكانت أماكن الحريم مزدحمة ، تضم عنابر نوم منفصلة لما يزيد على ألف جارية، وقاعات سكن أبناء السلطان ، على الرغم من أن كل واحدة من الزوجات الأربع كان لها قصر خاص بموظفيه داخل المجمع السكنى، بل إن الحريم المزدحم كان فيه سكن أحفاد وأبناء السلطان قلاون (حكم من ١٢٨٠ إلى ١٢٩٠م) والإناث اللاتى كن يتبعن السلاطين السابقين، وكان الحوش السلطانى قد تم توسيعه من ناحية الجنوب سنة ١٣٣٥م لوضع الخزانة والحواصل التى تخزن فيها السجاجيد والخيام والملاءات التى يستخدمها السلاطين. وحسبما يمكن أن نتخيل ، كان آلاف السكان فى القلعة يحتاجون مطابخ كبيرة ، بها الكثير من الطهاة لإعداد الوجبات الخمس التى كان يتم تناولها يوميًا للبلاط وضيوفه ، وكذلك عشرة آلاف كيلو جرام من الطعام يستهلكها الباقون كل يوم . وكانت مطابخ القلعة قرب الحريم، وتحتها كانت مئات الرؤوس من الماشية المجلوبة من مخزون القلعة.

وبسبب الزيادة الكبيرة فى سكان القلعة شيد الناصر محمد مجرى العيون الذى يرفع المياه من النيل عند مصر القديمة، وفى سنة ١٣١٢م أمر بوضع أربع سواقى لتسهيل تدفق المياه؛ لأن المياه لم تكن كافية من البئر العميق (المعروف باسم بئر يوسف) الذى بناه صلاح الدين فى القلعة الأصلية . أما مجرى العيون، الذى وسَّعه السلطان الغورى سنة ١٥٠٩م فكان يحتوى على أكثر من ثلاثمائة عقد مبنية من الأحجار المنحوتة جيداً ، وكان يتم رفع مياه النيل قبالة جزيرة الروضة بآلات تدير الثيران عجلاتها . وفى القمة كان هناك خزان كبير عميق له حوالى خمسمائة درجة (منحوتة فى جانب السور) تنزل إلى مستوى المياه . ومن الخزان ، كان يتم توزيع المياه بسواقى أخرى (تديرها الثيران) فى قنوات من الحجر والرصاص إلى جميع أجزاء القلعة.

وبينما كانوا فى ضيافة القنصل الفرنسى فى سنة ١٥٩٨م، طلب كريستوفر هارانت وزوج أخته من براغ من مرشدهم أن يأخذهم إلى القلعة الواهنة . ونهضوا من نومهم مبكرًا حتى لا يبقى فى انتظارهم ولكى يبدأوا والهواء منعش . واختاروا ثلاثة

حمير بسروج جيدة، وشقوا طريقهم خلال الشوارع يسبقهم خدم يصيحون «طريق .. طريق» . وما إن وصلوا الجرف المنحدر المؤدى إلى بوابة الدرج ، وهى المدخل الرئيسى لكل الزوار ، حتى نزلوا عن الحمير، وأخبروا المكارية أن ينتظروهم حتى عودتهم ، وصعدوا خلال بوابتين محصنتين يفصلهما درج منحدر يدور حول منحنى مقداره تسعون درجة ، فشاهدوا حوشًا كبيرًا محاطًا بالمبانى التى من الواضح أنها تستخدم للحراس. وربما كان هذا فى الحوش الشمالى ، الذى كان يضم قيادة الإنكشارية، قوات النخبة فى الجيش التركى. وشاهدوا الأعداد الكبيرة من الجياد العربية الجميلة وعليها اللجم والسروج الفاخرة، وركابها وشكيمتها مزينة بالذهب والفضة المحفورة ، وكان بعض السيَّاس يعتنون بردائها ينتظرون عودة سيدهم من الاجتماع مع الباشا. وإذ عبروا الفناء دونما عائق ، كان الأصدقاء على وشك الدخول من باب صغير جداً ومنخفض يؤدى إلى فناء آخر. وفى الحال قابلوا حارسًا يهوديًا نظر إليهم فى ارتياب . وعلى الرغم من أن اليهودى كان يعمل أيضًا مترجمًا للقنصل الفرنسى، وكان يعرف أن الاثنين التشيك تحت حمايته ، فإنه هاجمهما بغضب ، وسألهما أين يريدان الذهاب . وعندما سمع أنهما يريدان رؤية محل إقامة الباشا ، وبخ مرشدهما بقسوة قائلاً إنه قد عرضهم للخطر، وأنه لم يكن قد أعلم سيده القنصل أو أخذ مشورته ، وطلب منهما اليهودى أن يرحلا ، وأن يحرصا على حريتهما لأنهما يجب أن يبتعدا قبل أن يعرف الأتراك بزيارتهما ، وإلاَّ فإنهما لن ينجوا من السجن . وكانت هناك قصة متداولة عن بعض الجواسيس الألمان ، الذين تم التعرف عليهم فى القاهرة، كانوا قد حاربوا فى الحملة المجرية . وعاد الأصدقاء يطأطئون رؤوسهم بسرعة إلى مسكنهم ، يميتهم الكرب وقد غلبهم الحر واستولى عليهم التعب. وأخذوا بنصيحة اليهودى دون أن يتوقفوا لكى يشكروه على تحذيره ، بل ولم ينظروا خلفهم على حميرهم التى تبعهم صاحبها إلى منزلهم للحصول على أجره . أما بالنسبة للقنصل ، فإنه لم يوافق على افتقارهم للحصافة . وقد أخبرهم أنه كان يمكنه عادة أن يرتب للحصول على إذن لمثل هذه الزيارة ، ولكن الآن فات الأوان بسبب الشائعات السائدة المتداولة فى أرجاء المدينة.

وفى عجالتهما لم يستطع كريستوفر ودى سرنين أن يجدا الوقت لزيارة معرض الحيوانات؛ حيث كان سلاطين المماليك قد جمعوا فى القلعة مجموعة من الحيوانات المتوحشة الغريبة ؛ فبالنسبة للأوروبيين، لم تكن الأفيال بأجسادها الضخمة أمراً جديداً مثل الزرافة المحببة الرشيقة فى حديقة الحيوان بالقلعة التى رسمها عالم الآثار كرياكو الأنكوى **Cyriaco of Ancona** وفى لغة لاتينية غير دقيقة إلى حد ما وصف فيلاً ، وتمساحاً وزرافة فى خطاب إلى فيليبو ماريا ڤيسكونتى بمناسبة العام الجديد ١٤٤٣م:

«من بين الحيوانات الأخرى فى الإقليم نفسه شاهدت الزرافة ، التى يسميها الأهالى الوحش،

(٥-١٢) الزرافة كما رسمها كرياكو الأنكونوى

وهى حيوان غريب حقًا ، مدهشة عندما تتأملها برقبتها بالغة الطول، والمرقشة مثل الآيل ....» وقد اختلفت الآراء؛ فبالنسبة للرحالة التوسكانى سيمون سيجولى، كانت الزرافة تشبه النعامة فيما عدا أنها ليس لها ريش على جسدها، ولكن الصوف الأبيض، ولها سيقان طائر ، ولكن أقدام حصان. إنها حيوان غريب حقًا.

بقى كريستوفر وزوج شقيقته فى بيت القنصل على حين استعجلا فى تجهيزاتهما لقمة رحلتهما ، الرحلة الصحراوية الشاقة إلى دير سانت كاترين فى جنوب سيناء. وقد وفر لهما القنصل ، الذى كان حريصًا على سلامتهما ، كل مساعدة فى إمكانه .

هوامش الفصل الخامس

Cairo, general: E.W. Lane, The Modem Egyptians; Haag, Discovery Guide to Cairo; Lapidus, Muslim Cities in the Late Middle Ages, pp. 225-46; Lyster, The Citadel of Cairo; Garcin, 'The Regime of the Circassian Mamluks' (citadel residences of female dependants, p. 304); Hattox, Coffee and Coffee Houses; Raymond and Weit (ed. and trans.), Les Marches du Caire (Cairo streets and alleyways, pp. 42-72; Khan al-Khalili, pp. 143-45; Cairo slave markets, pp. 223-29; horse market east of the citadel, p. 249); Levanoni, A Turning Point in Mamluk History (attempts to control Nile waters, pp. 164-68); Irwin, The Arabian Nights:A Companion (tales of Cairo street life, pp. 120-58); Bushnaq (ed. and trans.) Arab Folk Tales, 'The Gown in the Bathhouse', pp. 334-38. Old Cairo (Babylon), General: Butler, The Ancient Coptic Churches of Egypt; Burmester, Ancient Coptic Churches of Cairo, pp. 14-35; Meinhardus, The Holy Family in Egypt, pp. 54-62.Europeans in Cairo: da Schio (introd.), Viaggio di Filippo Pigafetta (Bulaq, pp.118-20; description of Cairo: tombs of Mamluk rulers, streets, bazaar, citadel,aqueduct, Nile and canals, festival of the inundation, pp. 128-39; officials, houses,costumes, climate, illness, pp. 144-57); Brejnik and Brejnik (ed. and trans.),Voyage de Christophe Harant, pp. 163-75; Esposito (ed.), Itinerarium Symon Semeonis (the city, pp. 73-81; Old Cairo, or Babylon, pp. 85-97); Volkoff (ed.), Le voyage de Johann Wild (experiences as a slave, pp. 18-22; descriptions of Cairo, manners and customs, pp. 124-72, 175-83); Letts (ed. and trans.). The Pilgrimage of Arnold von Harff, pp. 101-26; Bellorini and Hoade (ed. and trans.), Frescobaldi, Gucci and Sigoli (renegade officials, p. 53); Legrand, 'Pelerinage de Nicolas de Martoni' (patriarch at Babylon, Old Cairo, pp. 597-99). Giraffe at citadel zoo: Van Essen, 'Cyriaque d'Ancone en Egypte', p. 299; Cyriacus of Ancona, Ms. Ashburnam, 1174 Florence, Biblioteca Med. Laurenziana, f. 143 v. (drawing of a giraffe depicted in Egypt), and Ms. Can. Lat. Misc. 2801 Oxford, Bodleian, f. 69; Bellorini and Hoade (ed. and trans.), Frescobaldi, Gucci and Sigoli,p. 169.

الفصل السادس

الدبلوماسية البندقية ووصول العثمانيين

بعد ٢٥٠ سنة من حكم مصر والشام، وهنت سلطنة المماليك. وعندما وافق السلطان المسن الغورى مكرهًا على اعتلاء العرش سنة ١٥٠١م ، وهو فى الستين من عمره ، كانت الضرائب المعتادة التى تصب فى الخزائن المملوكية من تجارة التوابل الزاهرة قد تناقصت بشكل خطير ، مما أوجد عجزًا فى الخزانة. وفى الشمال كانت الإمبراطورية العثمانية صاعدة فى ثبات. هذه العوامل وغيرها كانت سبب الاحتكاك ، والخوف والارتياب المتزايد .

وبسبب التهديدات الماثلة على الحدود المصرية، وجد الأجانب على اختلاف مواطنهم فى القاهرة أنفسهم هدفًا لسخط السلطان . ففى سنة ١٥١١م، كان بيترو زين، قنصل البندقية فى دمشق ، والسنيور كونتاريني ، قنصل الإسكندرية، وأربعة تجار من طرابلس ، وثلاثة من حلب، قد سجنوا فى القاهرة يوم ٦ يناير؛ حيث تم استجوابهم وخضعوا جميعًا بلا تمييز للضرب بالعصى . وكانوا متهمين بأنهم تدخلوا لصالح السفير الفارسى الذى كان قد قُبض عليه قرب حلب ومعه خطط بمقترحات الحاكم الصفوى إسماعيل شاه ، الذى كان قد وحّد فارس سنة ١٥٠١م ، للتحالف مع البندقية . وكان قنصوه الغورى الميال إلى تفضيل الفرنسيين على البنادقة آنذاك يخشى من الاتفاق بينهما على ممتلكات دولة سلاطين المماليك فى بلاد الشام ، ولذلك قام بالتصرف بسرعة . ومن بين عدة تجار مسجونين بالقاهرة ، كان الراهبان الفرنسيسكانيان : فراشسكو سوريانو ورئيسه الوصى على دير جبل صهيون فى
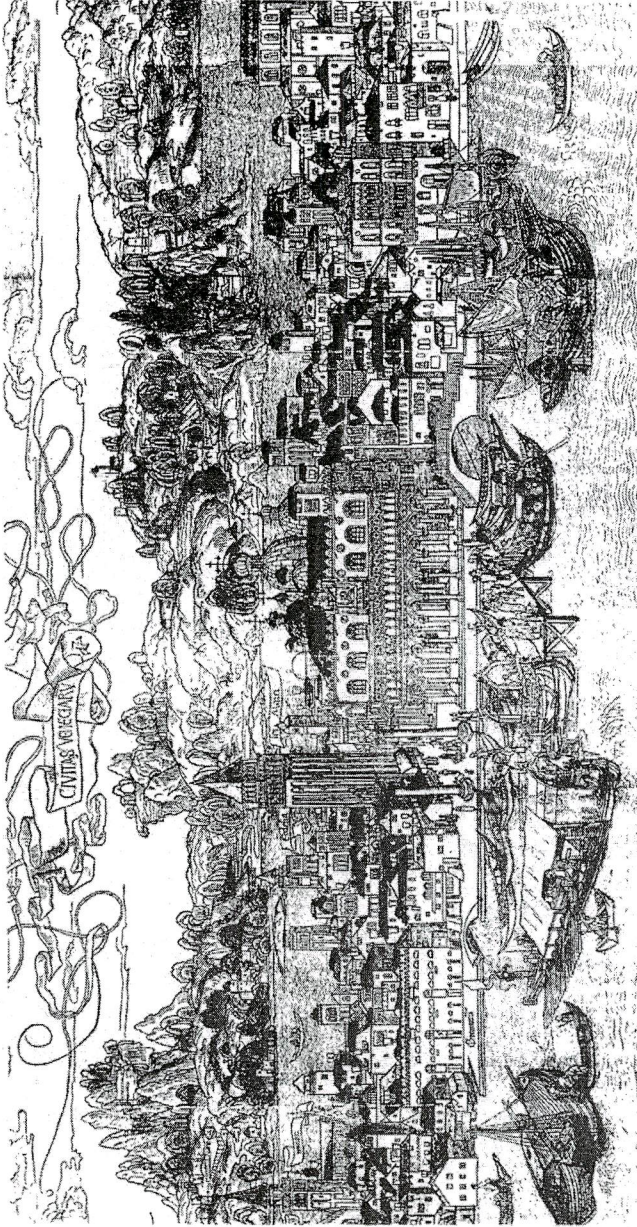
٦ – ١ البندقية فى القرن الخامس عشر

القدس برناردينو ديل ڤيكيشيو من سيينا؛ إذ لم يعودا متمتعين بحماية السلطان العجوز قايتباى الذى كان قد توفى سنة ١٤٩٦م عن ثمانين عامًا ، وقد أجبر قنصوه الغورى فرنشسكو على الكتابة إلى البوكيرك ، رئيس فرسان رودس ، محذرًا إياه من إعاقة التجارة المصرية ، وهدده بإجراءات ضد الأوروبيين الذين يعيشون فى بلاده وبتدمير الضريح المقدس. وبقى الراهبان فى السجن سنتين طويلتين حتى أطلق سراحهما عام ١٥١٢م من خلال المساعى الطيبة التى قام بها دومينيكو تريڤيزان، المبعوث الخاص من البندقية الذى كان قد وصل الإسكندرية فى أبريل من تلك السنة.

وعندما غادر دومينيكو الإسكندرية قاصدًا القاهرة ، ومعه ابنه مارك أنطونيو ، ومعهما من أسماهم "famiglia di persone venti"، كانوا قد عسكروا ليلة على الطريق المحاذى لشاطئ البحر قبل أن يركبوا النيل فى رشيد ، ووصلوا بولاق متأخرين ليلة ٦ مايو سنة ١٥١٢م. قبل ثلاث ساعات من بزوغ الفجر، واستخرج الفريق ثلاثة صناديق من القوارب، وحملوها على أربعين جملاً وبغلاً كانت فى انتظارهم ، تتألق فى قماش قرمزى مزين بعلامة القديس مرقص وعلامة السفير. ومن بين الموظفين الكبار على الرصيف كان مترجم السلطان، يونس، الذى كان من ڤيرونا ثم اعتنق الإسلام، والذى كان يخدم قبل ذلك فى سلاح خانة السلطان .

وربما كان دومينيكو قد قابل تغرى بردى، مترجم السلطان السابق، فى البندقية . وكان قنصوه الغورى قد أرسله إلى هناك سنة ١٥٠٦م للتفاوض على معاهدات تجارية مع الحكومة. وكان تغرى بردى مملوكًا ولد فى إسبانيا ، وربما كان من أصول يهودية، يتحدث سبع لغات ، وكان يحظى بمكانة سامية فى القاهرة. وخدم تحت حكم سبعة سلاطين منهم قايتباى ، وبسبب قدراته كان السلطان الغورى قد عهد إليه قبل ذلك بمهمة تمثيله فى فلورنسا .

كان السفير المملوكى قد غادر الإسكندرية فى أبريل سنة ١٥٠٦م على متن سفينة بندقية يقودها فرنشيسكو باسكاليو. ومن بين المجموعة كان الڤيزو دابييرو، الذى كان سكرتيرًا سابقًا لألڤيزو ساجونديتو ، وهو مبعوث بندقى كان مبعوثًا إلى القاهرة

لتحسين الشروط غير المرضية الخاصة بتجارة الفلفل ، والتي وضعها السلطان. وعلى أية حال ، فإن المبعوث كان قد مات في وقت مبكر من تلك السنة . وكانت السفارة القوية المكونة من عشرين شخصًا ، والتي أرسلها السلطان ، وضمت أربعة غلمان واثنين من حاملي الصولجان ، لقيت التحية في الليدو من جانب وفد من التجار ذوى الملابس القرمزية لهم مصالح عمل في الإسكندرية ودمشق . ولابد أن الغورى قد شعر بالحاجة إلى حلفاء ؛ فقد كان من النادر مشاهدة المماليك في البندقية ، ووجدت الجماهير الإيطالية في ملابسهم الملونة تجديدًا عظيمًا . وقد استمرت زيارة تغرى بردى عشرة أشهر ، أقام خلالها في سكن على Giudecca على حساب الجمهورية ، وهي مصروفات كانت محسوبة أنها ستدر ربحًا .

وبعد مفاوضات مطولة مع الدوج والمجلس الكبير، تم إرسال قائمة بالمطالب إلى قنصوه الغورى بواسطة من يُدعى فرنسسكو دا مونتى أوائل سنة ١٥٠٧م؛ لأن أى اتفاق ثابت كان قد انهار بسبب افتقار تغرى بردى إلى السلطة لمنح البنادقة ما يطلبونه . كان كل من الجانبين شغوفًا بأن يخطف ما بقى من العوائد الغنية التى كانوا قد تمتعوا بها على مدى قرنين من الزمان. وعندما عاد فرنسسكو بعد خمسة أشهر في مصر يحمل توضيحًا للصفقة كانت الشروط لصالح البنادقة إلى حد كبير، وقد حاز تغرى بردى لديهم مكانة عالية بطبيعة الحال. وعند رحيلهم يوم ٢٦ يوليو ١٥٠٧م أعطى المماليك ثيابًا تشريفية ، وصحبتهم فرقة إلى الميدان للاستماع إلى الموسيقى قبل أن يبحروا مع القنصل المنتخب للإسكندرية على متن سفينة يقودها قبطان بندقى، هو لوقا لوريدان المعروف. وكان من بين المسافرين رئيس رهبان كارثوسى، اسمه چورچ الشيمنتيزى ولاحظ أن السفير المملوكى لقى تشريفًا واحتفالاً مناسبًا في الإسكندرية . ومضى تغرى بردى مبحرًا في النيل إلى القاهرة في أبهة ومعه اثنتان من زوجاته ، يصحبه مركب مليء بأمتعة وآخر ينقل مماليكه . وقد تبعه رئيس الرهبان وجماعته في مركب طاقمها مختلط من اليهود والمصريين ، وفى كل ليلة كانت جميع المراكب تضاء بالمصابيح التى تعلق باتجاه الأهرامات ، وفى النهار كانت الأجراس الصغيرة تربط فى

الشراع حتى تدق مع هبات الريح . وفى بولاق نزل تغرى بردى، مرتديًا ثوبه الذهبى التشريفى ، وقابله السلطان استقبالاً احتفاليًا، وشاهد ذلك حريم تغرى بردى المكون من خمس وثلاثين سيدة . وعلى أية حال فقد المملوك خطوته، وأودع السجن بعد أن اكتشف كل من السلطان والبنادقة أن المفاوضات لم تكن على ما يحبون . وبسبب هذه السقطة ، ومن ثم لم يكن ليشاهد بين الفريق الذى رحب بدومينيكو تريفيسان. وبوصفه مترجمًا كان تغرى بردى مشهورًا لدى الأوروبيين الذين يزورون مصر بأنه شخصية مخادعة ، فكان قد قاد قبل ذلك مجموعات من الحجاج إلى القدس وجبل سيناء وألزمهم بالإقامة الإجبارية فى منزله بالقاهرة . وكانت الأجرة التى تقاضاها عن الضيافة الإجبارية تبدو باهظة، وفى بعض الأحيان كانت تصحبها تهديدات إذا ما أراد أى مسافر تعس الهرب.

ركب دومينيكو تريفيسان فى القاهرة مرتديًا ملابس من الذهب ومحاطًا بأربعة من الشباب، هم رفاقه المقربون ، وكانت هناك مجموعة حراسة من المماليك تتبعه وحوالى عشرين تاجرًا بندقيًا مقيمًا يركبون وراءهم. وكان القصر الذى وضع تحت تصرفهم بالغ الفخامة ، وحسب تقدير زكريا باجانى ، سكرتير دومينيكو ، تكلف أكثر من مائة ألف دوكات. وكانت الغرف الفاخرة ذات أسقف لامعة مطعمة، وأرضيات فسيفسائية معقدة من الأحجار الكريمة والأبواب الخشبية الجميلة المطعمة بالأبنوس والعاج . وكانت أماكن الإقامة مثل هذه تؤثث بالمستلزمات فى تراتيبية للمواد بالفضة والذهب، والأوانى الصينية المستوردة، والمشغولات الزجاجية الرقيقة المنقوشة ، والصوانى النحاسية المكفتة (المطعمة بالذهب والفضة) . وكانت الحجرات تُضاء بالشموع فى الشمعدانات النحاس الراسخة والمكفتة بالذهب والفضة، والمصابيح الزجاجية المطلية بالمينا باللون الأزرق والذهبى والأحمر متدلية من الأسقف . وفى الصباح التالى، تلقوا هدايا الطعام المعتادة من السلطان : ٤٤ سلة من السكر ، وخمسة قدور من العسل الهندى ، وجرتين من الزيت الفاخر، و٤٠ حملاً ، و٥٠ زوجًا من الدجاج ، و٢٠ أوزة، وغرارتين من الأرز .

فى يوم الاثنين ١٠ مايو صحب موظفو السلطان دومينيكو إلى القلعة .كان يرتدى ثوبًا احتفاليًا ضمنه ثوب من القماش القصب ذى أكمام ضيقة ، عليه عباءة مطرزة بالذهب محلاة بفراء المسك. وعلى الرغم من أن حرارة شهر مايو كانت شديدة بلاشك كما أن ارتداء الفراء لم يكن مريحًا ، فإن هذا الفراء كان رمزًا غاليًا عالى المكانة بحيث كان يجب احتماله مهما كانت درجة الحرارة. وسار ركب الفريق عبر ميدان كبير كانت الخيل تتسابق حوله فى جميع الاتجاهات ، وصعدوا طريقًا منحدرًا قبل أن يترجلوا عند المدخل . وبعد أن صعدوا حوالى أربعين درجة قليلة الارتفاع (تنحنى مستديرة بشكل حاد لأغراض الدفاع) تقود من الباب الرئيسى ، وصلوا إلى البوابة الداخلية الأولى، ثم مروا عبر ثلاثة أفنية مليئة بالعبيد. وقد رحب بهم الأمير الرئيسى فى القلعة وهو جالس على مقعد منخفض ، يحيط به عبيده ، الذين كانوا يحدثون ضجة صاخبة بضرب الصاجات ، وعزف المزامير، وخشخشة الدفوف الصغيرة ودقات الدروع الحديدية . ومرت السفارة خلال ثلاث بوابات أخرى إلى خزانة السلاح ؛ حيث كان هناك حوالى خمسين رجلاً يعملون، وقفوا جميعًا لدى وصولهم. وأخيرًا وجدوا أنفسهم فى فناء واسع وجميل (ربما هو الحوش السلطانى الذى كان يستخدم فى الاحتفالات فى المجمع السلطانى فى الجزء الجنوبى من القلعة) .

فى ناحية كان يمكن مشاهدة السلطان جالسًا القرفصاء مثل الخياط، على مصطبة من القطيفة الخضراء تعلو أكثر من قدم من الأرض. وكانت عمامته الكبيرة التى يضعها فى المناسبات الرسمية مزدانة بقرنين طويلين، وكان يرتدى عباءة خضراء داكنة من وبر الجمل وتحتها ثوب كتانى أحمر مثل رداء الكاهن. وعلى جانبه الأيمن كان الغورى يضع سيفًا قصيرًا ودرعًا ، قيل إنهما لايفارقانه أبدًا. وعلى مسافة قصيرة إلى اليمين كان يقف حوالى عشرين رجلاً من أمراء الألوف جميعهم يرتدون ملابس الصيف البيضاء . وخلع السفير قبعته المخملية، وانحنى، ووضع يده على الأرض ، ثم وضعها على فمه وفيما بعد على رأسه، حسب عادات الاحترام لمثل هذا الملك القوى. وقد تكررت هذه الأفعال بعد خمس عشرة خطوة. وأخيرًا وصل منطقة (لم توجه إليه الدعوة لعبورها) مغطاة بسجادة ، على مسافة حوالى عشرين خطوة من

السلطان ، وإذ كرر احتراماته للمرة الثالثة سحب من صدره خطاباً من الدوق بنفسجى اللون والمرسوم البابوى من الذهب معلّق به، وهو مربوط بشرائط ذهبية ، ومكتوب بحروف من ذهب. وقبل أن يسلمه إلى أحد الوزراء ، قبل دومينيكو الرسالة وأمسكها فوق رأسه . وقام الوزير ، الذى قام بدور المترجم، بقراءة الرسالة وهو يمشى جيئة وذهاباً بينهما. وسأل السلطان عن صحة الدوج ، ورحب بالسفير ترحيباً حاراً . وعندما حصل دومينيكو على الإذن بالرحيل خطا أربع خطوات إلى الخلف ، ومرافقوه الأربعة يرفعون معطفه حتى لايتعثر به ويقع . وعلى سبيل التحذير، كتب زكريا أنه أمام السلطان يجب على المرء ألا «يبصق أو ينفخ أنفه ؛ لأن ذلك يعتبر إهانة كبيرة» ، وكان هناك ثمانية من ضاربى الطبول الذين يرتدون ملابس قرمزية، صحبوا السفارة إلى مصر، وآلاتهم مزينة برايات ذهبية جديدة، يدقون طبولهم على باب المسكن عند عودة السفير.

وكانت الهدايا الثمينة التى أحضرها دومينيكو تريڤيسان للسلطان قد أرسلت مسبقاً قبل حدوث اللقاء . ولما كانت قيمتها تتجاوز كثيراً قيمة الهدايا التى أعطيت إلى أمير الإسكندرية ؛ فقد كان من ضمنها ثمانية ثياب من القماش من الذهب، إما مطرزة وإما مشغولة فى مساحات من اللون القرمزى أو الأرجوانى (تتكلف ثلاثين دوكات لكل براكشيو braccio) وأربعة عشر ثوباً من المخمل من مختلف الألوان، وستة وعشرون ثوباً من الساتان وثوب من الدمشقى، وأحصى زكريا المجموع فكان مائة ثوب ، كذلك كانت هناك مائة وعشرون قطعة من فرو السمور فى حزم تضم كل حزمة ثلاثة جلود، وأربعمائة زوج من فراء القاقوم حلية لأطراف الثياب أضيفت إلى كوم الهدايا . ولابد أن الجبن الإيطالى كان محبوباً فى البلاط؛ لأن قائمة زكريا تضمنت خمسين قطعة جبن.

وعلى الرغم من أن هذه الهدايا كانت ثمينة ، فلاشك فى أن قيمتها كانت محسوبة بدقة ؛ إذ كان سلاطين المماليك معتادين على مثل هذه الهدايا ، وكانوا يكافئون أمراءهم وأعضاء الحريم الذين يرضونهم بطريقة مشابهة ، مثلما كانوا يعطونهم منزلة حقيقية .

وقد جمعت بعض نساء الحريم ثروة طائلة ؛ فعندما أُخرجت «اتفاق» ، التى كانت جارية فى الأصل صاحبة صوت جميل ، وتزوجت ثلاثة سلاطين ، على التوالى من القلعة، فى نهاية الأمر سنة ١٣٤٥م أخذت معها أربعين ثوبًا مرصعًا بالجواهر ، وستة عشر ثوبًا بحواشٍ من الحرير مطرزة بالفضة أو الذهب ، وثمانين طرحة تساوى كل منها ما بين خمسة آلاف وعشرين ألف درهم . وعندما حملت طفلاً كانت تكاليف ولادتها بغض النظر عن تكاليف الفراش ٩٥ ألف درهم، وكانت عمامتها التى تنافس جميع أزواجها السلاطين فى ترصيعها بالحجارة الكريمة، تساوى مائة ألف دينار حسبما قالت الشائعات .

وعندما عاد زكريا ويونس الترجمان الفيرونى إلى مكان الإقامة، تم إرسالهما مرة أخرى إلى القلعة لتسليم الهدايا شخصيًا إلى السلطان حسبما جرت العادة . وقد سبقهم دليل على درج إلى حجرة فاخرة فى جزء مختلف من المجمع السكنى، وجدها زكريا أكثر جمالاً من حجرة المجلس فى مجلس الشيوخ البندقى. أما العرش الذى وضعت فوقه سجادة فكان مصنوعًا من حجر السماق ومن الرخام والأحجار الكريمة. وكان قنصوه الغورى جالسًا على وسادة بالقرب من النافذة تطل على الحديقة المليئة بأشجار البرتقال، وقدماه عاريتان . وعندما قدم المترجم زكريا اقترب من السلطان حتى صار على بعد خطوتين فقط، وعندما نظر إليه وجد أنه «سيد ذو مظهر مهيب وفخور فى حوالى الستين من عمره، على الرغم من أن البعض قالوا إنه فى السبعين . وكانت تتخلل لحيته السوداء شعرات قليلة بيضاء، ووجهه البنى الذى لم يكن حليقًا بعناية ، وكان سمينًا بدينًا ». وعندما أحضرت الهدايا إليه، فحصها السلطان كلاً على حدة ، وعبر عن شكره من خلال المترجم ؛ لأن الهدايا الفاخرة أسرته بدرجة كبيرة ، بل أكبر من ذلك، على أية حال، كان ممنونًا بمظهر سعادة السفير، الذى أعجبه بوصفه رجلاً جادًا متوسط العمر، كما تلوح عليه دلائل الحكمة.

كانت أهداف زيارة دومينيكو تريفيسان إعطاء التأكيدات بأوثق الأيمان ، بأن يخفف من سلبيات تغرى بردى السفير المملوكى الخائن، وأن يعيد التفاوض حول

شروط تجارة الفلفل، وأن يهدئ من روع السلطان بشأن نقص السفن البندقية (كانت هناك فى العادة سبع سفن فى الإسكندرية وخمس فى بيروت) ، وبصفة خاصة يطلب إطلاق سراح الإيطاليين التعساء . ومن الصعب معرفة مدى ما كان معروفًا فى الخارج عن ماليات الدولة المملوكية التى تعانى الفقر، ولكن السلطان العجوز قايتباى كان قد ترك الخزائن خاوية بالفعل، وكان ذلك مع خسارة تجارة التوابل ، قد ساعد البنادقة الأذكياء على تخمين الموقف الحقيقى. ومن المؤكد أنه كان هناك كثير من السخط فى القاهرة حول أعمال الغورى فى نهب الأوقاف الخيرية للمؤسسات الدينية، التى كان سلاطين المماليك قد أقسموا من قبل على حمايتها ، وكذلك حلب وأية مؤسسات أخرى يكون هناك ظن بأنها كونت ممتلكات ورأس مال .

٦ - ٢ الزى القديم للسفير البندقى المرسل إلى بلاد الشام

فى أثناء إقامته التى امتدت ثلاثة أشهر تقريبًا ، حضر دومينيكو تريفيسان سبعة لقاءات فى القلعة. وكان كل اجتماع فى مكان مختلف . وكان السلطان الغورى مغرمًا بالزهور ، وأقام حديقة كبيرة مليئة بالأشجار العطرية والنباتات ذات الرائحة فى الميدان الذى بناه ليحل محل الميدان القديم فى قره ميدان. وعلى جانبه الغربى كانت الأجنحة والمبانى التى تطل على بركة ؛ حيث كان يعقد مجالس الدولة، وحيث احتفل سنة ١٥١٠م بالسنة الهجرية الجديدة، عندما نودى على كل أمير من الأمراء الكبار باسمه، وقُدمت إليه زهرة هدية.

كان قنصوه الغورى قبل ذلك جنديًا عاملاً، خدم عدة سنوات شاقة فى بلاد الشام على حدود الأناضول ، وتم اختياره سلطانًا بعد صراعات السلطة الدموية التى أعقبت وفاة قايتباى ، وقد أجبر على قبول العرش بحد السيف باجتماع الأمراء. كان رجلاً حاد الذهن ، متحفظًا، قاسيًا فى بعض الأحيان ، ولكنه كان فى الوقت نفسه عارفًا وحافظًا للشعر، بل كان ينظم بعض القصائد . وكان يستمتع بصحبة الشعراء الذين كان يدعوهم لتلاوة قصائدهم فى القلعة ، وكان ينعم بالحياة الطيبة فى ظل أشجار الياسمين ، يحيط به خدمه وغلمانه .

كان الاجتماع الثانى للسفير البندقى فى ميدان كبير ، من المرجح أنه كان الميدان، خارج القلعة يوم ١٢ مايو. وكان يمكن مشاهدة أعداد من الخيول تمرح فى أماكنها. وبسبب التهديد الذى كان يمثله الأتراك العثمانيون ، بدأت فترة مكثفة من التدريب العسكرى على يد الغورى لكى يعيد إحياء مهارات الفرسان المماليك الصارمة، التى كان بيبرس قد رقاها بقوة بالغة ، وقد أحس الغورى أن من المهم أن يستعرض علنًا قوة جنوده أمام السفراء الأجانب الذين يزورونه. وقدّر زكريا أن حديقة السلطان فى الميدان كانت بحجم الميدان نفسه . وفى وسطها كانت توجد منظرة من الخشب تغطيها النباتات الخضراء ، بها أعمدة من الحجارة على كل منها ربطت أقفاص للطيور المغردة ، وفى أحد الجوانب وفى الخلف ، كانت توجد مظلات تحمى من الشمس .

في هذا الوقت، كان قد تم تبادل المجاملات الأولية بين الدولتين ، وفي الاجتماع الثالث فيما أسماه زكريا «الميدان الكبير» خلع السلطان الأناقة. وفي عيد الصعود (٢٠ مايو) كان الغوري يلبس الأبيض(*)، ويضع عمامته الرسمية ، ويحيط به رجال البلاط، واستقبل دومينيكو تريفيسان استقبالاً احتفاليًا مع القنصل السكندري وصحبه من التجار . بينما كان دومينيكو يخاطب السلطان بصوت مرتفع بواسطة المترجم ، تم اقتياد القنصل في دمشق، بيترو زين إلى الداخل مرتديًا ملابس قرمزية ، وتلا ذلك مشادة كلامية غير سارة عندما اتهم الغوري القنصل بيترو علنًا بتورطه في المراسلات مع إسماعيل شاه الصفوي للإضرار بالمماليك. وطلب من البنادقة أن يقتلوا القنصل أو يبعدوه على الأقل . وتوسل السفير من أجل بيترو زين والتجار الآخرين ، وأصر على القول بأن حكومته لم يكن لها علم بالموضوع ، وأنه أكثر من ذلك لكي يسترضي السلطان الحانق ، فإنه يتحمل شخصيًا مسئولية السجين المخطئ. وكان زكريا بوصفه متفرجًا يبدو محبطًا من نقص دعم دومينيكو الواضح لبيترو زين، الذي كان يستخدم كبش فداء بشكل شديد الوضوح : «وهكذا ، وبكلمات أخرى كثيرة جدًا ، وهنا في حضرة مولانا السلطان ، وضع سعادة السفير السلاسل على رقبة سعادة القنصل». وبعد مناقشة مطولة على مدى حوالي ثلاث ساعات ركب البنادقة خيولهم ورحلوا، باستثناء التعيس بيترو زين الذي تم اقتياده إلى بيت المترجم، مكبلاً بالسلاسل حول عنقه وقدميه . وكتب زكريا «أما الذي سيحدث مع القنصل المذكور فأنا لا أعرفه ، ولكني آمل أن يكون حسنًا ... فما تم عمله كان لإرضاء السلطان ، حتى على الرغم من أن بيترو ربما لم يقترف خطأ» . وفي تحول عن هذه المقابلة غير الملائمة، رأى السفير تمساحًا حيًا وفهدًا ، كانا ملكًا لبيترو زين، حسب رواية زكريا .

وكان مقدرًا للقنصل المنحوس أن ينجو من هذه المحنة، وعاد بعد ذلك إلى البندقية ، وقد أغدقت عليه الجمهورية التشريف والتكريم. وفيما بعد ، أرسل

(*) كان لبس السلطان «البياض» - أي الملابس البيضاء - إيذانًا لرجال الدولة باستخدام الزي الصيفي، كما كان لبسه «الصوف» إيذانًا ببدء استخدام الزي الشتوي. (المترجم) .

إلى إستانبول vice ballo (سفيراً) حيث بقى سبع سنوات . ولابد أن حكومة البندقية قد كانت راضية تماماً عن جولته فى واجباته الوظيفية ؛ لأن الأوامر صدرت إليه بالعودة إلى تركيا سفيراً سنة ١٥٢٩م ، ولكنه هلك أثناء الرحلة قبل أن يتولى منصبه .

فى ٣٠ يونيو، وفى الاجتماع الخامس ، أُخذ السفير إلى بوابة خلف القلعة ، قبل الدخول إلى الميدان الذى حدث فيه الاجتماع الأول وعبر الغرفة التى كان السلطان قد تلقى هداياه البندقية الغالية فيها، وبعد أن صعد على درج صغير، مروا عبر حوالى ستة أبواب برونزية «محفورة بالحروف العربية ومطلية» ، تؤدى إلى غرفة ذهبية أخرى مشابهة للأولى. وكان الغورى فى انتظارهم جالساً على وسادة من المخمل القرمزى مستديرة الشكل. وفى الخارج ، كان يمكن مشاهدة بركة كبيرة من خلال النوافذ البرونزية المجاورة. وكانت النوافير تقذف إلى أعلى بالمياه المبردة ، على حين كانت أشجار البرتقال حول البركة ترمى بظلالها على النوافذ. وفى داخل الغرفة كانت هناك ثلاث أرائك صغيرة ، كانت إحداها مغطاة بالمخمل المطرَّز بشريط ذهبى غالى الثمن طوله حوالى براكشيو Braccio . وعلى امتداد الجانب الجنوبى من الحوش، كان الغورى قد بنى قصراً جديداً ، يتصل بقاعة الاستقبال فى مقر إقامة قايتباى سابقاً، مطلاً على القرافة (المدافن) إلى جنوب القلعة . كان القصر محاطاً بالأفنية والحدائق ، وبه حوض مستطيل ملىء بالمياه العذبة والأسماك الصغيرة . وعندما تمددت أبنية القلعة، زادت الحاجة إلى الماء. وفى سنة ١٥٠٨م ، أصلح الغورى قنوات المياه التى كان السلطان الناصر محمد قد أنشأها وبنى برجاً كبيراً متصلاً بالنهر عن طريق قناة.

عند هذه النقطة ، أُرسلت المزيد من الهدايا للسلطانة فى مسكنها بمبنى الحريم قرب المطابخ بالحوش الشمالى، وبحسب مراتب الأهمية إلى مختلف موظفى البلاط الذين كانوا يُسيِّرون الأمور ، ومرة أخرى سجل زكريا بأمانة كل تفاصيل التوزيع تحسباً لرقابة الحكومة فى وطنه .

وإجمالاً تلقى قنصوه الغورى أربع عشرة سفارة أجنبية في شهرى مايو ويونية سنة ١٥١٢م. ففى الخامس عشر من شهر يونيو، جاء سفير السلطان العثمانى، يحيط به ١٥٠ من الخيالة من إستانبول ، وساروا فى المدينة بثقة . وكان يرتدى معطفًا ذهبيًا على الطراز التركى alla turchesca وعمامة مزدانة فى قمتها بحزمة من الريش. وقبل اجتماعه كان السفير التركى قد أرسل مقدمًا ثلاثين سلة بدون مقابض تحتوى على أقمشة من الذهب والحرير وسجاجيد فاخرة وقسى وسروج الخيل. وكانت هناك أيضًا ثمانية فهود. وفى معيته جاء مبعوث ومعه حوالى ٢٠ فرسًا من ملك چورچيا المسيحى، والذى كانت أراضيه ، حسبما يقول زكريا باجانى ، تقع تجاه الهند على مسافة ستين يومًا سيرًا من القسطنطينية (إستانبول). وكان يرتدى ثيابًا ذهبية ، وكان غطاء رأسه مزينًا بفرو المسك. وقيل إنه كان قد أتى متوسلاً لإعادة فتح كنيسة القيامة التى كانت قد أغلقت فى وجه المسيحيين على مدى عامين.

وفى الجو المريح فى سكنه الخاص تحت ظلال حديقته الآمنة ، بدا أن السلطان كان مقتنعًا بإيمان البنادقة الجيد، وفى وسط مستقبل حافل بالتهديدات كانت صداقة البندقية تبدو مُربحة. وفيما بعد حظى السفير بلقاءين فى القلعة تتابعا بسرعة ، كان الأول يوم ٢٥ يوليو ، واستمر على مدى ساعتين «فى مكان أكثر جمالاً من جميع الأماكن الأخرى بين الحدائق والنافورات»، وكان اللقاء الثانى يوم ٢٦ يوليو فى الميدان مرة أخرى. وكان هذا اللقاء لأخذ الإذن النهائى بالرحيل . كان السفير ورفاقه فى أبهى زينتهم، فقد ارتدى دومينيكو مرة أخرى عباءته المحلاة بفراء المسك. وفى صحبته كان هناك اثنان من القناصل ، على الرغم من أن زكريا يذكر تحديداً قنصل الإسكندرية الذى جاء مع مارك أنطونيو ابن دومينيكو . وإكرامًا للوداع الأخير، دق ضاربو الطبول البنادقة الثمانية طبولهم فى حضور السلطان، وحسب رواية زكريا، ظلوا يدقون طبولهم أمام السفير أثناء عودته إلى مقر إقامته . وفى ذلك المساء ، جلس الجميع ، بمن فيهم جماعة التجار ، فى مأدبة يسليهم أربعة من الشباب ينشدون أغنيات قصيرة فى مديح دومينيكو . وفى ذلك اليوم السعيد، كان هناك المزيد من الفرح فى القاهرة؛ حيث أرسل السلطان اثنين من أمرائه لقطع السد فى الخليج احتفالاً بوفاء النيل، الذى ارتفع إلى

٢٠ ذراعًا ، حتى اندفعت المياه تجدد الحياة من خلال الترع، وأعادت ملء بحيرات النزهة والمتعة فى المدينة.

كان دومينيكو تريفيسان يُعتبر واحداً من أشهر البنادقة فى زمانه ، لأنه كان حكيمًا فى أساليب الدبلوماسية المخادعة وضرب بلد بآخر ، فقد قام ببعثات دبلوماسية مهمة إلى العواصم الأوروبية المهمة الرئيسية . أما زكريا باجاني ، سكرتيره ، فقد سجل أن راتب السفير أثناء سفارته إلى مصر كان ثلاثمائة دوكات شهريًا ، ودفعت له ألف دوكات مقدمًا . وحسب مكانته، عندما تم إرساله إلى الإسكندرية يوم ٢٢ يناير سنة ١٥١٢م ركب واحدة من أكبر السفن وهى Le galere bastarde ، التى تعدّ من أكبر سفن الأسطول البندقى، وكان طولها ١٥٠ قدمًا ، ومحجوزة لنقل أكثر الناس أهمية. وقد رسم تيتيان Titian صورة تصوره رجلاً وطنيًا كريمًا بارزًا ، وكان يمكن رؤيتها فى قاعة المجلس. وبعد حياة طويلة متميزة مات دومينيكو فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٥٣٥م ، وتم دفنه فى كنيسة سان فرنشسكو ديلافينى بالبندقية .

ولم يعشْ السلطان الغورى أكثر من أربع سنوات بعد زيارة دومينيكو . وعلى الرغم من أنه كان واعيًا تمامًا بضعف موقفه فقد شعر بأنه مضطر إلى الدخول فى حرب دفاعية ضد عدوان السلطان العثمانى سليم الأول الذى لم يكن ممكنًا منعه من توجيه ناظريه صوب مصر. وكان سليم الذى اعتلى العرش فى إستانبول سنة ١٥١٢م ينتهج سياسة حربية غير مترددة أكثر من سياسة أبيه بايزيد ، وكان قد تلقى بالفعل تقارير من جواسيسه حول طرق حرب الفرسان التى عفا عليها الزمن التى يتم استعراضها فى التدريبات التى تجرى فى الميدان بالقاهرة . وعلى الرغم من أن الغورى حثّ على استخدام المدافع والبنادق ، فإن العقبة التى تمثلت فى التزام فرق المماليك بالأساليب المحافظة كانت تقف على النقيض من فعالية الطرق الحربية الحديثة التى يستخدمها الأتراك . كانت قوات الغورى أقل كثيرًا فى أعدادها من قوات العثمانيين ، وكانت قد ضعفت بالفعل بسبب الخيانة والفُرقة . وفى معركة مرج دابق بالقرب من حلب سنة ١٥١٦م، سقط السلطان المسن من فوق فرسه ، وقيل إنه مات

تحت سنابك الخيل، على الرغم من أنه لم يتم العثور على جثته أبدًا. وسرعان ما حلت الهزيمة بجيشه، وقد حققت المدافع العثمانية والبنادق التى يطلقها المشاة تفوقًا ، وقتلت العديد من الفرسان المماليك الذين مهما كانت شجاعتهم لم تكن لهم فرصة فى مواجهتها . وشتت الجنود العثمانيون المماليك بعد أن قتلوا الكثير منهم، بما فى ذلك قائدهم وحكام الولايات . وقد سلمت خزانة السلطان الغورى الضخمة من الذهب والجواهر، التى كانت قيمتها تزيد على مليون دينار، وكان قد حملها على خمسين جملاً إلى أرض المعركة إلى سليم الذى استغلها فى الدفع لقواته. وفى الوقت نفسه اختار الأمراء فى القاهرة بسرعة الأمير طومانباى ، ابن أخت الغورى، سلطانًا جديدًا ، والذى لم يكن بوسعه شىء وإن كان يعرف أن المستقبل الكئيب أمامه. وعندما انتهى سليم من فتح بلاد الشام تقدم عبر شمال سيناء ليصل إلى بركة الحاج يوم ٢٢ يناير سنة ١٥١٧م ، وهى تقع شمال القاهرة ، وجرت معركة الريدانية التى قضت على مصير السلطان. وحارب طومانباى بشجاعة ، ولكنه أجبر على الهرب. وبعد معركة كارثية فى الجيزة يوم ٢ أبريل ١٥١٧م هرب مرة أخرى، وخانه من سُمى حليفه الذى كان قد أقسم على إخفائه.

وعاش سليم وفق اسمه الذى لقبه العامة (*) «المؤذى» : فالمؤرخ ابن إياس الذى رآه بالقاهرة بعد الغزو وصفه بأنه « ... نرىّ اللون، حليق الذقن ، وافر الأنف ، واسع العينين ، قصير القامة ، فى ظهره حنية ، وعلى رأسه عمامة صغيرة، ويلبس قفطانًا مخملاً، وعنده خفة ووهج، كثير التلفت إذا ركب الفرس، وقيل إن له من العمر نحو أربعين سنة أو دون ذلك، وليس له نظام يُعرف مثل نظم الملوك السالفة غير أنه سيئ الخلق ، سفاك للدماء، شديد الغضب ...».

(*) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٥ ص١٥٠ . ولم يذكر ابن إياس صراحة أنه شاهده إنما بدأ الوصف بكلمة «قيل» (المترجم) .

أما طومانباى الذى كان الناس قد نادوا به سلطانًا ، فقد قبض عليه سليم ثم أخذ فيما بعد إلى بولاق على جمل عجوز يسبقه حوالى أربعمائة من حاملى البنادق العثمانيين. وكان يحيى الجماهير على جانبى الطريق حتى وصل باب زويلة حتى أنزل من فوق الجمل وتم فك قيوده. وإذْ أحاط الحراس المسلحون بطومانباى وسيوفهم مسلولة ، وعندما عرف أنه محكوم عليه بالشنق، طلب من الناس أن يقرأوا الفاتحة على روحه، قبل أن يطلب من المشاعلى أن يقوم بشُغله ويضع المشنقة حول رقبته . وقيل إن الحبل انقطع مرتين وسقط على الأرض، وتم شنقه فى المحاولة الثالثة . وعندما صعدت روحه صاح الناس صيحة عظيمة وأسفوا عليه كثيراً.

وقد أثارت قصة موت طومانباى الكثير من التعاطف فى أوروبا ؛ لأنه كان تجليًا آخر لعدوانية الأتراك المكروهين . وقد وصف الحادث كوردليير أندريه ثيڤير Cordelier André Thever الأنجوليمى (١٥١٦-١٥٩٢م) ، الذى زار مصر سنة ١٥٤٩م . كان جغرافيًا ملكيًا بارزًا فى البلاط الفرنسى، قد سافر كثيراً وزار رونسارد Ronsard الذى قارنه بمسافر إلى چاسون ، وكتب أندريه عدة كتب، كان أحدها Cosmographie Universelle، الذى نشر فى باريس سنة ١٥٨٤م. وقد شعر بتعاطف شديد مع السلطان التعس لدرجة أنه رفعه إلى مرتبة أعظم ملوك المسلمين، وساواه بصلاح الدين وغيره من الحكام المبجلين ، وروايته الخاصة عن طومانباى تضمنت تصويراً بالحفر على الخشب للسلطان التعس مربوطًا على جمل فى طريقه إلى القاهرة، وعمامته مرفوعة عاليًا على حربة. وكتب عن ثوب السلطان الأخضر الممزق وكيف سخروا منه عندما رُبط إلى عمود على مدى ستة أيام على مشنقة . وقد أضاف أندريه مزيداً من الزخارف على رواية ابن إياس، وقال إن قيام الناس بإثارة الشغب ، أهاج غضب سليم جدًا لدرجة أنه فى يوم ١٣ أبريل سنة ١٥١٧م، أُخذ قايتباى إلى دكان جزار حيث تذبح الماشية، وأنزلوه من على الجمل ثم خنقوه . ومن المعلوم أن رأسه علقت على باب زويلة مثل عامة المجرمين(*).

(*) هناك رؤوس كثيرة لأمراء وأعداء ومبعوثين تم تعليقها على باب زويلة ، ولم يكن أصحابها من عامة المجرمين . ولكن المؤرخ ابن إياس استنكر ذلك؛ لأنها كانت المرة الأولى التى تعلق فيها رأس سلطان على باب زويلة، معتبرًا أن ذلك كان من سوء طالع السلطان العثمانى سليم شاه . (المترجم) .

ووفقًا لرواية أندريا ، فإن العثمانيين قتلوا ثمانية وعشرين ألفًا من الناس فى القاهرة، على حين رمى النساء والأطفال مع العمال الحجارة وغيرها من الأشياء من النوافذ ومن أعالى البيوت وسال الدم فى الشوارع. وخلال أيام ثلاثة من النهب سلب الجنود منازل الأمراء، كما نهبوا الشون والأهراء فى مصر القديمة وبولاق حتى أحاط الإنكشارية بالمدينة لردعهم. وقد عانى أهل القاهرة صعوبات جمة بعد الغزو، ليس أقلها تخفيض قيمة العملة والتدخل السافر فى قوانينهم المدنية. وبعد حكم دام أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان، كان الناس قد اعتادوا على المماليك ، على الرغم من عيوبهم ، ووجدوا نظام الحكم الجديد أسوأ كثيراً. وعلى مدى القرون القليلة التالية ، نزلت مصر إلى وضع الولاية التى يحكمها ولاة أتراك متتابعون . وكان ذلك إنجازًا جيدًا ؛ حيث إن الأرض الخصبة فى الوجه البحرى التى يزرع فيها القمح، وقصب السكر، والأرز ، والقطن ، وجميع أنواع الفاكهة ، والتى تدر أيضًا ضرائب وفيرة ، صارت مصدراً رئيسيًا للثروة التى أسهمت فى إثراء العاصمة العثمانية النامية إستانبول.

وعلى الرغم من أن القلعة بقيت حصنًا جيد الحراسة بعد قدوم الأتراك ، فإن الزينة الفاخرة اختفت . وقد جُردت القصور والمساجد من كثير من كنوزها باعتبارها جزءًا من غنائم السلطان العثمانى ، وأخذت إلى إستانبول . وفى وقت الاضطراب ذلك ذُبح الكثير من المماليك السلطانية. وبدلاً من سلاطين المماليك، اتخذ أحد الباشوات مسكنه فى قصر السلطان الغورى الراحل فى الحوش الذى صار مسكنًا لآلاف من الموظفين الحكوميين. وقد تمركزت قوة عثمانية كبيرة قوامها ثلاثة عشر ألف جندى فى البلاد ، وكانت أكبر وأهم مجموعة من الجنود هم الإنكشارية، الجنود العبيد من الرعايا المسيحيين الأتراك ، الذين هم ضريبة عبيد تؤخذ من البلقان وغيرها .

وكان الباشا يغذى منافساتهم ومشاحناتهم؛ لأنه كان يخشى من أن تصبح فرقة منهم أقوى مما يجب. وبالإضافة إلى هذا الجيش الكبير، تمت تقوية تحصينات القلعة وأسوارها من أجل الدفاع. وفى الوقت نفسه ، فإن أولئك المماليك الذين نجوا من

الهجوم تقاعدوا وعاشوا مع رجالهم فى قصور حصينة غرب ميدان الرميلة. وقد منح كبار الأمراء لقب «بك» ، وبعد أن أقسموا على طاعة السلطان التركى، منحوا مناصب فى الحكومة ، وشغلوا مناصب مهمة . وبعد سنة ١٥٦٦م ، عندما بدأ الحكم التركى القاسى يلين، عاد المماليك مرة أخرى ليكونوا سلطة قوية فى مصر، فقد استمروا فى تدعيم جيوشهم الخاصة عالية التدريب بشراء المماليك الچراكسة ، ولأنهم كانوا يحتقرون الأهالى المصريين، فقد تزاوجوا فقط من الجوارى القوقازيات. وعلى الرغم من أنهم انغمسوا فى صراعات سلطة عنيفة فيما بينهم وضد العثمانيين المحتلين، عمل المماليك على الحفاظ على وجودهم القوى. وأخيراً ، فى سنة ١٨١١م ذبحوا جميعًا ، ماعدا واحداً، بقسوة على يد محمد على باشا أثناء نزولهم من القلعة بعد وليمة أولها لهم .

هوامش الفصل السادس

General: Winter, 'Ottoman Occupation', pp. 493-503 (Tuman Bay as sultan, his defeat and death, pp. 501-504); Holt, Age of the Crusades, pp. 192-206; Lapidus, Muslim Cities in the Late Middle Ages, pp. 225-46; Garcin, 'The Regime of the Circassian Mamluks' (sultanate of Qansuh al-Ghawri, pp. 295-97); Petry, 'Late Mamluk Military Institution and Innovation' (Qansuh al-Ghawri's embassies, p. 464; methods of gaining revenue, attempts to modernise army, pp. 474-89).Venetian embassies: Wansburgh, 'A Mamluk Ambassador to Venice in 913/1507', pp. 503-29; Prescot, Once to Sinai, pp. 133-37; Barozzi (ed.), Zaccaria Pagani,Viaggio di Domenico Trevisan, pp. 19-35; Lestringant (ed. and introd.). Voyagesen Egypte (Andre Thevet's account of tribulations of 'Prinse de Tomombey'[Sultan Tuman Bay] in Cosmographie Vniverselle, II, pp. 175-77).

الفصل السابع

استكشاف الأهرامات وحقل المومياوات

كتب بليني الكبير (٢٣-٧٩م)، والذى كان المتعلمون فى الدنيا كلها يقرأون مؤلفاته ، فى مصطلحات مدمرة يقول إن الأهرامات ليست سوى قطع عبثية تافهة للتباهى من جانب ملوك مصر القدامى (Natural History 36.16) ، ولكن قبل وصول مد المؤلفين الكلاسيكيين إلى مكتبات العلماء الأوروبيين ساد الظن بأن الأهرامات كانت مخازن غلال يوسف عليه السلام التى استخدمها لتخزين الغلال إبان السنوات السبع العجاف . وبهذه الصفة كانت الأهرامات أشياء تستحق التبجيل ، وكانت الكنيسة (الكاثوليكية فى أوروبا) تمنح الغفران للحجاج الذين يزورونها على نحو أشبه بنظام النقاط . هذا الاعتقاد الدينى، الذى آمن به سير چون ماندڤيل تماماً ، كان قد تبخر أو كاد عند نهاية القرن السادس عشر، عندما عُرف أن الأهرامات كانت مقابر الفراعنة .

وقليلة هى الآثار التى تم مسحها وقياسها فى مصر، أياً كان السبب، بهذه الكثرة ويمثل هذه العناية، مثل هرم خوفو الأكبر . ففى سنة ١٣٨٤م ، تعجب سيمون سيجولى ، وأصدقاؤه التوسكانيون: ليوناردو دى فريسكوبالدى وجيورجيو جوتشى ، من حكمة يوسف فى بناء مثل هذا المخزن الضخم للغلال: «الاتساع عند القاعدة ، حسبما قسناه بالأذرع ، لكل جانب ١٤٠ ذراعاً، ولكل هرم أربعة جوانب ، كانت الغلال توضع داخله، فتخيل فقط الكمية الكبيرة جداً التى يستوعبها هذا الداخل». ولم يقل

سيمون ما إذا كان قد تسلق قمة الهرم، أو غامر بالدخول فى جوفه . على الرغم من أنه حدث فى زمانه أن فتحت فتحة غير متقنة ، أسفل قليلاً من المدخل الأصلى. ووفقًا للمؤرخين المسلمين، أمر الخليفة المأمون بن هارون الرشيد، فى أواخر القرن التاسع الميلادى، بإحداث هذه الفتحة الموصلة إلى الداخل ؛ لأنه كان يشتهى الحصول على الكنز الوهمى الذى دارت الشائعات بأنه كان مخبوءًا فى الداخل . وبعد أكثر من مائة سنة على ذهاب التوسكانيين إلى هناك ، أظهر الأب فرنشسكو سوريانو ، من دير جبل صهيون فى القدس، أنه أكثر جسارة ، لم يكشف عن تاريخ زيارته للأهرام ، ولكن من المحتمل أنها حدثت عندما كان بالقاهرة لأداء الأعمال سنة ١٤٩٨م عندما تعرف بالملوك تغرى بردى (الذى يسميه تجرى باردين Tagrebardin أو توبولينو Tupolino)، والذى ذهب فيما بعد إلى البندقية مبعوثًا لقنصوه الغورى:

«تسلقت إلى قمة الهرم الكبير، وهو مربع وكل جانب منه قدر رمية قوس. وهو على شكل ماسة، مثلما كانت مركب نوح، وداخله مبنى بالحجارة والجير، ولكن الخارج مكسو بحجارة البازلت السميكة الصلبة قدرها ثلاثة أذرع مربعة، ملتصقة ببعضها ، مثل بوابة ڤياڤيتشيا فى بيروجيا Via Vecchia in Perugia، بفن عجيب بدون جير، وهى ملتصقة جيداً لدرجة أنها من الأسفل إلى القمة تشكل سلالم درج. وهناك على القمة حجر يغلق المبنى كله وحجمه كبير لدرجة أننى تعجبت كيف أمكن رفعه إلى مثل هذا الارتفاع؛ لأنه سبعة أذرع مربعة، وسمكه ذراع واحد، وكان النزول متعبًا أكثر من الصعود...

«يمكنك دخول هذا الهرم العظيم من باب صغير ، ثم هناك فى الداخل باب آخر يمكن دخوله بصعوبة بإضاءة ، ثم هناك ممر يؤدى إلى مقبرة تم عملها بشكل عجيب للغاية من الرخام الفاخر لدرجة أنها تدهش الجميع ، وهى فى غرفة مكسوة بأفخر أنواع الرخام من الأعمال القديمة وحولها النقوش من كل جانب . ويمكنك أن تدور حول المقبرة، ومن أجل هذه المقبرة أقيم هذا البناء».

وسواء دخل فرنشسكو الهرم الكبير حقًا أم لا ، فهو أمر غير مؤكد ؛ إذ إن المقبرة الرخامية التى يصورها مكسوة كلها بالكتابة ليست موجودة فى الحقيقة ، ولذلك فربما جاء وصفه عن طريق السماع. وكان كثير من رحالة تلك الفترة يصفون الجرانيت بأنه رخام.

وفى سنة ١٥٤٧م ، وبعد بضعة أيام أمضاها فى القاهرة، غادرها بيير بيلون دى مانس ، بصحبة مسيو دى فوميه ومعهم صنجق (موظف عثمانى تحت إمرة الباشا) وعدد من السباهية (الفرسان العثمانيين)، وكل رفاقه الذين معه . وعبرت المجموعة النيل بالقوارب ، بعضها بالشراع والبعض الآخر بالمجاذيف ، ومروا بالقرب من جزيرة الروضة قبالة القاهرة . وعندما وصلوا إلى الضفة الغربية ، ساروا على امتداد ممر طويل مزود بعقود حجرية ، ومعابر خشبية صغيرة ينتهى إلى قرب قرية أبوصير ؛ حيث كان النيل قد كسر عقود جسر حجرى يعبر فوق خندق .

وخلف القرية كان هناك ممر آخر طويل ينتهى فى الصحراء بالأهرامات ، ولأن الفيضان كان عاليًا ، كان الخندق قد فاض مكونًا بحيرة . وواجه الفريق بعض الصعوبة فى عبور البركة، وأولئك الذين كانوا يمتطون الدواب خاضوا فيها بسهولة متتبعين خطى الدليل، ولكن المشاة اضطروا إلى انتظار قارب. وهناك آخرون خلعوا ملابسهم ، وقادوا ركائبهم بالحبال وهم يخوضون فى الماء حتى الإبط. وعندما وصلوا الأرض الجافة ، دلهم بعض المسلمين فى القرية التالية على الممر الصاعد إلى الأهرام. وعندما وصلوا «أول الأهرام الكبيرة وأجملها» على تل صخرى، قاس بيير أبعاده ، ولما صعد إلى قمته شاهد بوضوح مدينة القاهرة بأسرها وإلى الشمال ريف مصر المتاخم كأنه بحر عظيم . وإلى الجنوب باتجاه الحبشة لم يكن هناك سوى الرمال الجرداء ، وعندما فحص الجانب الشمالى وجد أنه أكثر دمارًا من الجوانب الأخرى ، وخمَّن أن الرطوبة ، وكذلك ضباب الليل من النيل الذى تنقله ريح الشمال، قد ألحقت به ضررًا جسيمًا .
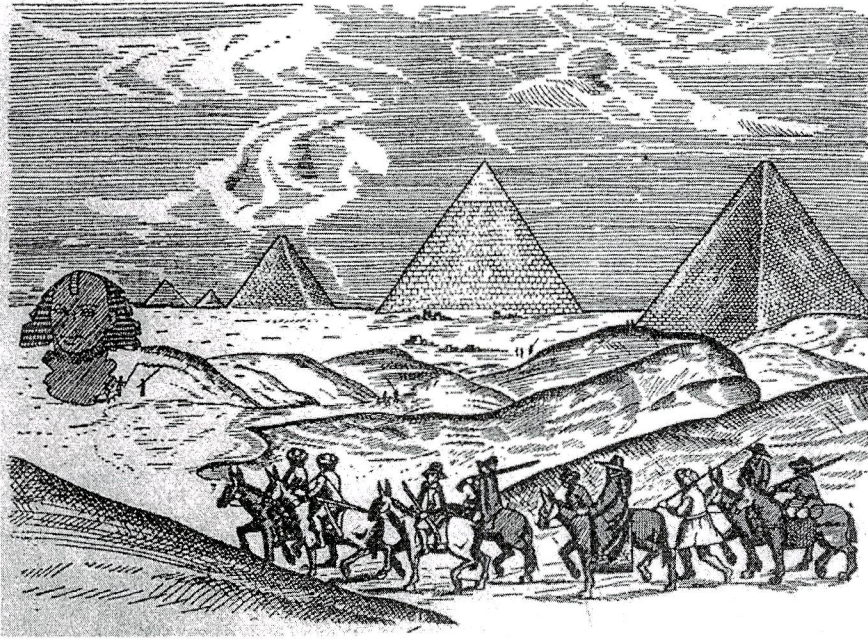
٧-١ نزهة إلى الأهرام

ودخل الفريق داخل الهرم من خلال «فتحة سفلى» . ولم يتمكنوا سوى من الدخول واحداً واحداً ، وكل منهم يمسك شمعة مضاءة . ولكى يتحايلوا على المرور كان من الضرورى أن يتقدموا ممددين على بطونهم ، زاحفين مثل الثعابين ، ويتحركون بصعوبة . وبعد أن وصلوا إلى جزء أوسع ، اتجهوا يميناً ، واكتشفوا بهواً مربعًا مبنيًا، به ثلمات جيدة تصعد من أسفل إلى أعلى ؛ حيث يمكن للرجل أن يستمر واقفًا، ووصف بيير البهو بأنه فجوة واسعة عالية، ليس به درج للصعود ، مبلط بحجارة واسعة كبيرة ملمعة جداً وزلقة . والأرجح أن هذا البهو كان هو البهو الكبير، الذى كانت على كلا جانبيه منحدرات ذات سطح مستو ارتفاعها قدمان وعرضها قدم وثمانى بوصات . وقال بيير إنهم تشبثوا بالسياج على كل جانب . ووصلوا إلى حجرة مربعة أنيقة كان مقاسها فى تقديره ست خطوات طولاً وأربع خطوات اتساعًا ، وما بين أربعة إلى ستة taise ارتفاعًا (يساوى الـ taise أكثر قليلاً من ستة أقدام) . وفى داخلها وجدوا تابوتًا

حجريًا ، وصفه بيير بأنه من الرخام الأسود منحوت من قطعة واحدة مثل الصندوق ، خمَّن أن طوله اثنا عشر قدمًا ، وارتفاعه خمسة أقدام ومثلها فى العرض، بدون غطاء ، ولم يتردد بيير فى أن يسميه ضريح ملك مصر الذى بنى الهرم من أجله .

وجرُّوا خطواتهم إلى أسفل عبر البهو الكبير ، وما إن خرجوا منه حتى كان عليهم أن يتجهوا شمالاً ؛ حيث وجدوا بئرا يكاد يكون مليئًا بالأحجار . وكان بيير قد قرأ تقارير عن الهرم كتبها المؤرخون الإغريق مثل هيرودوت ، وديودوروس ، «وكذلك بلينى الذى كتب باللاتينية ». وبصفة خاصة، تكلم بلينى عن عمق البئر، وقرر أن الماء المأخوذ منها كان يستخدم فى قطع الأحجار ولكى تنعش العمال. وقد واجه بيير بعض الخفافيش تجوس فى الممر المظلم ، ولاحظ أنها تختلف تمامًا عن الخفافيش فى فرنسا، التى لها ذيول ليست أطول من أجنحتها . أما الخفافيش التى كانت فى الهرم فكانت ذيولها أربعة أصابع طولاً .

وفيما عدا اكتشاف أن ارتفاع نفق الدخول متعبٌ ، لم يبد بيير أى خوف من تجربته ، ولكن فى سنة ١٥٨٨م، وجد صمويل كيشيل من أولم، والذى كان قد تسلق حول آبار الإسكندرية القديمة تحت الأرض، أن البعثة تثير الأعصاب. وكان قد تم اقتراح الزيارة يوم ٢ يوليو من جانب ألمانى عجوز مسلم، وكان من الإنكشارية عاش فى مصر ثلاثين سنة ، وكان قد أعاد صمويل إلى سكنه ؛ حيث لحق بهما ثلاثة آخرون . وشربوا كأسًا سويًا ، وصاروا سعداء مبتهجين . وحتى مع هذا ، أدرك صمويل أنه كان من الضرورى مراعاة الحذر ؛ حيث لايجب على المرء أن يثق فى معارفه أكثر مما يجب ، وفى أثناء الحديث ظهر أن صمويل كان يرغب تمامًا فى مشاهدة الأهرام، على الرغم من أنه تلقى تحذيرات من الأخطار التى يمثلها العرب المحليون ، وأخبره أنه لايمكنه الذهاب دونما سلاح وبدون رفاق . وفيما بينه وبين نفسه كان يخشى تكلفة الرحلة ؛ لأنه لم يكن يملك ما يكفى من مال لدفع أجور ثلاثة أو أربعة من الإنكشارية لمصاحبته. وقد عرض عليه رجل آخر اسمه ميخائيل موللر، اعتنق الإسلام، وهو جوهرى من ستراسبورج تزوج مسيحية يونانية، وقد تحول إلى «تركى» قبل ثلاث سنوات، عرض عليه أن يصحبه وحده . حدث هذا على الرغم من أنه كان قد تعرض لهجوم من بعض العرب فى زيارة سابقة
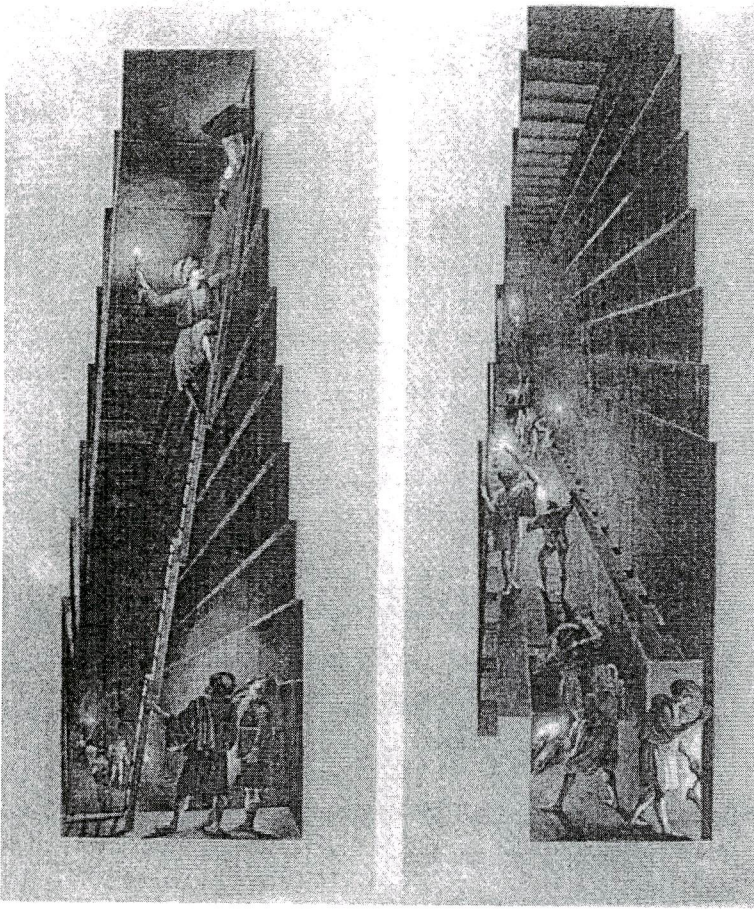
٧-٢ داخل البهو الكبير «الهرم الأول والعظيم»

إلى الأهرام مع بعض النبلاء الألمان، وعادت المجموعة فى أسوأ حال ؛ إذ تم تجريد ميخائيل من ملابسه تماماً ، أمَّا الإنكشارى العجوز ، مضيف صمويل ، والذى كان بصحبتهم فقد أصابه جرح بالغ تسبب فى شلل ذراعه . وبسبب هذه الحوادث المؤسفة لم تكن لدى الرجل العجوز رغبة فى تكرار الرحلة ، ولكنهم شجعوه على أن يكلم مكارياً لديه حماران لكى يحضر صباح اليوم التالى، ودعا ميخائيل وصمويل لقضاء الليل فى منزله .

فى اليوم التالى (٣ يوليو) بدأ صمويل ورفيقه رحلتهما فى وقت مناسب ؛ إذ إن الشمس تسطع مبكرًا فى ذلك الوقت من السنة ، ، واحتاط كل منهما بارتداء قميص وسروال وسترة قديمة ممزقة تافهة القيمة . وبدلاً من العمامة ارتدى ميخائيل غطاء رأس رماديًا مدببًا ؛ لأنهما كانا يأملان فى الظهور بمظهر النسّاك المسيحيين المساكين حتى لايهاجمهما أحد. ولم يكن النيل قد فاض بعد ، ولذلك فإن الصديقين ، اللذين لم تواجههما مشكلة الفيضان ، تمكنا من السير مسافة ستة أميال تقريبًا إلى الأهرام ، وفى الطريق كان العرب العاملون فى حقول قصب السكر يحيونهما ويسألون عن طريقهما ، وأشار الرفيقان إلى الأهرام التى لم تكن بعيدة أمامهما، وكان يمكن لميخائيل أن يتحدث التركية جيدًا ، ولكنه لم يكن يعرف العربية، ولم يحدث سوى فيما بعد أن أخبرهم المكارى، من خلال مترجم ، بأنه لايجب عليهم أن يمضوا ؛ لأن المكان غاص باللصوص ، والأهم أن رفيق صمويل يجب أن يكف عن التصرف كما لو كان تركيًا؛ لأن العرب كانوا يعتبرون الأتراك ألد أعدائهم ، وهو شىء لاشك فى أنه يمكن أن يكلفهم حياتهم. وأعطى صمويل أحد العرب بعض الخبز على الرغم من أنه لم يكن راغبًا فى قبوله . وكان خائفًا أيضًا من أن يفتشوهم ، على الرغم من أنه لم يكن يمتلك سوى عشر قطع من النقود، حجز منها قطعتين لعبور النيل فى رحلة العودة . وربما كانوا سيتعرضون للضرب المبرح ؛ لأنهم بصرف النظر عن الخبز، جلبوا معهم فخذًا كبيرًا من لحم الخنزير ، وهو ما كانوا ممنوعين تمامًا من أكله . وفهم صمويل أن العربى كان يريد نقودًا ؛ لأنه قال «إنت فلوس؟» وفى الحال وضع صمويل قطعتى نقود فى يد الرجل، ولم يكن هذا كافيًا ، ولذلك اضطر صمويل أن يعطيه قطعتين أخريين؛ حيث استدعى العربى اثنين من رفاقه ، يحمل كل منهما حربة ورمحًا، ورافقاهما إلى مقصدهما، وبقى صمويل متأخرًا قليلا ؛ حيث أخذ لحم الخنزير ودفنه فى الرمال. وقبل الوصول إلى الهرم تم إجبارهما على تسليم كل المؤن التى كانوا قد أحضراها لنفسيهما.

وبدأت متاعب صمويل الحقيقية عند اسكتشاف داخل الهرم. فبينما انتظر العرب بالخارج دخل الاثنان الفجوة ، وهما ينحنيان تمامًا ، ويحملان المشاعل المضاءة . وبعد

أن نزلا مسافة قصيرة ، وجدا فتحة مظلمة أخرى إلى اليمين صاعدة إلى أعلى قليلاً؛ حيث كان عليهما أن ينحنيا إلى أسفل أكثر من ذى قبل. وطار عدد كبير من الخفافيش فوق رأس صمويل ، وفاته فى هذا الممر رؤية حجر «من الرخام» بالقرب من فتحة تؤدى إلى ممر آخر (هل هو البهو الكبير؟) حيث كان من السهل الصعود إلى القمة، ولكن صمويل الذى اعتمد على رفيقه (الذى أخبره خطأ بأنه يعرف الطريق) ، ضل الطريق ، وتقهقرا بخطواتهما داخل الممر واستمرا أكثر انحناء فيه . وفى النهاية كان الطريق حجريًا ومُهدمًا بحيث زحفا على بطنهما مسافة كبيرة . وفى نهاية الأمر ، وبعد طريق طويل ، أصبح النفق مليئًا بالأحجار والرمل والغبار بحيث صار من المستحيل المضى قدمًا ، وعلى اليمين وجدا فتحة ، حفرة صغيرة بحيث يمكنهما الوقوف بالكاد . وبدأ الصعود فى الحفرة التى كانت مربعة فى الداخل مثل المدخنة، وكانت ترتفع مباشرة مثل الحائط ، وخمَّن صمويل أنها قطعت فى الصخر ، وكانت هناك فتحات صغيرة فى الجوانب استطاعا أن يشبكا أقدامهما بها من خطوة إلى أخرى فى حرص. وقد خلع الصديقان ملابسهما ، ولم يبق سوى القميصين ؛ لأنه كان من المستحيل التسلق بالملابس والأحذية، وفى مكانين على وجه الخصوص وجد صمويل الفتحة ضيقة بحيث لم يمكنه التقدم أو التقهقر . وكان من الصعب أن يستمرا فى الإمساك، ولكنهما عملا على الاستمرار فى الصعود بالتمسك فى إحدى الفتحات بإحدى القدمين مع مساندة بعضهما بالظهر والردفين. وقد تسبب الجهد الضخم الذى بذل فى إرهاق صمويل . وكان هذا راجعًا أيضًا فى جزء منه إلى الحرارة التى كانت عالية جدًا فى ذلك الوقت من السنة، ونقص الهواء والضوء ، بالإضافة إلى حقيقة أن «المدخنة» كانت مليئة بالغبار ورمال الصحراء . وقد زادت مشكلاتهما ؛ لأنهما كان مضطرين إلى الإمساك بمشاعل موقدة ينبعث منها الدخان . وكان صمويل الواثق من أن المكان لم يدخله أحد منذ سنوات لاتحصى، مدركًا أنه إذا أفلتت قدم أول من يتسلق إلى أعلى، فإنه يمكن أن يُسقط رفيقه الذى يتبعه ، ويمكن أن يرتطما سويًا فى القاع .

بعد نصف قرن ، لم يكن چون جريفز، أستاذ الفلك فى أوكسفورد ليتعاطف كثيراً مع هذه العشوائية فى التجول. ففى سنة ١٦٣٩م انطلق من الإسكندرية مع أحد البنادقة ، وهو تيتو ليڤيو بوراتينى Tito Livio Burattini ، «وهو شاب مخلص» ، إلى القاهرة الكبيرة لكى يقوم بمسح منهجى دقيق للممرات الداخلية فى الهرم الأول، ولكى يعلم قراءه بطريقته العلمية وحمل معه :

«مقياس (منقلة) عشرة أقدام مقسمة بأكبر قدر من الدقة إلى جانب بعض الأدوات الأخرى لكشف الحقيقة كاملة... سوف أنظر الآن إلى الداخل ، وأقود القارئ إلى عدة مساحات وأقسام بداخله : وإذا كان الأقدمون قد سكتوا عنها ؛ فإننا يجب أن نعزوه أساسًا إلى أمر مبجل وهائل ، يمتزج بالخرافة ، وهو عدم التجرؤ على دخول غرف الموت هذه، وهو ما أقره الدين والتقوى من أجل راحة الموتى وهدوئهم».

وعمل جريڤز رسمًا تخطيطيًا يبين الجوانب ذات الحفر على العمود الأسطوانى الذى يحتمل أن يكون صمويل قد تسلقه ، وقال إنه هو البئر المستدير الذى ذكره بلينى : «ويتجاوز قطره ثلاثة أقدام ... ويكون النزول داخله بتثبيت الأيدى والأقدام فى فراغات صغيرة مفتوحة محفورة فى الجوانب الداخلية كل منها فى مقابل الأخرى، فى مستوى متعامد». وقارنه جريڤز بنمط الصعود إلى آبار الإسكندرية ، التى قدم وصفًا لها. وإذ قاس العمق طوليًا، قدر أن عمقها مائتان وستة أقدام، وقذف بها مادة قابلة للاحتراق أشعلها ، هذا العمود الأسطوانى الذى يكاد يكون من المؤكد أن صمويل وميخائيل موللر قد تسلقاه ، ربما كان هو الذى استخدم طريقًا لهروب العمال بعد جنازة خوفو عندما تم إغلاق البهو الكبير.

وعندما وصل صمويل وصديقه إلى قمة العمود الأسطوانى أخيرًا ، خرجا من خلال فتحة صغيرة أسفل ممر طويل (ربما كان البهو الكبير) . وسارا فى ممر أفقى آخر ،
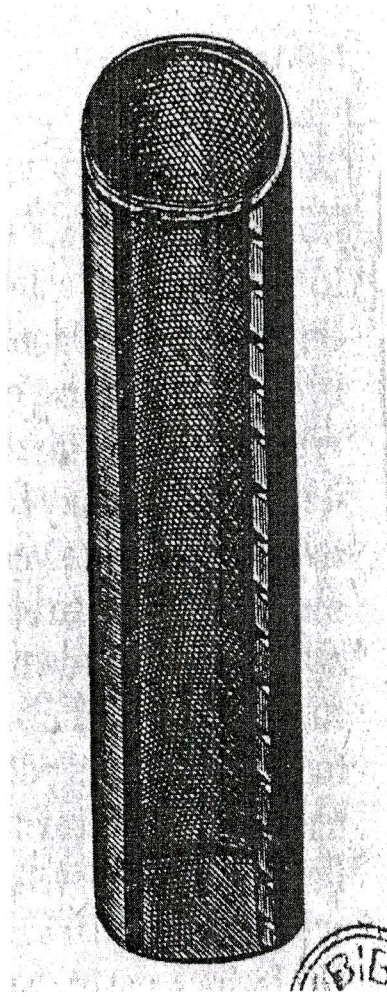
٣-٧ رسم تخطيطى لما يسمى «البئر» الذى ذكره بلينى

وصلا قاعة كبيرة مظلمة مثل حجرة ، قال إنها مكسوة كلها بالرخام الأحمر الفاخر. ومن الممكن أن صمويل كان يشير إلى ما يسمى غرفة الملكة، التى تقع فى المحور المركزى للهرم ، الذى كان يجرى صاعداً من أعلى البهو الكبير، أمام الممر الواقع أمام غرفة الملك. وكانت الرائحة المتخلفة عن العدد الكبير من الخفافيش نفاذة

لدرجة أنه كان من المستحيل البقاء هناك . وعادا إلى أسفل الممر الطويل الأول، والذى وصفه بأن على كلا جانبيه «درج ضيق»، وكانت الدرجات باتساع قدمين تقريبًا ، وكلها من «الرخام الأحمر» . وعلى الرغم من أنه كان بوسعهما أن يريا درجًا صغيرًا «يؤدى إلى أعلى» مؤديًا إلى مقبرة الفرعون ، فإن صمويل وميخائيل لم يغامرا وراء هذه النقطة ؛ فبعد تجربتهما الحفرة الضيقة ، أقرَّ صمويل بأنه دخل فى رعب جعله لايرغب فى أن يستكشف المزيد، فضلاً عن أن ميخائيل لم يكن يعرف الطريق ، وتوقع ممرات وفتحات أخرى يمكن أن يتوها فيها ويهلكا . وفوق هذا وذاك ، ربما ينطفئ الضوء ، أو يخبو ، وهو ما حدث من قبل . كما تخيل صمويل أنه سمع العرب فى الخارج يصيحون صيحات متوحشة . وربما عبث الخوف بعقله ، على الرغم من أنه وفقًا لچون جريفز ، الذى أطلق بندقية عند المدخل، أحدث صوتها:

«صوتًا طويلاً مستمرًا ... لأن الصوت الذى أطلق فيه ، حملته هذه الممرات الناعمة الضيقة ، كما لو كان فى الكثير من الأنابيب والقنوات ، دون أن تجد شيئًا ينعكس عليه ويسبب ضجة مربكة، ودوران الهواء ، الذى يتلاشى تدريجيًا عندما تتوقف الحركة...».

ولأن تسلق الأسطوانة العمودية المخيف كان قد سبب حذرًا شديدًا ، لم تكن لدى صمويل أية رغبة أن يقود الطريق إلى أسفل ، وقبل كل شىء كان خائفًا من أن ينحشر فى الفجوة الضيقة التى قابلها أثناء الصعود. ومن ثم نزل رفيقه أولاً وتبعه هو، وعند الوصول لأسفل حمدا الرب على سلامتهما ، على الرغم من أن مشعل صمويل انطفأ مرة أخرى. وبعد أن استراحا لفترة قصيرة عادا إلى الممر الضيق الذى يؤدى إلى الخارج . ووجد صمويل مناورته محبطة للغاية ؛ إذ جرحت الأحجار ركبتيه وذراعيه، وحاق به الإرهاق ، وكان مستنفرًا لدرجة أنه ظن أنه سوف يختنق بسبب الحرارة القظيعة ، ونقص الهواء والضوء. وعندما وصلا إلى الجزء الأوسع من الممر، عندما كانا على وشك الخروج ، قابلا خمسة من العرب بالرماح والحراب يطلبون منهم النقود . واستجمع صمويل ما يعرفه من كلمات عربية لكى يخبرهم أنه لايملك نقودًا ، وأخيرًا

تراجع العرب محدثين الكثير من الضجة ، وتبعهما الصديقان إلى الخارج وهما شاكران لقدرتهما على التنفس بحرية فى الهواء الطلق.

كان ما يُسمى البئر سيئ السمعة ؛ ففى منتصف القرن السادس عشر ، أجبر الوالى التركى فى القاهرة أحد المجرمين الذى حكم عليه بالموت على النزول فيه لتأكيد ما إذا كان هناك كنز حقًا وانقطع الحبل الذى كان مربوطًا حول وسط الرجل التعس وهوى إلى القاع حيث رقد مرتطمًا ، بدون ضوء أو أمل فى الخلاص . ولم يعرف أى طريق يسلكه ، وبعد أن اتجه هنا وهناك وجد ممرًا سار فيه على مدى اليوم التالى. وفى النهاية رأى بعض الضوء ، وبعدها مباشرة رأى رمال الصحراء. وإذ أسعده الحظ بالهرب من هذه المحنة المرعبة قرر العودة إلى القاهرة وإخبار الباشا ، الذى بادر بمنحه حريته .

وما إن خرج صمويل حتى استعاد رباطة جأشه بسرعة ، وفى الحال اقترح تسلق الهرم من الخارج لتقدير ارتفاعه ، ولأن رفيقه غلبه الضعف والتعب لم يستطع القيام بالجهد، ولذا بقى أسفل الهرم مع العرب والمكارى . وكان مرشد صمويل ، وهو شاب عربى، قد صعد الهرم أولاً وتسلق أسرع من صمويل، الذى استراح عدة مرات فى الطريق . وكانت الأحجار (قدرت بحوالى ٢٣٠) موضوعة مثل الدرج ، ولكن بعضها كان عاليًا بحيث لم يستطع تسلقها إلا بصعوبة ، وبسبب ارتفاعه الكبير كان لديه انطباع من الأسفل بأن الهرم كان مدببًا ، ولكن عندما وصل القمة وجد مساحة كبيرة يمكن أن يقف عليها حوالى خمسين شخصًا ، كل بجانب الآخر ، ومن ذلك الارتفاع شاهد القمة المدببة للهرم الأصغر ، هرم خفرع (الذى قيل له إنه مقبرة الملكة) بكسوته الخارجية المنزلقة، والذى يستحيل تسلقه ، وكذلك العديد من الأهرام الكبيرة والصغيرة فى المنطقة المجاورة . وعندما رأى ما فيه الكفاية، أدهشه أن يرى العربى يقفز بجسارة نازلاً من حجر إلى آخر حتى أسفل الهرم، ولكن صمويل كان خائفًا بحيث لم يكن ليقلده .

في سنة ١٥٧٧م، ذهب فيليبو بيجافيتا مرتين إلى الهرم الكبير ، كانت المناسبة الأولى مع باولو ماريانى ، السفير البندقى الذى كان قد أرسل أوامر مقدمًا لتنظيف المدخل. وقد صحبهما القنصل، وبعض الإنكشارية وكثير من الخدم والأتباع ، ومع مثل هذه الصحبة الكبيرة لم يكن من المحتمل أن يتعرضوا للهجوم ، على الرغم من أنه قبل أيام قليلة ، علم فيليبو أنه عندما كان بعض الزوار الآخرين يستكشفون الداخل، أجبر آخر أفراد المجموعة على قضاء الليل بالداخل ؛ لأن الفتحة أغلقت بالرمال والأحجار. وكاد أن يموت ، إما من الخوف أو من برد الشتاء القارص فى مكان لاتصل الشمس إليه أبدًا .

وقد جرت مغامرة فيليبو الثانية مع بعض البحارة وعدد قليل من التجار الفرنسيين، وإذ كانت أعصابهم مضطربة من جراء الأخطار ، أخذوا معهم رجلين مسلحين بالبنادق ، وأنفقوا مبلغًا معينًا على كل رجل لتنظيف المدخل واستئجار الأدلاء والحمير. ولابد أن رحلتهم على مدى أربعة أو خمسة أميال فى شهر ديسمبر كانت ممتعة للغاية على امتداد السهل ؛ فقد كان الريف أخضر كما كانت الأرض المبللة قد جفت ، وكان الفول قد أزهر، ويجرى حصاد سنابل القمح الناضجة . وعندما وصلوا الصحراء والأرض المرتفعة ، لاحظ فيليبو الموقع الجغرافى للأهرامات الثلاثة ، وقدر مقاييسها بدقته المعتادة. وقد فحص أحجار الهرم ، وفكر فى الكيفية التى وضعت بها. ورأى أن الهرم الكبير يمكن تسلقه فى سهولة من الأركان إلا إذا كان المرء يخاف من الارتفاعات . وعلى القمة رأى أسماء كثير من الناس مكتوبة على الأحجار بكل اللغات.

وفى الداخل حملوا الشموع التى لايمكن أن تنطفئ بالريح ، وخلعوا معاطفهم ، ولبسوا أحذية خفيفة من الصوف حتى لايقعوا على الأحجار الزلقة. وطوال الوقت آذتهم الرائحة الكريهة للجو غير المتجدد . وعندما وصلوا حجرة الملك، لاحظ فيليبو أن السقف لم يكن معقودًا مثل سقف البهو الكبير، ولكنه كان مسطحًا ، وعاليًا بشكل لافت للنظر ، ومعمولاً من ألواح كبيرة فاخرة لاتشبه غيرها فى الهرم. وكان من رأيه أن التابوت مصنوع من الجرانيت Pietra tebaico مثل المسلات فى روما أو العمود

الأحمر فى الميدان بالبندقية ، ثم قاسه (عشرة أشبار طولاً وخمسة أشبار عرضًا) ، ودقه من الداخل محدثًا صوتًا مثل صوت الجرس ؛ لأنه كان مثار فضول كبير، وأثرًا نادرًا ، «قطع منه فيليبو قطعة » ، وأرسلها إلى سعادة سمو «السنيور جياكومو فوسكارينى الحاكم العام لجزيرة كانديا» . وعلى الرغم من أنه لم يقل هذا، فلابد أنه كان يحمل معه أداة لقطع الجرانيت الصلب. وكان باولو ماريانى قد جذب انتباه فيليبو بالفعل إلى حقيقة أن الأمطار كانت قد تسربت أسفل إلى الجزء الجنوبى من الغرفة ، وكان هناك المزيد من الأمطار التى تسقط من السماء فى تلك الأيام أكثر من أى وقت مضى على مايتذكر الناس. وعندما عادوا إلى آخر ممر للخروج ، كان هناك بعض البدو لإزالة الرمال حتى يمكنهم المرور خلال الفتحة الضيقة على أيديهم وأرجلهم . وكان العرق يغطيهم بفعل الحرارة العالية، وما إن خرجوا حتى غيروا قمصانهم، ولاحظوا أن ريحًا قوية قد هبَّت فى غيابهم .

وشاهد فيليبو أبا الهول راقدًا إلى الجنوب من منطقة الأهرام فى واد صغير ، «له رأس كبير تفوق أى اعتقاد لدرجة أن عينًا واحدة فى طول قامة الرجل العادى». وكانت الغربان قد صنعت أعشاشها فى أذنيه ، وكانت هناك حفرة على طول منتصف العمود الفقرى . وتعجب متسائلاً عما إذا كان هناك ضريح للملك داخلها أو ما إذا كان هو المكان الذى كان الكهنة يختبئون فيه لكى يجيبوا على الناس الذين كانوا يجيئون لاستشارة وسيط الآلهة . ولكن مهما كان السبب ، فإن الحفرة توقفت ، ولم يكن هناك ما يمكن رؤيته سوى الشق وقد ملأته الرمال، وكان جسد أبى الهول الرئيسى ظاهرًا للعيان ، على الرغم من أن كلاً من الأرجل الأمامية والخلفية كانت مدفونة. وكانت رأس التمثال وعنقه وصدره كاملاً ، ولكن الأنف وجزءًا من العين كانت مكسورة . (لم يعلق على غطاء الرأس الملكى وثعبان الكوبرا على الجبهة ، على الرغم من أنها كانت مرئية . ولأن الساقين الأماميتين كانتا مغطاتين، فإنه لم ير اللوح الكبير من الجرانيت الأحمر بين مخالب الأسد) .

كان بييترو دالاڤالى Pietro dalla Valle ، وهو تاجر إيطالى جاء إلى مصر أثناء الفترة من ١٦١٥ إلى ١٦١٦م ، ولد فى روما سنة ١٥٨٦م لعائلة نبيلة مشهورة ، وتلقى تعليمًا كاثوليكيًا وفر له معرفة بالكلاسيكيات، والأدب الإيطالى ، والموسيقى ، والآداب. وكان يعرف كتاب الملاحظات Observations ، الذى ألفه بيير بيلون دى مانس ، وقد استخدمه كتابًا مرشداً ، وعلى مدى اثنتى عشرة سنة كان بيترو يتودد إلى بياتريس بوراتشيو Beatrice Boraccio ، وهى سيدة هجرته فى النهاية من أجل رجل آخر تقدم إليها، وهى حادثة كادت تدفعه إلى الانتحار . ولكن بعد أن قضى بعض الوقت فى نابولى حتى ينسى ارتباطه العاطفى، شجعه صديقه دكتور ماريو شابيرو Dr Mario Schapiro ، وهو أستاذ طب، على إرضاء فضوله عن الشرق، ووافق على التعاون بالمراسلة . وقد اقترح ماريو أنه يجب أن يكتب بييترو تجارب أسفاره فى شكل خطابات ، وهو ما كان ماريو سيدمجه فى حكاية متماسكة فى الوطن . وفى بداية المراسلات، أشار بيترو إلى أنه سوف يكتب بلهجة أهل روما وليس باللهجة التوسكانية الرشيقة، عندما تكون انطباعاته لا تزال ماثلة فى ذهنه . وحدث على كل حال أن بقيت خطابات بيترو دون تحرير ، لدرجة أنه على الرغم من أن أوصافه الأصلية كانت تتسم بالإطناب فإنها بقيت حية وعفوية .

وكمقدمة لرحلته المصرية اختار بييترو أن يذهب حاجًا إلى الأرض المقدسة. وقبل الرحيل تمت مباركته فى دير سانت فيستو وسانت مارسيللينو، وقد ارتدى سترة الحجاج البنية المزخرفة إلى حد ما بالصلبان الحمراء وصولجان ذهبى صغير معلق فى رقبته . وعلى وجه الإجمال كان بييترو بعيداً عن إيطاليا على مدى اثنتى عشرة سنة ، وكانت تموله خطابات الضمان التى يرسلها وكلاؤه فى إيطاليا . وركبت مجموعته فى البندقية يوم ٨ يونيو ١٦١٤م السفينة Gran Delfino ، وهى سفينة مات فيها كثير من جراء الوباء وهى متجهة إلى شرق المتوسط.

وبعد ما أمضى ما يربو على سنة فى إستانبول ، حيث تم تقديمه إلى التركى الكبير، أبحر بييترو إلى الإسكندرية فى ٢٥ سبتمبر ١٦١٥م على سفينة كبيرة تستخدم

للأعمال الرسمية، تتردد ما بين تركيا ومصر . وكانت تحمل ألفين من المسافرين ، وكانت مملوكة للباشا حاكم چورچيا ، محمد قائمقام ، المساعد الأول للوزير. وفى الخطاب الذى يحمل تاريخ ٢٥ يناير فى السنة التالية لماريو شابيرو ، كتب بييترو أنه أخذ معه تسعة أشخاص: اثنان من الأتراك وسبعة مسيحيين: «القسيس الأخ جوبليو دا مونتى روبيانو مبعوث الفرنسيسكان الذى أراد أن يذهب بدافع التقوى إلى الأرض المقدسة، وأخى الراهب أندريا الذى أحضرته من إيطاليا ، ومسيو دى ڤيرنى ، وهو شاب فلمنكى حسن الخصال كان فى خدمة سعادة السفير الفرنسى». وسقط الفلمنكى مصابًا بمرض خطير مع حمى ، ولكنه توسل إلى بييترو ألا يتخلى عنه ، قائلا إنه لايهتم بالموت طالما كان بصحبة بييترو . وعلى عكس نصيحة الطبيب، رق قلب بييترو وأخذه معه. ومن بين الذين جاءوا من إيطاليا كان خدمه لورنزو ، وتوماسو و«چيوڤانى الرسام الخاص بى الذى كان فلمنكيًا بالمثل وله مكانة ما فى الفن». ومن إستانبول جاء «باولو اليونانى الذى كان آنذاك المترجم الخاص لى، وهو شاب جدير بالثقة »، والذى كان لا يزال ، على أية حال، مريضًا جدًا بحمى السُّل. وهكذا كان بييترو معه اثنان لايصلحان ، على الرغم من أنه كان على قناعة بأخذ باولو على عكس نصيحة الكثير من الناس بسبب صلواته وصلوات أمه . وكان رفيقاه حسين بك ، وهو من موظفى قصر «السيد الكبير Grand Signor» (السلطان) وخادمه. وكان بييترو قد لقى تكريمًا لأن حسين بك تم اختياره بالمساعى الطيبة لـ «سيدى السفير مع أكبر توصية من التركى الكبير ، الذى أمره بحراستى ورعايتى أنا والناس الذين بصحبتى أثناء الرحلة» . وأسدى السفير لبييترو معروفًا بإخبار الجميع أنه ابن أخته (وأشار إلى هذا فى الوثائق) حتى يمكن لرعايته أن تحميه من جشع الوزراء والصعوبات الكثيرة المفروضة على الغرباء فى بلد أجنبى . وباختصار فعل السفير ما فى وسعه لكى يضمن رحيل بييترو بما يمكن من التكريم والسلامة.

وإذ تحصن بييترو بهذه الصلاحيات ، وبعد أن أقام أسبوعًا فى الإسكندرية ، أبحر مع فريقه إلى بولاق صاعدًا النيل. وبدا الطريق التجارى الممهد داخل القاهرة

مبهجًا ؛ لأن النيل كان قد تراجع ، تاركًا مكان مياه الفيضان أعشابًا ونباتات متنوعة مزدهرة فيما بين النخيل. وفى الضواحى ، قبل بوابة المدينة مباشرة، راقت بركة الأزبكية فى عينى بييترو بشكل خاص، وقد وصفها بأنها سهل منخفض أشبه بصدفة المحار تزين البيوت حوافها، «وهى جميلة عندما تكون أرضها خضراء كما تكون جميلة عند امتلائها بالماء لتكون بحيرة» . وعند الوصول، ترجل عند المنزل الذى يشغله القنصل الفرنسى الذى أمر الخادم باستقباله فى سكنه.

فى يوم ٨ ديسمبر ، أبحر بييترو وحاشيته عبر النيل قاصدًا الأهرام. ومع أنه كان قد تلقى تحذيرًا من بيير بيلون ، على صفحات كتابه Observations من الممرات المظلمة داخل الهرم الكبير ؛ فقد اكتشف بييترو أن الحرارة العالية فى الداخل جعلت العرق يبلل صديريته ، وأن الزحف على معدته بامتداد النفق كان أمرًا متعبًا للغاية ، وفى داخل غرفة الملك ، أثبت حجر التابوت أنه صلب لدرجة استحالة كسر شريحة منه بالمطرقة الصلب التى كان قد أحضرها معه. وعندما دق التابوت كان الصوت المشابه لصوت الناقوس عاليًا بحيث كان يمكن سماعه على مسافة بعيدة لو لم يكونوا فى مكان مغلق . وبعد ذلك تسلق إلى قمة الهرم ؛ حيث إنه «فى الأعلى فوق أعلى نقطة ، على الجزء الذى يطل ناحية إيطاليا، استمتعت بحفر اسمى». وطلب من الأتراك الذين رافقوه إطلاق عدد من الأسهم من القمة بكل قوتهم ، ولكن مهما كانت قوة إطلاقهم كانت الأسهم ترتد ثانية إلى المنحدر ، ولم تصل أبدًا إلى أسفل .

وقد شاع الاهتمام بالتحنيط المصرى للموتى فى القرن السادس عشر، بسبب ارتباطه مع التجارة فى المومياوات المصرية القديمة لأسباب طبية؛ إذ إن أولئك الذين كانوا على دراية بما كتبه كل من هيرودوت وديودور الصقلى عن الممارسات الجنائزية فى مصر القديمة لم يكن لديهم سبب للشك فى صحة مصادرهم ، على الرغم من أنها لم تكن صحيحة تمامًا . وفى سنة ١٥٥٣م، نشر الدكتور بيير بيلون رسالة علمية عن التحنيط ، وأورد الطرق المصرية ، ووضع قائمة بأفضل المواد الحافظة ، مقتبسًا من الكُتّاب الكلاسيكيين القدماء.

والتراث المثير عن المومياء باعتبارها دواء، والذى يمكن تتبع أصوله بشكل غير مباشر إلى استخدام البيتومين كمادة حافظة أواخر العصور القديمة، قد جاء عبر الكُتَّاب الكلاسيكيين والكُتَّاب العرب. كان هناك دواء يحمل اسم مومياء mummia . وكان النوع الفارسى منه محل تقدير ثمين باعتباره الدواء الشافى لكل الأمراض ، ثم وجدوا فيما بعد أن المواد التى تشبه البيتومين فى الأجساد المحنطة لها نفس الخاصية . ومن بين الكُتَّاب العرب كان الطبيب ابن سينا هو الذى ذكر المومياء . ودافع عن استخدامها فى علاج عدد من الأمراض منها : «الخُرَّاج ، والطفح الجلدى، والكسور ، وارتجاج المخ ، والشلل ، واضطراب نبض القلب، واضطرابات الطحال والكبد» ، وكانت وصفته ينبغى أن تؤخذ (على فرض جعل طعمها سائغًا) فى خلطة من النباتات مثل: البردقوش، والزعتر ، والبلسان ، والشعير، والزهور، والعدس، والزعفران ، والقرفة الصينى، والبقدونس . ووردت وصفة ابن سينا عن مسحوق المومياء ضمن De Virileus Cordis فى قائمة مكتبة سان ماركو فى فلورنسا ، سنة ١٤٤٤م. وقد كانت هذه المجموعة من الكتب قد أهداها إلى المدينة نيكولو نيكولى ، عالم الإنسانيات الفلورنسى، وعالم الآثار ومراسل كيرياكو الأنكونوى عندما كان فى مصر سنة ١٤٣٦م.

منذ القرن الحادى عشر، كان بعض العلماء العرب الكبار، يعزون قيمة المومياء العلاجية إلى اللحم المحنط فعلاً، وكان هذا هو مفهوم المومياء فى أوروبا أساسًا. وقد ذكر استخدام اللحم الجيفى (لحم المومياء) جاى دى شاڤيلاك Guy de Chavillac ، الذى كان جراح البابا كليمنت السادس سنة ١٣٦٣م . ومع بداية القرن السادس عشر كان هناك اعتبار كبير؛ لأن الفرنسى فرنسوا الأول كان معتادًا على أن يحمل معه كيسًا جلديًا صغيرًا يحتوى على مسحوق المومياء مخلوطًا بمادة مسحوقة تحسبًا لأى حادث عندما يمتطى حصانه، بناء على ما قاله بيير بيلون.

ولاقى هذا العلاج الكرية شعبية واسعة ، وكان مادة قيمة من مواد التجارة، ويُباع عبر أسواق المسكنات ، وعلاج الجروح ، وللاستخدام فى المعمودية . وقد أدرج التاجر الفلورنسى فرنشسكو بيجولوتى المومياء ضمن قائمة فى كتابه باعتبارها بين مائتين

وثمانين نوعًا مستورداً من مصر . وعلى العموم كان أفضلها هو الأصلب والأسهل فى سحقها ، ولونها يتراوح بين البنى الداكن والأسود، ولها طعم مُرّ ورائحة نفاذة ، وكان الفرنسيون يفضلون التنويعة المعروفة باسم fille Vierge . وعلى أية حال، لم تكن كل المومياء تجىء من ميت مصرى قديم حقيقى، ربما عندما زاد الطلب على العرض . وفى زيارة إلى الإسكندرية سنة ١٥٦٤م، اكتشف جاى لافونتين Guy de la Fontaine الذى كان طبيب ملك ناڤار ، أن التجار اليهود الذين كانوا يتاجرون فى جثث الموتى كانوا معتادين على استبدال بضاعتهم بجثث المجرمين الذين تم تنفيذ حكم الإعدام فيهم والموتى الجدد بالمستشفيات . وكان يتم تجهيز هذه الجثث بسرعة بملئها بالأسفلت وتجفيفها فى الشمس لكى تتخذ شكلاً يحاكى المظهر القديم. ومن المدهش أن ما كان يسمى التنويعة «البيضاء» غالبًا ما كان يتم قبولها ، لاسيما إذا كان قد تم تجهيزها من جثة شخص أحمر الشعر أو ساحر، وجثث الرحالة الذين كانوا قد اختنقوا فى عواصف الصحراء الرملية أو غرقوا قبالة الشواطئ المصرية كانت تستخدم أيضًا.

تقع بلدة سقارة ، المصدر القديم لهذه المادة المستخرجة من القبور ، على مسافة عشرة أميال أو نحوها صاعدة فى مجرى النهر جنوب القاهرة وعلى الضفة الغربية. وصارت الجبانات القديمة مقصداً جديداً كان يذهب إليه بعض المسافرين إلى القاهرة بحثًا عن بضائع القبور والمومياوات بهمة ونشاط منذ القرن السادس عشر فصاعداً . بعد أن زار فيليبو بيجافيتا الأهرام توجه إلى قرية كبيرة آهلة بالسكان تقع فى وسط الرمال ، كانت مسكن العرب الذين يكسبون عيشهم من حفر قبور الموتى القدماء المدفونين فى المقابر الصخرية المبعثرة فى الصحراء، وبين كثرة من الأهرام الصغيرة كان هناك حائط قطع فى الصخر ؛ حيث كان يوجد درج صغير من عدة عتبات يؤدى إلى الداخل . وإذ وصل إلى أسفل حدَّق فيليبو فى كهف كبير ، طويل عريض ، له تفريعات ، ومقسم إلى حجرات كبيرة وصغيرة لها فتحات ؛ حيث كانت ترقد أعداد لا تُحصى من الجثث الآدمية . ورأى أن هذه الجثث كانت ملفوفة بشرائط طويلة من

القطن وتحت الشرائط كانت الجثث سوداء، ولحمها جامد وأطرافها متماسكة . وكانت للكثير منها أسنان ثابتة فى اللثة ، وكذلك كان الشعر ملتصقًا بالرأس ، لا سيما النساء اللاتى كان شعرهن طويلاً جداً . وكان هناك أطفال زينتهم أربطة جميلة وأشياء فنية أخرى. وقد تم حشو بطون الموتى بالبيتومين المجلوب من البحر الميت ، حسبما جرت عادة قدماء المصريين ، للحفاظ عليها فترة طويلة من الزمان، وبعد ذلك كانت تُلف مائة ألف مرة فى رباط ناعم مثل الأطفال الصغار ، وكانت تماثيل الآلهة المزدانة قد وضعت بين اللفائف مصنوعة من الطين المحروق ، أو منحوتة من الأحجار الكريمة ، وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك جُعلان (جعارين) تحمل علامات كثيرة وشخوصًا غريبة. ومن منتصف أعلى جزء من الصدر حتى أخمص القدمين كان هناك شريط من القماش مرسوم عليه مجموعة كبيرة من الحيوانات مثل العجول والتماسيح والرجال على ظهور الخيل ورؤوس الذئاب وأشياء أخرى مثل هذه ، وإذ تم ربطها بالأربطة بهذه الطريقة ، كان قد تم وضع كل جثة فى جوف جذع نخلة مجوف . وعلى خارج هذه الحاويات، رأى فيليبو صوراً مرسومة لرجل أو امرأة ترتدى ثياب ذلك الزمان، فإذا ما كان رجلاً له لحية طويلة ، تصحبه «أصنام كثيرة» . وأعلن «هذه المومياوات هى الحقيقية ، وليست، كما اعتدت أن أعتقد مع كثير غيرى، رجالاً تم العثور عليهم فى الصحراء مختنقين من الرمال».

كان من المعلوم تمامًا أن الأماكن المدفونة بها الجثث تحت الأرض يمكن أن تكون خطيرة ، بسبب المشاعل والشموع التى تؤخذ لإضاءتها ، فإذا ما أمسكت النار بأى جزء مهما صغر من المومياء ، فإن المومياء تحترق مثل القار ، وتشعل جميع الجثث الأخرى، وتفكك الأذرع والأقدام ، وتقطع الأربطة . فإذا ما اشتعلت النيران التى لايمكن إطفاؤها واستمرت عدة أيام، فإن جميع الذين فى الداخل سوف يحترقون أو يختنقون من جراء الدخان .

وسرعان ما باتت الآثار المصرية التى حصل عليها الموظفون القنصليون، والتجار وغيرهم من المسافرين ، من بين الأشياء الكلاسيكية التى جمعها النبلاء الإيطاليون ،

الذين لم يكن يهمهم أن بعض ما كان لديهم مما سُمى «القطع المصرية» كانت ذات أصول رومانية، أو أن الجعارين كانت أحيانًا نسخًا من إنتاج عصر النهضة . وقد أدى رفع المسلات ونصبها إلى حفز الاهتمام بالأشياء المصرية جنبًا إلى جنب مع جمع الأشياء الغريبة. وقد دخل بيرو ليجوريو Pirro Liggorio (ولد سنة ١٥١٢م أو سنة ١٥١٤م) ، وهو من مواطنى نابولى، وكان رسامًا وأثريًا ومصممًا ، فى خدمة الكاردينال إيبوليتو ديست Ippolito d'Este سنة ١٥٤٩م ، وعمل فيما بعد مهندسًا فى خدمة البابا بول الرابع. وبعد ذلك تم توظيفه أثريًا لدى الدوق ألفونسو ديست فى فيرارا ؛ لأنه صار مشهورًا بكونه منقبًا بارعًا عن الأشياء القديمة ومسجلاً لها. وفى ١٥٥٣م نشر كتابه Libro di Pyrrbo Ligorio napolitana delle Antichita di Roma والمزين برسومه التى رسمها بنفسه للآثار. ومن بينها رسم بيرو تمثال كتلة لكاتب مصرى يظهر لفافة من الكتابة المصرية مبسوطة أمامه، وعدة تماثيل صغيرة وبعض رسوم للكاتب جالس القرفصاء والإله القبيح بس.

ولكن الإيطالى بييترو ديلافالى، بخلفيته من الدراسات الكلاسيكية ، كان هو أول أوروبى ينظم حفريات أثرية بدائية إلى حد ما بين Pozzi Profondissini فى سقارة؛ حيث أقام هو وجماعته الكبيرة خيامهم سنة ١٦١٦م . وفى القرن الثالث قبل الميلاد كانت سقارة وممفيس قد صارتا بؤرة الثقافة الإغريقية؛ حيث قدم بطليموس الأول الإله الهجين سرابيس إلى مصر . وهكذا صار المكان مرة أخرى له أهمية دينية ؛ حيث كان يتم الدفن ، وحيث كان معبد السرابيوم مكانًا للحج. وتتألق حماسة بييترو لمهمته المروعة فى مجال الموتى من خلال الخطاب المرسل من القاهرة إلى صديقه ماريو شابيرو فى روما يوم ٢٥ يناير ١٦١٦م:

«فى الصباح لم أكن قد ارتديت ثيابى بعد ، عندما كان هناك حوالى خمسين فلاحًا حولى، أحضروا لى أصنامًا صغيرة ، والبعض يقولون إنهم سوف يقودوننى إلى أحد الأماكن ، وغيرهم يقولون إنهم سوف يذهبون بى إلى مكان آخر، وقد تخلصت منهم جميعًا وذهبت فى سعادة . وكان معى، بخلاف هؤلاء الفلاحين، حوالى خمسة

وعشرين أو ثلاثين رجلاً ؛ لأنه إلى جانب مجموعتى وبعض الجنود الذين كنت قد أحضرتهم للحراسة (لأن هذه الأماكن ليست آمنة) انضم إلىّ كثير من الأصدقاء فى القاهرة عندما علموا إلى أين أريد الذهاب، باعتبارها فرصة مواتية، وضمانًا للسلامة، وأرشدتهم بترحاب . وهكذا ذهبنا ، وكلنا مسلحون مثل سان چورج بحيث إننا ظهرنا مثل جيش . وعندما وصلنا إلى المومياوات ذهبت لكى أستكشف المكان قليلاً، ورأيت أنها بلد مفتوحة كبيرة جدًا، تشبه بقية الأماكن الرملية الأخرى »[١].

وقد لاحظ أن الصحراء كانت مرقطة بأعداد لا تحصى من الحفر المبنية من الحجارة تحت الأرض، ولها قباب مثل الخزانات، حيث ترقد الأجساد مدفونة فى الرمال، وبعد الدفن كانت المقابر تُملأ إلى قمتها بحيث لايمكن رؤيتها . وقد خمن أن عددًا من المقابر كانت تضم جثثًا تنتمى إلى العائلة نفسها، حسبما كانت عادات الدفن فى إيطاليا ، وكانت كثير من الحفر خاوية ؛ فقد نهبها الفلاحون الذين كانوا يبحثون باستمرار عن مادة جديدة :

«لم أكن أريد النزول فى بعض هذه الحفر الخاوية كما يفعل الآخرون، وربما فعل بيلون هذا؛ لأن رغبتى الرئيسية كانت رؤية الأجساد كما هى موضوعة حتى يمكننى الكلام بالمعاينة وليس الكلام الذى يردده أولئك الفلاحون الجهلة. ولهذا تركت الحفر الخاوية جانبًا ، وأخذت معى عددًا من العمال المهرة ، وطلبت منهم أن يحفروا فى أماكن جديدة ، حتى نجد حفرًا أخرى لم يمسها أحد وممتلئة إذا كان ذلك ممكنًا . ولكن لأننا نجهل مكان وجودها، كان من الضرورى أن نبحث خبط عشواء، ولاحظت أنه حيثما كانت الأرض تبدو لى أقل تقليبًا وأقل تفحصًا (ويتعرف المرء على علامات مكان حفر الفلاحين عدة مرات ولم يجدوا شيئًا) ، وهناك فى أماكن مختلفة بدت لى مليئة بالأمل أكثر من غيرها، وقسمت عمالى، وفرقتهم على جزء كبير من الريف، ولكى أشجعهم نصبت خيمتى هناك فى الوسط، مع عزمى ووعدى بأننى لن أغادر ذلك المكان قبل أن

(١) كل الرحالة فى القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر كانوا يسمون تماثيل الشابتى «أصنام» .

أجد شيئًا ، ولأنني وحدى لايمكن أن أكون فى كل مكان . ووضعت واحداً من رجالى للحراسة على كل حفرة ، حيث كانوا يبحثون لحمايتى من كل خداع ، بحيث يمكن استدعائى فى الحال إذا ما تم كشف مقبرة أو شيء جميل . وبينما كنت أتابع هذا العمل بنشاط، فإن واحداً من هؤلاد الفلاحين ، أشاع أنه يملك شيئًا لا أعرفه ، يريد بيعه لى، اقترب من مترجمى وهمس بصوت خافت فى أذنه، أنه لديه مومياء جميلة وكاملة ، وإذا ما كنت أريد شراءها فإنه سيطلعنى عليها، وكانت فى مكان قريب، ولكنه لم يكن يريد أن يعرف أحد من الفلاحين الآخرين بالأمر؛ لأنهم سيريدون أن يشتركوا فى الثمن حسبما جرت العادة بينهم، ومن ثم فإننى إذا أردت رؤيتها يجب أن أذهب بدونهم إلى حيث يقودنى. وقد سعدت بالذهاب فوراً بعد أن نقل لى مترجمى هذه الكلمات ، وتركت أوامر واضحة لجميع الذين يحفرون، وأخذت معى توماسو ماشيًا ، والمترجم والرسام ، وتبعت الفلاح الذى كان بصحبته اثنان أو ثلاثة من أقاربه . وجعلنا نمشى مسافة تزيد على ميل، وهو ما بدا لى طريقًا طويلاً ، وهو يشير بإصبعه طوال الوقت قائلاً «هنا، هنا، قريب جداً».

«وصلنا أخيراً فى مكان حيث كان بالقرب منه حفرة تم حفرها ، وأخبرونى أنه اكتشفها قبل ثلاثة أو أربعة أيام. وفى داخلها بعض الرمال، وتحتها كانت مخبأة مومياء سحبها خارج الحفرة : كانت جثة رجل كاملة ، كانت محفوظة بشكل طيب تماماً ومزينة بطريقة غريبة ومكفنة . وبدا لى أنها شيء جميل ومميز جداً . وكان بوسع المرء أن يرى أن المومياء كانت لرجل ممدد عارٍ ، ومربوط بإحكام وملفوف بكمية كبيرة من قماش الكتان، ومحنط بالبيتومين الذى اختلط باللحم والمعروف لنا باسم المومياء ويُعطى باعتباره دواء. وقد ذكرتنى هذه الضمادات واللفافات فى الحال بقصة قيام لازاروس، التى يمكن للمرء أن يعتقد أنه كان مثل هذا. وفضلا عن ذلك، كان حول الجثة كلها غطاء من نفس القماش كله منقوش ومرسوم بخبرة وبه غرز وملصق بالزفت على ما أعتقد ، ومختومة من كل جانب بكثير من أختام الرصاص، وكل هذه الأشياء تشير إلى أنه كان شخصاً ذا حيثية ، ولكن ما يثير الاهتمام هو أنه كان على الجزء

العلوى من الجثة الذى صار مسطحًا يكاد يشبه غطاء صندوق صغير بسبب كمية اللفائف، قد رسمت صورة شاب، وهى بلاشك كانت صورة الميت، وكان ثوبه مزدانًا من الرأس إلى القدم بالكثير من الرسوم، المعمولة من الصور والذهب، والكثير جداً من الكتابة الهيروغليفية والرسوم وما شابهها، وصدقونى فيما أقول ، كانت أفخر شىء فى العالم. وعلاوة على ذلك ، يمكن لرجال العلم الشغوفين بالمعرفة أن يستنبطوا ألف برهان عن الحقيقة حول آثار تلك الأزمنة. ويمكن للمرء أن يرى طول رداء الرجل من الرقبة إلى القدمين، ويظهر أنه كان من قماش الكتان ، والذى عرفنا عنه من قبل فى كتاب هيرودوت ، كيف استخدمه قدماء المصريين فى ملابسهم. وعلى أية حال يمكن رؤية أنه فوق لون الكتان الأبيض ، كان ثوب هذا الرجل كله مرصعًا بقطع صغيرة من الذهب، مع حلى مختلفة ، وجواهر ، وعلامات شخوص غير معروفة مطبوعة عليها . والرأس مغطاة أيضًا بزينة ذهبية وبالجواهر التى يمكن أن نرى تحتها الشعر الأسود المجعد. وكذلك كانت له ذقن سوداء رفيعة متموجة ، ومنها ومن لون وجهه ويديه البنيتين الداكنتين ، مثل لون الأرض بالضبط لم يكن يشبه الأثيوبيين. ويبدو لى أنه يمكن أن نعتقد أن هذا الرجل مولود فى بعض مناطق الصعيد باتجاه الجنوب وليس فى أقاليم الدلتا ؛ حيث لايكون الناس داكنى البشرة هكذا عادة . ويمكن أن يرى بوضوح أنه رجل مهم من الزينة ومن الذهب والجواهر كذلك، حسبما ذكرت من قبل، وكذلك من أختام الرصاص الموجودة على جميع جوانب لفافات جثته التى تكشف عن ما هو أكثر من الحرص العادى فى حفظ الجثة ، وفى البصمة التى ليست واضحة جيداً ربما كان هناك نحت لشكل حيوان. وهناك مؤشر آخر على المكانة الكبيرة لهذا الشخص، يتمثل فى القلادة الذهبية التى كان يلبسها حول عنقه، حسب عادات السلوك لدينا ؛ ففى الوسط تتدلى من المركز على الصدر قلادة ذهبية كبيرة مثبتة على هيئة طائر ، وفى داخلها نقوش فى المنتصف بعلامات عديدة مجهولة ... ويمسك فى يده اليمنى كأسًا ذهبية ممتلئة بسائل أحمر، إما خمر وإمًا دماء، وأنا نفسى أعتقد أنه خمر ، وهو ما يتفق مع ما قاله هيرودوت ، وأنا متأكد من أنه إشارة لنوع من التضحية بذبيحة . وفى يده اليسرى (كان يلبس خاتمًا فى كل من السبابة والإصبع الصغير ، فى العقلة

الأخيرة قرب الأظافر) يمسك شيئًا آخر بيضاوى الشكل وداكن اللون . والساقان والقدمان عاريان فيما عدا الصندل الأسود الذى لايغطى سوى أخمص القدم، وله سير من الجلد أسود اللون أيضًا، يمر تحت أصابع القدم فيما بين إصبع القدم الكبير، وأقرب إصبع إليه، ثم يربط فى حاشيتين عريضتين من الجلد خلف الكعب فى عقدة رشيقة على شكل قوس»(٢).

عندما شاهد بييترو هذه المومياء النبيلة سارع إلى دفع مبلغ الثلاثة قروش الذى طلبه الفلاح ثمنًا لها ، حتى مع أنه أدرك أن الثمن أقل مما يجب. وسأله إن كانت لدية أية مومياوات أخرى وإذا ما كان بوسعه أن يراها بسرعة . وعندما عرف أن هناك واحدة أخرى داخل الحفرة لاتقل عنها جمالاً ، أراد بييترو أن ينزل إلى أسفل ليرى بنفسه كيف كانت ترقد، ولكن الفلاح الذى كان شغوفا بالحصول على مزيد من النقود، أرسل بسرعة واحداً من رفاقه بحبل وتم سحبها إلى أعلى لكى يراها:

«هذه الواحدة كانت على نفس القدر من الجمال وحملت إلى الخارج بنفس الطريقة، ولكن الصورة المرسومة أعلاها (وهذا ما زاد فى سرورى) كانت لامرأة شابة ولاشك فى أنها كانت إما زوجة الرجل الذى أخرج من الحفرة وإما أخته؛ لأن الفلاحين أخبرونى (وأنا نفسى شاهدت المكان بالفعل) أنهما كانا يرقدان سويًا فى نفس المكان بالمقبرة أحدهما بجانب الآخر. وثياب المرأة أكثر غنى بالذهب والمجوهرات من ثياب الرجل. وفى القطع الذهبية المنثورة على الثوب كله ، إلى جانب العلامات والرسوم ، هناك كذلك طيور بعينها وحيوانات معينة منحوتة تبدو مثل الأسود وعلى قطعة أخرى فى الوسط، صورة ثور أو بقرة لابد أنها كانت علامة أبيس أو إيزيس . وعلى قطعة أخرى،

---

(٢) خمَّن بييترو أن الشيء «بيضاوى الشكل وداكن اللون» هو الباذنجان (الذى كان معروفًا فى توسكانيا باسم melanza أو Petronciani)، ولكن من المحتمل أنه كان إكليلاً من الزهور كما وجد فى المقابر التى تنتمى لتلك الفترة.

على قلادة ، كانت تملك الكثير منها على صدرها ، مطبوعة صورة الشمس بالإضافة إلى ذلك ، كانت لديها قلادة، وقرط بالجواهر ، وزوج من الأساور على ذراعها ، وكذلك على ساقيها . وكثير من الخواتم فى كل من اليدين، وفى اليد اليسرى على كل إصبع ماعدا الإصبع الكبير ، إلا أنه كان هناك خاتم على الإصبع الصغير على المفصل بعد الأظافر . وعلى اليد اليمنى كان هناك خاتمان فقط كلاهما فى المكان المعتاد على الإصبع الذى يسمى إصبع الخواتم. وفى يدها اليمنى تُمسك إناء ذهبيًا بالغ الصغر يكاد يشبه تلك الآنية التى تستخدم فى روما على المائدة للماء الذى يستخدم لغسيل الأيدى، ويبدو أنها تمسكه بإحكام بإصبعين اثنين فقط. وتمسك فى اليد اليسرى ما يبدو مثل حزمة من أشياء مستديرة معينة ، ولكننى لا أعرف ماذا يمكن أن تكون، وبسبب توضيح الطريقة التى ترقد بها المومياوات مدفونة فى الرمال لم أنظف الرمال تمامًا عن هذه المرأة ، ولكن فى بعض الأماكن تركت الرمال عليها ، مما تجعلها تحجب الرسم أحيانًا. ولون هذه المرأة بنى أفتح قليلاً من لون الرجل، ولها أيضًا شعر أسود أكثر تجعيدًا من الآخر ، ووجهها مكشوف ، وعيناها سوداوان أيضًا، والحواجب كثيفة ومتصلة ، كما هى اليوم فى هذه البلاد. وعيناها كبيرتان واسعتان ، والجفنان السفليان داكنان قليلاً ، ربما من الكحل الذى يشيع استخدامه بين كل النساء الشرقيات اليوم، وكما حكى عن جيزبل فى الكتب المقدسة للقدماء»[٣].

وحتى قبل أن يطلب منه الفلاح ، عدَّ بييترو فى الحال نفس المبلغ وساعدوه على النزول إلى المقبرة . ولكن لأنها كانت عميقة جدًا وواسعة جدًا، ربما كانت خمسين أو ستين شبرًا إذا لم يكن أكثر من ذلك، وكان بييترو خائفًا من أن الرجل بالأسفل قد لاينقذه

(٣) كل من هاتين المومياوتين المرسومتين لرجل وامرأة (بألوان الغراء والكتان) ترجع إلى زمن جالينوس حوالى ٢٦٨-٢٥٠ ق.م . والزخارف الجصية الصغيرة كانت ملصقة فى كل مكان ، تعطى مظهرًا للثراء. موضحة بالرسوم فى : . Dioxiadis, The Mysterious Fayum , nos 9-12

من كسر رقبته . ومن ثم جعل توماسو ينزل أولاً ومعه بعض الأسلحة النارية إذا ما استدعت الضرورة :

«ثم ، بعدما ربطت نفسى بأمان تام بحبل فوق حزامى ، وثبته فى الجبال فوق، نزلت بابتهاج ، ولكننى وجدت فى فعل هذا ، أن النزول أسهل كثيراً مما كنت أظن لدرجة أننى نزلت إلى أسفل وحدى بدون أية مساعدة بسهولة شديدة وبسرعة. ولما وصلت إلى القاع ، وجدت المقابر من حولى مليئة بالجثث . ولابد أن الحفرة كان قد تم اكتشافها فى التو كما قال الفلاحون حقًا. وكانت الجثث ترقد مدفونة بشكل غير منتظم فى الرمال مثلما أخبرتك، وكانت غاية فى الجفاف، وقد حفظت الجثث وحافظت عليها من التعفن، وكانت الجثث موضوعة كل منها فوق الأخرى مثل المكرونة بين الجبن».

ولم ير بييترو سوى جثة أخرى كانت مرسومة ومطلية، وملفوفة فى الكتان. ولم تكن محفوظة بشكل جيد، ربما لأنها كانت قد دُمرت بأيدى الفلاحين، الذين وجدوها فى صندوقها الخشبى الذى كان مرسوماً على قمته وجه فتاة صغيرة . وخمَّن بييترو أن هذه الجثة ربما كانت ابنة الاثنين اللذين تم العثور عليهما بالفعل. وقد تم فتح الصندوق، وعند الفحص رأى الكثير من الكتابات الهيروغليفية المنقوشة عليه ، وهو ما أفرحه كثيراً لدرجة أنه جعلهم يرفعونه إلى الخارج:

«جعلتهم يكسرونه فى حضورى ، أولاً لأرى كيف كانت العظام بالبيتومين مرتبة فى داخل اللفافة ، ثم لأحصل على بعض المادة الدوائية ، وكما تعرف فإنه يقال إن المفضل منها ما يُؤخذ من الفتيات الصغيرات والعذراوات ، وأكثر من ذلك للنظر فى الداخل بين الأربطة فى حالة ما إذا وجدت أى أشياء غريبة ، أو أصنام ، أو أشياء من هذا القبيل ... ولذلك كسرتها ، ولكنى لم أجد شيئًا داخلها» .

كانت المومياء قد تحجرت فى كتلة صلبة من خليط من العظام والبيتومين لدرجة أن بييترو أقر بأنه فى رغبته لكسرها كان لابد من توجيه ضربات قوية جداً إليها بأدوات من الحجارة والحديد:

« من هذه المومياء المهشمة أردت لنفسى الرأس كلها وقطعة جيدة من البيتومين مع حفنة من تلك الأربطة ، أما الباقى، ولأننى شعرت أننى تلقيت من المال أكثر مما أنفقت فقد تركته كله لهؤلاء الفلاحين الفقراء الذين عادة ما يكسرونه بتلك الطريقة ويذهبون لبيع المادة فى القاهرة إلى أولئك الذين يشترونها سعيا وراء الربح الكبير فى التجارة ... وفى المقبرة نفسها رغبت أيضًا فى رأس امرأة (غادة أخرى حسب زينتها) مصنوعة من مادة زجاجية مغطاة بكثافة . وفى داخلها كان فراغ وخارجها ، كانت الرقبة والوجه مطليين، ولها حاجبان من الأبنوس أو نوع آخر من الخشب، مثبتان ، وكانت البقية من الذهب ومرسومة ، لاسيما على العنق والأكتاف بطريقة مثيرة جداً للدهشة بصور صغيرة لأصنام مصرية متفاوتة ، ومذابح كهنوتية وكتابات هيروغليفية غامضة . وفى هيئة قناع، كان هذا يستخدم للإحاطة بالرأس والعنق فى جثة كان الفلاحون قد استخرجوها أولاً. ولم تكن هناك عينان ويمكن للمرء أن يتبين أنهما قد نزعتا لتوهما، وأعتقد تمامًا أنهما ربما كانتا من الجواهر أو بعض المعادن النفيسة ، ومن ثم فعند أول فرصة سانحة أخذهما الفلاحون، ورموا الباقى الذى لم تكن له قيمة بالنسبة لهم . وفى منتصف الرأس فوق الحاجبين وعبرهما كان هناك رباط ذهبى محفور كله بكتابات هيروغليفية غير معروفة ؛ حيث يبدو أنه تمت إزالة شىء هناك، سواء كانت جواهر أو ذهب ، أو أية مادة ثمينة أخرى، أشعر بالتأكيد أنه كان على هيئة رأس الصقر الذى كان من أكثر الهيروغليفيات قيمة لدى المصريين. وجناحاه على الجانبين وبقية الجسم مع القدمين والذيل مرسومة بغرز صغيرة على الحجاب الذى يغطى رأس هذه المرأة كله، بحيث يحجب شعرها تمامًا، فيما عدا الأذنين البارزتين، وهم مطليتان أيضًا . وعلى الحجاب نفسه، وعلى الجزء الخلفى مرسومة صورة امرأة تلبس حُليًا سوداء وتمسك فى كلتا يديها، على كل جانب، أشياء غريبة معينة مع أخرى مشابهة ، على صحن مستدير فوق رأسها لا أعرف ماذا يمكن أن يكونوا، ولكنى أخمن أنها أشكال هيروغليفية غامضة والمرأة إما أن تكون إيزيس ، أو ربة أخرى، أو من الآلهة المرتبطة بالشئون الجنائزية . وأخذت تمثالاً صغيراً من الصلصال المحروق كان يرقد هناك على الأرض بين الرمال، وكان رأس العجل أبيس. وإذ كنت راضيًا لأن الحفارين

أخذوا كل ما أرادوه عدت إلى أعلى مسروراً . ثم أرسلت رجلاً إلى الخيمة لكى يحضر الحيوانات لنا ولحمل المواد التى عثرنا عليها؛ حيث كانت المسافة بعيدة ولايمكن حملها سيراً على الأقدام».

وهكذا ، بعد أن دفع بييترو للعمال أجورهم ، أمر برفع خيمتهم على حين تم لف ما عثر عليه فى سعف النخيل للحفاظ على سلامتها قبل أن توضع بأمان فى العربات . وفى وسط بعض الحسد من جانب أولئك الذين لم يشاهدوا غنائمه ، تقدم بييترو مظفراً إلى القاهرة؛ حيث وصلها بعد هبوط الليل بساعتين أو ثلاث: «ولاتندهش لأننى وصلت بأسرع ما يمكن؛ لأننى كنت قد رحلت لمدة ثلاثة أيام فقط ، ولم يحدث أن سافرت رحلة قصيرة لمدة يوم واحد». وبعد ذلك مباشرة ، أرسل مومياواته إلى إيطاليا عن طريق صقلية ؛ حيث «إننى سأمر هناك بنفسى فى طريق العودة، وآمل أن أجلبها معى».

وعن طريق الاستطراد الطويل فى خطابه المكتوب بعد الرحلة، أخبر بييترو ماريو شابيرو أنه كان قد صار مفتوناً بالحروف الهيروغليفية التى تزين المومياوات ، والتى ميز من بينها عناصر من القبطية . ولأن الخطابات كانت مختلطة ببعضها، فإن هذا قاده إلى الاعتقاد بأن الديانة القبطية(*) كانت قديمة إلى أبعد حد، أقدم من كل المذاهب الأخرى. وقد ظن أن اللغة القبطية كانت أقدم من اليونانية ، وأن العرب قد كتبوها عند الفتح:

«إن اللغة القبطية أو المصرية قد ضاعت بينهم ، وكون أنهم لايحتفظون بها سوى فى بعض الكتب المقدسة فقط، فإنهم لا يزالون يؤدون القداس بتلك اللغة . وبناء على ذلك أخذت معى عدداً قليلاً من الكتب، بما فى ذلك سفر داود كله ، وإنجيل يوحنا

(*) هذه تسمية غريبة ، فليست هناك «ديانة قبطية Coptic religion ». والأقباط بصفة عامة هم المصريون بغض النظر عن دينهم، والاشتقاق فى اسم مصر الذى تحول إلى Egyptus، ثم Egypt، أو L'Egypte... وما شابهها معلوم. وقد درج الكُتّاب والمؤرخون المسلمون على وصف المصريين القدماء باسم «القبط»، ولم يقصدوا الإشارة إلى ديانة. والأهم من هذا وذاك أن شطراً من المصريين يعتنقون الدين المسيحى ولايعتنقون ما يشير إليه النص باسم «الديانة القبطية» . (المترجم).

وبعض الكتب الأخرى التى عندما أعود إلى إيطاليا بنعمة الرب، سوف أستطيع أن أريك إياها ، وأن أقرأها لأولئك الذين قد يكونوا مهتمين ، وعلى الأقل أحفظها لتزين مكتبتى . ولكن هناك كتاباً كنت محظوظًا للغاية أن وجدته . وهو يحتوى على أربعة مؤلفين كتبوا بالعربية (باختصار فى الحقيقة ولكنه يكفى فيما بينهم) أجرومية هذه اللغة المصرية، وعلاوة على ذلك قاموسان يحتويان على أكثر من ستة آلاف كلمة مصرية، وأكثرها أهمية تمت ترجمتها بأمانة إلى اللغة العربية . وسواء فى روما، أو فى أى مكان آخر؛ حيث يبدأ بعض فهم اللغة العربية، يمكن حتى أن نجد أحداً يمكن استخدامه لترجمة هذا الكتاب الذى بحوزتى إلى اللاتينية ، ومن المؤكد أننى سوف أفيد منه باجتهاد ، وبواسطة الطباعة ربما أكون قادراً على توزيعه على رجال العلم فى جميع أنحاء العالم».

اعتقد بييترو أنه على الرغم من أن هذه الكنيسة المسيحية القديمة فيما وراء البحار كانت قد انفصلت عن روما منذ قرون عديدة ، فإنها كانت قد حافظت مع هذا «على كل النصوص المقدسة فى لغتهم وأشياء أخرى كثيرة فى ديانتهم » كانت تتفق مع العقيدة اللاتينية ، ولذلك فإن هذه الأشياء كلها كانت ستشكل قضية قوية جداً ضد الهراطقة المحدثين فى أوروبا ، والذين انشقوا بطرق عديدة للغاية عن الوضع الراهن. وقد تحققت رغبة بييترو جزئيًا ، بسبب المخطوط الذى جلبه معه فى عودته إلى إيطاليا . ذلك أن أثانيوس كيرشر Athanius Kircher (١٦٠٢-١٦٨٠م) ، وهو قس چيزويت متعلم ، وأستاذ الرياضيات بجامعة روما وعالم فقه لغة (فيلولوچى) بارز، قام على أساس هذه المادة بإنتاج منشورين عن اللغة القبطية أسهما فى فهم اللغة ووضعها الأساس للدراسات القبطية فى أوربا . وفضلاً عن ذلك، كان كيرشر مقتنعًا بأن ملاحظاته عن الروابط الرمزية بين الحروف الهيروغليفية المصرية الفردية سوف تؤدى إلى حل ألغازها فى نهاية المطاف. كانت جهود كيرشر علامة على منعطف فى تاريخ علم المصريات بفضل إسهامات بييترو ديلاڤالى .

ولم يكن بييترو راضيًا بإنهاء رحلاته فى مصر . فقد عقد العزم على إرضاء فضوله ومواصلة رحلته شرقًا لزيارة فارس والهند . وبناء على ذلك ، قام فى أواخر

صـيف سنة ١٦١٦م باتخـاذ الطريق الصـحـراوى إلى بغـداد ، التى وصلها يوم ٢٠ أكتوبر . وفى طريقه واجه بعض المغامرات الخطيرة ، وقدراً كبيراً من سوء الحظ عندما قام توماسو فى نوبة غضب بسبب الغيرة بطعن لورنز بسكين ، ونتج عن ذلك اختفاء توماسو فى دمشق . وهكذا فقد بييترو اثنين من خدمه الإيطاليين كانا قد صحباه من روما . وعلى أية حـال يبدو أنه كان قد عوفى من حبه الذى استمر اثنى عشر عامًا لبياتريس بوراكشيو ؛ لأنه فى خطاب طويل إلى ماريو شابيرو بتاريخ ٢٠-٢٣ ديسمبر ١٦١٦م، كشف عن أنه كان قد تزوج من فتاة بابلية جميلة اسمها معانى چويريده . وقد سافرا سويًا إلى أصفهان على البغال وسط الثلوج والجليد فى كردستان. وبينما هو فى فارس، حصل بيترو على مقابلة مع «شاه عباس» القوى، وهو رجل ذو شخصية مؤثرة جعلته قوة إغراءاته يبقى فى البلاد على مدى ست سنوات . وعندما كان فى النهاية يركز أفكاره على الوطن، ضربه سوء الحظ مرة أخرى عندما ماتت زوجته العراقية، ولأنه كان صادقًا فى اهتمامه بالمومياوات فى سقارة، أمر بتحنيط جثتها، وحفظها معه فى قمرته بالسفينة التى عادت به .

ولابد أن المومـياوين المرسـومـتين الثمينتين اللتين كانتا بحوزة بييترو كانتا محميتين جيداً بسعف النخيل فى الطريق إلى القاهرة، وقد تم تغليفهما جيداً من أجل الرحلة البحرية إلى إيطاليا ؛ لأنهما وصلتا فى سلام إلى روما فى النهاية. وفى سنة ١٧٢٨م ، تم بيعهما بأوامر من ضيعة الكونت شيجى Chigi إلى المكتب البلدى فى درسدن ، وتشكلان الآن جزءًا من المجموعة المصرية فى قاعة الفن بدرسدن Dresden Art Gallery.

هوامش الفصل السابع

General: I. Edwards, The Pyramids of Egypt (the Gizeh Group, pp. 116-69); Petrie, Pyramids and Temples of Gizeh, p. 84. Mummy (as a drug): Harris, 'Medicine', pp. 130-35; Bates, 'Mohammedan Europe', pp. 182-239; Sauneron (ed.), Voyage en Egypte de Pierre Belon (Francis I carried it on horseback, p. 117a). Mummy (as a commodity): Heyd, Histoire du Commerce du Levant, II, pp. 635-36; Evans (ed.), Francesco Pegolotti, La Practica delta Mercatura, p. 295.The explorers, pyramids: Sauneron (ed.). Voyage en Egypte de Pierre Belon, pp.113a-17a; Bellorini and Hoade (ed. and trans.), Francesco Suriano, pp. 196-97; Sauneron (ed.). Voyages en Egypte, S. Kiechel, H. Teufel, pp. 105-20, 160-64; da Schio (introd.), Viaggio di Filippo Pigafetta, pp. 168-81; Greaves,Pyramidiographia (description of the interior of the first pyramid, pp. 85-101). The explorers, mummy fields of Saqqara: Sauneron (ed.). Voyage en Egypte de Pierre Belon, p. 117a-b; da Schio (introd.), Viaggio di Filippo Pigafetta, pp.182-84; Sauneron (ed.). Voyages en Egypte, S. Kiechel, H. Teufel (fear of fire inmummy pits, pp. 161-62). Pietro della Valle's excavations; Dioxiadis, The Mysterious Fayum Portraits (see especially portrait mummies of a man and woman from the time of Galienus appropriated by Pietro della Valle, pp. 18-19,122-25, Figs. 9-12); Parlasca, Mumienportrats, p. 18 and nn. 4, 5 (Dresden mummies illustrated in 47.3, D, 1, 2.); Whitehouse, 'Egyptology and Forgery', p.188; Pietro della Valle, Viaggi di Pietro della Valle (sea voyage, pp. 19-20; journey to Cairo, pp. 304-61; excavation of mummies, pp. 372-90; Coptic manuscripts, pp. 395-98; sent mummies back to Naples via Sicily, p. 399); Bull (ed. and trans.),The Travels of Pietro della Valle, pp. x-xvi, 3-63 .Coptic manuscripts: Volkoff,A la Recherche de Manuscrits en Egypte', pp. 45-47; Iverson, 'The HieroglyphicTradition', pp. 190-92; Janssen, 'Athanase Kircher Egyptologue', pp. 240-41;Whitehouse, 'Towards a Kind of Egyptology', pp. xii-xiii, 65-79.

الفصل الثامن

حجاج دير سانت كاترين

بعد الصلاة فى الكنائس القديمة بالفسطاط ، وبعد أن يكونوا قد ذاقوا مباهج القاهرة، وتجولوا حول الأهرام ، كان الحجاج الأوروبيون يستعدون للرحلة إلى دير سانت كاترين فى سيناء عبر الصحراء ، وهى ذروة جولتهم المصرية. كانت تلك رحلة شاقة وخطيرة تستغرق فى المتوسط ٢٢ يومًا ذهابًا وعودة فى الحرارة الشديدة والبرد القارص. ويكاد يكون كل من كتب عن تجاربه قد بذل جهدًا للإمساك بالكلمات التى تعبر عن الوحشة والعزلة فى شبه جزيرة سيناء . وقد ذهب فليكس فابرى، وهو راهب دومينيكانى من أولم، فى رحلة حج مع مجموعة من النبلاء الألمان سنة ١٤٨٣م من القدس، عن طريق غزة ، إلى دير سانت كاترين ، وقد وصف الصحراء الكبيرة كما يلى: «لاتوجد قرية ولابلدة ... وليس هناك بيت ولانُزُل ، ولاحقل ولاحديقة ، ولاشجرة ولاعشب ، لاشىء سوى الأرض الرملية التى تحترق تحت حرارة الشمس الحامية».

ولكن سواء كان الرحالة من المسيحيين الذين يقصدون سيناء أو من المسلمين الذاهبين فى رحلة الحج التى تستغرق أربعين يومًا إلى مكة، كانت خصائص الرحلة واحدة ، وكانوا يسافرون غالبًا فى الظلام تجنبًا لحرارة الشمس ، ويتهادون عبر سكون الليل وصمته تحت ضوء النجوم البراقة التى تتألق فى السماء المخملية. ويبزغ الفجر مصحوبًا ببرودة الجو، وأحيانًا تمسك به أسنان الريح القارصة التى تصير مع الظهر حرارة لافحة تلهب السحب وتثير الرمال التى تغضّن الجلد، وتعتم الرؤية وتجفف

الحلق . وفى بعض الأحيان كانت دوامات الريح العنيفة تجعل السماء سوداء وتبعثر نيران المعسكر، وتلقى بالرمال فى كل مكان كما لو كان مياهًا جارية لدرجة أن الوديان الصغيرة المتلئة حديثًا تصير فخاخًا للإنسان والحيوان . «وعندما يجد رجل نفسه هناك وتثور الريح يمكن أن يعتبر رحلته منتهية؛ لأن الحركة كبيرة للغاية والسحابة التى تثيرها تلك الرمال كبيرة لدرجة أن أى رجل يمكن أن يختنق داخلها». وكادت النظافة أن تكون مستحيلة ، وكانت الحشرات تنتشر فى الجسم . وعلى أية حال ، لم يكن هناك أحد يُعفى من ذلك. وقد تحدث فليكس فابرى عن تجربة : «واأسفاه على أولئك الذين كان شعرهم طويلاً ؛ لأنهم كانوا يحملون معهم مأوى وملاذًا للقمل ... ومزيد من الأسف أيضًا على أولئك الذين كانوا كسالى بحيث لاينظفون أنفسهم ليلاً ؛ لأن القمل سوف يتزايد فى أية لحظة بأعداد ضخمة». ولكنه مأخوذ بالعظمة الصامتة المطلقة للصحراء ؛ حيث كان هناك « فى كل يوم مشهد جديد كل ساعة تقريبا لأرض جديدة وطقس جديد وجبال ذات أشكال جديدة وألوان جديدة» . وكان كثيرون ينسون بشكل مؤقت المتاعب الجسدية والمادية ؛ حيث كان الهواء الجاف يطرد التراخى الذى تسببه الحرارة المشبعة بالرطوبة . قال فليكس «أحسست بمزيد من السرور فى البرية القاحلة أكثر من أى وقت مضى فى أرض مصر الخصبة الغنية بكل جمالها الجذاب ».

قبل الرحيل كانت هناك مفاوضات بلانهاية مع موظفى البلاط الإداريين؛ فقد كان عددهم زائدًا ، ويفتقرون إلى الحمية ولكنهم حريصون على كرامتهم ، وكانوا يختمون ويغلقون التصاريح الضرورية باسم حاكم مصر للسماح للمسافرين الأوروبيين بالتنقل فى أراضيه. وقد اختلفت أسعار هذا التصريح بالمرور الآمن، ففى سنة ١٣٥٠م ، دفع الراهب الفرنسيسكانى نيكولو دى بوجيبونسى Niccolo di Poggobonsi عشرين درهمًا من الفضة ، وفى أكتوبر سنة ١٣٨٤م لاحظ ليوناردو دى فريسكو بالدى أن مجموعته المكونة من ٢٠ شخصًا من توسكانيا دفعوا ٩٦ دوكات ذهبية طلبها كبير التراجمة فى بلاط السلطان برقوق، وهو موظف كان أيضًا «يرغب فى أشياء أخرى

كثيرة منا» ، ثم تلى ذلك المساومة المطولة من أجل استئجار الجمال القوية ؛ إذ كانت جمال المدينة تستخدم عادة فى حمل الأمتعة ، وتشق طريقها عبر شوارع القاهرة الضيقة ، ولذلك لم تكن تصلح بالمرة لمثل هذه الرحلة؛ إذ إن أقدامها الناعمة لم تكن لتتحمل خشونة الصخور والرمال. ولحساب نيقولو دى بوجيبونسى، أرسل المترجم مسلمًا إلى الصحراء لإحضار بعض الجمال من العرب الذين كانوا يؤجرونها، ووصلت الحيوانات بعد ستة أيام «وتبدو وكأنها مصنوعة من الحديد بحيث تتحمل الكثير من المشاق». كانت الحياة الاقتصادية للبدو الرحل، الذين يسافرون بين الواحات التى لايمكن توقعها، قائمة على أساس توريد الجمال، التى كانت قد تمت تربيتها بأفضل طريقة على المراعى الخشنة فى المرتفعات بأشواكها المغذية القوية . وكانت تعرف بالغريزة الطريق على الأرض التى لاممرات بها إذا كانت قد اجتازت هذا الطريق من قبل، على الرغم من أن العظام البيضاء لتلك التى تخدم القوافل يمكن رؤيتها على امتداد الطرق المعروفة؛ حيث تحوم أسراب كبيرة من النسور المفترسة على استعداد للإنقضاض على الجمال المريضة الواهنة التى لاتستطيع الوقوف. وصدر مرسوم يحظر على البدو أن يحملوا مسافرين أو بضائع داخل المدينة وإلا تعرضوا للسجن ومصادرة حيواناتهم . وهكذا كانت السلطات تمنع النهابين الذين يدخلون عبر البوابات من السرقة والنهب عندما يشاءون .

ووجد نيكولو أن الجمل الجيد يمكن أن يحمل من المتا ع ما تحمله عشرة حمير، وأنه على الرغم من تقشفه فإنه حيوان متقلب للغاية، «ولكن عندما يريد الجمال أن يمضى بسرعة يعزف على آلة ما أو يغنى شيئًا وعندئذ يمضى الجميع سعداء وراضين دون توقف» ، وبالنسبة لمعظم الغربيين كانت الأغانى أشبه بصيحات رتيبة أجش وصفير ، بل نقيق الضفادع فى إيقا ع تتخلله مساحة من الصوت الذى يشبه مشية الفرس . ووافق نيقولو على سعر ستين درهمًا للجمل الواحد من القاهرة إلى سانت كاترين، على الرغم من أنه كان معروفًا أن أولئك الذين لايعطون بقشيشًا mangeries ولايتقاسمون طعامهم مع مرشديهم كانوا يتعرضون للتعطيل والإهانة ، وبحكم العادة

كان البدو يعتبرون جميع المسافرين وسيلة لكسب العيش ، ويضعون قواعدهم الخاصة لكيفية الحصول على هذا.

كان الراهب سعيداً أنه ورفيقه وجدا سبعة حجاج آخرين فى القاهرة لمرافقتهم. ولم يذكر أسماءهم ، ولكن اثنين منهم كانا من إنجلترا ، وواحد من بلاد الشام، واثنان من القسطنطينية ، وكانوا محظوظين لأنهم وجدوا مرشداً أميناً ذا ضمير حى أعجبوا به جداً، وكان «رجلاً طيباً عادلاً حسب شريعة محمد» . كان اسمه سعيد، وفى ذلك الوقت كان عمره ٣٥ سنة ، وكانت لسعيد شعبية فى أوساط الحجاج؛ لأنه فى سنة ١٣٨٤م، أثناء حكم السلطان برقوق، كان سعيد نفسه هو الذى عمل مرشداً مع ابنه ومترجماً لمجموعة ليوناردو دى فريسكو بالدى، من الإسكندرية إلى القاهرة.

فى السقائف المزدحمة بالأسواق ذات الضجيج ، اشترى نيكولو الجبن، ولحم الضأن والسلطة والخل (الذى يستخدم أيضا لغسل أجزاء معينة فى الجسم) من أجل الرحلة. واشترى المسافرون الآخرون الزيت والعسل والدقيق والبصل والدجاج وديكاً لإيقاظهم فى الصباح والحمص الذى يمكن تحميصه فى إناء بدون ماء. وعندما انطلق الدكتور الفرنسى بيير بيلون قاصداً الدير فى سنة ١٥٤٧م مع السفير الفرنسى مسيو دى فومى، سافروا بقدر من الأبهة ومعهم عشرون من الإنكشارية لحراستهم، كان الموكب يملك من الموارد ما يكفى لشراء لحم الضأن قبل الرحيل. وسلقوا كمية كبيرة ، وتم تقطيعها إلى قطع، وتمت إزالة العظام ، ثم طُهى اللحم بالدهن وبعض البصل حتى تبخر السائل ، وبعد ذلك تم تمليحه ووضع التوابل عليه ، ثم وضع فى البراميل وحمله جمل منفصل . وحتى فى حرارة الصحراء كان اللحم يحفظ لوقت طويل ، وبعد خمسة عشر يوما عندما أعيد تسخينه مع مزيد من البصل كان طعمه مثل المحمرة التى طبخت لتوها ، وصنع العرب خبزهم الخاص بهم كل يوم . وكانوا ينشرون جلود الأغنام على الأرض وعليها يخلطون عجيناً من الدقيق والماء، وعندما يصير العجين جاهزاً على شكل كعكات عريضة مسطحة ، يخبزونه بين الرماد والفحم النباتى ، حتى يُخبز ويصير خبزاً طيب المذاق ، ويأكلونه مغموساً بالزيت . وكان اللحم النيئ يُحمَّر بين الأحجار التى سخنتها الشمس.

ومات كثيرون من العطش ، وكان يمكن مشاهدة أولئك الذين كانوا على حافة الهلاك يجرون فى المخيم هنا وهناك يستجدون حتى ملعقة ماء «حبًا فى السماء»، وكان الماء يحمل بطريقة غير صحية تمامًا، فى جلود الماعز غير النظيفة ، بل إنها فى بعض الأحيان كانت جلودًا جديدة، ومليئة بشعر الحيوان: «إذا ما شربت من الماء فى جلود الماعز ، يكون فاترًا، وليس هناك جسد مهما كان يعانى الإمساك لايحركه هذا الماء. ومن فضل الرب أننا حملنا معنا بعض عصير الليمون، غالبًا ما كنا ننعش أنفسنا به».

كانت المعدات المتفاوتة الأساسية للرحلة الشاقة ضخمة جدًا . وكانت الأحمال توضع على خُرج الجمل، على وسط السنام دونما تثبيت ، ومحملة بالتساوى فى كل جانب . وفى بعض الأحيان كان المسافرون يركبون فى صندوق مغطى بجلد حيوان لكى يظللهم من الشمس أو يجلسون وجهًا لوجه أزواجًا فى سلال مجدولة من سعف النخيل، على حين تكون ممتلكاتهم على الجانب الآخر. وكانت الجمال الزائدة تُقاد مع القافلة تحمل سلالاً لحمل المرضى، ولكن بعض غير المحظوظين كان يمكن طرحهم وتركهم يموتون فى الطريق إذا ما كانت حالتهم سيئة للغاية لاسيما إذا كان قائد القافلة يعتبر أن ذلك يعيق التقدم إلى منبع الماء التالى. وعلى امتداد الطرق المسلوكة جيدًا كان يمكن رؤية جثث الرجال الموتى ، وهى تجيف ناتئة من الرمال، وكان البدو يلتقطون جثثهم ؛ حيث يأخذون منها ما يمكنهم .

وفى الطريق إلى دير سانت كاترين، كان كثير من الحجاج ينتهزون الفرصة لزيارة حديقة المطرية التى تقع على مسافة حوالى أربعة أميال شمال القاهرة، وكان المسيحيون يبجلونها ؛ لأنها، حسب الموروث ، كانت المكان الذى استراحت به العائلة المقدسة فى هربها إلى مصر . وكان يمكن رؤية شجرة جميز كبيرة وعتيقة إلى جوار بوابة الفناء. وكانت معروفة باسم شجرة العذراء ، وحسب الأسطورة ، وفرت الظل للهاربين فى رحلتهم الساخنة . وفى جذعها المجوف كان هناك مصباحان يضيئان باستمرار . وحكت أسطورة أخرى عن الماء المتدفق من الأرض

٨-١ «نعامة وكيف تنزل من فوق الجمل»

عندما ضربها الطفل عيسى بكعبه. وبمرور الوقت تحولت الأرض حول النبع المقدس إلى حديقة حيث، فى القسم الداخلى ، تمت زراعة شجيرات البلسم المشهور . وبعد قرية عين شمس (هليو بوليس) بقليل كانت توجد مسلة (أقامها الفرعون سيتى الأول) والتى حكم المسافرون الموسميون بأنها أكبر من المسلات الموجودة فى الإسكندرية وفى الملعب (الهيبودروم) بالقسطنطينية . وتحكى ثرثرة المرشدين عن أن الفراعنة الذين بنوا الأهرام الذين كانوا قد أقاموها منذ زمن طويل مع تماثيلهم الضخمة. وكانت المطرية التى تقع فى الأرض الخصبة على حافة الصحراء منتجعًا جذابًا لكبار أمراء المماليك الأثرياء مثل الأمير يشبك، الذى بنى منزلاً بقبة حيث كان يستقبل صديقه وسيده السلطان قايتباى ويسليه . ومن حين إلى آخر، كان قايتباى يقيم خيامه الفاخرة قرب الحدائق حيث كان يولم مآدب عامرة، وكان هو وضيوفه يلهون ويمرحون فى الحمامات الجليلة التى كان بها ثلاثمائة حمام فى حجرات مرسومة ، ولها شرفات تطل على الريف . وقبل مائة سنة من زمن قايتباى ، زار جيورچى جوتشى، مع أصدقائه التوسكانيين ليونارد فريسكوبالدى وسيمون سيجولى، ڤيلا السلطان التى

كانت «جميلة وكبيرة». وكانت هناك حديقة مليئة بالنخيل وأشجار الفاكهة الجيدة ؛ حيث زرعت شجيرات البلسم الشهيرة، التى كان السلطان يستخدم الكثير من العمال والكتبة لحراستها ورعايتها؛ فقد كان البلسم بضاعة غالية تحقق له عوائد كبيرة . ولاحظ جيورجى أن الكتبة كانوا يسجلون بدقة كل ما كان يتم جمعه من البلسم .

وقرب نهاية القرن السادس عشر ،كان قد تم تطوير المنطقة بشكل يبعث على السرور. وقد وصف الرحالة التشيكى كريستوفر هارانت الأجنحة المفرحة المزينة التى بناها الحكام السابقون، وكذلك وصف نُزلاً للحجاج القادمين من سيناء فى انتظار الدخول إلى القاهرة.

«زرنا أولاً كنيسة صغيرة مبنية على الطراز الإيطالى، وكان قد تمَّ تجديدها وتوسيعها على يد القنصل الفرنسى ، على الرغم من أنها بنيت فى الأصل على يد قنصل البندقية عام ١٥٥٣م ، ولأن القنصل الفرنسى قد سمح بهذا دون إذن وبدون أن يدفع الضرائب ، كان عليه أن يدفع غرامة قدرها ألفى تالر (عملة فضية أوروبية فى ذلك الحين) ، وهو نفس المبلغ الذى تم إنفاقه على البناء نفسه حسبما تقول الشائعات ... وبهذه الطريقة نجا من خطر أكبر ، لأنه ليس من حق المسيحى الأوروبى أن يبنى، ولا أن يُعيد بناء، أو توسيع بناء بدون أن يدفع الضرائب وبدون إذن مسبق».

فى داخل الكنيسة الصغيرة، كانوا يشربون من نافورة مربعة مصنوعة من الحجر المكسو عمقها أقدام قليلة ، تفور بالمياه العذبة النظيفة . وبعد فترة من التخريب ، تم إصلاح السواقى ، وتدفقت المياه الرائقة من خلال القنوات. وكان مسموحاً لهم بتذوق الجميز من شجرة مريم، والتى كانت مثمرة طوال العام ، ولكنهم وجدوه صغيرا لاذعاً. وبالقرب من البوابة شاهدوا عدداً من شجيرات البلسم فى الحديقة أغصانها فى سُمك منقار الأوزة تقريباً، وكانت الأوراق تشبه أوراق الريحان ، إلا أنها أكبر حجماً . وعلم كريستوفر أن النباتات التى شاهدها قد جُلبت إلى مصر من جوار مكة سنة ١٥٧٥م ؛ حيث أمر الباشا فى القاهرة بجلب أربعين شجيرة، وفى كل سنة كان «إمبراطور

تركيا» يرسل ١٥٠ دوكات إلى أمير مكة . وفى المقابل، كان أمير مكة يرسل أربعمائة قطعة من أفخر أنواع الحرير الهندى وثلاثة أو أربعة أرطال من البلسم(*).

كان عدد الناس الذين يسمح لهم بدخول الحديقة فى وقت واحد يتحدد بصرامة من جانب المسئولين عن الحديقة ، وهم من المسيحيين بحكم العادة، وكانوا يتوقعون «بقشيشًا» كبيرًا .

ولأن كل جزء ومنتج من النبات كانت له قيمة بسبب خواصه الطبية المزعومة ، كانت تتم مراقبة الزوار بحرص ، حتى لاينزعوا أية أوراق أو أغصان صغيرة لكى يأخذوها معهم. وكان معظم الحجاج الأوروبيين يقارن نباتات البلسم بالكروم التى كانت تتطلب التشذيب سنويًا ، على الرغم من أن كريستوفر علم أن الأغصان كانت تُشذب مرتين فى السنة فى حضور الأطباء الأتراك الذين يرسلهم الباشا ، وأن العصير الذى كان يسيل منها كان دائمًا أبيض اللون؛ وبعد أيام قليلة يتحول اللون إلى الأخضر مثل الزيت، ثم إلى لون أصفر مثل لون العسل. وقد شاهد إيمانويل بيلوتى ، التاجر البندقى الذى كان يصدر البلسم إلى أوروبا ، بين بضائعه المختلفة، الأوراق تنزع من النبات بطريقة تجعل الأغصان تفرز سائلاً أشبه بالعرق، وبعد ذلك يعصر «الجنانينية» الأغصان بأيديهم ، ويضعون السائل فى قوارير غالية من العاج. وقد دفع جيورجيو جوتشى مبلغًا كبيرًا مقداره اثنان من الدوكات الذهبية ثمنا لقارورة صغيرة جدا كانت قد جُنيت خفية ، أمام أعينهم ، بأيدى أربعة مسلمين : «وعندما ينزع الغصن القريب من الفرع السميك يبدأ فى التنقيط مثل شجرة العنب فى شهر مارس وتذرف دمعات صغيرة قليلة جدًا . وبقطعة صغيرة من القطن المضغوط يجمعون البلسم المذكور، وعندما تتشبع القطنة يعصرونها فى القارورة».

كانت كل أجزاء النبات للبيع ؛ فالعصير والأغصان كانت تباع للمسيحيين الأوروبيين بكميات كبيرة. ومع اهتمام بيير بيلون دومانس وبرسبيرو ألبينى من بادوا ،

(*) هذه الشائعات التى سمعها كريستوفر لا أساس لها جملة وتفصيلاً حسب المصادر التاريخية (المترجم) .

الشديد بالنباتات الطبية وكلاهما طبيب عارف، فإنهما كتبا مقالات علمية عن البلسم وخصائصه اقتبس منها الرحالة المتعلمون بحرية. ولاعجب أنه مع مثل هذه الدعاية من رجال بارزين ، فإن الأدوية المصرية المفترضة مثل البلسم ومسحوق المومياء كانت محل طلب. ومثل المومياء (مسحوق المومياء) كان البلسم دواء عالميًا لجميع الأمراض، يوصف لأمراض الأذن والعين ، وحصوات المرارة ويستخدم للوقاية من الطاعون ومضاداً للسموم وعلاجًا للعقم. وكان يُباع فى الصيدليات بجميع أنحاء أوروبا، بل إنه كان تجارة رائجة فى براغ. وكان بيع البلسم مصدر ربح كبير لحكام مصر وكانت الأسعار فلكية، وحتى مع هذا فإن الطلب غالبًا ما فاق العرض ، وكانت السوائل المغشوشة تضاف إليه . وسمع الحجاج الأوروبيون حكايات عن المسلمين الذين يمارسون الكثير من الحيل والغش ، لدرجة أنهم يضعون اللعاب فيه . وكان هذا كله يُباع تحت الاسم السحرى «بلسم» ويتم تسويقه كما هو للسذج الغافلين .

كان كريستوفر هارانت من براغ، الذى كان إنسانًا بهيجًا ومتسامحًا بطبعه ، ناقداً بشكل غير عادى لطيش النساء التركيات والعربيات الكسالى فى القاهرة . ذلك أنهن كن يستخدمن بإسراف نزق البلسم الغالى باعتباره من لوازم التجميل فى زياراتهن الكثيرة للحمامات. وفى رغبتهن الشرهة للحصول على بشرة ناعمة طرية ، كانت السيدات تغطين أنفسهن بكمية كبيرة من السائل، ثم ترقدن لمدة ساعة فى الحرارة الجافة حتى يمكن أن يتشربه الجسد، وعند عودتهن إلى المنزل لاتجففنه ولاتزيلنه. وفى اليوم الثالث يرجعن إلى الحمام ويكررن العملية. وعلى مدى خمسة عشر يومًا يستمر العلاج بنفس الطريقة ، وبعد ذلك يُعطى الجمال المتجدد عملية تدليك مريحة وعلاجية بزيت اللوز المر قبل غسله نهائيًا بمزيج من التوت .

بعد وفاة قايتباى ، حاق الدمار بحديقة البلسم بشكل يكاد يكون تامًا فى ٧ أغسطس سنة ١٤٩٦م، عندما شهدت شوارع القاهرة صدامات مسلحة ، وهُدمت البيوت ونُهبت وتعرض سكانها للهجوم؛ إذ كان السلطان المسن قد رتب لابنه محمد البالغ من العمر أربعة عشر عامًا ولاية العرش من بعده ، ولكن المماليك الذين لم

تعجبهم الفكرة ثاروا متمردين وحاصروا القلعة(*). وهرب السلطان المراهق وأتباعه إلى المطرية ؛ حيث تم تدمير شجيرات البلسم ، وتخريب السواقى التى كانت تدور للرى، وتم الاستيلاء على الثيران التى كانت تديرها. ولم يعمر السلطان محمد طويلاً ؛ إذ تم اغتياله بعد سنتين ، وبعد ذلك سقط المكان فى غياهب الإهمال ، ولم يُزرع شىء فى الحديقة لمدة عشر سنوات .

بعد مغادرة السويس ، كان الطريق إلى دير سانت كاترين يتفرع إلى الجنوب الشرقى ، وفى البداية يتبع السواحل الضيقة للبحر الأحمر على الشاطئ الغربى لسيناء. وعند ميناء الطور يدخل شرقًا فى داخل الصحراء عبر وادى فيران، ثم يمضى على حافة قمة جبل فيران (بنات) على الناحية اليمنى ، قبل أن يتحول أخيراً باتجاه الجنوب صوب قمم الجبال العالية وجبل موسى وجبل سانت كاترين.

وإذ لم يلق ليونارد دى فريسكو بالدى وفريقه من التوسكانيين بالاً إلى حماية القافلة الكبيرة التى كانوا بها ، اعتماداً فقط على مرشديهم فى قيادتهم ، غادروا القاهرة يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٣٨٥م فى درجة حرارة هائلة لايمكن قياسها ، وعانوا بشدة من أشعة الشمس التى بدا أنها كانت تضربهم بلا رحمة ، وظهرت وكأنها تومض مثل التقلصات ، من الفجر حتى الغسق ، وصارت بشرتهم سوداء تقريبًا . وكانوا قد استأجروا ثلاثة عشر جملاً وستة بغال قوية بسروجها وركابها من الحبال، وسافروا طوال اليوم حتى الساعة العاشرة مساءً ؛ حيث أنزلوا الأحمال من على الحيوانات ، ونصبوا خيمة من الجلد ارتفاعها ثلاثة أذرع وطويلة جدًا لدرجة أن ستة أفراد منا يمكن أن يكونوا تحتها ورؤوسهم وأكتافهم مغطاة» ، وناموا على حواشى

(*) كان الأساس الذى قامت عليه سلطة الحكم فى عصر سلاطين المماليك تتلخص فى عبارة «الحكم لمن غلب» ، ولم يؤمن المماليك بمبدأ الوراثة . وفى بعض الأحيان كانوا يقبلون «السلاطين الأطفال» بشكل مؤقت حتى يحسم الصراع على العرش بين المتنافسين الذين يفوز من بينهم الأقوى والأقدر على الإيقاع بالآخرين. كانت طبيعة السلطة وليدة الظروف التاريخية التى أفرزت دولة سلاطين المماليك من جهة ، ونتيجة الممارسات المملوكية التى اعتمدت على أعداد المماليك الذين يتبعون الأمراء من جهة أخرى . (المترجم)

صغيرة خفيفة كادت أن تختفى فى الرمال تحت ثقلهم. وفى الصباح استغرق الأمر حوالى ساعة ونصف الساعة قبل أن يستعدوا لامتطاء حيواناتهم ، وهم يأكلون طعامهم أثناء ركوبهم ، وكانت المجموعة تطهو إحدى دجاجاتهم كل عدة أيام قليلة، وحملوا معهم برميلين صغيرين من الخمور ، والفواكه المجففة والسكر وقليلاً من اللحم ، واللوز الجاف والأرز. وفى بعض الأحيان كانوا يمرون على وديان صغيرة ؛ حيث شاهدوا عدداً قليلاً من الغزلان ، والأرانب البرية والذئاب ، والنعام والقنافذ بأعداد كبيرة . وكانت هناك أعداد كبيرة من طائر الحجل والدراج ولكن أحداً لم يستطع الإمساك بها . ولأنهم شكوا فى أن يكون مرشدهم متحالفًا مع العرب المحليين واعتبرهم ثمرة ناضجة حان قطافها ، كان عليهم أن يستمروا فى حراسة ممتلكاتهم. لقد كان تناقضاً حاداً بالنسبة لأولئك الذين لم يكونوا معتادين على هذا البلد الغريب أن يعبروا على نحو مفاجئ الحدود بين الحقول الخضراء المروية بنخيلها المتمايل ومياه النيل الوفيرة، إلى عالم مختلف من البرية القاحلة والرمال الجرداء.

حتى على الرغم من أن التوسكانيين كانوا قد قرروا أن يمضوا اعتماداً على أنفسهم؛ فقد كان من الحصافة دائمًا بالنسبة للحجاج المسافرين فى مجموعات صغيرة أن يصحبوا إحدى قوافل الحجاج حتى السويس على الأقل . وبالتالى ، كانت بعض هذه القوافل تتبع الطريق الشمالى إلى القدس ودمشق، أو الطريق الجنوبى إلى الطور ، إلى الغرب من شبه جزيرة سيناء، حيث كانت التوابل وغيرها من البضائع ترد من الهند. ومثل جميع المسافرين الآخرين فى الصحراء، كان أولئك الذين يقصدون سانت كاترين يغادرون القاهرة بالخروج عبر باب النصر ذى العقد الضخم ، والذى يؤدى إلى طريق السويس ويقيمون خيامهم بين الكثرة المتجمعة فى الليلة السابقة للرحيل. ومنذ ذلك الحين فصاعداً يكونون تحت القيادة التامة لقائد كانت كلمته قانونًا طوال الرحلة. وكان يعطى إشارة بداية الرحلة، ويحدد النظام الذى يجب عليهم اتباعه ويحدد أوقات الراحة والطعام. وكان أى نزاع يُحال إليه وكانت له سلطات توقيع العقوبة الاستبدادية على أولئك الذين يعتبرهم على خطأ . حتى لو كانوا أبرياء ، كان بعض سيئى الحظ

يجبرون على الخضوع لغطرسة المشرفين التى لايمكن التنبؤ بها وحقدهم ، والذين قد يعتبرونهم أقل أهمية من المذنبين المعتدين الأقوياء . كانت القوافل تضم نخبة متنافرة من الناس، وكان بعضهم ينضمون إليها على طريق الدلتا شمال شرق القاهرة . وعندما ذهب چورج سانديس George Saundys وهو مسافر إنجليزى، إلى فلسطين من القاهرة سنة ١٦١١م ، انضمت بعض النسوة اليهود العجائز إلى صحبتهم. وكن يحملن معهن عظام آبائهن، وأزواجهن وأولادهن وأصدقائهن وجئن من جميع أنحاء العالم للقيام بالرحلة المتعبة إلى القدس، فقط لكى ينهين حياتهن هناك.

ووراء السويس مباشرة ، تحيط بها بساتين النخيل الصغيرة ، كانت «عيون موسى» التى تضم عدداً قليلاً من العيون المنبثقة من الرمال ؛ حيث يمكن ملء القرب المصنوعة من جلد الماعز. وعلى الرغم من التوقعات الكبيرة ، فإن أحوال الآبار ونوعية المياه، خاصة إذا ما كانت قد أخذت منها ولوثتها قافلة كبيرة منذ وقت قريب، كانت تثير مشاعر الخيبة والقرف. وقد أمضى نيكولو بوجيبونسى، الذى كان قد انطلق بقافلة كبيرة من ستمائة جمل، خمسة أيام لكى يصل إلى الآبار. وفى الساعة الثالثة وصلوا إلى الماء «حيث ضرب موسى بأمر الرب بعصاه» . ولكن على الرغم من أن طعم المياه كان كبريتيا، فإنهم ملأوا قربهم وتركوا الجمال تشرب؛ لأنه لم يكن لديهم شىء على مدى أربعة أيام منذ بداية الرحلة.

وعلى ساحل البحر الأحمر ، وجد نيقولو وقتًا للتسكع على الشاطئ ، وعثر رفيقه على «سمكة كان لها رأس مثل رأس الرجل بوجه فيه فم مليء بالأسنان وأنف وشعر وعينان وكذلك جزء من رقبة ... وكل الباقى مثل أجزاء السمكة». وشاهد حجاج آخرون شواطئ من المرجان ، والبط البرى، والأسماك الشبوطية ، وطيور النورس، التى كانت مصدراً عظيما للمتعة والدهشة. وكشف الجزر البحرى المتراجع عن جميع أنواع الأسماك الصغيرة والأصداف الكبيرة و«القنافذ البحرية» من مختلف الأنواع. أما بالنسبة لنيكولو فإنه صادف على كثير من الصخور بحثًا عن الخواتم وحجر اليشب البللورى ، أشياء أخرى كثيرة مرغوبة ، ولكنه اكتشف حجراً ثميناً للغاية:

«اعتقدت ، وهذا ما أخبرونى به، أنه كان يستحق أكثر من مزرعة مريحة ، وكان خلابًا جدًا وجيد الصنع لدرجة أنه لايوجد رجل فى العالم يعرف كيف يقلده، وبسبب الإيمان الذى وضعته فيه والقلق المفرط الذى غمرنى فى حراسته، فإن الرب انتقم منى بالطريقة التالية، لأنه مثلما سبب لى أن أعثر عليه، فإنه سبب لى أيضًا أن أفقده، لأننى فقدته فى الصحراء، ولكننى حزنت للغاية وحزن آخرون معى، ولا أفرح أبدًا، ولكنى حزين، ولكن جرى الأمر هكذا لدرجة أن قلب الإنسان لايمكن أن يتخيله بالسماع من شخص آخر، ولايمكن للسان أن يحكى شكل أو جمال صناعته ... إننى لم أحزن بهذا القدر لقيمته بقدر ما حزنت لروعته وجماله، كم كان جميلاً ! ».

وإلى جانب الأشياء البحرية المستجدة على الشاطئ ، كانت الصحراء موطنًا للحياة البرية التى تختلف كليًا عن حيوانات وادى النيل. وكان بيير بيلون دومانس فى الوسط الملائم له فى هذه البيئة وعمل جاهدًا على جمع المعلومات لكتبه. وقد شرَّح وحنَّط الحيات ذات القرون بمواد الحشو مختلفة الأنواع، ورسم حية مجنحة وحرباء ولاحظ أنها أكثر سمنة من تلك التى رآها بالقرب من النيل. كان لونها أبيض من تحت وبها بقع حمراء. واقتفى آثار الأقدام التى تشبه القلب للماعز الجبلى على الرمال وشاهد الغزلان تجرى فى قطعان كبيرة عبر الوديان الحارة المجدبة ، وهى تقفز برشاقة عصبية هربًا من أى صيادين قد يكونون كامنين فوق نتوءات الجبل، وأخبروه أنها نادرًا ما كانت تحتاج إلى الماء ، وهو ما صدقه بالفعل. ورسم صورًا تخطيطية لشجيرات السنط الشوكية وزهرة «ورد أريحا» التى تنمو فى الأرض الجافة.

وعلى الرغم من أنهم كانوا مدركين وواعين للصحراء القاسية ، فإن الحجاج الأوروبيين كانوا يخشون البدو الذين لا يمكن توقع تصرفاتهم، والذين كانوا يسيطرون بالفعل على أرض المنطقة ولايحترمون قوانين الحكام الأجانب . وعلى الرغم من أن عرب الصحراء هؤلاء كانوا بؤساء قذرين ، فإنهم كانوا فخورين بشكل وحشى. وكانوا يعيشون فى كهوف مدخنة وخيامة من وبر ويحفرون الآبار، التى لايعرفها سواهم ، وكانوا يحرسونها من المسافرين العابثين. وكانوا جشعين ميالين إلى

السلب يزدرون الغرباء وغير متسامحين متحفظين . وكانت النسوة تغتسلن ببول الجمال والماعز على اعتبار أن الرائحة النفادة رائحة جذابة ، وكان يمكن رؤيتهن أحيانا يؤدين رقصات متماوجة على حين يضربن بالصاجات بين أصابعهن على الطريقة الإسبانية(*).

وكان الرجال يدهنون شواربهم ولحاهم ببقايا الزيت فى أكوابهم بعد الطعام . وعلى سبيل الدفاع كانت بعض مجموعات الحجاج الأوروبيين يسلحون أنفسهم بتنويعة من الأسلحة : القسى والسيوف والخناجر وكذلك البنادق. وفى الليل يجمعون خيامهم وأمتعتهم وسط المخيم وحولها ترقد الجمال والبغال والحمير مع سائقيها . وكان من الحصافة بالنسبة لأحد أفراد المجموعة أن يتولى الحراسة ويقوم بدورية على حين ينام الآخرون ؛ لأن سائقى الجمال والحمير كانوا ينتهزون أية فرصة لفتح حقائبهم لسرقة البسكويت والبيض من السلال ويختلسون النبيذ من الزجاجات. وفى الصباح كانت تتم حيل ماكرة؛ إذ كان يتم تحميل الجمال ببطء شديد وفى تكاسل وتترك أشياء كثيرة وراءهم، ولايتم استعادتها إلا بعد أن يحصلوا على المزيد من البسكويت أو النقود. وصار نظامًا متعبًا متكررًا، لاسيما وأن الحجاج لايعرفون كيفية التفاهم مع مضطهديهم سوى عن طريق مترجم .

وبينما كانت الكثبان الرملية الحريرية فى شمال سيناء مكونة بفعل الرياح فى أشكال تتغير لفترة طويلة بأعراف حادة، فإن البلاد جنوب شبه الجزيرة التى تقع بحذاء الساحل الغربى هى منطقة من الطباشير والحجر الجيرى. وداخل سيناء يصعد إلى سلسلة جبلية قاحلة تعرف باسم «التيه»، وهى هضبة من الحجر الجيرى، والحصباء الجافة ، تشقها فى العمق وديان عريضة ، تمتلئ الكثير منها بمياه الأمطار

(*) يجب توخى الحذر عند تناول «المعلومات» الواردة فى كتب الرحالة ؛ لأنهم «غالبًا» يميلون إلى المبالغة والإثارة والتهويل من شأن «غرابة» المجتمعات التى يزورونها ، كما أنهم يصدقون الشائعات خصوصًا فيما يتعلق بالعادات والتقاليد التى لايمكن فهمها فى عدة أيام، أو عدة ساعات، يقضيها المسافر فى مكان ما . ويصدق هذا ، بطبيعة الحال، على هذه الرواية . (المترجم)

على مدى عدة أيام بعد السيول المفاجئة . وتظهر المياه الأرضية على شكل عيون ؛ حيث يمكن حفر الآبار (على الرغم من أنه تم العثور سنة ١٩٧٢م على احتياطى كبير وعميق من المياه الجوفية ، استخرج منها الإسرائيليون المياه عن طريق الآبار العميقة لأغراض الرى) ، وباتجاه الجنوب، يصبح الأفق مشهداً من مشاهد الجمال الرائع ، مع قمم الجبال التى تصل إلى ارتفاعات ما بين ٧٥٠ و ٢٥٠٠ متر . وتنتشر الطبقات الصخرية فى كل اتجاه مع كثرة من الألوان البراقة التى تفتح أو تميل إلى اللون الداكن حسب ضوء الشمس . والجرانيت فى كتل من اللون الوردى اللامع والأصفر والرمادى تختلط بصخرة نارية زرقاء اللون، والأحجار الجيرية البيضاء، أو المائلة للصفرة تتقاطع مع ترسيبات طميية بنية اللون مما يجعل الكثير من التلال تبدو وكأنها مخططة. وجنوب سيناء ليس قاحلاً تمامًا؛ لأن بعض مجارى الوديان الصخرية زراعات متناثرة وفى أوقات معينة من السنة يطفح المن على شكل كعكات سميكة بيضاء مسطحة، طعمها فى حلاوة العسل ، على الشجيرات بسبب الندى. وفى هذه الجبال المنعزلة ، والواحات والوديان الصغيرة ، وجدت أعداد كبيرة من الرهبان المسيحيين من أنحاء الإمبراطورية البيزنطية، بما فيها مصر والشام، الملاذ والملجأ، وبين هؤلاء النُسّاك المسيحيين ، يشيع التراث القائل بأنه فى هذه المنطقة غير المأهولة كان موضع الشجيرة المحترقة ، وتلقى موسى من ربه الوصايا العشر.

ومع القمم والوديان التى تبدو بلا نهاية مكشوفة أمامهم، وبدون بوصلة وباعتمادهم تمامًا على مرشديهم ، كان من السهل على الحجاج الأوروبيين أن يعانوا مشاعر انعدام الأمن بل والذعر فى الفضاء المربك المحير. وكان من الصعب تقدير المسافة عندما يبدو أحد الجبال قريباً ، ثم يظهر فى بصيص من الضوء أنه كان مجرد أفق مزيف ، فقط كانت نجمة سانت كاترين التى تشع من فوقهم ، والتى قيل لهم إنها تشير إلى الطريق للدير ، كانت تمنحهم الأمل والطمأنينة.

وبعد العثور على بعض الماء فى أحد الأودية ، كان نيكولو دى بوجيبونسى وأصدقاؤه ، يركزون انتباههم وهم يستمعون إلى كلام بعض المسلمين الذين أمسكوا

سعيد، مترجمهم الذى يحبونه تمامًا ، وقادوه للاستجواب فى قلعة صغيرة مجاورة . وعلى الرغم من خطاب السلطان بالمرور الآمن، فإن مهاجميهم اعتبروهم من الجواسيس ، مؤكدين أنهم لم يروا من قبل حجاجًا على هذا الطريق . وأخيرًا حبسوا سعيد وهددوا بأن يأخذوه إلى السلطان ، على الرغم من أنهم سمحوا لمجموعة نيكولو بمواصلة السير وليس معهم سوى العرب الذين كانوا قد استأجروا منهم الجمال: «وهكذا مضينا فى محنة بدون راع ؛ لأننا خسرنا مترجمنا ، الذى كان مرشدنا ، وبدونه لن نجد سوى الشر». وحزنوا بمرارة ؛ لأن العرب لم يكونوا يفهمون لغتهم ، ولم يكن الحجاج الأوروبيون يعرفون اللغة العربية: «ولذلك عندما كنا نطلب شيئًا كانوا يفعلون عكسه تمامًا، وهكذا مضينا فى إحباط على مدى يومين فى الصحراء بدون دليل، وعلى الدوام نتشفع بسانت كاترين بدموع غزيرة حتى ترسل إلينا المساعدة ؛ لأن الشر كان يتربص بنا».

ولابد أن نيكولو، الذى كان قد نجا من العواصف المهلكة وهجمات القراصنة التى أحاطت برحلته البحرية إلى مصر، قد أماته أن يتوقع إحباط آماله وهو قريب نسبيًا من هدفه . وفى اليوم التالى كانت هناك مناسبة أخرى للخوف عندما شاهدوا مسلمًا على مسافة حوالى ميل منهم، وهو يجرى إلى الأمام حتى يعترض طريقهم، ثم انتظر اقترابهم، وقد أدهشهم كثيرًا ، عندما اقتربوا ، ولم يستطيعوا أن يصدقوا أن الذى يقف أمام أعينهم هو سعيد مترجمهم المخلص: «جرينا نحوه وأحدثنا الكثير من البهجة والفرح ، وأعطيناه لكى يأكل كثيرًا ؛ لأنه كان بحاجة إلى الأكل، وأخبرنا أن المسلمين أخذوا منه سيفه وقوسه ؛ لأنه رفض الموافقة على دفع فدية لهم عنا» . وهكذا يعود لتعويض كل ما كان قد خسره ، واصلوا السير فى طريقهم وقد اطمأنت قلوبهم ، حتى وصلوا فى اليوم الثالث عشر إلى سهل وسط سلسلة من الجبال. وفى اليوم التالى، تأملوا من بعيد جبل سيناء المهيب ، وسجدوا على الأرض فرحين والدموع الغزيرة تنساب من عيونهم ، وهم ينشدون "Salve Regina".

كانت أوقات الرحلات مسألة صدفة ؛ فقد وصل ليوناردو دى فريسكو بالدى ومجموعته إلى سانت كاترين يوم ٢٩ أكتوبر، أى بعد عشرة أيام من الرحيل إلى القاهرة ، وكانوا يسافرون ما بين اثنين وعشرين وستة وعشرين ميلاً فى كل يوم دون أية منغصات . وكان هذا على النقيض من العجائب التى جرت على نيكولو دى بوجوبونسى ورفاقه، الذين فقدوا واحداً من رفاقهم بالإضافة إلى الهجوم على دليلهم؛ إذ كان الرجل قد تجول فى الصحراء، وعلى الرغم من أن مجموعة بحث أرسلت للبحث عنه «حتى على ساحل البحر الأحمر» ، فلم يُعثر له على أثر. وفى سنة ١٥٧٦م استغرق فيليبو بيجافيتا من فيتنشنزا تسعة أيام ونصف يوم فقط بدون تعطيل من القاهرة إلى سانت كاترين، وهو ما يكاد يكون رقمًا قياسيًا؛ فبعد أن تحول شرقًا بعد الطور، ركب فريق بيجافيتا حوالى ثلاثة أميال على ممر طبيعى شقته المياه فى الصخور، عبر الصخور العالية شديدة الانحدار خلال الجبال . وقال إن الليل كان قارص البرودة، ومن موضع مخيمهم استغرق السير إلى الدير ثلاث ساعات.

بعد أن عبر النُّسَّاك الهاربون من الاضطهادات وادى الدير، أمرت الإمبراطورة هيلينا، أم الإمبراطور قسطنطين ، بإقامة مزار حول المكان المزعوم للشجيرة المحترقة . وبسبب تعرض المكان للإغارة من جانب القبائل البدوية ، قام الإمبراطور چستنيان بتحصين الساحة وبنى بازيليكا التجلى وكرَّسها لمريم العذراء (حوالى سنة ٥٦٢م) فى ذكرى زوجته تيودورا . وقد وفرت هذه البازليكيا المأوى لعدة مئات من الرهبان . وفى القرن التاسع تقريبًا ، وهو زعم وادعاء آخر للشهرة، زعموا أن جسد سانت كاترين قد حملته الملائكة المقدسون من الإسكندرية ، ووضعوه كاملاً على قمة جبل سانت كاترين، وأن بعض الرهبان الذين تنبهوا لهذا الحدث فى

٨-٢ حفر على الخشب لدير سانت كاترين والقمتين التوأم لجبل سيناء

رؤيا، وجدوا الجثة وحملوها لكى يتم دفنها فى داخل مبنى البازيليكا . ومنذ ذلك الحين فصاعداً صار الدير بؤرة الحج تبجيلاً لهذه القديسة المحبوبة التى كان لها أتباع كثيرون فى أوروبا.

وفى أعقاب الفتح الإسلامى لمصر سنة ٦٤٠هـ ، صار دير سانت كاترين موقعًا معزولاً للمسيحية فى عالم مسلم (*). وحسب التراث قام بعض الرهبان فى سنة ٦٢٥م

(*) هذا كلام يفتقر إلى الكثير من الدقة؛ لأن جميع الأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين وعلى رأسها كنيسة القيامة بقيت كما هى، كما أن الكنائس القديمة والأماكن التى ترتبط بهروب العائلة المقدسة إلى مصر، كانت مزاراً للحجاج ، كما ذكرت المؤلفة نفسها . (المترجم)

برحلة إلى النبى محمد (ﷺ) يطلبون الحماية من المغيرين . وزعموا أن النبى زار الدير حيث تمت استضافته ، وفى مقابل هذا منحهم الوثيقة المعروفة باسم «عهد النبى» وشهد عليه صحابته الذين وردت أسماؤهم فى الوثيقة . والعهد (جزء من النسخة موجود بمكتبة الدير) يؤكد أنه يجب على المسلمين ألا يغيروا وضع الرهبان أو يجبروا الجماعات المسيحية، وأنهم يجب ألا أن يخلعوا أسقفًا من أسقفيته، أو يخرجوا قسيسًا من دينه، أو راهبًا من قلايته؛ وعلاوة على ذلك زعمت الوثيقة أن النبى هو حاميهم ، وأن من لايلتزم بهذا سيكون مخالفًا لشرع الله وسنة نبيه. كان هذا التحذير مرعيًا من جانب سلاطين المماليك على التوالى ثم الحكام الأتراك فى مصر. وفى منتصف القرن التاسع، صارت الكنيسة أسقفية منفصلة ، وأعيد بناء الدير، كما أن المسجد الكائن داخل أسواره ، الذى يحتوى على برج مربع تعلوه قبة ومئذنة ، ربما يكون قد بُنى آنذاك(*).

وقد اجتذبت فترة الحروب الصليبية الكثير من الأوروبيين الموجودين فى فلسطين للحج إلى دير سانت كاترين ، ووصف بعضهم الجماعات الكبيرة من الرهبان الذين يعيشون هناك، أو بالقرب من الدير ، ومنهم الأحباش والأقباط والأرمن والچورچيين . وبعد سقوط مملكة الصليبيين فى عكا سنة ١٢٩١م، بقى الرهبان داخل اختصاص البطريرك اللاتينى فى بيت المقدس على الرغم من بقائهم على اتصال وثيق ببطريرك القسطنطينية والبابوات الكاثوليك فى روما. وخلال الفترة من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر، كانت أحوال الدير مضطربة ، كما أن حياة الرهبان كانت عرضة لدرجات مختلفة من المضايقات من جانب القبائل البدوية فى المنطقة ، والتى كانت تطالب بإتاوة يومية من الطعام، كما لو كانت حقًا لهم، وهم يحاصرون المدخل .

(*) كان دير سانت كاترين تابعًا للطائفة المسيحية الملكانية (الروم الأرثوذكس) فى مصر، ولم يكن من أملاك الكنيسة المصرية اليعقوبية . وفى عصر سلاطين المماليك كانت هاتان الطائفتان المسيحيتان هما فقط الموجودتين فى مصر . من ناحية أخرى ربما يكون المسجد داخل الدير قد بُنى أثناء العصر الفاطمى. (المترجم)

وصارت عمليات اقتحامهم عنيفة لدرجة أن البوابات ثم تقويتها بأبواب حديدية ، وفى بعض الأحيان كانت وسيلة الصعود الوحيدة بالحبال والسحب من أعلى، والتى كان الرهبان يرفعون بها الزوار والمؤن إلى أعلى فى سلة كبيرة.

حتى اليوم، لايمكن لأى سائح يسافر بالسيارة عبر شبه الجزيرة على طول طريق ممهد، أو يزعج المزار المسالم بالهبوط بالطائرة على ممر الهبوط الذى بنى حديثًا ، أن يبقى ساكنًا أمام مشهد الدير الذى تحيط به الأسوار ، بأشجار السرو ذات اللون الأخضر الداكن، وهو يستكن فى صمت عند رأس الوادى الضيق الذى تطل عليه بظلالها جبال مجافة، وراس صفصافة، وجبل موسى الشاهقة . لكى تصل فى سكون الهواء المنعش الحاد، على حين تضىء الشمس الساطعة الصخور متعددة الألوان ، والتى تتدرج من الأحمر الداكن إلى الأرجوانى المائل للزرقة، تجربة لاتنسى ، وتظل عالقة بالذاكرة . وبالنسبة للمسافرين فى العصور السابقة ، الذين كانوا يعانون أياماً من الضنى فوق ممرات خادعة ، ومن الجوع والعطش ، وهم يسرعون ويتعطلون ، كان الوصول إلى هدفهم الذى طال اشتياقهم إليه يحقق أكثر آمالهم قوة.

فى اليوم الثانى والعشرين بعد الرحيل من القاهرة وصل الراهب نيكولو دى بوجيبونسى وصحبه أخيراً إلى الدير ساعة صلوات المساء . وعندما شاهدوه لأول وهلة من مسافة بعيدة، أحسوا أنهم قاموا من بين الموتى «لقد صرنا غاية فى التعب». وخرج كثير من الرهبان لمقابلتهم وعانقوهم جميعًا «بقدر عظيم من الحب». وإذا أنزلوا حمولات جمالهم، ذهب الرهبان يحصلون لهم على الإذن بالدخول ، وعادوا مسرعين ليقودوهم إلى منزل منفصل ؛ حيث استراح الحجاج «لأن حاجتنا إلى الراحة كانت كبيرة».

كان الرهبان الذين ارتدوا عباءات طويلة رمادية وثياباً فضفاضة سوداء مطرزة ، من أتباع نظام سان باسيل من القيسارى. الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى، وكان أول من غيَّر أسلوب الزهد الصحراوى إلى حياة رهبانية منظمة صارت محكومة منذ ذلك الحين فصاعداً بالقوانين الديرية. وكانت هذه الجماعة بحكم العادة تصحو على ثلاث وثلاثين رنة من الجرس تمثل السن التى مات فيها المسيح. وبعد أن يقضوا ساعة فى صلاة الصباح بالبازيليكا ، كانوا يشغلون أنفسهم فى مهامهم حتى الغداء فى الساعة الواحدة والنصف ؛ حيث يتناولونه سوياً فى قاعة الطعام . وفى الساعة الثالثة

بعد الظهر يدق الجرس مرات ثلاث من أجل صلوات المساء، وبعدها يتناولون طعام العشاء فى قلاياهم. وكان الرهبان يعيشون عيشة فقيرة جداً، ولايأكلون اللحم أبداً على الرغم من أنهم كانوا من آن إلى آخر يأكلون السمك المجفف غير المستساغ والجبن المجفف . أما الأغذية مثل الدقيق والأرز والبقول فكان لابد من إحضارها بالجمال من القاهرة، وكان تأخير القوافل طويلاً يسبب مصاعب كبيرة ؛ لأن ما تنتجه الحدائق كان موسمياً فقط . وفى أغسطس وسبتمبر كان الرهبان يزيدون غذاءهم الضئيل بجمع المن الذى يشبه الشمع المصنوع حديثاً، وكان حلواً وممتعاً ، ويذوب فى الفم.
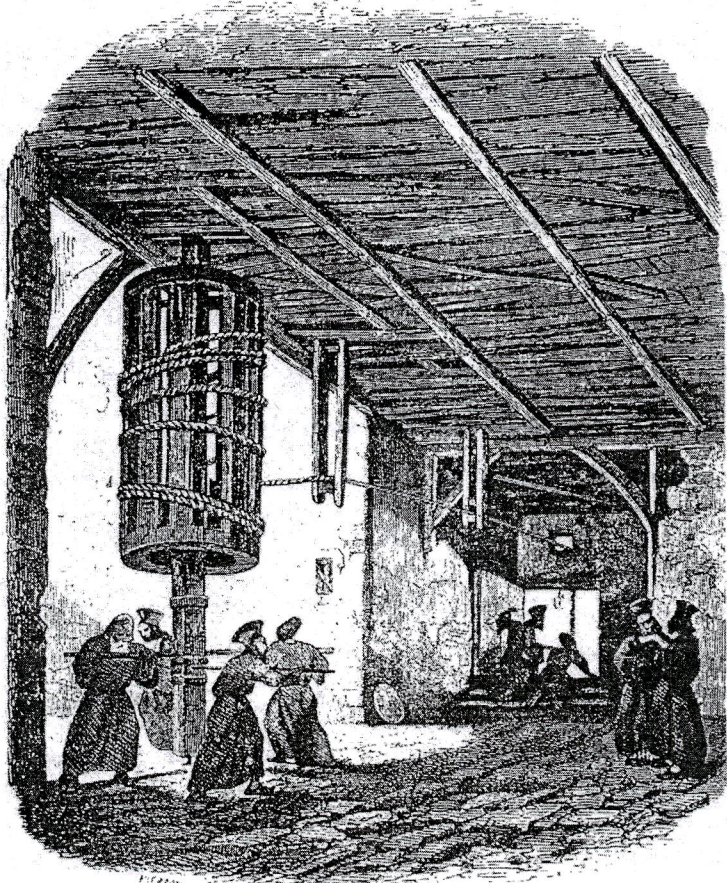
٨-٣ رهبان سانت كاترين يرفعون الزائرين إلى أعلى بالرافعة

وفى سنة ١٣٥٠م، لابد أن المنطقة المحيطة بالدير كانت آمنة تمامًا شأنها شأن بقية أملاك السلطان ، وكما قال نيكولو كان هناك المزيد من الرهبان الذين كان بإمكانهم العيش فى المنطقة المحيطة ومن أجل «توبة أكبر لايذهبون أبداً إلى الدير سوى لبعض الاحتفالات فى السنة». ولم يكن الأمر هكذا على الدوام. ومن حين إلى آخر كان العنف المتطرف يندلع ويتعرض الدير لهجوم البدو الذين كانوا يحكمون المنطقة. وعندما وصل فرنشيسكو سوريانو، الأب الراعى لدير جبل صهيون فى القدس، فى سنة ١٤٩٤م ، وجد الكثير من العرب المسلمين الذين كانوا قد قتلوا لتوهم مقدم الدير (مكاريوس الثالث) ، ولكن الرهبان على الرغم من بكائهم استقبلوا جماعة الوصى بكثير من الحب والإحسان وبارك الرب حضورهم.

ولكى يكون الأمر مفهومًا على نحو أفضل لأولئك الذين فى الوطن، عمل نيكولو بجد فى كتابة وصف تفصيلى للدير، وكان يسجله فى الموقع على اللوحين الجصيين الذين يحملهما على جانبيه . وأمام الجبل رأى «حديقة كبيرة جميلة بها الكثير من الأشجار وأشجار الزيتون والرمان واللوز والنخيل». وخلالها، فى الفصل المناسب من السنة، كان هناك جدول ماء كبير، بينما كانت توجد فى أرض الحديقة عدة عيون من الماء الطيب . وقد تبخرت كل مخاوفه وتعبه فى تقديره غير المتحفظ عن دفء الترحيب الذى لاقوه من الأخوة الرهبان وعن حبه للطبيعة ، فقد كان صادقا وبسيطًا فى استمتاعه وفرحه بالجمال والقدسية التى يتسم بها كل ما يحيط به .

وكان الراهب الدمينيكانى ، فيليكس فابرى من أولم يستخدم ألواح الشمع باعتبارها كراسة مذكرات يحملها فى حزامه ، وكان ينسخ مذكراته الموجزة فى كراسة، وبعد ذلك يزيل الشمع حتى يمكنه الكتابة على الألواح من جديد. ولأنه كان كنسيا كاثوليكيًا قاسيًا إلى حد ما ، لم يتردد فى إدانة الرهبان الروم الأرثوذكس ، الذين كانوا يضعون قيوداً معينة على الحجاج الغربيين فيما يتعلق باحتفالهم بالقداس داخل الدير. وإذا مات حاج كاثوليكى فى مداخل الدير كان يتم دفنه بالخارج فى مقبرة الحمير، وكانوا يعتبرون هراطقة مقطوعين وملعونين.

وبعد أن تلقوا الترحيب الحار بهم، مرَّ نيكولو دى بوجيبونسى عبر باب حديدى فى مواجهة الشمال الشرقى:

«فى هذا المكان توجد البيوت التى يسكن فيها الحجاج ، عندما يذهبون إلى هناك، وعندما تدخل الباب تصعد إلى اليمين بضع درجات من الدرج ، وتصل إلى شرفة من الطين ؛ حيث توجد حجرات كثيرة يسكن بها الحجاج، وفى داخلها يوجد فرن. والباب الحديدى الأول حيث يتولى الحراسة بعض الرهبان مظلم تمامًا، وبالقرب من هذا يوجد الباب الآخر . فإذا ما دخلت الدير هناك بابان: أحدهما إلى اليمين يؤدى إلى كنيسة صغيرة ، ويؤدى الباب الآخر إلى كنيسة سانت كاترين. وكنيسة سانت كاترين يغطيها من أعلاها الرصاص والواجهة مزدانة بنقوش غائرة. ويرتفع مدخل الكنيسة سبع درجات حجرية، والباب كبير وله عقود، وخشب الباب من السرو وكله محفور بالنقوش. وأمام الباب ستارة سوداء، وهذا الباب يواجه ناحية الشمال. وفى داخل الكنيسة هناك رواق عرضه خمسة أقدام، وهناك باب آخر كبير لايُفتح . وفوق هذا الباب مريم العذراء وابنها بين ذراعيها فى صورة بالفيسفساء، وعلى إحدى اليدين سانت كاترين وعلى الأخرى موسى، وأمام هذه الشخوص فوق الباب ثلاثة مصابيح مضيئة على الدوام وأحدهما كبير فى حجم مكيال الحبوب. وعلى مسافة ثلاث خطوات على جانبى الباب هناك باب صغير وأمام كل منهما ستارة سوداء، ومن هذين البابين تدخل إلى الكنيسة».

فى المتوسط ، كانت غالبية الحجاج إلى دير سانت كاترين يبقون هناك ثلاثة أيام فقط، ولكن نيكولو، الذى أراد أن يرى أكثر ما يمكن أن يراه ، كان لديه الوقت المتسع ليصفه؛ لأن مجموعته بقيت لمدة أسبوع . وكانوا من الحكمة بحيث استأجروا الجمال لرحلة الذهاب فقط. أما أولئك الذين كانوا قد دفعوا للرحلة ذهابًا وإيابًا مقدمًا فكان العرب يزعجونهم باستمرار من أجل الرجوع . وفى ظل الظروف السلمية نسبيًا فى منتصف القرن الرابع عشر ، كان عدد رهبان سانت كاترين يتراوح ما بين أربعين وستين راهبًا، وقال نيكولو إن بعضهم «مسنون ، ذقونهم طويلة ، يبدون فى حال من

الهزال والشحوب» ، وإذ كانوا يحيون حياة الزهد المتطرفة، فإنهم كانوا ينامون بملابسهم على الحصير فوق الأرض فى قلايا من البوص المجدول المطلى بالطين ، كانت مقامة فى منطقة بها الممرات وسلالم الدرج «كلها مصنوعة بطريقة مشابهة»، ولهذا كان من الصعب على الغرباء أن يعرفوا طريقهم . وعلى الرغم من فقر الرهبان، فإنهم كانوا يظهرون ضيافة كريمة ويكرمون الضيوف بكل ما لديهم:

«كل الذين يذهبون إلى هناك عليهم أن يأكلوا ويشربوا ، من مثل هذه المياه النقية والخبز الطيب والكثير من اللحم ، صباحًا ومساءً ، ويقدم النبيذ مرة فى الأسبوع ، وليس بكمية كبيرة بحيث يؤذيك ؛ فلكل واحد كأس صغيرة. وعندما يرحل الناس، يحصل كل منهم على اثنى عشر رغيفًا، والرغيف كبير بما يكفى الشخص يوما بأكمله، ونفس القدر للكبير وضئيل الحجم، وإذا ما كان الرجل كونت أو فارسًا فلن يأخذ أكثر من الآخرين».

وبعد ما يزيد على ثلاثين سنة ، فى ٢٩ أكتوبر ١٣٨٥م ، وجد ليوناردو دى فريسكو بالدى وصحبه التوسكانيون حوالى مائتى راهب مقيمين هناك . وقال إنهم كانوا «معتادين على لبس صلبان من الخشب حول رقابهم»، وقد حرص على أن يحصل على واحد منها. وكان أعضاء جماعة الرهبان يرتقون أثوابهم التى صنعوها بأنفسهم من الصوف الثقيل فى أوقات فراغهم ويعيشون على الصدقات التى يعطيها لهم الزوار الحجاج والنقود التي يجلبونها معهم عطايا من السادة الكبار في أوروبا . وكان هناك اثنان من المحسنين الكبار فى القرن الرابع عشر هما المَلِكة جوانا ملكة نابولى Joana of Naples (ت ١٣٨١م) وجاليوتا مالاتيستا Galeotta Malatesta سيد أنكونا . وكان يحكم جماعة الرهبان كبير أساقفة عينه بطريرك الإسكندرية والقاهرة، وهو منصب كان يؤكده السلطان (*). وقد اجتمع كبير الأساقفة بالتوسكانيين عدة

(*) لم يكن الدير تابعًا للكرازة المرقسية بالإسكندرية حسبما يوحى للنص ، ولكنه كان تابعًا لبطريرك الملكانية (أى الروم الأرثوذكس) . (المترجم) .

مرات ، على الرغم من أنه لم يكن ممكنًا إدارة المحادثة سوى باللغة اللاتينية من خلال المترجم ، والذى كان اسمه حنا الكندياني John of Candia من كريت . وقد فهموا أن كبير الأساقفة كان رجلاً مبجلاً ذا حكمة وتجربة ، يكرمه الجميع ويبجلونه، وقد لقى الحجاج ضيافة كريمة ؛ ففى البداية أخذوا مباشرة إلى «حجرة جيدة وجميلة» ، وقدم لكل منهم نصف كأس من النبيذ، والخبز وكمية كبيرة من السمك المملح من البحر الأحمر.

وبعد أكثر من قرنين من الزمان، عندما وصل كريستوفر هارانت، وزوج أخته الذى من براج إلى دير سانت كاترين فى أكتوبر سنة ١٥٩٨م، كانت الأمور قد انعطفت نحو الأسوأ ؛ فبعد أن ترجلوا عن رواحلهم ودقوا الأبواب طلبًا للإذن بالدخول ، تفحصهم الرهبان من أعلى الأسوار ، واستفسروا منهم عن أوراق اعتمادهم. وكانوا يخافون أن يفتحوا لهم البوابات بسبب المهاجمين، بل إن الحجاج أثناء حديثهم أحاطت بهم جمهرة من العرب الصاخبين . وقبل ذلك بوقت قصير، كانت جماعة الرهبان قد عانت من غارة خطيرة قامت بها القبائل الخارجة على القانون التى لم يصدها سوى الأقفال القوية على الأبواب الصلبة المزدوجة التى حاول المهاجمون أن يحرقوها. ولم يحدث حتى المساء، بعد أن أخذ الغوغاء رشوة لتفريقهم بواسطة اثنين من زعمائهم، أن فتحت البوابات القوية أخيرًا ، وتم الترحيب بكريستوفر وصحبه فى الداخل ، وبسبب الهجمات القاسية كان الرهبان مجبرين على استعمال الرافعة القوية والساحب الذى كانوا يشغلونه من غرفة أعلى الأسوار ، وبواسطة هذه الرافعة كانوا ينزلون سلة لرفع الزوار والمؤن ولكى ينزلوا أيضًا أى طعام أو ضروريات (حتى الإبرة والخيط) يمكنهم توفيره لاسترضاء العرب المعادين الذين جرت عادتهم على أن يخيموا بالقرب من البوابات .

وبعد متاعب رحلة الصحراء، تم تخصيص قلايتين لكريستوفر وزوج أخته بهما دكتان من الحجارة العارية بدون حواشٍ أو حتى قش مفروش ليرقدا عليه، ولأنهما كانا

متعبين، يشعران بالجوع والعطش ، وعدوهما بالعشاء ، ولكنه حين جاء أخيراً ، كانت الوجبة مكونة من القليل من الخبز الأسود، وطبق من الفول النيئ مثل العلف الذى يطعم به المسلمون خيولهم وبعض السمك المجفف من البحر الأحمر. وطلب كريستوفر ، الذى خاف من أن تتكسر أسنانه من هذا الطعام غير المستساغ ، بعض الجبن ليجد أن طعمه مثل طعم الصابون ، «وكان الحلو ، بدلا من الفاكهة ، هو تبادل الحديث». وبعد العشاء ، على أية حال ، رحب بهم كبير الأساقفة بلطف، وأعطاهم قدحًا صغيراً من عرق البلح الذى يشربه. لقد كانت فترة محنة بالنسبة لجماعة الرهبان المضطهدة ، وكانت ضرورات الحياة ناقصة بالدير بشكل مؤلم.

كانت قاعة الطعام غرفة مستطيلة ذات سقف قائم على عقود إلى الجنوب الغربى من البازيليكا . وفى القرن الرابع عشر يبدو أنها كانت تستخدم مكانًا لنوم الزوار من الحجاج اللاتين. وثمة مبنى نصف دائرى صغير عند الناحية الشرقية كان يضم مذبحًا؛ حيث كان القداس يمكن الاحتفال به حسب المذهب الكاثوليكى. وكانت هناك جدارية فى الفجوة بالجدار (رسمت سنة ١٥٧٣م) تصور ثلاثة ملائكة يزورون إبراهيم أبا الأنبياء، وكانت هناك جدارية فوقها أكبر بكثير تصور القدوم الثانى للمسيح فى يوم الدينونة . وعلى مرِّ السنين ، تم حفر الأسماء الكبيرة وأسلحة الصليبيين المشهورين وأسماء الحجاج المسيحيين أواخر العصور الوسطى على امتداد عوارض الأبواب والعقود الحجرية للأسقف . وربما كانت قاعة الطعام تستخدم فى القرن السادس عشر للطعام فعلاً؛ لأن فيليبو بيجافيتا شاهد طاولات الأكل بدون أغطية الموائد (المفارش) ، ملقاة على امتداد جانب الحجرة . كان كبير الأساقفة يجلس وحده على مائدة عالية يُغطيها مفرش بجوار الحائط آخر الغرفة حيث يمكنه مراقبة المجتمعين للأكل، وفوقه كان يوجد صليب ومصباح .
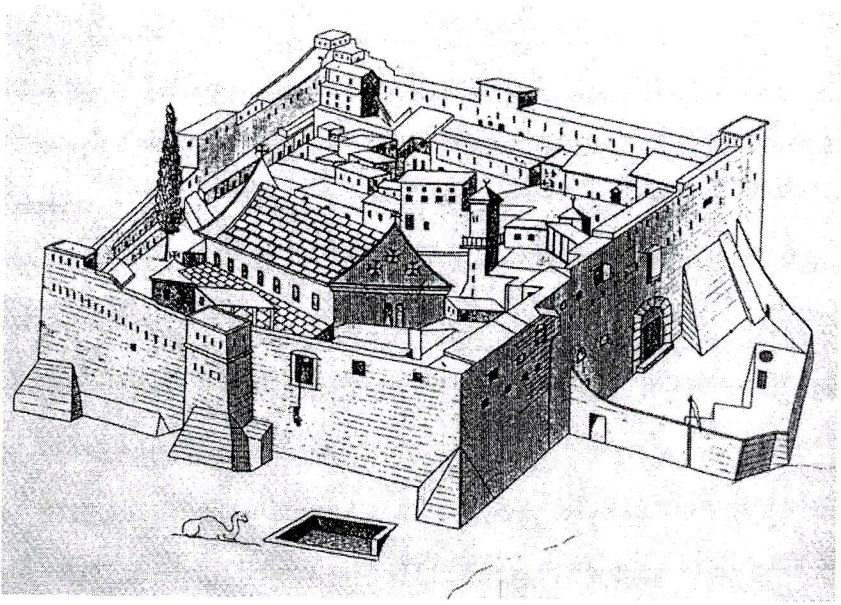
٨-٤ مخطط دير سانت كاترين

كانت البازيليكا التى تحكم مجمع الدير تسمى أصلاً سانت مارى فى الدغل "St Mary at Bush" ، تكريماً للعذراء ، وصارت تُعرف باسم سانت كاترين بعد النقل الأسطورى لجسدها إلى سيناء. وقد بنيت البازيليكا من كتل الجرانيت الصلدة الكبيرة ، وكانت على زاوية داخل الأسوار الحصينة، وكان السقف المدبب مغطى تماماً بالرصاص، وهو شىء بهر الراهب نيكولو دى بوجيبونسى. ولم يكن هناك برج لجرس الكنيسة ، ولكن بدلاً من الأجراس كان هناك قضيب من الحديد معلق عليه حلقات نحاسية. وكان حافظ الكنيسة يدق على هذه الحلقات بالمطارق «فى نظام معين ومقياس محدد بحيث يمكن للمرء أن يرقص على إيقا ع الصوت». وخلف حائط المذبح العالى ، كانت الكنيسة الصغيرة كنيسة الدغل المحترق أول مزار بالمنطقة ، علامة على المكان الذى يقول التراث الدينى إن الرب تجلى فيه لموسى. وفى العصور الوسطى أدمجت الكنيسة الصغيرة فى الكنيسة الرئيسية.

وعلى الرغم من أن هناك تغييرات أجريت فى الداخل، فإن العديد من الملامح التى وصفها نيكولو دى بوجيبونسى ١٣٥٠م لا تزال ماثلة يمكن رؤيتها اليوم. وهذه تشمل الأبواب الخشبية الفاطمية المحفورة الفاخرة ، والتى يرجع تاريخها إلى القرن الحادى عشر ، وتؤدى إلى الممر العرضى الضيق المؤدى إلى صحن الكنيسة، وكذلك الأبواب الداخلية المزدوجة التى تعود إلى القرن السادس (والتى تؤدى إلى داخل الكنيسة) ولها مدخل مزين بشكل جميل بكرمة مرسومة. ولوحات الأبواب المحفورة بعمق ذات الجمال النادر بها نماذج من النباتات ، والحيوانات ، والأسماك ، والطيور . وعلى أية حال ، ربما كان معظم الحجاج قد دخلوا الكنيسة عن طريق أحد المدخلين الصغيرين على كلا جانبى باب الممر الرئيسى.

وفى داخل المبنى ، يرتفع صحن الكنيسة المركزى ليكون بمثابة منور بنوافذ مستطيلة فوق الأجنحة على الجانبين . وعلى كلا جانبى صحن الكنيسة ، توجد ستة أعمدة من كتل متكاملة تعلوها تيجان كبيرة منحوتة ، وعلى كل من هذه الأعمدة الاثنى عشر أيقونة تقويم Kalendar تصور القديس الذى يحل عيده فى الشهر الخاص به فى التقويم . وبالإضافة إلى عدد من الكنائس الجانبية الصغيرة ، شاهد حاجز حرم الكنيسة «بباب واحد على الطراز اليونانى» ؛ حيث «يوجد خلف الحائط مذبح كبير جميل» و«صورة المخلِّص» ، والفسيفساء فى نصف القبة بالمبنى نصف الدائرى البارز. هذا العمل المجيد الذى تم فى القرن السادس لتصوير تجلى السيد المسيح تحيط به الهالة النورانية تطوقه الرسوم الرئيسية لصور موسى وسان جيمس على اليمين وإلياس وسان چون على اليسار، وكلهم على خلفية ذهبية، وقد أعجب بهذا العمل كثير من الحجاج الأوروبيين بحق (على الرغم من احتجابه اليوم إلى حد ما) ، وربما يكون من نفذه أحد الفنانين من المدرسة الإمبراطورية وهى فى ذروة قوتها بالقسطنطينية . وكان داخل الكنيسة يُضاء بمصابيح الزيت المتلالئة المتدلية من السقف، ولكل راهب مصباح أمام مقعده . وحاول نيكولو كثيراً إحصاءها ، «ولكنها كانت من الكثرة بحيث لم أتمكن من إنهاء عدِّها ، ولكن مما استطعت فهمه، ومما أخبرنى الرهبان، كان هناك ما يزيد على ألف وخمسمائة مصباح، كثير منها من الذهب والفضة».

وكتب نيكولو عن سور صغير ربما كان ارتفاعه ستة أشبار عن الأرض حيث توجد مقبرة سانت كاترين ، «مصنوعة من الرخام الأبيض على أحد جوانبها صليب» إلى يمين المبنى نصف الدائرى البارز، وكانت المقبرة مكسوة بقماش ذهبى جميل . وقام بقياس المقبرة ووجد أنها خمسة أذرع طولاً فى ذراعين عرضًا. وكان داخلها منقسمًا إلى قسمين، يضم الجزء الذى بجوار المذبح رفات القديسة ورأسها إلى أسفل حتى يقطر الفم «المنّ المقدس» فى كأس ذهبية ببزبوز فضى ، يفيض السائل من خلاله فى جميع أنحاء المقصورة . وفى سنة ١٣٨٤م ، وصف ليوناردو فريسكو بالدى رأس القديسة قائلا «إنها ليست مزينة بأية طريقة»، على الرغم من احتفاظها ببشرتها السوداء.

ربما كان فرنشسكو سوريانو من دير جبل صهيون ، قد أثار حفيظته الحصاد السلبى لمجمع فلورنسا الذى اجتمع سنة ١٤٣٩م، فى محاولة لإنهاء الانشقاق بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة الأرثوذكسية . فعلى الرغم من كرم ضيافتهم ، فإنه انتقد بقسوة الرهبان اليونانيين باعتبارهم هراطقة ، وليسوا جديرين بأن يكونوا حراس الجسد الثمين . وهو لايذكر شيئًا عن «الرأس الكامل للقديسة المغطى بكأس ذهبى ومزين بالكثير من الجواهر» حسبما وصفه الراهب الدومينيكانى فابرى فى سنة ١٤٨٣م ملاحظًا أن :

«على الرغم من أنهم يُظهرون بعض رفاتها وعظامها، فإنهم لايملكون حقًا من سانت كاترين سوى يديها ، وهى بيضاء مثل اللبن ، ولها أصابع طويلة مغطاة بالخواتم، على الرغم من أن بعض العقد مفقودة وليس بينها واحد كامل، وقد لمست هذه وقبلتها بإخلاص لايمكن وصفه».

وعلى مدى فترة من الزمان أُعطيت أجزاء من الجسد للأباطرة والملوك فى مقابل الهدايا، أو سرقها الحجاج الأوروبيون الشغوفون بانتزاع قطع من العظام والرفات، التى نُسبت إليها قوى إعجازية من جانب السذّج ، لكى يعرضوها فى كنائسهم المحلية. ومن ثم فإن الرهبان ، على الرغم من سعادتهم بتلقى الهبات الثمينة التى يتم إحضارها

إلى المزار، حاولوا أن يضمنوا عدم إزالة المزيد. وقد أرشد كبير الأساقفة فيليكس فابرى وجماعته من الأرستقراطيين الألمان إلى المقبرة وصاحبهم بالرزانة الواجبة طابور من الرهبان يحملون الشموع الموقدة، وأدرك أن حافظ الكنيسة لايستطيع أن يفتح التابوت الحجرى؛ لأن كلا القفلين ومفاتيحهما كانت مغطاة تماماً بالصدأ . ولم يفتح إلا بمساعدة الرهبان الآخرين بقدر كبير من القوة والعمل، وتم الكشف عن الجسد . ولأن بعض أفراد مجموعة فيليكس كانوا من النبلاء الأغنياء يحملون معهم مجوهرات من الذهب والفضة؛ فقد أعطوها لفيليكس لكى يضعها فى التابوت ، وهو ما فعله، ولامسها أولا بالرأس المقدس للعذراء النبيلة. وبينما كان مشغولاً بهذا، كان مقدم رهبان الدير يقف بالقرب منه ، ولايرفع عينيه عنه بالمرة ، وراقب يديه بمنتهى الحرص ، لئلا يحمل أيًا من الذخائر المقدسة بعيداً . أما الأطراف المقدسة، التى لونها الزيت فى التابوت ، فكانت ملفوفة فى قطع من الحرير كانت مغموسة فى مصابيح الكنيسة وتوزع على الحجاج باعتبارها هدايا تذكارية.

وبالقرب من الكنيسة كان هناك مسجد صغير بنى بأمر وزير الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله (١١٠١-١١٣٠م) . وإذ كان الرهبان الروم الأرثوذكس متسامحين إزاءه ، فإن المسجد كان يخدم العرب الذين عملوا فى خدمة الدير وغيرهم من المسلمين الزائرين الذين كانوا يبجلون موسى(*). وكان الزوار الكاثوليك من غرب أوروبا يسارعون إلى انتقاد استخدامه من أجل مثل هذه الديانة(**)، ولم يكن يعجبهم رفع الأذان من مئذنة المسجد، بل إن البعض دخلوا فى المسجد، ولكنهم وجدوه مسطحًا بشكل خيب آمالهم ، ولم يكن به سوى المنبر الخشبى المحفور.

وعلى الرغم من أن جماعة الرهبان الروم سنة ١٤٨٠م كان عددها ثلاثين راهبًا فقط، وكانت أحوالهم متردية ؛ ففى الليلة التى سبقت رحيل فيليكس فابرى قدم لهم

(*) المسلمون يؤمنون بجميع الأنبياء والرسل قبل النبى محمد عليه الصلاة والسلام، ومنهم النبى موسى والنبى عيسى عليهما السلام بطبيعة الحال. (المترجم)

(**) استخدمت المؤلفة عبارة «الديانة البغيضة abominable religion ». (المترجم)

راهبين أرسلهما كبير الأساقفة على سبيل المجاملة صينية مغطاة بأرغفة الخبز الملتوية معمولة بالتوابل، مثل كعكة العسل، أو خبز الزنجبيل ، ومعه البلح والتين والعنب.

وفي اليوم التالي ، وبينما كانوا يجمعون الجمال والحمير قبل الرحيل ، أزعجهم العرب في الخارج بإلحاحهم المستمر على طلب المزيد من النقود . وكان هناك المزيد من النكد عندما أرسل كبير الأساقفة رسالة يشكو من أن أحد الحجاج قد انتزع قطعة من تابوت سانت كاترين بآلة حديدية. وعلاوة على ذلك، فإنه لم تتم إعادة القطعة في الحال بمبادرة من جانبهم، فإن الحجاج سوف يُرغمون على الامتثال من جانب العرب الذين سيضع المسألة بين أيديهم. وإذ وجدت الجماعة أن الأمر كما قال ، فقد غشيهم الخوف وغلبهم الخزي، ولعن كل منهم الرجل الذي كان قد فعل هذا . ولأن أحداً لم يعترف ، أعلن دليلهم كالينوس أن الجاني يجب أن يعطيه القطعة سراً ، وسوف يحل المسألة دونما فضائح. وهكذا تم الأمر، وحزن فيليكس لأن المجموعة كانت قد عانت مثل هذه المحنة والعار طوال رحلة الحج بسبب الرغبات الحمقاء لبعض أفراد جماعتهم في الحصول على هدايا تذكارية من الأماكن المقدسة. ولكن على الرغم من سرقتهم التي تستحق اللوم في المزار، فإنه تذمر من رهبان دير سانت كاترين ومسئوليه الذين عندما تمت تسوية الأمر ، «جاءوا وطلبوا منا بلا خجل نقوداً على سبيل «الوداع» ، أو هدية الرحيل، وهو ما أعطيناه لهم، على الرغم من أنهم لم يكونوا يستحقونه».

كانت الكنيسة الضئيلة كنيسة الدغل المحترق خلف المذبح الرئيسي يتوصل إليها إما من خلال كنيسة يوحنا المعمدان الجانبية الصغيرة (وهي اليوم كنيسة القديسين والشهداء) أو من كنيسة سان چيمس . وهنا كان جميع الحجاج يجلسون بأمر حافظ الكنيسة لخلع أحذيتهم إطاعة للكتاب المقدس الذي يشير إلى الأرض المقدسة التي يمشون عليها. ولما مروا من بوابة منخفضة دخلوا الكنيسة الصغيرة حيث وجد فيليكس فابري الأرضية المرصوفة «مفروشة بالسجاد الغالي، والحوائط مغطاة بألواح الرخام الثمين المصقول». وكانت تضاء بالكثير من المصابيح وفي الأرضية تحت المذبح الصغير المستقر على أربعة صفوف من الأعمدة الصغيرة (حيث يقال إن الشجيرة كانت قد نمت

وكبرت) ، ولاحظ «صحنا من النحاس حيث حفر عليه صورة الشجيرة المحترقة وموسى وهو يخلع نعليه».

وعند موت أحد الرهبان، كانت جنازته تقام في إحدى المقابر المقابلة المخصصة فى الأرض الصخرية المتناثرة فى المدافن الصغيرة المساحة . وحسبما كانت الممارسة منذ تأسيس الدير، عندما يتلاشى لحم الميت، كان الجسد يُخرج من مكانه وتوضع العظام فى مكان حفظ عظام الموتى فى حديقة الدير. وإلى يسار الباب كانت جثة سان اصطفانوس البواب جاثمة (كما هى اليوم) ، وهو راهب مقدس عاش فى القرن السادس، مكفن فى أثواب أرجوانية ممسكًا فى يده الهيكلية عصاة . وعلى مدى سنوات كثيرة فى حياته ، كان يجلس عند البوابة فى سهل أشجار السرو على الطريق إلى جبل سيناء يسمع الاعترافات من الحجاج المسافرين خلال صعودهم الشاق إلى قمة الجبل . وفى سنة ٥٦٠م ، تم العثور على القديس ميتًا، وهو ما يزال جالسًا على كرسيه . وفى داخل المكان الذى تحفظ فيه العظام، كان الحجاج يواجهون (كما هو الحال اليوم) بمشهد أكوام منفصلة من الجماجم ، والأطراف ، والأيدى ، والأقدام ، مرتبة فى نظام بحرص ودقة، على حين كانت هناك فى مواجهتها ، بعيدًا ومنفصلة عنها، عظام كبار الأساقفة والشهداء معروضة فى توابيت مفتوحة .

وقد ابتهج نيكولودى بوجيبونسى ، بحبه للطبيعة، فى حديقة الدير الآمنة المنعشة والمليئة بالأوراق الخضراء والزهور والفاكهة. وفوقها عند سفح الجبل كان الرهبان قد حفروا خزانات كبيرة لكى تحتفظ بالمياه الناتجة عن ذوبان ثلوج الشتاء. ومن هناك كانت تفيض عبر أنابيب من بئر إلى بئر آخر حتى تغطى شبكة القنوات الحديقة كلها؛ حيث كان الرهبان يزرعون الأعشاب والخضروات والنجيلة والحبوب. وكانت هناك أكثر من ثلاثة آلاف شجرة زيتون، والكثير من أشجار التين، والرمان واللوز . وبهذه الطريقة ، كان الدير ينتج ما يكفى من زيت الزيتون لإضاءة مصابيح الكنيسة وكذلك ما يكفى المطبخ . وفى كل سنة كانت الجرار تملأ من فاكهة الحديقة وترسل عبر صحراء سيناء إلى السلطان فى القاهرة مقابل الحماية والرعاية.

ولم يكن أحد يظن أن الحج إلى سانت كاترين يمكن أن يكون كاملاً بدون الصعود على صخور جبل سيناء . ويمكن وصف الجبل بأنه ذو قاعدة واحدة، وقمتين ، قمة جبل موسى (سبعة آلاف وخمسمائة قدم) ، وجبل سانت كاترين الأكثر ارتفاعًا (ثمانية آلاف وسبعمائة قدم) . والمنطقة المقدسة كلها كانت محل تبجيل المسلمين والمسيحيين على السواء بسبب ارتباطها الأسطورى بأنبياء العهد القديم والقصص التى أوردها الكتاب المقدس عن موسى . وقد رصع الرحالة فى العصور الوسطى رواياتهم عن الصعود باقتباسات حرة من الكتاب المقدس ومن قصص المعجزات التى يقال إنها ارتبطت بمزارات بعينها على الطريق. ودائمًا ما كانت فى أذهانهم القصة الخرافية عن اكتشاف الجسد الكامل، لسانت كاترين ، وكانوا يصدقون بحماسة أن الملائكة قد وضعوها على قمة جبل سانت كاترين .

انطلق نيكولو دى بوجوبينسى ورفيقه لصعود الجبل فى الصباح الباكر، يصحبهم عربى وراهب من الدير . وأخذوا الطريق الصخرى المنحدر فوق الدير باتجاه الغرب وصعدا رأسيًا لمسافة ميلين اثنين «كما لو كنا نصعد على سلم نقال». وكان الممر المعروف باسم «درج الحجاج» على شكل ثلاثة آلاف درجة عالية من الجرانيت إلى قمة جبل موسى، وقد جهد الرهبان الأوائل الذين عاشوا بالدير فى قطعها . كان التقدم بطيئًا وصعبًا ، تعوقه أحيانا الصخور المتساقطة ، وكان الطريق يمر من خلال ممر ضيق وتحت قوسين صخريين قويين وضيقين، وصفهما نيكولو بأن المسافة التى تفصل أحدهما عن الآخر قدر رمية سهم . كان هذا هو المكان الذى كان يجلس فيه الراهب اصطفانوس قبل ذلك بزمن طويل يستمع إلى اعترافات الحجاج المسافرين .

وقد ترك نيكولو أوصافًا تصويرية لمزارات الجبل وأفضل الطرق التى ينبغى أن نسلكها ، لأنه سجل هذا فى ألواح الجص التى كانت معه ، وقد ذكر الكنيسة الجميلة لمريم العذراء للتجلى، حيث قيل إن العذراء تسببت فى توصيل المؤن بشكل إعجازى إلى الرهبان الذين كانوا عل حافة الموت جوعًا . وبحسب الأسطورة ، كان الرهبان قد ابتلوا بوباء الفئران ، وعندما كانوا على وشك إخلاء الدير بسبب ورطتهم عادوا مرة أخرى ؛ لأن العذراء تجلت لهم وكلمتهم بكلمات المواساة والراحة. وعندما مرّ نيكولو من

خلال القوسين الصخريين ، وجد أن كنيسة إيليا النبى محاطة بالكثير من المبانى، ولها ثلاث شجرات بمثابة العلامة على المكان. وهناك أسطورة أخرى أكدت أن هذا هو المكان الذى كان قد تجلى فيه الرب لإيليا من وسط النيران والكبريت . وعندما وصل نيكولو فى النهاية إلى قمة جبل موسى، وصف كنيسة حجرية صغيرة (أقامها چستنيان فى الأصل) تواجه الشرق؛ حيث يقول التراث الدينى إن موسى تلقى الألواح الحجرية بالشريعة التى كتبها الرب بيديه ، وكانت منقسمة بالسور الصغير الذى عليه لوحة مرسومة تظهر كيف شق موسى البحر الأحمر بعصا فى يده ليساعد بنى إسرائيل على الهروب من جيش فرعون . وعلى مسافة ثمانى خطوات من الكنيسة كان هناك مسجد للمسلمين وبه صومعتان تحت الأرض.

كان المشهد من على القمة فى الجو يضم شبه الجزيرة بأسرها، وساحل البحر الأحمر وراءها، بيد أن أولئك الذين كانوا قلقين من الصعود قبل الغسق إلى قمة جبل سانت كاترين الأعلى،
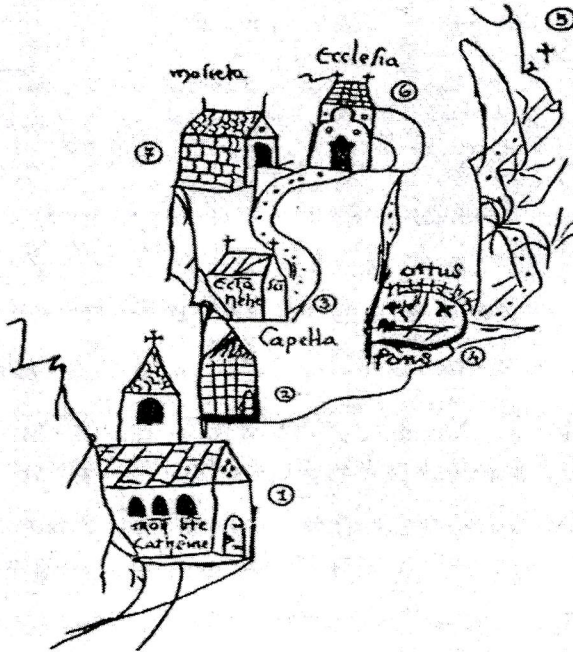
٨-٥ الكنائس الصغيرة فى الطريق إلى قمة جبل سيناء

والتى تتيح بانوراما لمشهد أكثر اتساعًا، لم يتوانوا، ونصيحة نيكولو عن الممر المقلق جدًا لمن سوف يتسلقون الجبل:

«إذا ما رغبت فى الذهاب إلى جبل سانت كاترين ؛ فهذه هى الطريق، تنزل الجبل من الجنوب الشرقى، وستنزل بسرعة ؛ وحافظ على السرعة ؛ لأن هذا سيكون ضروريًا للغاية ؛ لأننا كنا نضع عصينا أمامنا ثم نخطو خطواتنا بعد ذلك . وفى أثناء هذا النزول تجد شجرة كمثرى برية، وأثناء نزولك أمسك جيدًا كما أقول لك».

وعند منتصف طريق النزول فى الممر تقريبًا ، يوجد الدير المعروف باسم «القديسين الأربعين» الذى يمتلكه رهبان دير سانت كاترين ؛ حيث استراح نيكولو ورفيقه تحت رعاية ثمانية من الرهبان. كانت الكنيسة كبيرة ومحاطة بالمبانى، ولها حديقة واسعة تحتوى على أنواع كثيرة من أشجار التفاح، وبينها يجرى جدول ماء فى الفصل المناسب من السنة . وعلى المنحدرات السفلى الخصبة من جبل سانت كاترين أمكن للرهبان زراعة أشجار الزيتون والخضروات التى تشبه تلك التى تنمو فى الدير نفسه . وفوق الأرض الصخرية للمناطق الأعلى، كانت هناك حفريات متحجرة عليها بصمات النباتات والزهور والأشجار.

وبعد أن غادروا دير الأربعين قديسًا ساروا على امتداد هضبة صغيرة ، ودخلوا واديًا يقع ناحية الغرب. وبعد أن تسلقوا نصف الطريق إلى أعلى، وصلوا إلى قمة جرف على يسارهم. وإذ نزلوا قليلاً ، لمسافة حوالى «رميتى قوس» ساروا فى طريق صعود أكثر انحدارًا ، وهنا مرة أخرى نبه نيكولو قراءه «تمسكوا جيدًا ؛ لأنكم تحتاجون إلى ذلك كثيرًا جدًا؛ لأن الجبل صعب جدًا فى صعوده». وأخيرًا ، وبعد أن زحفوا فى طريقهم إلى أعلى فوق الجرف العالى إلى القمة المنحدرة ، وجدوا المكان صغيرًا جدًا لدرجة أنه يكفى لوقوف اثنى عشر شخصًا بالكاد. وقم تم بناء حائط حجرى حول الحافة من أجل السلامة ، ولوقاية الحجاج من الإصابة بالدوار عندما ينظرون إلى أسفل . وفى وسط المنطقة يمكن رؤية بصمة فى الصخرة ؛ حيث كان يرقد

جسد القديسة. وقاست جماعة فيليكس فابرى الحفرة بأجسادهم ، «ليس بدافع حب الاستطلاع ، وإنما بدافع من التقوى» ، واستنتجوا أنها لابد كانت طويلة القامة.

ولأن نيكولو وجماعته كانوا قد تسلقوا كلتا القمتين في يوم واحد ، وكان الوقت متأخراً ، صار الجو قارص البرودة ، وشعروا بالجوع الشديد، واستراحوا مرة أخرى فى دير الأربعين قديساً؛ لأنهم كانوا عاجزين عن الوقوف منتصبى القامة بعد النزول المرهق . وإذ غلبهم التعب، كانت أقدامهم وقصبة الساق وركبهم تؤلمهم بشدة. وفى كرم أعطاهم الرهبان الطعام والشراب، ولكن على الرغم من أنهم ناموا تحت غطاء جزئى ، فإن الأرض الصخرية فقط كانت هى الحاشية التى افترشوها . ولم يذكر نيكولو حالة أحذيتهم . وكان من حسن حظ فيليكس فابرى أنه تمكن من ترك حذائه البالى الممزق فى غرفته قبل الانطلاق . وكان أحد الفرسان قد أعاره زوجاً جديداً من الأحذية « ذات اللون الرمادى أو الرمادى المائل للزرقة» اشتراه من القدس، وظن أنه كان مريضاً بحيث لايستطيع محاولة الصعود. وإذ تمزقت نعال الكثير من مواطنيه النبلاء ، وتحولت إلى شرائط فإنهم رجعوا حفاة بعد التسلق وبقوا على هذه الحال التعسة حتى وصلوا إلى القاهرة.

انتهت رحلة حج نيوكولو يوم الجمعة بعد نزولهم من الجبل «فى الساعة الثالثة» . وفى أسف حملوا جمالهم ، وغادروا بالدموع دير سانت كاترين المحبوب ، قاصدين الطريق إلى غزة ، ومرة أخرى كانت عودتهم عبر الصحراء مشوبة بعلامات عدم الترحيب من البدو العرب، ولكن لأنهم كانوا رجالاً فقراء لاتبدو عليهم دلائل الثراء ، فإنهم لم يعانوا الكثير من الأذى. وبعد أن مكثوا فى غزة لفترة قصيرة أسرعوا إلى ميناء دمياط ، وهو مكان ملىء بالكثير من الحدائق الجميلة ؛ حيث نعموا بضيافة تاجر أوروبى على مدى ثلاثة وعشرين يوماً. وفى نهاية الأمر وجدوا مركباً شراعياً متوجهاً إلى قبرص، أخذهم معه فى المرحلة الأولى من رحلتهم إلى وطنهم.

لم يرجع نيكولو إلى توسكانيا حتى الربيع التالى؛ فبعد أن أبحر من دمياط وصل هو ورفاقه إلى فاماجوستا فى قبرص، ولكن بعد أن تركوا فاماجوستا، وجد نيكولو

نفسه محصوراً فى عاصفه كانت من القوة لدرجة أن طباخ المركب كان أشبه برجل عاجز يحاول أن يمشى ولاتقوى ساقاه على حمله . وحاربوا فى يوم «عيد كل القديسين» ضد هجوم من القراصنة ، وحتى فى ذلك الحين لم تتوقف محنته ؛ حيث ساقتهم عاصفة أخرى أمام شاطئ سكلاڤونيا Sclavonia حيث أخرته بعض التجارب المخيفة على الأرض عن الوصول إلى البندقية حتى عيد الميلاد. ومن البندقية رحل بالمركب إلى تشيوجيا Chioggia ، ثم إلى ميناء فرانكولينو، حيث انتقلوا إلى عربة يجرها اثنان من الخيول على الطريق إلى «المدينة الجميلة والمباركة» فيرارا Ferrara، حيث استقر ، ثم رحل مرة أخرى قاصداً بولونيا Bologna ، مسافراً عبر آبنينيس وأخيراً وصل إلى موطنه بوجيبونسى عبر فلورنسا. وعند نهاية هذا الترحال الملىء بالحوادث استطاع أن يسجل «لقد أعادنا يسوع المسيح سالمين... لأنه من كل هذه الأسفار نجوت وحدى مع رفيق وحيد من بين سبعة رهبان كانوا بصحبتى ماتوا جميعاً فى الطريق ، ماعدا واحداً سبقنى فى العودة إلى الوطن »(*).

وقد أعطى كريستوفر هارانت وزوج أخته شهادة فى احتفال على سبيل التذكار من كبير الأساقفة فى يوم الرحيل، تشهد بأنهما أكملا حجهما إلى الدير وقمتى الجبلين المقدسين ، وعقب ذلك غادرا الدير قاصدين القاهرة يوم الإثنين ١٩ أكتوبر سنة ١٥٩٨م حوالى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر. وبينما كانا على وشك الرحيل، اقترب منهما عربى على راحلة وسألهما ما إذا كان يمكنه مصاحبتهما ، ووعدهما بأن يدلهما على أحسن طريق ، ولكن بعد وقت قصير ، فى اللحظة التى اختارها ، أعلن عن قصده بأن يتركهم لمسافة صغيرة ، لكى يقابل بعض الأصدقاء فى عمل بالجبال، وأخبر

(*) يلفت النظر أن «نيكولو دى بوجيبونسى» هو الوحيد بين الرحالة الذين ورد ذكرهم فى هذا الكتاب الذى مرَّ بهذه المصائب تباعًا ؛ بحيث لم يكن يخرج من محنة إلا ليقع فى ورطة. وهو أمر يدعونا إلى التأمل: فإما أن الرجل كان منحوساً حقًا ، وإمَّا أنه كان يحاول اكتساب مهابة وسمعة طيبة ؛ لأن العادة جرت فى أوروبا العصور الوسطى على اعتبار مشقة الحج ومتاعبه من علامات صلاح من يقوم بها ؛ لأنه مشقة الرحلة تضمن المزيد من غفران الخطايا حسبما شاع الاعتقاد أنذاك . (المترجم) .

مترجمهم عن المكان الذى يخيمون به لقضاء الليل ووعدهم بأن يلحق بهم . وسرعان ما هبط الليل، وهكذا ما إن أقام المسافرون المخيم حتى غلبهم النوم على الرمال بين بعض الصخور. وفى حوالي الساعة الثالثة صباحًا أو الرابعة صباحًا، استيقظ كريستوفر فجأة على صوت دليلهم، الذى ينام عادة مع الجمال، ينادى على شخص ما . وإذ ظن أنه ربما كان العربى الذى انضم إليهم ، لم يلبث أن تحرر من أوهامه تلك عندما سمع أصواتًا عالية . وبعد أن أيقظ زوج شقيقته ومترجمهم ، سألوه عما يحدث ، وأخبرهم الدليل أنهم يجب أن يؤمنوا بالقدر لأنهم تعرضوا للهجوم. ولم ينفع توسل المسلم إلى اللصوص كى لايؤذوهم ، فبعد فترة قصيرة تمامًا شاهد المسافرون مهاجميهم على ضوء القمر وقبل أن يُتاح الوقت لتبادل كلمات كثيرة ، كانوا هم أيضًا قد شوهدوا من جانب مجموعة من ثمانية مغيرين مسلحين بالحراب ، والقسى والسيوف التركية الطويلة التى تشبه فى شكلها السيوف ذات الحد الواحد. وأبقى رئيسهم ضحاياه تحت تهديد بندقية طويلة. وبسرعة شديدة تمت الإحاطة بهم، ولأن الأربعة لم يكونوا مسلحين فإنهم كانوا مثل الخراف الجاهزة للذبح . ووجد كريستوفر نفسه محاطًا بأربعة من اللئام الذين أمسكوا به من كتفيه ، وسيوفهم جاهزة لقطع رقبته.

وعندما رأى اللصوص أن أسراهم غير مسلحين ولايمكنهم الدفاع عن أنفسهم، بدأوا ينقبون فى أمتعتهم بحثًا عن النقود ويفتشون ملابسهم من الرأس حتى أخمص القدم . وإذ فكر كريستوفر فى مماطلتهم أخذ كيس نقود بسير جلدى طويل من جيبه فيه قطعة نقد ذهبية (سكوين) وعدد قليل من العملات الصغيرة ، وقدمها على سبيل الترضية، ولم يؤد هذا سوى إلى إثارة شهيتهم : وقد شبه كريستوفر هذا بإلقاء حبوب القمح فى حلق أسد جائع . وبدأوا وقد تملكهم الهياج والغضب فى خلع ملابس كريستوفر ، اثنان منهم على كل جانب، وهم يسحبون أكمامه بالقوة كما لو كانوا يريدون تمزيقه إربًا . وانتهوا بخلع سترته ، وعلى الرغم من أنهم رأوا أنه كان يلبس فقط ملابس كتانية متواضعة ، فإنهم استمروا فى التفتيش وأجبروه على الجلوس. وبدون أن يفكوا رباط حذائه نزعوه من قدميه بالقوة، وهم يجرونه على الأرض الصخرية الرملية من قدميه أثناء ذلك. وفى النهاية كان عاريًا تقريبًا سوى من قميصه الذى سحبه

مهاجموه فوق رأسه ، وقد أخرهم هذا؛ لأن القميص كان مربوطًا بشكل آمن بالعصابة التى حول عنقه . بيد أنه عانى الكثير من الشد والجذب، والضربات المنهمرة من اليمين ومن الشمال على جسده العارى، لدرجة أنه ظن أن ساعته قد حانت . وبحضور الذهن الكبير لديه ، حتى عندما كان اللصوص يقومون بأسوأ ما لديهم ، تذكر كريستوفر أن يخلع الحزام القماش حول كتفه الأيسر بأى ثمن ؛ لأنه كان قد خبأ به اثنتين وعشرين قطعة ذهبية. وفى أثناء المشاجرة تمكن من خلعه بيده اليمنى وأبقاه مغلقًا بشدة فى راحته. وما إن فعل هذا حتى كان المعتدون قد مزقوا قميصه وتركوه عاريًا تمامًا. وعندما رأوا أنه ليس عليه شىء ، انتحوا جانبًا لتفتيش ملابسه، ولذلك انتهز كريستوفر الفرصة وألقى حزام نقوده على الأرض ودفنه فى الرمال، ووضع حجرًا علامة على المكان ، وهو حريص تمامًا على أن يتحرك بعيدًا عنه.

أما دليلهم الذى كان يشاهد هذه الأحداث المؤسفة فقد جاء لكى يغطى عهدته بنوع من غطاء الرأس الأبيض. أما زوج شقيقته والمترجم اللذان بقيا فى ثيابهما، ولم ينزع عنهما قميص أو سروال فقد كانا محظوظين ؛ لأنهما لم يجرًا على الصخور مثل صديقهما . وشاهدوا سويًا اللصوص وهم يكوّمون كل ممتلكاتهم فى كوم واحد مع ما لديهم من مؤن وبسكويت وسمك مجفف وما إلى ذلك. وكان العرب جوعانين لدرجة أنهم بدوا شرهين إلى الطعام قدر شراهتهم إلى المال الذى كانوا يبحثون عنه . وانتهز سرنين الفرصة ليكشف ما إذا كان كريستوفر قد جُرِّد من كل شىء بما فى ذلك النقود المخبوءة فى حزامه . وقال كريستوفر إن كل شىء ضاع. وفى حال من الصدمة ، أخبر زوج شقيقته المترجم، الذى توسل فى الحال إلى اللصوص أن يعيدوا على الأقل بعضًا من المال ، وإلا فإنهم لن يتمكنوا أبدًا من الرجوع إلى بلادهم . وعندما سمع اللصوص هذا انتفضوا فى الحال وجروا تجاه أسراهم، وهم يسألون لمن كانت النقود . وعندما عرفوا أنها كانت نقود كريستوفر أحاطوا به مرة أخرى وأدرك أن خدعته كانت خطأ . وعلى سبيل المعاكسة أظهر لهم ساقه لكى يجعلهم يظنون أنه كان قد ربط النقود إليها . وفحصوا ساقه واحدًا تلو الآخر على أمل أن يكتشفوا بطريقة ما أين هى . وسرعان ما عادوا إلى المكان الذى كانوا يجرُّون فيه ضحيتهم على الأرض، على حين كان كريستوفر
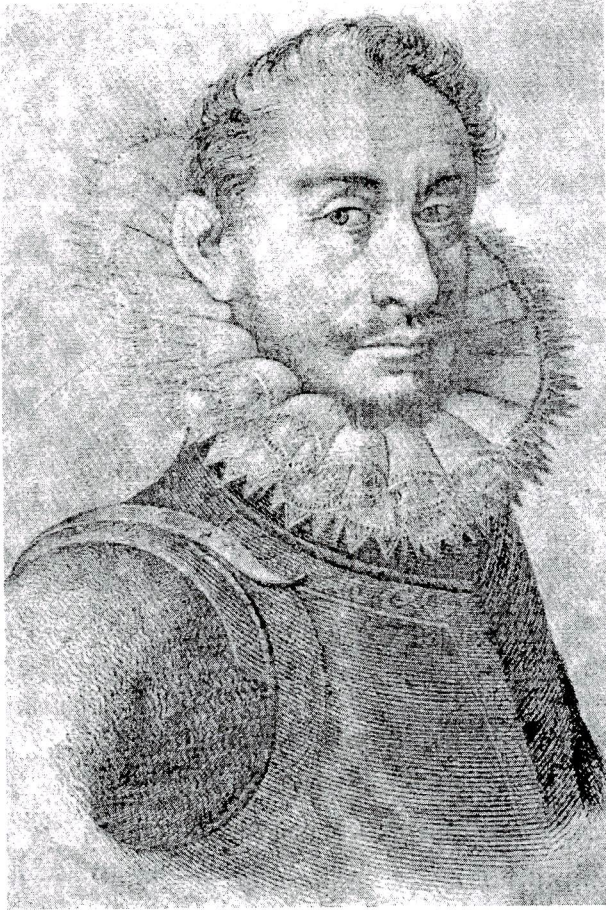
٨-٦ صورة كريستوفر هارانت

ينتظر فى خوف من أن يستعيدوا كيس النقود من الرمال. وبنعمة الرب لم يجدوه، وبدلاً من ذلك بدأوا يتشاجرون فيما بينهم ، وكل منهم يشك فى الآخرين . وجمعهم رئيسهم سويًا، واستجوب كل واحد منهم عمن يخفى النقود ، ولكن عندما لم يصل إلى شىء عاد إلى كريستوفر لكى يتأكد من نوع النقود قبل أن يستأنف استجواب مساعديه ، وفى الوقت نفسه تظاهر كريستوفر كثيراً بالبحث فى الأرض عن المكان الخطأ لكى

يظهر براءته . وفى النهاية أصدر الرئيس إنذاراً بأنه إذا لم يُفصح المسافرون عن مكان النقود، طالما أقسم أتباعه واحداً واحداً أن النقود ليست بحوزتهم ، فإن مصيرهم سيكون الموت المؤكد . وإذ أدرك كريستوفر أن الأمر لم يعد مسألة لعبة قرر أن يطلب منهم الصفح ، ويجعلهم يفهمون أنهم أساءوا فهمه ، وأعطى كلمته بأن النقود الوحيدة التى كان يملكها كانت هي الهدية التى أعطاها لهم فى بداية الأمر. وبدا أنهم رضوا بهذه الرواية المصطنعة.

وتوسل دليلهم العربى إلى اللصوص أن يعيدوا الملابس وبعض الطعام، متوسلاً بأن المسافرين فى عهدته من المسيحيين الفقراء الذين عليهم أن يدفعوا ضرائب باهظة إلى «الإمبراطور التركى». وأعيدت إليهم صديرياتهم، واستعاد كريستوفر سرواله، ولكن كل الباقى، بما فى ذلك الأغطية ، بقيت مع البدو. وأعطوا لهم بعض الخبز وقليلاً من البسكويت تكفى مدة يوم أو يومين . وبينما كان يتم تنفيذ هذه التبادلات ، استمر مترجمهم فى تقبيل أيدى مهاجمهم وجباههم تعبيراً عن التواضع والصداقة ، ولكن لو لم يخبئ دليلهم الأمين قليلاً من الدقيق لكان من المؤكد أن يهلكوا . وعند الرحيل، جعلهم المهاجمون يقسمون على ألا يشكوهم إلى دير سانت كاترين فى عودتهم، وألا يخبروا السلطات بأمر السرقة عند عودتهم إلى القاهرة . وكان قد بات واضحًا لكريستوفر وزوج أخته أن العرب كانوا قد جاءوا من الدير، وأن الرجل الذى كان قد صحبهم فى البداية كان هو المخبر، على الرغم من أنه لم يشارك فى الغارة.

كانت ثلاث ساعات قد مرت على رحيل المهاجمين ، وأسرع الحجاج الشاكرون على نجاتهم بحياتهم ، لمواصلة رحلتهم، على الرغم من صدمتهم من جراء تجاربهم وحذرهم وتوقعهم لمزيد من الهجمات . وبفضل الدقيق ، الذى اقتصد دليلهم فى استهلاكه، والذى صنع منه كعكًا مسطحًا ببعض الأعشاب التى تمكن من العثور عليها ، وكان يخبزها بين الصخور الساخنة فى الرمال، تمكنوا من يعيشوا بشكل ما حتى وصلوا السويس. وكانت معنوياتهم هابطة لدرجة أنهم عندما اقترب منهم بعض الجنود الأتراك الراكبين خروا ساجدين فى ضعف على ركبهم، يتوسلون إليهم ألا يهاجموهم.

وعندما شاهد الأتراك أسمالهم وحالتهم الهزيلة ، لم يضايقوهم وعندما سمعوا ما جرى عليهم من إساءة أدانوا سوء معاملتهم على أيدى العرب الخارجين على القانون . وأرسل كريستوفر دليلهم إلى داخل السويس؛ حيث تمكن بقطعة نقود ذهبية أن يشترى كمية قليلة من الخبز والجبن، ولكن حتى وإن كان طعم الجبن يشبه طعم الصابون مثل ذلك الذى قُدم لهم فى دير سانت كاترين ، فإنهم عادوا إلى الحياة بشكل ما.

وقرب المساء لحقوا بقافلة تضم حوالى خمسين جملاً مكونة من الأتراك ، والمسلمين والعرب على وشك الرحيل إلى القاهرة، ولأن جمل كريستوفر كان يعانى الإرهاق، طلب من دليله أن يبحث له عمن يؤجر له جملاً لليلة واحدة فقط. وهكذا وافق وغد مُسِنّ على أن يدعه يركب أحد جماله مقابل ست قطع نقدية صغيرة . وربما بسبب مظهر المسافرين المتوحش غير المهندم لم يكونوا محل ترحيب من جانب المتعاملين الجشعين ، ولم يحدث إلا بعد دفع مبالغ باهظة أن سمحوا لهم بمرافقتهم . كان الجمل أطول جمال ذلك الوغد ، وأُجبر كريستوفر على الركوب خلف مالكه على حين ركب رفاقه فى ذيل القافلة . وعلى الرغم من أنه أحس أنه معزول وخائف ، بدأ كريستوفر ينعس . وفجأة أيقظه «الكلب العجوز» الذى ضربه على ظهره بعصا كادت أن تسقطه على الأرض. ولم يستطع سوى أن يخمن أن السبب فى هذا الهجوم أنه كان يركب وإحدى ساقيه متدلية أطول قليلاً عن الأخرى ، وأنه ربما كان يسبب التعب للجمل الذى يحمله .

وبعد ذلك بوقت قصير ، انضم إلى مجموعتهم مجموعة من ثلاثة عرب من مكة، كانوا ينقلون جثة تاجر غنى كانت أرملته عائدة بها لكى تدفنها فى القاهرة ، ولكن على الرغم من أن الجثة كانت معرضة للشمس الحارقة طوال اليوم، فإن رائحتها لم تكن عفنة، بل كان يفوح منها عطر مناسب ؛ لأنه قد تم تحنيطها قبل الرحيل.

وسافر الجميع طوال النهار وأربع ساعات فى الليل، وقطعوا وقتًا جيداً ، واقتربوا من ضواحى القاهرة. وعندما خيَّم دليلهم العربى، نام كريستوفر بإحساس بالأمان لأول مرة منذ تركوا سيناء. وفى صباح يوم ٢٦ أكتوبر صحوا مع الفجر ، ولم تستطع

جمالهم المرهقة أن تحملهم أبعد من ذلك .. وعلى الرغم من المخاطر والمصاعب التى حاقت بهم منذ بداية الرحلة يوم ٨ أكتوبر، فإنهم وصلوا محل إقامتهم فى صحة جيدة حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر ، حيث رحب بهم القنصل وأهل بيته فى فرح. وبدون تأخير خدمهم مضيفهم بوليمة عامرة، ومع عدم وجود النبيذ ، كان طعم مياه النيل حلوا بالنسبة لهم مثل أفضل أنواع النبيذ بعد آبار الصحراء المالحة. وقبل أن يعود دليلهم إلى مخيمه، شاركهم وجبتهم بتعبيرات عن السرور، وأعاد لهم بأمانة كيس النقود الذهبية الذى كان قد عهد به إليه بعد حادث السطو. وكون أن رحلتهم فى الصحراء لم تستغرق سوى ثمانية عشر يوما كان مثار دهشة بالنسبة للقنصل وأصدقائه . ولم يتمكنوا من تذكر أحد قام برحلة الحج فى مثل هذا الوقت القصير فى أثناء الطقس الحار .

وبعد ذلك بوقت قصير ، فى يوم ٣١ أكتوبر أبحر كريستوفر وزوج شقيقته من بولاق فى أسطول صغير من أحد عشر مركبًا ، تنقل بعضها جنودًا مصريين ذاهبين للقتال فى حملة يقوم بها الجيش التركى فى المجر ضد المسيحيين . وكان الجنود يؤدون تحية العلم فى مجموعات يقودها ضباط أتراك يسبقهم عازف طبلة صغير بإيقاع بيد واحدة على حين يعزف المزمار بيده الأخرى. وكان أولئك الراغبون فى الانضمام إلى الجيش ينضمون إلى الطابور ، على الرغم من قلة الأجر الذى يدفع لهم . وكان كل من يمكنه الكتابة يضع ريشة فى عمامته لكى يشير إلى رتبته الأعلى. ولكن لم يكن هناك سوى قلة يتركون أنفسهم للإغراء وبدا أن قلوب أولئك الذين كانوا ينضمون إلى الجيش كانت قاسية . ففى أثناء السنوات السابقة غادرت أعداد كبيرة من الجنود إلى المجر، ولكن واحدًا من بين كل خمسة عشر رجع إلى وطنه بالكاد. وكانوا قد توقعوا أن الحرب سوف تأخذ فقط شكل المناوشات أو النهب، كما هو الحال فى الوطن، بدلاً من الهجمات الخطيرة أو غزو القلاع والحصون ، وأولئك الذين جاءوا من مناخ حار لم يتمكنوا من الصمود أمام قسوة البرد فى الشتاء، والعمل الشاق الكثيف . وهكذا فى جميع أنحاء البلاد وفى مدينة القاهرة العظيمة لم يكن هناك سوى حفنة من المتطوعين؛ فقد كانوا قد فقدوا حماستهم للحياة العسكرية.

انتهت رحلة كريستوفر النيلية فى ميناء رشيد التجارى الذى يضج بالحركة، ومن هناك أجَّرَت الجماعة الحمير للركوب على امتداد الطريق الساحلى حتى الإسكندرية، حيث أجبرهم الممر الرملى العميق على الخوض خلال أمواج البحر. وفى نهاية المطاف وصلوا بوابات المدينة يوم ٥ نوفمبر. وقد نبهت ضجة وصولهم إلى الفندق Fondaco بشكل مفرح أصدقاءهم الذين كانوا قد صحبوهم فى الحج إلى بيت المقدس ، والذين كانوا آنذاك فى انتظار مركب للعودة إلى الوطن . ولأن كل المسافرين كانوا شغوفين بالإبحار من الإسكندرية قبل ١٥ نوفمبر؛ حيث كانت معظم سفن الأسطول تبحر قبل هبوب رياح الشتاء ، كان الفندق مزدحمًا بالتجار الذين ينتظرون النقل .

وفى اليوم التالى ، أسرع كريستوفر لتحية القنصل الفرنسى ، الذى كان قد ذهب إلى القداس، حسبما جرت العادة فى كنيسة الفندق الواسعة اللطيفة . وتم استقبالهم بدماثة ، وتلقوا وعدًا بأن يجدوا مكانًا على مركب مناسب متجه إلى مالطا أو صقلية. وبعد ذلك جذفوا إلى ثلاث سفن بندقية راسية بالقرب من القلعة ؛ لأن الميناء كان ضحلاً جدًا بحيث لايمكن لهذه السفن أن تدخله ، ونجحوا فى حجز أماكن ليوم الخميس ١٢ نوفمبر على السفينة «بالبينا» ، أكبر سفينة ، والتى كانت هى أول سفينة مغادرة . وكان نائب القنصل قد نصحهم بأن السفن البندقية تتمتع بحماية أفضل فى ذلك الوقت من السنة من القراصنة الذين ينتظرون للإغارة على السفن المحملة بالبضائع . وفى مساء اليوم الحادى عشر، استأذنوا فى الرحيل من مضيفهم بقلوب يملؤها الفرح وعلى الرغم من أنه لم يكن أمامهم خيار سوى قبول الطعام الهزيل الذى قدمه قبطان «بالبينا» ، فإنهم جميعًا كانوا بصحة طيبة. وعندما دخلت بهم السفينة البحر المفتوح بعد ظهر اليوم التالى، امتلأت الأشرعة بريح خفيفة ، وعندما اختفت الإسكندرية عن الأنظار كانوا قد تركوا مصر وراءهم.

هوامش الفصل الثامن

Preparations and journey: Bellorini and Hoade (ed. and trans.), Frescobaldi, Gucci and Sigoli,pp. 53-57,177,178; Fra Niccolo ofPoggibonsi,pp. 96-104;Sauneron (ed.), Voyage en Egypte de Pierre Belon, pp. 120b-26b; Stewart (ed. and trans.), The Wanderings ofBrother Felix Fabri, pp. 526-46 .The Garden of Balm, general: Meinhardus, The Holy Family in Egypt, pp. 35-40. Pilgrims' descriptions of balm and its uses: Alpinus, De Balsamo Dialogus; Dopp (ed.), Le traite d'Emmanuele Piloti, pp. 32-34; Sauneron (ed.). Voyage en Egypte de Pierre Belon, pp. 110 b-12b; Bellorini and Hoade (ed. and trans.), Frescobaldi, Gucci and Sigoli, pp. 106-108, 177-78; Brejnik and Brejnik (ed. and trans.). Voyage de Christophe Harant, pp. 82-94 ; Monastery, general: Kamil, The Monastery of St Catherine in Sinai; Papaioannu, The Monastery of St Catherine Sinai. The pilgrims: Stewart (ed. and trans.), The Wanderings of Brother Felix Fabri (St Catherine's Mount, pp. 570-71; legend of monks retrieving her body, pp. 604-607; state of shoes, p. 582; at tomb of St Catherine, bones, jewels, pp. 599-603; chapel of Burning Bush, pp. 607-608; lodgings and monks' hospitality, p. 611; dislike of monks, pp. 616-23; troubles on departure, pp. 624-25); Bellorini and Hoade (ed. and trans.), Era Ntcco/6 ofPoggibonsi, pp. 98-120; Francesco Suriano, pp. 186-89 Sauneron (ed.), Voyage en Egypte de Pierre Belon, pp. 121a-133b; Brejnik and Brejnik (ed. and trans.). Voyage de Christophe Harant, pp. 98-172; da Schio (introd.), Viaggiodi Filippo Pigafetta, pp. 225-65; Wolff, 'Two Pilgrims at Saint Catherine's Monastery', pp. 33-58.

الفصل التاسع

مغامرة مع قافلة مكة

على الرغم من الأخطار المعروفة ، فإن القليل من الأوروبيين الجسورين غامروا بالقيام بالرحلة الصحراوية بمصاحبة الجماعة الكبيرة من المسلمين فى رحلة الحج السنوية إلى مكة. وفى سنة ١٥٨٦م تقريبًا ، وبعد عشرين يومًا من شهر رمضان، التحق رجل إنجليزى مجهول الاسم بالقافلة المتوجهة من القاهرة فى رحلة الأربعين يومًا على طريق العقبة المطروق كثيراً عبر شمال صحراء سيناء . كانت تلك مغامرة شجاعة؛ لأنه إذا اكتشف وجود أى مسيحى فى الأماكن المقدسة الإسلامية، كان لابد من إعدامه:

«جاء قائد القافلة وحاشيته وضباطه إلى القلعة بالقاهرة أمام الباشا الذى يعطى كل رجل ثوبًا ، وثوب القائد مطرز بالذهب، ويمنح الآخرين كلاً حسب درجته. وعلاوة على ذلك يسلم إليه كسوة النبى "CHIsva Talnabi" ، (أى كسوة الكعبة) ... وهذه الكسوة مصنوعة بقصد تغطية الكعبة من أعلاها إلى أسفلها ، والتى يقولون إن إبراهيم أو ابنه إسماعيل هو الذى بناها، وبعد هذا يسلمه بوابة صنعت من أجل «الكعبة» سابقة الذكر، وكلها مطرزة بالذهب الفاخر، بصناعة فاخرة ولها قيمة عظيمة . وإلى جانب هذا يسلم إليه غطاء من المخمل الأخضر مصنوع على شكل هرم، ارتفاعه حوالى تسعة أشبار ، ومطرز تطريزاً فنيًا بأفخر أنواع الذهب، وهى خاصة لكسوة قبر نبيهم فى المدينة. وتحمل هذه الأشياء الغالية من مقر إقامة الباشا بالقلعة إلى مسجد بالقرب من باب النصر . ويتم تخزينها فى هذا المسجد حتى تبدأ قافلة الحج تتشكل فى «بركة الحاج» . وتقع بركة الحاج بالقرب من المطرية على مسافة حوالى أربعة أميال من القاهرة . وكانت كسوة الكعبة المعروفة اختصاراً باسم «الكسوة» ، وهى الستائر التى توضع على الجوانب الخارجية لكى تصنع فى مصر حسب التقاليد.

كانت مثل هذه القوافل تنطلق ، فى سبيل الرحلة إلى شبه الجزيرة العربية، بخيول قوية الاحتمال وبغال وجمال شديدة القوة ومعها بعض المشاة، وفى بعض الأحيان كانت تصحبهم النساء والأطفال فى الهوادج المغطاة . وقال المسافر المجهول إن خمسين ألف إنسان فى موكبهم كان يصحبهم أربعون ألفًا من البغال والجمال. وكان التجار يتصدرون القافلة ، ويبيعون بضاعتهم من المرجان والحرير والحبوب والأرز فى الطريق، ويتبعهم الحجاج. ولم يكن هناك مكان للمتوفين. وقد قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالحج سنوات ١٣١٣م ، و١٣٢٠م ، و ١٣٣٢م. وقد سافر فى راحة ، وكان يعيش على حديقة خضرواته المحمولة فى إطارات على ظهور الجمال.

فى أثناء زيارة فيليبو بيجافيتا إلى القاهرة فى ١٢ ديسمبر سنة ١٥٧٦، كان بين الجماهير التى ازدحمت لمشاهدة المهرجان الملون فى مسيرته وهو يمر بالشارع المترب. كان الموكب قد تجمع أولاً فى الميدان الكبير بجوار القلعة ، قبل أن يمضى لمسافة حوالى ثلاثة أميال إلى مسجد الحاكم القريب من باب النصر، عبر الطريق الرئيسى الذى يمر من خلال السوق . كان مسجد الحاكم الشهير بجوار أسوار المدينة يتلقى عوائد جمة من النقود والغلال لكى يدفع إلى المؤذن ، والشيوخ ، والحرفيين ، والإضاءة والزينة والصدقات التى توزع على الفقراء . ومنذ ساعة الفجر ، تتصاعد أصوات الجلبة والضجة من الجموع الغفيرة المصطفة على جانبى الطريق ، وينحشرون فى السقائف بالبازارات. وشاهد فيليبو كثرة من الناس ينحنون من النوافذ العليا، ويمدون أيديهم يستنزلون البركة ويتضرعون ، ويلمسون جمل المحمل الذى يقوده أحدهم بيده على رأس الموكب . وكان مغطى بقماش من الحرير المطرز بالذهب ، وعلى سرجه كان حمله الغالى «المحمل» ، الذى كان على شكل هرم ذى أربعة جوانب مغطى بقماش حريرى مثبت بها أجراس صغيرة ، تتناقص فى حجمها ، كانت ترن فى أصوات متناغمة ، كان المشاهدون بعد أن يلمسوا جمل المحمل يضعون أيديهم على عيونهم وعلى ذقونهم ، ويبجلون الحيوان كما لو كان قديسًا متمنين له رحلة بالسلامة وهم يتضرعون لله والرسول (ﷺ) . وفى الموكب كان هناك بؤساء حفاة الأقدام فى

أسمال بالية يشكلون جماعة، يقفزون وينشدون ، ويشحذون باسم الله من الجموع التى كانت تمنحهم الصدقات ، اعتقاداً منهم أن هؤلاء الصعاليك رجال من الأولياء الصالحين . وكانوا يمسكون فى أيديهم خطاطيف مقوسة، يزين قمتها الهلال تتدلى منها شرائط من القماش متعدد الألوان من أسفلها .

وكانت هناك حاشية من الدراويش ، وهم يعتبرون أنفسهم أشخاصاً مقدسين، حليقى الوجوه وحاسرى الرؤوس . وكانوا يجتذبون انتباه الجماهير واحترامهم بابتلاع المستحيل مثل الأسياخ والحيات ، وينغمسون فى جميع أنواع الخداع، ولكن مهما أمعنوا فى الغرابة والشذوذ ، فإنهم كانوا يعيشون عيشة مرتاحة فى مؤسساتهم ؛ حيث كانت أحوالهم منظمة بشكل جيد. وقد اعتبر الرحالة العالمى ابن بطوطة أن الدراويش متعلمون جيداً، عارفون بالمذاهب الصوفية . وفى نوبة الانفعال كان هؤلاء الدراويش يقفزون ويلفون فى الهواء بين الجماهير المزدحمة الصاخبة ، وهم يطلقون صيحات خشنة ، ويضربون رؤوسهم ، على حين كان من ينشدون الأذكار يبدأون ويتوقفون عن الإنشاد بأوامر قادتهم .
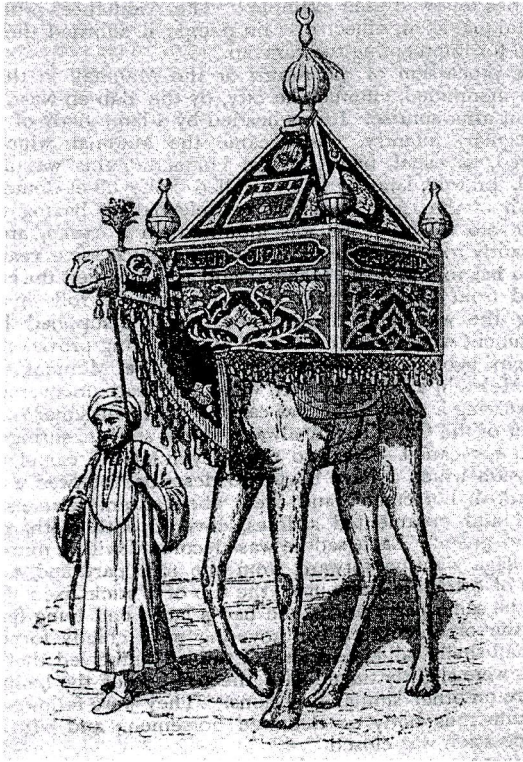
٩-١ الجمل يحمل المحمل

ثم يدخل فى المشهد طابور من الحمالين الذين يحملون الهدايا النفيسة ، كانوا يحملون سبعًا وعشرين قطعة قماش من المخمل، والحرير ، والدمشقى مختلفة الألوان، عرضها حوالى شبرين مكتوب عليها كتابة جميلة بحروف عربية مطرزة بالذهب. وفى العرض

كانت كسوة قبر النبى محمد من المخمل الأسود المطرز بالذهب، وقد فُرشت هذه الهدايا مثل غطاء المائدة على دروع الرجال المشاة، الذين كانوا يقفون من آن إلى آخر حتى يمكن للناس أن يلمسوها . أمَّا أولئك الذين كانوا يشاهدون من الطابق الأعلى فقد نفشوا شعر الناس المزدحمين فى الشارع ؛ لأنهم أدلوا بقطع مختلفة من القماش لملامسة الهدايا (الذاهبة إلى الحجاز) ، ثم قاموا فى احترام بمسح عيونهم وذقونهم بالقماش فى تواضع شديد. وسط هذه الضجة المزعجة ، كان ثمة خطر حقيقى من القتل ، أو إساءة المعاملة ، من الغوغاء الهائجين والذين يتصاعد هياجهم إلى درجة الحمى بسبب حماستهم الدينية. وكان بعض الإنكشارية الذين تم تعيينهم على امتداد الطريق لحفظ النظام يضربون بلا تمييز أى شخص لايبقى خلفهم، ولاسيما الأجانب أو المسيحيين الأقباط الذين يرتدون عمائم سوداء .

بعد مرور المشهد المتنوع الأشكال والألوان من موظفى البلاط ، والعدد الذى لايحصى من الجمال التى تحمل الأمتعة ، جاء عدد من الهوادج التى يحمل كلاً منها جملان، وهى مغطاة بأقمشة زاهية الألوان تضم الرجال والنساء المهمين الذاهبين للحج ومعهم أولادهم ، ثم جاءت عقب ذلك بعض المحفات تحمل الشعراء ومن ينشدون الأغانى والأذكار الدينية، وكلهم فى أفخر ثيابهم . وفى مؤخرة الموكب كانت هناك ست قطع صغيرة من المدفعية عيار ٦ سم ، يجر كلا منها اثنان من الخيول يقودهما فارس واحد، وتتبعها الجمال التى تحمل ذخيرتها والمؤن الخاصة بالبنادق . وأخيراً ، وفى عز الضجة والاحتفال جاء «الصنجق» المسئول عن قيادة القافلة والهدايا الفاخرة إلى مكة. وكان يصحبه كل «الصناچق» الآخرين فى القاهرة وهم يمتطون خيولهم الجميلة، تحيط بهم حاشياتهم وأتباعهم بكل الأبهة المتاحة. وانتظر فيليبو حتى مرّ الموكب كله ، وقد انتهى بحامية عسكرية مرافقة تتكون من حوالى مائة من الإنكشارية الذين يحملون البنادق وقد ركبوا «أحسن أنواع الجمال، المجهزة جيدا بالسروج واللجم».

كتب المستشرق الإنجليزى إدوارد وليم لين الذى عاش فى العصر الفيكتورى يصف المحمل:

«إطار من الخشب على شكل هيكل مربع، له قمة هرمية الشكل، له غطاء من القماش المقصب الأسود، مطرز بزخارف غنية بالنقوش والكتابات الذهبية، فى بعض الأجزاء على أرضية من الحرير الأخضر أو الأحمر ، وحافته موشاة بإطار من الحرير، بها شُرابات متوجة بأجراس من الفضة... وهو لايحتوى على شىء، ولكن به نسختان من المصحف ، إحداهما على شكل لفافة صغيرة والأخرى فى شكل الكتاب المعتاد ، وهو صغير أيضًا، وكل منهما فى علبة من الفضة المطلية بالذهب ومربوطان إلى القمة من الخارج».

٢-٩ أحد الإنكشارية فى الطريق إلى الحرب يلبس خوذة مزينة بريش الطيور

وكان فى سنة ١٢٦٦م، خلال عهد السلطان الظاهر بيبرس ، أن صحب المحمل للمرة الأولى قافلة الحج المصرية . ومن بعدها كان يُرسل سنويًا من قبل سلاطين المماليك وخلفائه، حتى عهد الملك فؤاد سنة ١٩٢٦م. وقد صار بمثابة الرمز الأساسى للسيادة المصرية على مكة ، ويظهر تفوق مصر باعتبارها المركز الدينى للعالم الإسلامى(*). كان الجمل الطويل الذى يتم اختياره لحمل المحمل، والذى يمشى أمام الموكب ، ويحدد سرعة القافلة ، يعفى عمومًا من أى شكل من أشكال العمل بقية حياته .

وقد سافر لودوفيكو دى ڤارثيما Ludovico di Varthema، وهو بندقى «يسعى إلى زيارة أماكن معروفة قليلاً لدى مواطنيه »، إلى مكة مع قافلة الحج التى غادرت دمشق يوم ٨ أبريل سنة ١٥٠٣م، فى أثناء عهد السلطان قنصوه الغورى. وليس هناك الكثير مما نعرفه عن لودوڤيكو سوى أنه كان ينوى السفر حول العالم، وأنه كان ابنًا لأحد الأطباء ، وأنه كان متزوجًا ورب أسرة . كان أهالى دمشق مثل القاهريين يبتهجون بالمهرجانات والاحتفالات ، والتى كان الحكام المماليك يحرصون عليها إرضاء لسكان عاصمة الشام. وكان المواطنون يحبون أن يشاهدوا السلاطين تظلهم المظلة ، ويسبقهم حملة الرايات ، وهم يخرجون راكبين من القلعة للصلاة فى المسجد الأموى الكبير. وكانت قافلة الحج السنوية إلى مكة تخرج من المدينة فى موكب طوله عشرة آلاف جمل ، وهم يأخذون معهم المصحف المعظم القديم (لأن المحمل كان يخرج من القاهرة وحدها) على جمل مزين بأقمشة ثمينة وراء الأبواق والطبول ، والخيول والجمال مكتسية بالذهب، يصحبهم الحجاج القادمون من المناطق النائية فى العالم الإسلامى .

(*) كان السلطان الظاهر بيبرس هو الذى أعاد إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة بعد سقوطها على أيدى المغول فى بغداد، وكانت حماية الحرمين الشريفين (وكسوة الكعبة والمحمل أحد مظاهرها) من دعائم الواجهة الدينية التى أضفت الشرعية على حكم سلاطين المماليك . وبعد الغزو العثمانى ظلت قافلة الحج المصرية والمحمل مسئولية المصريين على الرغم من أن السلطان العثمانى قد ورث دور سلاطين المماليك، وفى الفترة الأخيرة لم يكن فى الأمر مسائل سيادة وتفوق بقدر ما كان تقليداً تاريخيًا والتزامًا دينيًا من حكام مصر، وقد استمر حتى ستينيات القرن العشرين . (المترجم)

ولكن بدون صداقة أمير الحج المملوكى فى القافلة ، والذى كان أوروبيًا اعتنق الإسلام، لما نجح لودوفيكو فى تحقيق رغبته . وقد عامله الأمير المملوكى معاملة طيبة طوال الرحلة ، فقد ألبسه لباس المماليك، وأعطاه حصانًا جيدًا ووضعه بصحبة المماليك الآخرين. وعلى أية حال، أقرَّ لودوڤيكو بأنه لم يكن ممكنًا القيام بالمرحلة بدون النقود والهدايا الأخرى التى أعطيت له. وكما جرت العادة عندما كانوا يركبون للحرب ، كان الجنود المماليك يحصلون على عدد كبير من الأسلحة. السيوف المعقوفة من الحديد فى أغماد خشبية مكسوة بالجلد الفاخر، والدمشقى، والمخمل، أو المعدن تتدلى من حزام الوسط أو من الكتف. وفى بعض الأحيان كانوا يتقلدون القسى حول أجسادهم، ويحملون حرابًا طويلة ذات أنصال من الحديد. وكانت دروعهم المستديرة المحدبة تصنع من الخشب أو المعدن، والهراوة المسننة التى كانت سلاحًا رائجًا يستخدم فى تهشيم الخوذات ، وكانت تحمل تحت الركبة . وكانت تحمى الجنود معاطف الزرد، وعلى رؤوسهم كانت خوذات مدببة مستطيلة مبطنة بالألياف لاستيعاب الضربات وتخفيفها ، وبها أجزاء لحماية الأذنين والعنق كل منها مصنوع من صفحة معدنية واحدة . وفى بعض المناسبات كانت هناك سلاسل الزرد الرقيقة تنسدل على أكتافهم . وكتب لودوڤيكو: «كنا ستين مملوكًا نكفى للدفاع ضد أربعين ألفًا أو خمسين ألفًا من العرب؛ فبالنسبة للوثنيين(*) لايوجد قوم أفضل من المماليك المسلحين فى أراضيهم. ويجب أن تعرف أننى اكتسبت تجارب ممتازة من هؤلاء المماليك فى أثناء الرحلة».

كان قادة قوافل الحجاج ، الذين عرفوا باسم أمراء الحج، من موظفى الحكومة وتحت إمرتهم مختلف الموظفين الذين كانوا يفوضون إليهم مهام تصريف التنظيم المركب المعقد. كانوا هم المسئولين عن الأمن بصفة عامة، وكان ذلك يتطلب الإشراف على القوة العسكرية التى تتولى حراسة الحجاج ومختلف التجار الذين كانت لهم أعمال فى شبه الجزيرة العربية، وتحت الحكم التركى، كانت الحراسة العسكرية المرافقة مكونة

(*) يقصد «المسلمين» ، وهو هنا يعبر عن السياق الثقافى والسياسى الأوروبى فى العصور الوسطى (المترجم).

من جنود محترفين يحوزون أراضى من الحكومة فى مقابل هذه الخدمة(*) ، وكذلك الإنكشارية الذين كانوا من الحامية بأحذيتهم ذات الرقبة الطويلة وقبعاتهم التى يتدلى منها الريش الطويل . ولم يكن تنظيم الحج عملية سهلة ، وفى بعض الأحيان كانت الحكومة تجد أن من المناسب استئجار المزيد من الجنود من أجل التعزيزات. وكانت لأمراء الحج سلطات كبيرة على جميع الخاضعين لإشرافهم المباشر . وقد صاروا أثرياء ؛ لأنهم إلى جانب تلقيهم عطايا الذهب من السلطان العثمانى، كانوا يتاجرون لحسابهم الخاص، فضلاً عن الحصول على رسوم كثيرة فى مكة، والقاهرة ودمشق. كان الأدلاء يمضون أمام القافلة ، وهم خبراء عارفون بالطريق ، ويهتدون بالنجوم فى الليل مثل البحارة فى البحر. وفى بعض الأحيان كانت تخرج من القاهرة قافلة ثانوية قبل قافلة الحج الرئيسية لكى تتيح للحجاج قضاء مدة أطول فى المدن المقدسة إذا ما أرادوا القيام ببعض المناسك الاختيارية فى الوقت المتاح لهم.

فى سنة ١٦٠٦م ، وبعد أن كان العبد الألمانى يوهان وايلد قد خدم سيده لمدة حوالى ستة أشهر ، غادر سيده الفارسى القاهرة إلى مكة ، وأخذ يوهان معه . ولأن وقت الحج كان فرصة عظيمة للتجارة ، كان التاجر يذهب سنويا لتحسين أحواله، وكذلك طلبًا للثواب ، وبهذا يرضى نفسه بمزيج من الربح والتقوى. وعلى الرغم من أن يوهان اعترف بأنه شارك فى بعض المناسك الإسلامية ، مثل الوضوء وغيره من الممارسات ، فإنه أقر بأن قلبه لم يكن فيها . ومن أجل هذه الرحلة أرسل الباشا مائة من المماليك وستة مدافع للدفاع عن القافلة ضد هجمات البدو المغيرين الذين كانوا ينتظرون متفائلين بالحصول على الأسلاب المتوقعة من الحجاج. وأعلن أمير الحج ، الذى كان قد أقام خيمته مع خيام كبار الموظفين الآخرين بالقرب من المطرية قبل ثمانية أيام، رسميًا أمام الجمع فى السنة السابقة على الرحيل أن على جميع من يريدون الذهاب إلى مكة معهم أن يستعدوا للرحيل فى الصباح الباكر فى الطريق إلى العقبة، أول مرحلة فى رحلتهم. ومع هذه الأخبار حدث ابتهاج واحتفال كبير «بالقلاع وغيرها

(*) هذه الشائعات التى سمعها كريستوفر لا أساس لها جملة وتفصيلا حسب المصادر التاريخية (المترجم) .

من أجهزة الألعاب النارية التى لاتنتهى ، وكان الإنكشارية يقفون دائمًا عند خيمة أمير الحجاج وهم يصيحون فرحين لدرجة أن كل مكان كان يردد أصداء صياحهم ».

وعند شروق الشمس بعد أن نفخت الأبواق ، استعد يوهان وسيده وسط أصوات عشرين ألف جمل تتذمر من حمولاتها والزحام الهائل من الجماهير المتدافعة وأصوات من ينادون على رفاق السفر . وقد أمر الأمير الفرسان بالاصطفاف فى خط منظم ، أحدهم وراء الآخر، حتى لاينطلقوا ، وقد اختلط الحابل بالنابل مثل الحيوانات ، وقد زاد الباعة من القاهرة حجم الحشد؛ فجمالهم محملة بالسمن ، والزيت، والعسل ، والخبز، والدقيق، والبقول، والخل، والحبوب، والبصل ، وكانوا يطبخون ذلك كله للبيع فى الطريق. ولكن الأتراك الأثرياء أحضروا معهم كل ما يحتاجونه لرحلة الذهاب والإياب التى تستغرق ثلاثة أشهر.

وبعد ثلاثة أيام من السفر فى الصحراء ، وصلوا إلى السويس، حيث ارتاحت القافلة ، وسقوا الحيوانات . وكانت عادة جميع القوافل أن تسافر كثيرًا وتتوقف قليلاً، ويبدأون فى برد الضباب فى الساعة الثانية صباحًا ، ويستمرون حتى شروق الشمس. وكان الجميع يستريحون فى الحر قبل أن يسافروا مرة أخرى حتى هبوط الليل. وفى اليوم الثالث ، وبعد أن عبروا السهول بعد السويس وصلوا إلى البلاد قرب العقبة بسلسلة جبالها الصخرية والأودية الصحراوية. وإذ واجههم جبل صعب المرتقى اضطر الجميع بلا استثناء ، النساء والأطفال، الأصحاء ومن يشكون المرض، إلى الترجل عن جمالهم ، وتسلقوا الجبل على أقدامهم. وواحدًا بعد الآخر كان لابد من قيادة الحيوانات باليد. فإذا ما تعثرت الحيوانات وسقطت على الممر الهابط إلى أسفل ، لم يكن محتملاً أن يصابوا بالجروح فقط، وإنما كان يمكن لحمولاتها غير المؤمنة أن تنزلق فوق رقابها بسرعة مفاجئة متدحرجة إلى أسفل على جوانب الجبل . وقيل إن السلطان التركى سليم الأول ، الذى كان قد هزم المماليك سنة ١٥١٧م ، قد شق الطريق الجبلى إلى العقبة ، ولاحظ يوهان حائطًا صغيرًا وعمودًا عليه نقش بالحروف التركية نصبًا تخليدًا لذكره على الممر.

كان هناك حوالى خمسين مملوكًا استأجرهم الباشا متمركزين فى العقبة لحراسة خزانات المدينة التى كانت تختزن مياه الأمطار؛ لأن العرب البدو كانوا يغيرون عليها عندما ينقضون عليها من مخابئهم فى الجبال. وفى المساء بعد الوصول، وبعد أن كان يوهان قد غسل ملابس سيده المتربة، كانت هناك دعوة عامة لحمل السلاح بناء على تحذير بوقوع هجوم من البدو على البلدة ، وأخذ كل رجل بندقيته، وتم إطلاق المدافع ، ولكن بعد ثلاث طلقات من المدافع لاذ المهاجمون بالفرار ، على الرغم من أنهم قتلوا بعض الجمال التى كانت ترعى وكانت مملوكة لأمير الحج .

وبعد عدة شهور من المعاناة فى صحراء شبه الجزيرة على امتداد الطرق الصحراوية إلى مكة، ثم جبل عرفات فالعودة إلى مكة ، ومن هناك إلى المدينة، المكان الذى دفن فيه النبى، وزيارة إلى اليمن للمتاجرة مع التجار الهنود، أكمل الفارسى أعماله فى نهاية الأمر. وفى النهاية أداروا ظهورهم إلى جبال الداخل المجدبة، لكى يرجعوا إلى أسواق القاهرة الغنية. وفى جدة على الساحل الغربى كان من حسن حظهم أن يجدوا قاربًا جاهزًا للإبحار شمالاً حتى ميناء السويس. وفى غمرة تبادل الأخبار ، حكى ربان السفينة للتجار المجتمعين عن أن كثيرًا من التجار كانوا قد وصلوا من القسطنطينية إلى القاهرة ، وينتظرون شراء بضائعهم.

كان إبحارًا خطيرًا وسط الصخور والمناطق الضحلة فى البحر الأحمر، والريح المفاجئة الغادرة التى تثير الأمواج مما كان يمكن أن يُلحق الدمار بين الصخور والمناطق الضحلة ، حسبما تشهد بقايا السفن الغارقة على امتداد الشواطئ . وأقر يوهان بأنهم كانوا أكثر خوفًا أثناء هذه المرحلة المائية من الرحلة مما كانوا طوال تسعة أشهر فى حر الصحراء المعمية: «لا أستطيع أن أقول كم هو مرعب الإبحار هناك». وكان الربان والبحارة يحثون المسافرين فى السفينة على الصلاة من أجل السلامة «كم كانت حماسة الأتراك فى صلاتهم ؛ لأننى لم أكن قد سمعتهم أبدًا من قبل . وقد أقسموا أمام الله أنهم سوف يقدمون نذرًا إذا وصلوا بالسلامة».

والواقع، أنه عند النزول إلى السويس ضحى كل واحد باثنتين أو ثلاث شياه وفرق لحومها على الفقراء . وكان الشحانون يمشون حفاة، حاسرى الرأس وبدون مأوى فى

الشتاء أو الصيف ، وينامون فى الحقول تحت النجوم ، أو يلوذون بالمساجد . وكانوا يجدون عملاً متقطعًا فى رعاية جمال التجار بالقرب من المياه ، وينتهزون كل فرصة للسرقة، على الرغم من أنه إذا ضبط أحدهم متلبسًا بالسرقة كان يتم ضربهم بقسوة أو يُعدمون . مثل هذه الإعانات المقدمة من المسافرين الواصلين بالسلامة كانت بمثابة المن النازل من السماء وقد سكن السيد والعبد فى المدينة حتى يتم فتح مخازن السفينة؛ فقد كان لكل سفينة معيار معين فى التحميل ، ليس أقل من اللازم ولا أكثر من اللازم ، فإذا ما كانت حمولتها أثقل مما يجب ، لم يكن ممكنًا للسفينة أن تبحر دونما خطر بين الرياح التى لايمكن توقعها والصخور الخطيرة التى تحف بالمجرى الملاحى الضيق فى البحر الأحمر. فإذا ما كانت خفيفة أكثر من اللازم يمكن أن تنقلب تمامًا . وكانت للسفن الكبيرة ثلاثة عنابر أو أربعة ، كل منها فوق الآخر، حتى تكون البضائع آمنة من التلف بواسطة الماء؛ فإذا ما تعرضت أى بضاعة للبلل أو التلف، كان على ربان السفينة أن يدفع تعويضًا إلى المالك.

وعندما وُضعت بضائع الفارسى على رصيف الميناء لتفتيشها ، علم أن أحدهم أبلغ ضده بأنه أخفى أحجارًا كريمة ولآلئ فى جرار الفلفل لكى يتهرب من الجمارك. وعندما شاهد رئيس الجمارك خاتم الفارسى على البالات ، سأل عمن يملكها وعن محتوياتها . وأجاب الفارسى بأنها ملكه وأن فيها فلفلاً . وعلى الرغم من هذا لم يصدق الموظف ، وأمره بأن يفتح البالات. وأجاب سيد يوهان «سيدى إذا كانت هناك أحجار كريمة فى الداخل فسوف أعطيك كل ما أملك هدية». بيد أن هذه الكلمات سقطت على أرض صخرية ، وصدرت الأوامر بفتح البالات ، وتم تفريغ محتوياتها على الأرض. ولأن الموظف كان يشك فى الفارسى، فإنه غضب وهدد بأنه سوف يشكو إلى الباشا، وهو ما أكد الموظف أنه سيكون بلا فائدة . ولكن عندما تم تفريغ الأكياس على الأرض أمام الناظرين جميعًا ، ولم يشاهدوا أية أحجار كريمة صار الرجل محل سخرية : «سعادته بحث عن الأحجار الكريمة واللآلئ ، ولكنه وجد غبارًا على أنفه» . وعندما رفع

سيد يوهان قضيته أمام القاضى الذى كان يدير المدينة، اكتشفوا أن أحد البحارة معهم قد وشى به فى الجمارك ، وعندما استجوبوه أقرَّ بأنه أراد أن يلعب لعبة على رئيس الجمارك ؛ لأنه عرف أنه جشع يطمع فى المبالغ الكبيرة من المال ومظاهر الأبهة . وعقابًا له أمر القاضى من فى خدمته من الإنكشارية بضرب البحار ثلاثمائة ضربة بالخيرزان. أما بالنسبة لكبير موظفى الجمارك فكان عليه أن يدفع للقاضى ستة دوكات ذهبية غرامة وبالتهديد بفقدان منصبه كان عليه أن يضع الفلفل مرة أخرى فى البالات كما كانت قبل ذلك بالضبط . وباعتباره متفرجًا اعتبر يوهان أن الطريقة التركية فى مواجهة مشكلة شاهد زور وحقيقة أن من يكون مذنبًا كان تتم عقوبته علنًا ، أمام الجميع ، طريقة مشينة.

كانت الأرض الرملية حول السويس مكانًا صخريًا عقيمًا ليس به ما يوصى عليه. إذ كان لابد من نقل الكثير من الماء والمؤن والطعام اللازم للعدد الصغير من السكان بالجمال على حين كانت مخلفات الجمال المجففة تستخدم وقودًا للطهى. بيد أن كل هذا الحمل كان يستحق العناء ، لأن القرية الصغيرة كانت تخدم ميناء للسفن التى تحمل البضائع من الهند والبرتغال ومكة. وكان يتم جمع آلاف الدوكات من عوائد رسوم الجمارك التى كان كبير موظفى الجمارك يرسلها إلى الباشا فى القاهرة. وفى سنة ١٥٤٧م، أحصى الطبيب بيير بيلون دومانس حوالى ثلاثين أو أربعين مركبا تركيًا تسحب نحو منطقة الشاطئ ؛ لأن الميناء كان تحت رحمة كل ريح شتوية . وكانت السفن قد أحضرت من الآستانة عن طريق النيل حتى القاهرة ؛ حيث تم تفكيكها وحُملت قطعة قطعة بالجمال والعربات إلى السويس لإعادة بنائها . وفى سنة ١٥١٦م كانت مدينة زبيد فى اليمن قد وقعت بأيدى الأتراك ، ولاحظ بيير أن الحملة العقابية كانت تجهز ضد أناس تمردوا ضدهم .

أمضى يوهان وايلد وسيده الفارسى ثمانية أيام بالسويس فى الوقت الذى كان قد تم فيه دفع جميع الضرائب ، وكان عدد الجمال التى طلبتها جماعة التجار قد وصل من القاهرة. ومع الأنباء المزعجة عن بضع مئات من العرب كانوا يتربصون بالقافلة فى المرحلة الأخيرة من الرحلة إلى النيل، تسلح التجار الذين بلغ عددهم

حوالى مائة بالبنادق ، ووضعوا أنفسهم فى وضع الاستعداد وانطلقوا بثلاثة آلاف جمل تحمل تجارتهم .

وكانوا تحت حراسة حوالى مائتى جندى، نصفهم من المشاة والنصف الآخر من الخيالة . وإذ كانوا بنشاطهم متيقظين بعد راحتهم الإجبارية، حرص التجار على تغطية بضاعتهم الغالية بالسجاجيد والسلال حتى لايمكن رؤيتها . وعلى الرغم من الأخطار الماثلة كانوا سعداء بالعودة إلى موطنهم براً، هربًا من البحر الهائج الخطر، وكان بعضهم يغنى، وقفز البعض الآخر، على حين كان البعض يحكى حكايات مسلية لتمضية الوقت. وفى اليوم التالى ، بعد أن كانوا قد ركبوا حوالى أربع ساعات ، وأخذت حرارة الشمس فى الارتفاع ، وصلت رسالة عاجلة من الفرسان الذين كانوا قد سبقوا القافلة ، ينذرون القافلة بأن يتسلحوا ويستعدوا للهجوم بالقوة. عند هذه اللحظة تملك الخوف التجار، على الرغم من أنه لم يكن هناك ما يمكن فعله سوى الثقة بالظروف ، وبعد تجميع الجمال سويًا ، وقف التجار فى ثبات ، وقد قسموا أنفسهم قسمين متساويين فى المقدمة والمؤخرة ، على استعداد للقتال . ولم تكد تمضى سوى ربع ساعة قبل أن يحيط بهم من كل جانب حوالى ألف من الخيالة العرب يهاجمونهم وهم يصيحون بوابل من السهام.

كان أمير القافلة يسير بفرسه جيئة وذهابًا يستحث الجميع على عدم الانفصال حتى لايضيعوا حياتهم ، وأن يبقوا الجمال سويًا ، وحيثما كانت تتم مواجهتهم بهجوم قوى كان يأمرهم بتوجيه نيرانهم. وقسم الأمير الفرسان إلى مجموعتين، ووضع إحديهما فى المقدمة، والأخرى فى مؤخرة القافلة. وعند منتصف النهار جعلوا الجمال تبرك لكى تأكل، على حين أكل أفراد القافلة الخبز والجبن. وقد جُرح بعض التجار، ومن ضمنهم التاجر الفارسى، وأصيب اثنان من الجمال بالسهام، أحدهما فى رقبته ، والثانى فى جانبه ، وفى الوقت نفسه ، فإن العرب الذين أوقفتهم نيران البنادق، انسحبوا للتفاوض، وفيما بعد أرسلوا مبعوثًا لكى يطلب ثلاثة آلاف دوكات من الأمير نظير تقدم القافلة بدون إعاقة، وبينما تم رفض هذا الطلب فى الحال ، خشى الجميع

من تجدد الهجوم، ولكن على الرغم من أن العرب قاموا بمحاولات لإزعاجهم عندما استأنفوا الرحلة، فإنهم لم يحققوا شيئًا .

ومن حسن الحظ أن ضوء القمر فى تلك الليلة ساعد القافلة على أن تحث السير قبل أن تستريح ؛ لأن الجميع كانوا يشتاقون إلى النهر مانح الحياة أمامهم. كانوا متعبين ، وعانت الجمال من حمولاتها الثقيلة ونقص المياه ، وعانى الفارسى كثيراً من جرح السهم الذى أصابه فى ذراعه ، ولكن عبده يوهان أقر بأنه لم يكن «ليذرف الدمع» ويبكى من أجله . وفى الصباح الباكر من اليوم التالى استمروا يسيرون فى صمت على مدى ثلاث أو أربع ساعات ، حتى بدأت الشمس ترتفع فى كبد السماء ، على مسافة صغيرة من القاهرة، وشوهد حوالى مائتى فارس وهم يقتربون فى أبهة وعظمة ، ومعهم جمال محملة بالبطيخ والخيار والتين الطازج والبرتقال والبلح . وجرى يوهان ناحيتهم مع الآخرين، وكان من دواعى فرحه أن تعرف على صديق له فى الزحام ، وهو ألمانى اسمه أبراهام سيمون دى كرمس Abraham Simon de Krems وكان أبراهام قد بيع أيضًا فى سوق النخاسة بالقاهرة ، ولكنه كان على النقيض قد وجد سيداً رحيماً هو محمود شاوش، الذى كان واحداً من رجال الباشا العسكريين. وقدم أبراهام ليوهان بطيخة كبيرة وجميلة، وبرتقالتين ، وبعض التين الطازج ورغيفًا صغيراً مستديراً من الخبز الأبيض الطازج . وبعد ذلك أعطاه عصيراً لكى يشرب . وشكره يوهان بحرارة ؛ إذ إن مثل هذه الهدايا كانت تساوى بالنسبة له أكثر من العديد من الدوكات الذهبية.

وعندما رجع يوهان إلى سيده ، أعطاه برتقالة ، وبعض التين وقطعة من البطيخ، ولكن بعد أن أتى الفارسى عليها بشراهة ، صار ميالاً إلى الشجار وبدا وكأنه سيضربه متسائلاً لماذا لم يعطه البطيخة كلها ليأكلها . وأجاب يوهان بأن على سيده أن يشكر الرب أنه أعطاه هذه الكمية الكبيرة ، وأن صديقه كان لطيفًا وصنع معه معروفًا سره أن يتلقاه ، ولكن الفارسى غضب جداً من هذه الإجابة لدرجة أنه سحب سيفه لكى يضربه . وتجنب يوهان الضربة وأصابته نوبة وقاحة: «سألته إذا ما كان

يظن أنني كلب أو حمار لايعرف الصواب من الخطأ ؛ فإذا لم أكن أعجبه عليه أن يبيعني ثانية» . وعندما أخبر يوهان صديقه عن جحود الفارسي ونكرانه، أخذه أبراهام إلى محمود سيده الذي استفسر عن جنسية مالك يوهان، معلنًا أنه لم يسمع شيئًا طيبًا عن أي فارسي. وركب محمود وأبراهام خيلهما وصحبا يوهان عائدين إلى الفارسي؛ حيث مضى محمود لكي يلومه على سلوكه تجاه عبده. وذكّره أن يخشى الله في عليائه، وأنه إذا ما كان يرغب في بيع يوهان ، فإنه سوف يشتريه لنفسه. ومن الخوف، لم يعرف الفارسي كيف يجيب، ومع هذا فإنه فند الادعاءات ، وأنكر أنه أراد البيع. بعد هذه المجادلات الساخنة خشي يوهان أن تناله معاملة أشد سوءًا عن ذي قبل ، ولكن شيئًا لم يحدث وغادر مرة أخرى.

وبصيحات من السعادة ، وأصوات الغناء ودقات الطبول، كانت هناك جمهرة كبيرة، من ضمنهم باعة الطعام ونساء يركبن الحمير يطلقن زغاريد الفرح، خرجت من القاهرة على امتداد الطريق المترب لمقابلة قافلة الحجاج العائدين . ولم يكن كل العائدين إلى وطنهم سعداء ، وكان يمكن أن يتحول الفرح بسرعة إلى العويل عندما تسري الأخبار بوفاة الأقارب أثناء الرحلة، أو عند مشاهدة المسافرين الذين أصابهم الهزال والجفاف وصاروا من الضعف بحيث لايقوون على الوقوف . ولكن في هذه المناسبة، وبين الفرح العام، نسي يوهان بؤسه الخاص ، بل نسي الفارسي الذي كان سعيدًا جدًا ؛ لأنه اشترى هذه الكمية الكبيرة لكي يبيعها وعامله بمنتهى الرفق . وسكنا مرة أخرى في خان الخليلي بين التجار الأثرياء الذين كانوا يبيعون أفضل نوعية من البضائع . ومنذ البداية وجد الفارسي بسرعة فرصًا طيبة لعقد الصفقات مع بعض البنادقة الذين تصادف وجودهم في المدينة . وعلى مدى عدة سنوات كان السلاطين الأتراك عقدوا اتفاقيات تجارية مع الفرنسيين ، على حساب البنادقة الذين كانوا ممنوعين من البقاء بالقاهرة أكثر من ثلاثة أشهر بدون إقامة دائمة . وقد اشترى البنادقة كل ما معه من الفلفل والمسك نقدًا، وكسب مبلغا كبيرًا من الفلفل بشكل خاص ؛ لأن السعر كان مرتفعًا جدًا . وكان قد أنهى كل شيء في شهرين ، وكان صافي ربحه

ألفى دوكات. وعلى الرغم من أن الرحلة كانت طويلة حافلة بالمخاطر والصعوبات ، فقد كان الفارسى محظوظًا ؛ لأنه لم يفقد بضائعه الثمينة فى الطريق ، وتم تعويضه بشكل جيد عن المتاعب . وعلى العموم كان مجتمع التجار مجموعة متزنة غير مسرفة ؛ فقد حرص التجار على ألا ينغمسوا فى الأكل والخمور، ويتجنبوا الوقوع فى الدين. وفى أرض الأتراك إذا كان أحد ما مدينًا بشىء، ولم يستطع الوفاء بدينه، كان يتم وضعه فورًا للعمل مجذفًا فى إحدى السفن حيث يبقى إلى أن يفى بدينه .

بعد ذلك قام الفارسى برحلات أخرى إلى دمشق وبيت المقدس. وعند العودة إلى القاهرة عندما تمت كل إجراءات العمل، تم إرسال يوهان لتسليم البضائع إلى المشترين ، الذين كان من عادتهم أن يعطوه إكراميات جيدة . ولكن تاجرًا تركيًا معينًا ، كان قد اشترى بعض الساتان المطرز ، رفض مكافأته . وبدلاً من ذلك أخبر الفارسى أن يوهان التقى بعض المسيحيين فى دير يونانى عندما كانوا فى بيت المقدس. وإذ غضب بسبب كلمات التركى، فتش الفارسى ثياب يوهان واكتشف خطابًا من البطريرك اليونانى ، وحشره فى فم يوهان. ولو لم يتدخل التركى، الذى أدرك أنه قد زاد فى الأمر، لكان يوهان قد ضُرب بقسوة . وأخيرًا مزق الفارسى الخطاب قطعًا صغيرة ، وأعلن أنه لن يبقيه بعد ذلك.

وأخيرًا تغير حظ يوهان نحو الأفضل . وعندما عُرض فى الشوارع مرة أخرى لبيعه ، تقدم تركى عجوز مهيب ليسأل عن سبب البيع وعن جنسية البائع ، وبعد أن عرف أن يوهان كان ألمانيًا ، وعرف عن رحلاته التجارية برًا وبحرًا ، وعن معاناته الكثيرة ، قال إنه لو تصرف يوهان بشرف ووعد أن يخدمه بأمانة ، فإنه سوف يشتريه . وعلاوة على ذلك ، فلن يكون هناك شىء يشكو منه ؛ لأن ولديه ماتا ، وفى ذكراهما كان قد نذر أن يشترى عبدًا ، فإذا ما تصرف بشكل جيد، سوف يعتقه بعد سنة. والشريعة الإسلامية تعتبر عتق العبيد عملاً جديرًا بالثناء وأحد الأعمال التى يشجع عليها الدين الإسلامى. وإذ غمره الفرح أقسم يوهان أن يمتثل وبعد بعض المساومة تم شراؤه بمائة دوكات من الفارسى، نفس السعر السابق.

كان التركى غنيًا ومن الأعيان ، فقد كان قائدًا لعدة مئات من الإنكشارية . وكانت له أملاك كبيرة ويدير مؤسسة دينية فى بولاق، وإلى جانب العناية بسيده الجديد كان على يوهان أن يشرف على القرى الزراعية المملوكة للتركى ويجمع إيجارها. وعلى سبيل البهجة أعطى أربعة حقول لكى يزرعها بنفسه، وبعد ستة أشهر كوفئ ببدلة من القماش الفاخر وحصان رائع. وإذ كان سيده مسرورًا تمامًا من سلوكه أخبره أنه سوف يعامله كما لو كان ابنه ، وأنه سوف يجعل منه رجلاً راقيًا. وفى سنة ١٦٠٩م ، بعد أن كان قد تم جمع المحصول ووضعت الغلال فى أكياس ، نزل حوالى مائة من العرب من التلال بقصد السلب عندما كان المشرفون موزعين بين القرى. وحاول يوهان والتركى صدهم ، ولكن كان على الرجل المسن أن يركب طلبًا للنجدة ؛ لأن عددهم كان كبيرًا جدًا . وسرعان ما أحاط به خمسة من العرب فى وادٍ صغير ضيق ، وعندما سمع يوهان صياحه أسرع هو وصديق له إلى المكان ، وفى المعركة حارب يوهان بشجاعة وتبدد المهاجمون ، ولكنه كان قد جُرح جرحًا بليغًا بحربة فى جانبه لدرجة أن الدم سال من خلال سرواله . ولو لم يكن تحت رعاية سيده الشاكر الحافظ للجميل لكان قد مات، وحدث بعد هذا، عندما كان جرحه قد أضعفه ، أن أصيب يوهان بوباء الطاعون.

وعلى الرغم من أنه كان قد بات راضيًا فى مصر ، فإن يوهان حن إلى موطنه الأصلى، وإذ كان يرغب فى طرق موضوع عتقه، انتهز الفرصة أثناء وليمة كان التركى قد أقامها لبعض أصدقائه ، وكان من بينهم أحد القضاة المحليين. وعندما سمع القاضى برغبة يوهان وعد بأن يتحدث مع سيده من أجله . واستدعى التركى المسن إليه ، وأخبر الصحبة كيف كان عبده قد أنقذ حياته ، وأنه كان يعتبره ابنًا له ، ولكنه وفاء بوعده ، طلب من القاضى أن يشهد على عتق يوهان . وفى اليوم التالى، أحضر القاضى خطابًا مكتوبًا بالعربية وختمه بخاتمه، محررًا يوهان بعد أربع سنوات طوال من العبودية . وفى الرد على ما قدمه سيده من هدايا من الأرض إذا ما قرر البقاء، شكره يوهان من قلبه، ولكنه أصر على القيام برحلته إلى وطنه . وكان قد ادخر بعض

المال، كما يملك حصانه وملابسه الفاخرة التى قرر بيعها . وهكذا حصل على مائة دوكات لكى يشترى بضائع يبيعها فى إستانبول على حين احتفظ لنفسه بثلاثين . وإذ كان قد اكتسب بعض الخبرة فى التجارة أثناء خدمته للفارسى، استطاع يوهان أن يشترى البضائع فى القاهرة؛ حيث قابل بعض التجار الذين كان قد أبحر معهم فى البحر الأحمر . وقد أدهشهم أن يسمعوا عن حظه الجيد ، ووافقوا على أن يصحبهم على صفحة النيل إلى دمياط؛ حيث قصدوا شراء الأرز لبيعه فى أسواق العاصمة العثمانية . ووجدوا سكنا جيداً فى الميناء الأخضر البهيج ببساتينه الفاخرة ، وفى النهاية وُضعت بضائعهم فى عنابر سفينة تنتظر الإبحار. وكان لابد من نقل هذه البضائع فى قوارب صغيرة؛ لأن الضفة الرملية عند مصب النهر كانت تمنع السفن الذاهبة بالبحر من دخولها إذا ما كانت تحمل حمولة ثقيلة .

وأسفاه ، مرة أخرى تبدل حظ يوهان نحو الأسوأ ؛ فبعد يومين فى البحر ، هبّت عاصفة عنيفة فى الليل ، وانحشرت السفينة على بعض الصخور، ومات كثير من المسافرين ، ولكن يوهان الذى كان قد تشبث بلوحين ، نجح فى أن يبقى طافياً ، وتم إنقاذه عند أول ضوء بواسطة سفينة أجنبية مارة. وقد غرقت جميع بضاعته، التى اشتراها بحرص من مدخراته، دون أن تترك أثراً . وتم إنزاله فى ليماسول (قبرص) ثم أبحر عن طريق بافوس وأنطاليا حيث سقط مريضاً لمدة شهر . وفى النهاية وجد عملاً خادماً على سفينة متوجهة إلى الإسكندرية ، ومن هناك عاد إلى القاهرة ؛ حيث سعى إلى منزل سيده القديم. وإذ غلب الفرح التركى العجوز لرؤيته ثانية، وافق على توظيفه سنة أخرى.

وعندما كسب ما يكفى من المال لرحيله الثانى، وجد يوهان سفينة بالإسكندرية متجهة إلى الآستانة ، ودفع ثلاثة فلورين للقبطان مقابل هذه الرحلة. وعلى الرغم من أن الرحلة كانت لها مخاطرها ، فإنه وصل بأمان ، ووجد سكنًا بالقرب من سفارة الملك ماتيو ملك المجر، وسافر عن طريق بولندا فى عودته إلى ألمانيا . والبقية صمت .

هوامش الفصل التاسع

General: Biirton, Narrative of a Pilgrimage, pp. 128^187; E.W. Lane, The Modern Egyptians (the return or the mahmalprocession in Cairo, pp. 439-62); Peters, The Hajj, pp. 70-96, 145-49, 162-71. European pilgrims: di Varthema, Travels in Egypt, Syria and Arabia, pp. 16-19; Hakluyt (ed.). Anon., 'A Description of the YearJey Voyage', pp. 167-97; da Schio (introd.), Viaggio diFilippo Pigafetta, pp. 160-97; Volkoff (ed.), Le voyage de Johann Wild, pp. 23-62.

الفصل العاشر

إلى الجنـــوب

بعد سنة من هزيمة الأرمادا وغرق السفن على سواحل بريطانيا ، حقق أحد البنادقة رغبته في استكشاف الأقاليم الجنوبية في مصر. وفي يوم ٧ أغسطس سنة ١٥٨٩م رحل هذا البندقي المجهول من القاهرة مع طاقم من البحارة النوبيين. وعلى مدى عدة سنين كان يريد القيام بهذه الرحلة. «ليس من أجل أي ربح كان، وإنما فقط لكي أرى المباني الرائعة الكثيرة، والكنائس والتماثيل، والمدرجات الكبيرة (الكوليسيوم) والمسلات والأعمدة ، ولكي أرى أيضًا المكان الذي استخرجت منه الأعمدة سابقة الذكر. ولكي أرى هذه الحفائر كان على أن أقوم برحلة أبعد مما كنت أظن».

إنه لم يسافر هناك ، حسبما قال، من أجل الربح، ولم يكن حاجًا أو مبشرًا ، ولم يضع التوابل على قصته بالاقتباسات من الكتاب الكلاسيكيين مثل كثير من معاصريه . ولايكاد يكون هناك شيء معروف عن هذا البندقي سوى أنه كان يعرف اللغة العربية ، وأنه كان من سكان القاهرة لبعض الوقت، على الرغم من أنه لم يقل لماذا عاش هناك. ولم يذكر الحكومة ، على الرغم من أن مصر في سنة ١٥٨٩م كانت تحت حكم الوالي التركي «عويس باشا»، الذي كان قصره في القلعة قد نهب في تمرد قام به الجنود المتمردون الغاضبون من مستوى أجورهم. ورواية هذا المسافر المقتضبة إلى حد ما ، والمكتوبة بلهجته الوطنية، كشفت عن أنه كان رجلاً عمليًا ينظر نظرة خبير على خليط مواد البناء والآثار القديمة التي قاسها بحرص شديد. كان المماليك الشكاكون

دائمًا يعبسون ويتجهمون فى وجه الفرنج الذين كانوا يمضون بأنفسهم على طرق غير الطرق المحدودة، وقد سار الأتراك على مثالهم. ولذلك فربما كان البندقى الذى عاش فى القاهرة على مدى عدة سنوات محل ثقة من جانب السلطات التى لم تضع عقبات فى طريقه .

قبل الانطلاق كان قد تلقى تحذيراً من أصدقاء لهم اتصالات جيدة عن المخاطر المجهولة التى يمكن أن يواجهها ، بل إنه يمكن ألا يعود من الرحلة حيًا. ولكن لأن رغبته العظيمة قد غلبته لرؤية العظمة التى تحدثت عنهاالشائعات فى بنايات الأقصر والكرنك والمحاجر التى تم استخراج المسلات منها، فقد أزاح كل اعتراضاتهم جانبًا. وعند عودته قلل من شأن المعاناة والمحن التى لاقاها فى رحلته، والتى سببتها الحرارة الشديدة ونقص الطعام على السواء، وفى بعض الأحيان لم يكن لديه حتى بصلة يأكلها ، وهى أحد الأطعمة الثابتة للسكان المحليين، «ولكن كل شىء يكون سهلاً إذا ما رجعت بالسلامة ، والمعاناة شىء عادى ومن لايريد المعاناة عليه أن يمكث فى البيت» . وفى وقت شاع فيه الإعجاب الشديد بالعالم القديم فى إيطاليا، كان هذا البندقى يريد تشجيع الآخرين الأكثر جُبنًا والرحالة الذين يخافون بسهولة أن يتعلموا من تجربته المباشرة:

«على الرغم من أننى سافرت زمنًا طويلاً بما يكفى، فإننى لم أر مبنى من بين كل المبانى التى نظرت إليها كان جديراً بالإعجاب ، باستثناء واحد : المكان الذى يسميه المسلمون الأقصر. تستغرق الرحلة عشرة أيام من القاهرة مع الريح المواتية . ولاحظ أننى أقدر الأيام بحساب خمسين ميلاً فى اليوم وليس أكثر من ذلك بسبب التيار السريع . وكما قلت فإن هذا البناء الفخم يمكن أن يقارن بكل ما أمكن للقدماء بناؤه؛ فالأهرام الشهيرة جداً، والفريدة ، اعتبرها قليلة إذا قورنت بهذا».

لم يكن مع البندقى رفاق أوروبيون، ولذلك كان عليه أن يعوِّل كثيراً على موارده الخاصة. وقد شارك البحارة النوبيين المشهد الجذاب للنيل؛ حيث كانت أسراب الكركى

وأبو منجل ، والهدهد ومالك الحزين من كل نوع تخوض فى المياه الضحلة وتصطاد الأسماك ، وتتغذى بين كتل الأعشاب، والطائر الرفراف بريشه الذى يومض وهو يحوم ويثب بين البوص ، وطائر البلشون الأبيض الذى يمكن تمييزه بتناقضه الحاد مع الشاطئ الطينى. وبينما كانوا يبحرون فى بطء ضد التيار، كان يشاهد القرى التى بنيت بيوتها من الطوب اللبن تمر أمام ناظريه، وحوائطها المحدبة قد ازدانت بالأوانى الفخارية، والحمام الأبيض يحوم حول أبراج الحمام البيضاوية . ومروا بنساء ريفيات بحمولتهن الرشيقة وهن يحملن الجرار فوق رؤوسهن، والأطفال الذين يراقبون باستمرار الماشية بلونها البنى الداكن، وهم يسوقون الحمير التى تكاد تختفى تحت ثقل حمولتها . وعندما أرسى البندقى وطاقمه ساعة الغسق ، حين كانت الشمس مثل كرة من اللهب تغوص بنعومة فى الغرب، وكان لابد لهم أن يجربوا مشاهدة الشفق لفترة قصيرة فى السماء ، والذى حدد أشجار النخيل المعتمة بلونها الأخضر الرمادى بشكل واضح تماماً .

وقد وجد الرحالة، الذى افترض أن الريف جنوب القاهرة أخضر كله وخصب، مثلما هو الحال فى الدلتا ، أن الأرض على امتداد النهر كانت لدهشته فى معظمها جرداء ، خلفيتها عبارة عن تلال مسطحة من الحجر الجيرى نادراً ما يزيد ارتفاعها عن مائتى متر. ولم تكن هناك مدن تستحق الذكر، ولاشيء سوى القرى المبنية بالطوب اللبن ، والتى كان سكانها ، حسب ظنه ، بالضرورة يجهلون البناء السهل بالأحجار ، والذى يمكن الحصول عليه من التلال القريبة . وكانت المحاصيل أكثر وفرة على ضفة النهر الغربية بالسهول التى تمتد حتى سلسلة الجبال . وكانت هناك مراسى عشوائية متناثرة على الشواطئ ؛ حيث كانت السفن تتجمع مرتين أو ثلاث مرات سنوياً لتحميل الذرة الناضجة والسكر ، والخضروات والكتان وغيرها من المنتجات . وبعد مغادرة الأهرام ووادى المومياوات أبحرت السفينة لتمر على مثل هذه القرى الفلاحية:

«لن أتعب نفسى بالحديث عنها تفصيلاً ؛ لأن هذا سيستغرق وقتًا أطول من اللازم وسوف أبدأ بأن أحكى لكم عن مدينة Tenssani، (قرب قرية الشيخ عبادة) وبعض المبانى ... يوم ١٠ أغسطس وعلى مسيرة أربعة أيام من القاهرة، رأيت على ضفة النهر اليسرى مدينة جميلة ونبيلة يسميها العرب والمسلمون Tenssani، وكان القدماء يسمونها طيبة، وكانت إحدى المدن الرئيسية فى الإمبراطورية البيزنطية. واليوم يمكن التعرف عليها من الأعمدة الكثيرة القائمة هناك وأعداد الحروف المنقوشة على بعض القواعد ... ومن النظرة الأولى بطول النهر يمكن أن ترى على بعد حوالى سبعين مسافة ، كل منها خمسة أقدام، قوس نصر من الحجارة الصلبة به ثلاث بوابات : إحداها كبيرة ، واثنتان صغيرتان ، وفوق هذه البوابات جميعا أقواس، وفوق البوابة الوسطى نافذة كبيرة بعقد مُدبب ، وفوق كل من البوابتين الأخريين نافذة صغيرة ، وهذا القوس يشبه قوس النصر المنسوب إلى سبتميوس أو قوس قنسطنطين ، بيد أنه لايوجد على قوس النصر المصرى أشكال تاريخية مثل تلك التى على القوسين ، بل إنه على العكس منهما عار تماماً».

غالبًا ما كان يحدث خلط بين Tenssani (أنتينوبولس)(*)، وبين موقع طيبة الفرعونية لدى الرحالة الأوروبيين الأوائل بسبب الأطلال الكلاسيكية الموجودة فى وسط «سهل شاسع» على مسافة حوالى ثلاثة أميال من الجبال ، وبعد أن اقترب البندقى من قوس النصر شاهد طريقًا طوله حوالى أربعمائة خطوة طولاً وثمانى خطوات عرضًا كان يؤدى إلى ناحية الجبال، وعلى كل جانب من الطريق كان هناك صف طويل من الأعمدة الصغيرة المكسورة تفصل بينها حوالى ثلاث خطوات . وفى منتصف الطريق ، خارج صف الأعمدة بقليل، كانت هناك أربعة أعمدة أكبر حجمًا رائعة الجمال من

(*) بالقرب من قرية الشيخ خبادة ، مركز ملوى محافظة المنيا . (المترجم)

١٠-١ قوس النصر فى أطلال أنتينوى، قرب قرية الشيخ عبادة

الحجارة نفسها، ولها ما قال إنه «تيجان دورية من الطراز الخالص». وكان كل عمود منها قائمًا على قاعدة عالية موضوعة فى زوايا المربع . وكانت إحدى القواعد منقوشة بغزارة ، وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من قراءة الكتابة ، فإنه نسخ السطر الأول من النقش فى حروف كبيرة ليكون مرجعًا . وفى نهاية الطريق كان هناك طريق آخر يقطعه ، على جانبيه صف مماثل من الأعمدة ، كبيرة وصغيرة ومنقوشة بالحروف نفسها . وخمن البندقى أنه لابد وأن الطريق فى الأصل كان مغطى ، وأن أربعة من الأعمدة الأعلى كانت ترفع قبة كنيسة . وعندما تجول فى الموقع ، افترض (بشكل صحيح) أن بعض الأعمدة كانت قد أخذت من المنطقة لكى تستخدم دعامات للمساجد الكبيرة فى العاصمة.

وبعد ثمانين يومًا من الإبحار من القاهرة (حوالى أربعمائة ميل) وصلوا إلى جرجا عاصمة إقليم الصعيد جنوب سوهاج . ومن سوهاج كان هناك «مدق» (طريق

غير ممهد تمامًا) يسير غربيًا إلى الدير الأبيض، الذى تأسس سنة ٤٤٠م ، والدير القريب الأصغر والمبنى بالآجر ، والذى يعرف باسم الدير الأحمر ، والذى أسسه الأنبا بيشوى. وعلى الرغم من أن البندقى لم يذكرهما ، فإن هذين الديرين كانا يوفران الضيافة السلمية للرهبان الأحباش فى رحلتهم من وإلى الإسكندرية وبيت المقدس. وكانت جرجا مدينة كبيرة فى القرن السادس عشر، بدون أسوار أو آثار وبيوتها مشيدة بالطوب اللبن الجاف ولها أسقف من قش:

«وتوقعت أن أرى بعض الأشياء الفاخرة وفقًا لحكايات كنت قد سمعتها من أناس كثيرين ، ولكنني لم أر شيئًا فنيًا ولاحتى حرفيًا ، عدد قليل جدًا من الحوانيت ، معظمها لنساجين ينسجون قماشًا خشنًا ، وليست هناك منسوجات فاخرة؛ بعض الإسكافية، وحوانيت أخرى قليلة لبيع المأكولات . وليست هناك أية حرف أخرى حسبما هو عادى وضرورى لحياة الإنسان، وتجد ثلاثة حلاقين أو أربعة بصعوبة شديدة ، وهناك حمامان فقط ، وهما ضروريان للمكان مثل الخبز. هذه القرية الكبيرة أو البلدة ، كما يمكن للمرء أن يسميها ، تنتج الخبز بوفرة شديدة ؛ لأن كل الغلال التى تجمع من جرجا إلى الجنوب كانت تجلب إلى هناك. وكذلك يحيط بالبلدة ريف جميل ، وهى تنعم بقدر معقول من الثروة الحيوانية والدواجن ، ويوفر النهر سمكًا جيدًا بأسعار رخيصة للغاية. ولكن ليس هناك نبيذ هنا أو فى أى مكان بالصعيد، سوى ما يصنعه البعض من الزبيب . ومن هذا الزبيب ذاته يصنعون المشروبات الروحية أيضًا. ويستفيد المسيحيون فى أنحاء الريف كثيرًا من هذين المشروبين ، وكذلك الأتراك فى الحامية المقيمة هناك، ولايمضى أسبوع بدون وصول بعض الأتراك القادمين من الشمال أو من الجنوب، وأعنى بالشمال القاهرة ، وأقصد بالجنوب الحدود وأرض النوبة».

وتقع جرجا على مسافة نصف ميل تقريبًا من الضفة الغربية لنهر النيل، وكان الفيضان فى أغسطس ذلك قد أغرق الأرض ووصل إلى البيوت . وهناك

شيخ عــربى كان يحكم الولايــة يعيش هناك ما بـين أربـعـة إلى ستـة أشــهر فى السنة . وبقية الوقت كان يعسكر خارج البلدة فى الحقول بالقـرب من النهر، عند نهاية موسم حصاد المحاصيل الزراعية . وكان خاضعًا لإشراف «صنچق»، يمثل الحكومة التركية ، والفرقة العسكرية تحت إمرته، والقاضى المحلى الذى ينشر العدل .

وبالاستمرار جنوبًا بعد جرجا يستدير النيل استدارة تشبه حرف U لكى ينحدر بشدة فى اتجاه الشمال الشرقى . وعند هـذه النقطة ينحدر الجبل بشكل حاد إلى شاطئ النيل ، ويمكن أن يكون من الصعب على المركب المبحر أن يمضى عكس التيار عندما تهب ريح الشمال عبر النهر. وكان المسلمون قد أخبروا البندقى أن الجبال فى الإقليم كانت مرصعة بالمقابر الوثنية القديمة ، وهى الآن أماكن سكن وبيوت لعشرات الآلاف من المسيحيين . ولكن السكان الحاليين يقولون إن المقابر والأضرحة كانت ملاجئ للآباء المقدسين الذين كانوا قد انسحبوا إلى هناك طلبًا للتوبة ، وهو أمر وجد البندقى العملى أن من الصعب عليه أن يصدقه . كيف كان يمكن الانسحاب من العالم حتى ولو أخذنا بقدسيتهم، لكى يعيشوا فى مكان لاتنبت فيه جذور أو أعشاب ولاشىء سوى الأحجار؟ ولأنه كان مقتنعًا بأن الكهوف يمكن أن تكون مجرد مقابر ، فقد استكشف سبعًا منها هى الأكثر نمطية ، وكان لكل منها مدخل صغير ارتفاعه ذراعان ونصف ذراع وعرضه ذراع ونصف ذراع . وفى الداخل على مستوى الأرض ، وجد حفرة تشبه فوهة الفرن، عرضها ذراع واحد وعمقها مثل ذلك تقريبًا ، فى منتصف الأرضية المستطيلة ، وهناك عدد من الدرج تنزل رأسيًا من فتحة ، على الرغم من أن البندقى أدرك أنه من الدرجات السبع التى أمكنه رؤيتها على ضوء الشمعة ، لم يكن بوسعه أن ينزل سوى أربع درجات أو خمس فقط ؛ لأن المقبرة كانت مليئة بالدبش وكسر الأحجار.

واستأنفوا رحلتهم إلى قنا على منحنى النهر؛ حيث ناموا ليلتهم فى المركب ، خوفًا من الأعداد الضخمة من العقارب المميتة التى قيل إنها منتشرة بالمنطقة . ولم ينزل المسافر على الضفة المقابلة لزيارة معبد حاتور فى دندرة (وهو الآن على جرف صحراوى على مسافة حوالى خمسة كيلومترات من النهر) ذى الخلفية التى تشكلها الجبال الصفراء . وقرر أنه ليس هناك شىء يراه يستحق الملاحظة أو يتسم بالجمال. واليوم لايمكن رؤية المعبد من النيل، على الرغم من أن الرحالة زعم أنه قد رأى أطلال موقع شهير جدًا «غنى بالآثار المتنوعة التى يسميه المسلمون «دنداله Dendale» (دندرة). وربما كان يريد أن يسرع إلى الأقصر، وربما فى سنة ١٥٨٩م كانت الأرض تجاه المعبد مغطاة بمياه الفيضان، أو أن فضوله كبحه النعاس والكسل الذى يسببه أحد الأمراض المجهولة فى وادى النيل، أو أنه جُبْن بسبب كمية التماسيح التى قيل إنها كانت تجوس بين الضفاف الطينية الزلقة والأماكن الضحلة . وقد حكى المسلمون أساطير عن المسيحيين الذين اعتادوا أن يكتبوا طلسمات على ألواح حجرية منذ قرون عديدة مضت ، ويلقون بها فى النهر، وكانت تمنع هجمات الزواحف حسبما يصرون فى حكاياتهم . وخمن البندقى أن هذه الأمور وأمورًا أخرى كثيرة غيرها كان يمكن أن تحدث بقوة الرب، من خلال الشفاعات والصلوات التى قام بها الآباء المقدسون الذين عاشوا فى الصحراء الجدباء .

وبعد إبحار قصير عكس التيار وصلوا قوص؛ حيث كان التجار يأخذون الطريق إلى القصير على البحر الأحمر، وما إن تصل القوافل إلى حدود الزراعة الخضراء التى على حافة وادى النيل، فإنهم يواجهون الأرض الجافة فى الصحراء الشرقية؛ حيث تلمع السماء الزرقاء فى خط وضَّاء، والأرض تتلألأ وتُبهر العين بألواح من الحجر الصوان، والعقيق الأحمر ، والكوارتز والألابستر. وعند الاقتراب من الشاطئ كانت آثار خطى الجمال تبدو مثل خيوط فى ثنايا الجبال الصخرية بلونها الوردى والأزرق القاتم. كانت المياه الشحيحة من نوعية رديئة موجودة فى القليل من الآبار شبه المالحة فى رحلة

الأيام الأربعة أو الخمسة، غالبًا ما تتعرض القوافل أثناءها لهجوم البدو. وكانت السفن المقلعة من القصير تبحر صوب الجنوب على امتداد ساحل القرن الأفريقى أو إلى سواكن التى كانت تحت حكم سلطان مسلم جنوب شبه الجزيرة العربية(*).

وثمة طريق قوافل آخر من قوص كان يؤدى إلى ميناء عيذاب، إلى الجنوب على ساحل البحر الأحمر . وكانت مبنية على خريطة ترجع إلى القرن الخامس عشر، وهى الخريطة التى تحمل اسم Egyptus Novelo (مصر الجديدة) التى رسمها الفلورنسى بييترو ماسايو Pietro Massagio فى سنة ١٤٥٦م لألفونسو الأول (الكبير Magnani-mous) ملك أراجون (حكم من ١٤٤٣ إلى ١٤٥٨م) . وفى العصور الوسطى، كان ميناء قوص النيلى الذى أقيم استراتيجيًا على طريق التوابل الشرقى، يأتى فى المرتبة الثانية من حيث الحجم بعد القاهرة فقط ومن حيث الأهمية، على الرغم من أنه تدهور بعد اكتشاف البرتغال الطريق البحرى عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند (**). وتقع المدينة على مسافة ميل تقريبًا من النهر، وتحيط بها الأراضى الزراعية الخصبة ، ولكن فى شهر أغسطس كان يمكن للمراكب أن تصل إليها عن طريق الترعة (بسبب مياه الفيضان).

(*) هنا بعض الخلط الجغرافى والتاريخى من جانب المؤلفة؛ فقد كانت سواكن منذ عصر الظاهر بيبرس خاضعة لسلطة المماليك تحت حكم حاكم محلى، ومن ناحية أخرى لم يكن هذا الساحل هو الساحل الأثيوبى كما تقول المؤلفة ؛ لأن الحبشة دولة داخلية، وإنما كانت هناك مجموعة من الدويلات الإسلامية (عددها سبع إمارات) عُرفت باسم دول «الطراز الإسلامى» ؛ لأنها على ساحل البحر الأحمر مثل الطراز على الثوب ، وكانت بينها حروب شديدة آنذاك وبين الحبشة. (المترجم)

(**) لم يكن هذا الطريق مجهولاً حتى يكتشفه البرتغاليون، وإنما كان التجار المسلمون والهنود يرتادونه جيئه وذهابًا بدليل أن البرتغاليين استعانوا بأحد البحارة المسلمين الخبراء بهذه الطرق البحرية (لعله أحمد بن ماجد) لكى يدلهم على الطريق . ومن ثم فلم يكن هناك «اكتشاف» كما تقول المؤلفة، وغيرها من الكتاب الغربيين ، والذين يصورون الأمر على غير حقيقته ، انطلاقًا من روح المركزية الأوروبية التى أنكتها الانتصارات والتفوق الأوربى منذ ذلك الحين حتى أيامنا هذه . (المترجم) .

وبعد أن أبحرت مجموعة البندقى إلى الجنوب لمسافة ثمانية وخمسين كيلومتراً ، ظهرت جبال التبان ذات القمة المسطحة لتمثل الظهير للزراعات الخضراء، من ناحية الغرب. وفى ساعات الفجر العجيبة المدهشة تنعكس عليها أشعة الشمس الحمراء النارية ساعة الشروق ، ثم تتحول إلى اللون الوردى المشوب بالصفرة الداكنة للندى فى النهار عندما تعكس موجات النهر زرقة السماء التى تشبه البحر . وعند الغروب يتحول اللون إلى الأزرق المعدنى الصلب قبل أن ينغمس فجأة فى العتمة. وفى القرن السادس عشر، وعلى الرغم من أن التركى كان هو السيد اسمًا ، فإنه لم يكن صاحب اليد العليا طالما أنه مقيم بعيداً عن القاهرة ؛ إذ إن العرب من البدو المحليين فى عصاباتهم استمروا يحاربون عدوهم ، وكان يمكنهم قتل أى أسير يقع فى أيديهم . وحينما كان الأتراك يحاولون الرد، كان العرب ينسحبون استراتيجيًا إلى معاقلهم فى أحضان التلال الآمنة، وكانوا يوافقون على دفع الضرائب المفروضة عليهم فقط من خلال المفاوضات مع رئيسهم، مما كان يجعلهم يشعرون بقدر من الاستقلال(*).

ولم يكن البندقى قادراً على فحص «الامتداد الكبير من الأرض المليئة بالأطلال القديمة» على السهل الساحلى الممتد أمام حافة الجبل؛ لأن مياه الفيضان العالية فى أغسطس كانت تغمره . كذلك كان بحارته خائفين من هجوم العرب. وعلى الرغم من أنه كان غير قادر على فحص التمثالين الضخمين اللذين استرعيا ناظريه وفحصهما فإنه استبعد الحكايات الكاذبة التى حكاها له المسلمون الذين حاولوا أن يقنعوه أن بين الحجارة الساقطة كانت هناك الأقصر أخرى ، بناها أخو الشخص الذى كان قد بنى الأقصر الأولى.

(*) كانت العلاقة بين البدو والحكومة المركزية فى مصر، على مر تاريخها ، محكومة بقوة الحكومة وقدرتها على فرض سلطتها وإخضاع البدو. وكانت الإغارة على الريف والمدن - بما فيها العاصمة القاهرة نفسها- من دلائل ضعف الحكومة. ومن ناحية أخرى طالما تعرض البدو لهجمات مرعبة من جانب السلطات المملوكية أيام السلاطين الأقوياء، وكذلك كان الحال قبل وبعد عصر سلاطين المماليك ، حتى قيام محمد على بأولى محاولات توطينهم . (المترجم)

وأخيراً، وصل البندقى إلى أطلال مجمع المعابد الكبير فى الأقصر، القائم على الضفة الشرقية للنهر ، وقد انبهر جداً بهذا الموقع المذهل لدرجة أن وصفه غطى صفحتين من مخطوطه. وربما يكون قد ترجل من المركب على الرصيف «المبنى من أحجار كبيرة جدا» ، قال إنها كانت تستخدم للحماية من نحر المياه، وقد بدأ رحلته فى «معبد صغير» (هل هو حرم المعبد؟) ورأى على كل جانب صفًا من الأعمدة الحجرية تفصل كلاً عن الآخر مسافة نصف خطوة:

«كل هذه الأعمدة وغيرها سوف أصفها لك من الحجارة البيضاء، وليس بينها واحد مصنوع من كتلة واحدة، ولكن على العكس من أعمدة كثيرة ، فإن هذه مجمعة بشكل جيد جداً ومعمولة بشكل جيد تماماً ، ولها تيجان غاية فى الجمال، وعدد الأعمدة المرئية سبعون عموداً والأعمدة الأخرى مدفونة تحت الأرض. ويجب أن تعلم أن هذا المعبد الصغير ، وكذلك كل تلك المعابد التى سوف أحكى لك عنها لها سقف مسطح وليس على شكل القبة، معمول من حجارة كبيرة جداً تصل ما بين عمود وآخر، وفى داخله كانت كل الأجزاء من الحائط إلى السقف مرسومة ومنقوشة بنقوش غريبة لانهاية لها ، وتحت السقف مطلى بلون أزرق قاتم يمكن رؤيته ، وقد زينته عدة نجوم ذهبية».

ودخل معبداً ثانياً من الطراز نفسه ولكنه أعلى وأوسع ، كان يؤدى إلى معبد ثالث به صفان فقط بهما عشرة أعمدة سميكة جداً . وإذ لم يكن هناك سقف ظن أنه لم يكتمل : «بعد الأعمدة المذكورة ، أى عند نهاية الصفين، يوجد حائطان عاليان مبنيان مثل الأسوار الواقية ، والتى أعتقد جازماً أنهما كانا ضريحين لهم» (وهو يشير هنا إلى بوابتى معبد الأقصر، وأخذ المقاييس المرئية فوق الأرض ، وخمن ما لم يمكن رؤيته تحت الأرض:

«الجزء المواجه من هذين الحائطين منحدر ، والآخر رأسى. وفى الأركان توجد العتبة العليا التى تعبر الحائطين على مسافة واحدة أسفل القمة، وهذه القمة معمولة على شكل شفة مقلوبة، وفى كل من الحائطين يمكن رؤية أربع نوافذ ، وهناك فى داخلها بضع حجرات كل منها فوق الأخرى تتقاطع معها قطعة واحدة من الحجارة ، كل منها ثلاث مسافات ، وهى سميكة عريضة. ويمكن الوصول إلى قمة الحائطين عن

طريق بعض الدرج التى بنيت بطرق مختلفة ، وبمجرد أن يصل المرء إلى الأرض ينزل الدرج تحت الأرض ست أو سبع مسافات، وفى السرداب حجرة أخرى يمكن رؤيتها كانت فى ظنى فوق مستوى الأرض فى وقت من الأوقات ، ثم هناك ممر بدرجات عديدة تنزل فى انحدار شديد ... وفى نهايتها مقابرهم ، أى أضرحتهم. وأمام البوابتين بمسافة قدم واحد فقط يوجد تمثالان كبيران من الحجر الذى يبدو مثل الرخام الأسود ... هذان التمثالان يبرزان من الأرض على بعد حوالى خطوتين ونصف ، ولكنهما غائصان فى الأرض بعمق، وأود أن أخبركم كيف تم عملهما: أيديهما مضمومة ويلبسان على الرأس
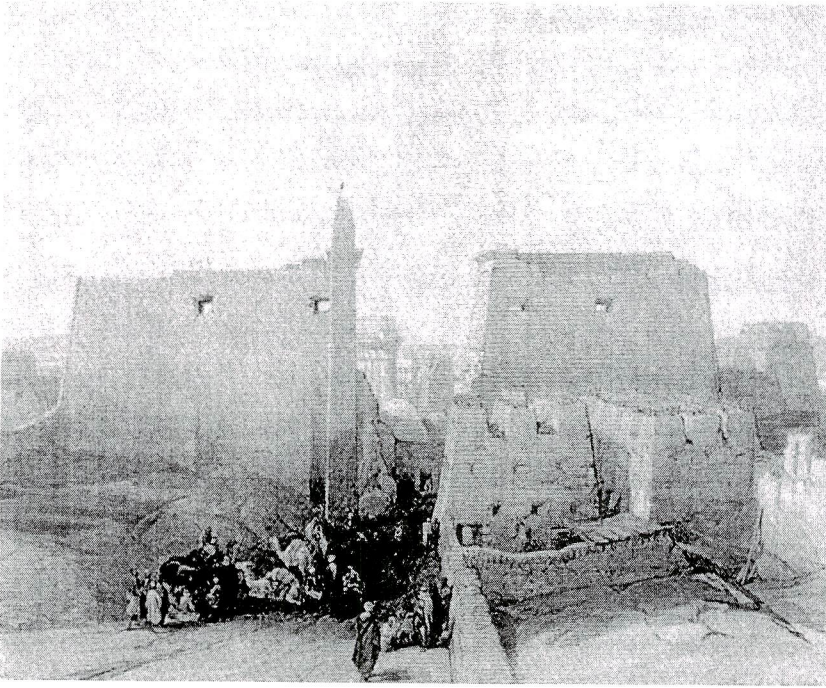
١٠-٢ بوابات معبد الأقصر

قماشاً بدون ثنية مثل القبعة - لا أعرف بماذا أقارنه ولكن ذلك لايهم إلا قليلاً - وعلى مسافة ثلاث خطوات تقريبًا ، يمكن رؤية مسلتين لانظير لهما لايشوبهما شيء من جميع الجوانب ، واليوم الجزء البارز فوق الأرض طوله أحد عشر شبراً ، ولكن الجزء الذى تحت الأرض أكبر من ذلك بكثير. لم تمتلك روما أو الإسكندرية أو مصر كلها أبداً مسلات يمكن مقارنتها بهاتين المسلتين. وقد شاهدت مسلات روما والإسكندرية ، ثم عاودت مشاهدتها وقستها . وهاتان المسلتان فقط تفوقان كل المسلات الأخْرَيات فى الحجم. وليست بهما غلطة ويشكلان زوجًا . وهما منتصبتان ، ويمكنك ملاحظة الجمال النادر للجرانيت المشكل الذى يسر العين كثيراً ، ثم عدد لانهائى من العلامات ، أكثر مما استطعت رؤيته، ومحفورة على نحو جيد تمامًا لدرجة أنها تبدو كما لو كانت معمولة حديثًا ، ولن تكفى كلماتى قط لوصف كمالهما . آه كم سيكون شيئًا خارقًا للعادة أن نراهما موضوعتين فى وسط ميدان جميل مثل ميدان البندقية الذى لانظير له فى العالم بأسره؛ لأن أعداداً لاتحصى من الناس سوف يأتون أفواجًا لرؤية مثل هذه النصب التذكارية».

كان البندقى قد قام بالفعل بإحصاء المسلات المحفور عليها باللغة الهيروغليفية، والتى رقدت طويلاً ممدَّدة فى حرم الآثار المحطمة الموجودة فى روما . وبعد أن أعيد نصبها ، وفرت فى النهاية نقاطًا محورية للتخطيط الرئيسى للمدينة الذى نفذه المهندس المعمارى دومينيكو فونتانا Domenico Fontana، وفقًا لرغبات البابا سيكستوس الخامس Sixtus V (فى المنصب ١٥٨٥-١٥٩٠م) ، وكانت «الموضة» بين الرسامين الإيطاليين فى القرن السادس عشر أن يضمِّنوا مثل هذه المسلات فى رسوماتهم للمناظر الطبيعية وفى تزيين خشبة المسرح لاسيما عندما كانوا يريدون التأكيد على مشهد درامى كبير. والبندقية الثرية، والتى تُحكم بشكل دقيق ، ومبانيها مزينة ومطلية، وميادينها المزخرفة وحواريها المغسولة جيداً والنظيفة، لم تكن تمتلك مثل هذه النوادر المشتهاة .

«ولهذا وحتى لا أتلكأ ، فإننى سوف أركز انتباهى على مسافة تبعد ميلاً تجاه الجبل حيث يمكن رؤية الأشياء التى تكاد تكون داخلة فى مملكة المستحيل، وسوف

أخبركم بالضبط عما رأيته . واعلموا أنه على يمين المسلتين، على مسافة ميل تجاه الشرق يمكن رؤية أثر كبير مبنى على شكل مربع، وكل جانب من هذا المربع طوله مائتان وخمسون قدمًا منها محيطها يساوى ميلاً بالتمام، وتدخله عبر ثمانى بوابات من الحجر المنحوت ... واليوم ترى فقط خمسًا منها، وكل بوابة تقع بين صرحين مثل اللذين تحدثت عنهما. ومن هذه الصروح يوجد عدد قليل . وقبل الدخول فى الداخل لمحت شيئًا مدهشًا : على كل جانب من البوابتين التى تتجه ناحية المسلتين (أى الأقصر) هناك ممر غاية فى الجمال يستخدم على ما أظن للوصل مع المعبد الذى حدثتكم عنه يقع بالقرب من النهر ، حيث توجد اليوم المسلتان . ويمكن تحديد هذا؛ لأن الممرات التى يمكن رؤيتها من مسافة كبيرة مزدانة بعدد كبير من الأسود الحجرية (هى فى الواقع تماثيل أبى الهول برؤوس الكباش) - أقول إنها حجرية حقًا - وصدورها باتجاه الممر، وهى مرتبة فى صف مستقيم، ويفصل ما بين كل منها خطوة ونصف خطوة ، واليوم كل هذه الأسود بدون رؤوس ، وهى فى حجمها ضعف حجم الحصان . وكل منها موضوع على قاعدة كبيرة طولها عشرون شبرًا ونصفها فى الارتفاع ، والأسد يقل عنها شبرين فى الطول.. والقاعدة والأسد معمولان من كتلة واحدة. وفى ممر واحد أحصيت مائة وستين فى صفين، وفى الممر الآخر عددت مائتين وأربعين. وكل ممر اتساعه سبع خطوات بالضبط ، وأنا متأكد أن هذا الصف من الأسود استخدم للمسير حتى المعبد الآخر حسبما أخبرتكم»(*).

وعلى الجانب الأبعد من مجمع الكرنك ، وخارج بوابة فى مركز أحد الممرات، لاحظ البندقى حوالى ثلاثين «أسدًا» أخرى- كلها باللون الأصفر الفاتح ولها مخالب كبيرة، تشبه الأخرى ، على الرغم من أن الأجسام كانت نصف حجمها . وباجتهاد قام

(*) من الواضح أن النص يتحدث عن طريق الكباش بالأقصر . (المترجم)

بعدِّ التماثيل والأعمدة والممرات، وقياسها دون أن تردعه حرارة أغسطس اللافحة، عندما تصل درجة الحرارة إلى ٣٤ درجة مئوية والأحجار تحرق الأقدام. وكل الصروح (التى يسميها بوابات) فى معبد الكرنك كانت من أعمال الإنسان المدهشة، ولاحظ البندقى أنها كانت مبنية منحدرة مع شفة مقلوبة على قمتها مثل تلك الموجودة فى معبد الأقصر . ووجد أنها كانت عالية الارتفاع ، حوالى اثنتى عشرة خطوة ، وعرضها سبع خطوات ، وظن أن الصرح الذى يواجه المسلتين هو الأكثر جاذبية بينها جميعًا؛ فقد كان مزينا بشكل جميل، وكله منقوش بالكتابات ، فى الداخل والخارج، من الأمام ومن الخلف:
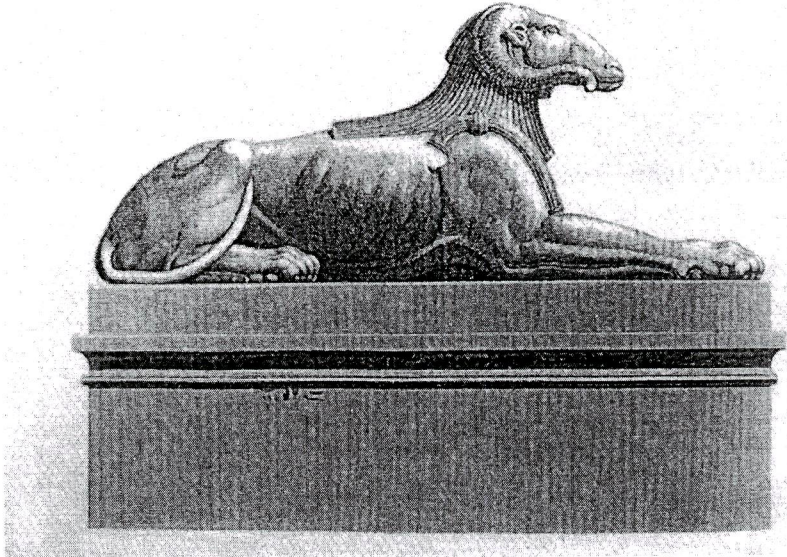
٣-١٠ أحد الكباش على قاعدته فى طريق الكباش بالأقصر

«لقد أحصيت مائتى شكل لها هيئة آدمية؛ وكلها مجسمة ، بل إنها ملونة، وكلها لها رسوم مختلفة ، بعضها بوجه آدمى، وبعضها له وجه كلب، أو وجه غزال وغيره من الحيوانات الأخرى المشابهة والأشكال الغريبية غير المألوفة . وكلها لها جسد آدمى،

بعضها عار والبعض الآخر بملابسه . ومن بين الأشكال الكثيرة جداً تتداخل أعداد لانهاية لها من الكتابات والحروف المصرية لدرجة أنه لايوجد جزء ليس عليه نقوش ، وفي المربع فوق البوابة عند القمة يمكن أن نرى على مسافة حوالى خطوتين ، زوجاً من الأجنحة الكبيرة مفرودين فى الوسط تماماً، وهما أيضاً منحوتان بشكل خفيف، وفي منتصف هذين الجناحين توجد دائرة ، عند نهاياتها- يجب أن أقول على كل جانب- هناك أفعى قصيرة سمينة . وليست هذه البوابة فقط التى بها مثل هذه الزينة، ولكن جميع البوابات فى مختلف الآثار التى رأيتها ، وقد رأيت منها عدداً كبيراً ؛ فكلها لها الدائرة والأجنحة والأفعى مثل هذه البوابة. ويبدو أن هذه كانت علامة مشتركة بين جميع الناس فى تلك العصور».

وعندما توغل البندقى للمرة الأولى فى مجمع المعابد العملاقة بالكرنك ، وجد العديد من المعابد الصغيرة، مثل تلك التى فى الأقصر فيما عدا أنها كانت أكبر حجماً ومسقوفة بالحجارة مدهونة باللون الأزرق فى الداخل وبها نجوم صفراء. وهناك عدد لانهائى من الصور المختلفة للرجال، والحيوانات، «والأشكال الغريبة» الأخرى مرسومة بألوان جيدة تراءت أمام عينيه. وفى أحد الأماكن رأى أشكال القديسين مع بعض الحروف اليونانية الصغيرة كانت تشير إلى أن المسيحيين قد استخدموا المكان كنيسة.

وعلى مدى مساحة تقارب الميل، ظهرت الأرض كلها مغطاة بالحجر الرملى أو بكتل الجرانيت . وكانت التماثيل الضخمة ترقد مكسورة على الأرض، وكانت أذرعتها خمسين شبراً من الكتف حتى الإصبع الأوسط فى اليد. وكانت هناك قطع عملاقة من المسلات المكسورة بشكل يدعو إلى الشفقة مبعثرة فى كل مكان، واثنتان منهما فقط متماسكتان . وفى المعبد الرئيسى قرب النهر كان هناك صرحان كبيران يشبهان ما كان بمعبد الأقصر. وعندما خطا البندقى داخل المعبد ظن أنه يحلم، لأنه كان هناك عدد من الأعمدة السميكة جداً أمام الأشجار تماماً . وكانت جميع الأعمدة (التى كان من المحتم أن يقيسها البندقى ويعدها) تشكل مربعاً (فى الحقيقة مستطيل) ،

ووفقًا لحساباته كانت هناك ستة صفوف ، يضم كل منها ستة عشر عموداً على امتداد طول المعبد . وكان الممر الأوسط ، وقياسه ثلاث خطوات ، كان أعلى وأكثر اتساعًا من الممرات الأخرى . وإحدى البلاطات الحجرية التى قاسها كانت أكثر من أربع خطوات ، وكانت تغطى الممر من جانب إلى الجانب الآخر بحيث تكون سقفًا، كان مطليًا باللون الأزرق. وذهل البندقى من جمال تيجان الأعمدة الملونة والمنحوتة بالأشكال . وعلى كل تاج من تيجان الأعمدة كان هناك حجر يربط كل عمود بالآخر الذى يليه ، وافترض أن هذه كانت تشكل الأساس الذى قام عليه السقف ، على الرغم من أنه فى كثير من الأماكن كان المكان مفتوحًا على السماء . وكان المشهد الأكثر إثارة للدهشة هو مشهد عمودين محطمين ، استقرا أثناء سقوطهما بكل وزنهما على الأعمدة الأخرى، وهو شىء وجده البندقى (بمعرفته الواضحة بتشييد المبانى) أمرًا مخيفًا للغاية: «إننى لا أصدق أن رسامًا يمكنه أن يرسم خرابًا وحشيًا مثل ذلك الذى وصفته لكم حالاً».

وبعد أن مرَّ خلال غابة الأعمدة ، وجد بوابة أخرى مزخرفة بالنقوش مثل الأولى التى وصفها ، ولكنها محطمة . ومن بين الآثار المكسورة أمامها وجد أربع مسلات ، اثنتان منها قائمتان والاثنتان الأخريان راقدتان عند أقدامهما. وعندما قاس قمة واحدة من المسلتين الساقطتين ، خمَّن البندقى أنها تشكل زوجًا مع المسلة الأكبر من المسلتين القائمتين؛ لأن المسلتين القائمتين لم تكونا متماثلتين؛ إذ كانت أكبرهما «جميلة تمامًا، من الجرانيت الخالص وبها الكثير من اللون الأبيض» . وحسب الأطلال التى كان قد رآها افترض البندقى (خطأ) أن كلاً من «بوابات الكرنك لابد من أنها كانت مزودة بتماثيل ومسلات مماثلة:

«تأمل كيف أن هذا الأثر الرائع لايتفوق على عجائب الدنيا السبع ، التى ما تزال إحداها موجودة ، أى أحد أهرامات فرعون الذى يعد شيئًا صغيراً بالمقارنة مع هذا العمل العظيم. إننى لا أرسل الرجل الذى يريد مشاهدة هذا الأثر إلى آخر الدنيا؛ لأنها على مسافة عشرة أيام فقط من القاهرة ؛ ويمكن للمرء أن يسافر هناك بتكلفة قليلة».

ومن الصعب أن نعرف كم بقى قائمًا بين أطلال معبدى الأقصر والكرنك فى سنة ١٥٨٩م، وعلى الرغم من أن البندقى لاحظ النقوش المسيحية (فى معبد تحتمس الثالث على الجانب الشرقى من معبد آمون الكبير) ؛ فإنه لم يذكر أى مستوطنات عربية لاحقة . ليست هناك سجلات مصورة من القرن السادس عشر وتبدو رواية البندقى عن الموقع فريدة بين روايات الأوربيين فى ذلك الوقت . وبالإضافة إلى استخدام يديه وقدميه فى القياس (وكانت البالما Palma الإيطالية فى تلك الفترة تعنى اتساع راحة اليد على آخرها - أى شبْر) لم يقل ما إذا كان قد أحضر أدوات قياس معه . وعلى أية حال ، فإنه قدم تقديراً مفصلاً بشكل غير عادى لمجمع المعابد والأفنية التى استطاع زيارتهما فى ذلك الحين . وبعد الفحص الدقيق للزخارف المرسومة صار أكثر قدرة على النقد وبدأ يقارن الأعمال البشرية على مختلف المبانى. وعندما دخل معبداً صغيراً من الجرانيت بدون عمود ، من خلال بوابة كبيرة مرتفعة ، وعلى كل من جانبيها بوابتان «من أصلب أنواع الحجر الأسود» رأى أن الأرض كلها والحوائط والسقف كانت جميعًا مغطاة بالأشكال المعتادة ، والعلامات والنقوش ، وأن كل شىء كان مرسومًا بأفخر الألوان ، «ولكن يمكن رؤية أن الحرفيين هنا قد عملوا بعناية أكثر من الأماكن الأخرى ».

ولابد أن الجهد الذى بذله البندقى فى تسلق مجمعى المعابد فى الأقصر والكرنك وحصر الأطلال التى ألهبتها الشمس فى مثل هذا الوقت القصير قد استنفد جزءًا من طاقته، حتى السائح الحديث الذى يتم توجيهه حول هذه المجموعة المحيِّرة من المبانى بواسطة المرشدين الموجودين فى الموقع، والحريصين على إعلام جماهيرهم بالتتابع التاريخى المطول للفراعنة وممارساتهم الدينية، سوف يفهم الارتباك والإرهاق اللذين تسببهما مسرات التمتع بالأطلال . وعلى أية حال ، فإن هذا البندقى الذى لايتعب والذى عاش فى القرن السادس عشر لم يذكر شيئًا عن التعب وقال: «لو أننى كنت قادرًا على أن أتذكر كل شىء رأيته فى هذا المكان ، لكان لدى الكثير أحكيه . ولكننى سوف أنهى بعد إذنكم».

وبعد رحلة يوم واحد صاعدين فى النهر وصلوا إلى إسنا على الضفة الغربية للنيل ؛ حيث كانت القوارب ترسو أمام القرية لكى تتزود بالطعام الذى كان شحيحًا وغالى الثمن فى النوبة جنوبًا . وكانت مكانًا اشترى منه البحارة الخبز ، وخبزوا كميات من الأرغفة المستديرة المسطحة فى أفران القرية . وحملوا الأرغفة على المركب وعلقوها عالية فى السلال المجدولة محليًا ، وهى تشبه تمامًا تلك السلال التى ترجع إلى العصور الفرعونية ، وفى بعض الأحيان كان عجن العجين يستغرق الليل بطوله، وكانت النسوة المحليات يجهزنه فى سلة مخصوصة، وعادة ما كان الخبز يبقى صالحًا لبضعة أيام.

فى سنة ١٨٧٧م، واجهت عالمة المصريات الجسورة أميليا إدواردز Amelia Edwards صعوبة فى تحديد مكان المعبد البطلمى فى المدينة (إسنا) . وقد بحثت عبثًا بلا طائل عن أية علامة لمقصورة أو رواق ؛ إذ كانت كتلته المذهلة من الحجارة الجيرية صفراء اللون مخفية تمامًا وراء البوابات الخشبية المتهدمة التى كانت تعزل ما بين البيوت المتجاورة . وفى نهاية المطاف عثرت على معبد ليس مهدمًا ولا مشوهًا، ولكنه مدفون معظمه فى النفايات التى تكونت عبر القرون. وقبل ذلك بثلاثة قرون، وصفه البندقى بأنه قديم جدًا ، يقع فى منتصف المدينة. وربما كان المكشوف منه فى زمانه أكثر كثيرًا؛ لأنه وصفه بأنه يدعمه أربعة وعشرون عمودًا فى صف «مُحيطها خمسة وعشرون شبرًا». ووجد المعبد كاملاً تمامًا ، ولاينقصه شىء ، وكان يستخدم شونة للقمح، وكانت الحوائط الداخلية والخارجية والأسوار والأعمدة والسقف منحوتة كلها بالعلامات المعتادة ، وهناك إفريز واحد أظهر بعض الأشكال الصغيرة برؤوس الكباش طوله شبران على تاج عمود يقدمون قربانًا ، وفى مواجهته كان هناك «صقر بجناح واحد مفرود والآخر مطوى» . ورسم خرطوشة محتواها «الإله أو الملك» ، ولاحظ «عددًا كبيرًا جدًا من الرجال بذقون قصيرة يمسكون بأيديهم هراوة، وآخرون غيرهم يمسكون أشياء غريبة ، وهى كثيرة جدًا بحيث أن عقلى لايمكن أن يتذكر كل ما رأيته من أشكال مختلفة وفى عدد من الأماكن . ولأنه كان قد نظر إلى هذا القدر

الكبير من الكتابة المصرية، استطاع فى ذلك الحين أن يتعرف على الهيروغليفية التى تغطى الأبنية القديمة فى الكرنك والأقصر ، والتى اختلفت عن الحروف البطلمية على معبد إسنا فيما بعد .

وفى اليوم التالى وصلوا إلى معبد حورس فى إدفو على الضفة الغربية لنهر النيل، وهو يسيطر على موقع يطل على الوادى المحيط الواسع. وقد تأثر البندقى على نحو خاص بالصروح التى تشبه صروح معبد الأقصر ، وأعلى جزء بالمعبد وأكثر أجزائه تماسكًا . ووجد بوابة تؤدى إلى فناء يحتوى على خمسين عمودًا قائمًا ، وفى نهايتها كان مدخل المعبد، وبالقرب منه كانت توجد بنايات أخرى، على الرغم من أنه قال إنها كانت مكسورة ومحطمة . ومع المضى أبعد صوب الجنوب كانت تظهر التلال المنخفضة على الضفة الشرقية وظهر معبد كوم أمبو ، قائمًا على نتوء مرتفع من الجبل . ونسخ الرحالة المجتهد ثلاثة سطور من الحروف اليونانية مكتوبة على أفريز أعلى الباب . ومثلما كان الحال من قبل، استغرق وقتًا لإحصاء عدد الأعمدة ، ملاحظًا أماكنها وحائطًا مغطى كله بالرسوم والعلامات.

١٠-٤ مجموعة من النوبيين

فى ذلك الحين كانوا مبحرين بعيداً صوب الجنوب، إلى حدود إقليم الصعيد حتى قصر إيبرين (إبريم) فى النوبة، «حيث يختفي الناس ذوو البشرة البيضاء» . وعندما اقترب البندقى من أسوان أدرك على الفور التغير الذى طرأ فجأة على المشهد؛ إذ اختفى الحجر الجيرى وحل محله الجرانيت الأحمر والأسود، وشوهدت أولى الكتل الجرانيتية بارزة من مياه النهر. وانبهر الرحالة بالمدينة التى كانت منتشرة على شكل هلال على ضفة النيل. وترتفع البيوت فى الخلفية أحدها أعلى من الآخر مثل صفوف مقاعد المسرح، بيد أنه سرعان ما تحقق من أنها لم تكن سوى أطلال مفتوحة بدون سقف. وفى داخل البلدة لم يكن هناك أحد . وفيما وراء الأسوار المحيطة بالبلد شاهد البندقى التلال المنخفضة من الجرانيت مختلف الألوان تتألق فى الشمس بهالات من اللون الوردى والأسود والفضى، ومنها «تم قطع عدد كبير من المسلات والأعمدة الموجودة فى أنحاء متفرقة من العالم». وفى المحاجر شاهد علامات قديمة محفورة بأدوات العمال زمن الفراعنة عندما كانوا يقطعون الكتل الضخمة (بعد ذلك كانت تتم دحرجتها صوب النهر ويتم تعويمها إلى الوجه البحرى على طوافات) وخمن البندقى أنه لو لم يكن هناك جرانيت فى أسوان (فى جنوبها فقط) لما كان ممكنًا نقل المسلات إلى الشمال بسبب الجنادل الموجودة جنوب المدينة:

«بعد الوصول لأسوان، كان كل مركب يريد الوصول إلى إبرين يضطر إلى تفريغ حمولته من البضائع ؛ ثم تُنقل على ظهور الجمال مسافة سبعة أميال. وأجرة كل جمل سبع قطع من النقود أو حتى ثمانى قطع. وعند نهاية هذه الأميال السبعة تنتظر البضاعة وأصحابها القوارب التى تحضر بسرعة بفضل الريح عندما يكون النيل عاليًا- ولكن يجب أن تكون هناك ريح شمالية؛ لأنه إذا لم تكن هناك رياح قوية ، تحتجزها قوة التيار ولايمكن التقدم إلى الأمام... وبعد ذلك يتم سحبها بالحبال المتينة التى يشدها الرجال ضد قوة التيار، وبهذه الطريقة يستغرقون اليوم بطوله لكى يصلوا إلى هدفهم . والآن سأخبركم لماذا يجب أن يكون هناك هذا القدر الكبير من الإشراف فى هذا المكان . فإلى جانب من أسوان ، وربما فى قبالتها ، يرى الإنسان مائة

وخمسين صخرة بينها بعض الصخور المختلطة (الجرانيت) وثلاث منها مرتفعة جداً بحيث إنها تشبه الجبال . هذه الجزر الصغيرة المنخفضة فى أماكن معينة ، وحيث توجد قطعة صغيرة من الأرض القابلة للزراعة عددها تسع جزر، وكل واحدة تسكنها عائلة واحدة أو اثنتان . وتضم الجزر الباقية صخوراً كبيرة وصغيرة فقط تمتد على مسافة سبعة أميال؛ والنهر فى هذ الجزء عرضه ميل واحد فقط. والسبب فى وجود تيار عنيف فى هذا الجزء يرجع إلى وجود الكثير من الصخور. هذا المكان الصخرى يسميه السكان وجيرانهم «سيلال Seilal (يقصد الشلال)».

والحقيقة أن منطقة الجنادل الأولى عبارة عن سلسلة متتابعة من المنحدرات المائية فى حوض صخرى يمتد حوالى ثلثى الطريق بين جزيرة الفنتين وجزيرة فيلة. وقبل بناء خزان أسوان (تم افتتاحه سنة ١٩٠٢م) كانت المراكب تسحب فوق انحدارات الماء المرغى المزبد، لتنقسم إلى ثلاثة أو أربعة سيول جارفة ، بمجموعات من الرجال الذين يشرف عليهم «شيخ الشلال» الذى يتقاضى مبلغًا محدداً لكل مركب . وكتبت أميليا إدواردز عن الجانب المذهل فى هذا المشهد:

«ليس هناك شىء آخر فى العالم مثل مشهد الشلال الأول- سوى مشهد الشلال الثانى. وهو مشهد جديد تماماً ، وغريب وجميل. ومن غير المفهوم أن الرحالة كتبوا عنه عموما بالقدر القليل جدا من الإعجاب ، ويبدو أنهم كانوا متأثرين بوحشية المياه، وبالأشكال الغريبة للصخور، وتفرد وعظمة المنظر الطبيعى بأسره؛ ولكنهم نادراً ما كانوا متأثرين بجماله وسموه».

عندما دخلت أميليا منطقة الجنادل (الشلال) ، وصفته بأنه «أرخبيل من عالم الجن والعفاريت ، يضم ما لايحصى عدداً من الجزر المتداخلة من صخور الجرانيت الأحمر، والأرجوانى، والأسود . وكان هناك عدد قليل من الجزر الأكبر متوجة بتيجان النخيل، وكانت النباتات مغطاة بأشجار الصمغ العربى، والسرو، ونخيل البلح، وأشجار الطرفاء بأوراقها التى تشبه الريش ، «وكلها تصنع شريطًا مزينًا تحت مظلة عالقة من النباتات المتسلقة بزهورها الصفراء».

وعلى الرغم من أن قصد البندقي الأصلي كان أن يبحر فقط إلى حدود إقليم الصعيد، فربما يكون البحارة النوبيون قد شجعوه على استكشاف المزيد في موطنهم. وبينما مضوا مبحرين عكس التيار، وقد أحسوا بجبال الجرانيت العالية التى أطبقت على ضفتي النهر«ومنظرها مخيف جداً ». وفى أماكن بعينها حيث الجبال تتراجع، كانت أى أرض صالحة للزراعة تزرع بالدخن . وبحكم الضرورة كانت الحقول طويلة وضيقة ، وكانت تروى بآلات تعمل ليل نهار (السواقي والشواديف) . وكان عدد السكان في البلاد ضئيلاً ، ولم تكن هناك بلدة أو مدينة، بغض النظر عن قلعتين يحتلهما الأتراك . ومع أنه ظن أن البلاد فقيرة للغاية وبائسة ، فإن البندقى شعر بالأمان برغم الفقر، لأنهم كانوا يستطيعون النوم فى سلام فى أي مكان ترسو به القوارب . وكان هذا على النقيض من أماكن الرسو فى الشمال؛ حيث كان من الضرورى أن يبقوا دائماً على يقظة خوفاً من المغيرين.

وبعد الشلال الأول، حيث انتظروا حتى يتم سحب القوارب فوق المنحدرات المائية، استكشف جزيرة فيلة ومعبد إيزيس ؛ حيث وجدت هذه الربة قلب زوجها أوزوريس على ماتقول الأسطورة :

«على أحد الجانبين بعض الحجارة الكبيرة جداً ، وقريب تماماً منها يوجد معبد شبيه بالمعابد الأخرى ، ولكنه صغير الحجم ، وسوف أخبركم كيف كان بناؤه . ترى اثنين من هذه الحوائط الكبيرة التى تشبه الاستحكامات ، ولكنها هنا ليست مرتفعة جداً، ولابد أن ارتفاعها حوالى عشرة أقدام؛ وفى منتصف الاستحكامات المذكورة هناك باب يفتح على فناء ثم باب آخر يؤدى إلى داخل معبد، أقل ارتفاعاً من الصروح، ومن هناك تدخل معبداً آخر، أقل ارتفاعاً ، ثم آخر منخفض جداً، يغلب عليه الطابع الجنائزى ومُعْتم . وفى المعبدين الأولين رأيت أن المبنى قائم على الأعمدة ، مثل المعابد الأخرى، وهو كامل البناء تماماً لدرجة أنه لاينقصه شيء، وفى هذا المعبد أشياء كثيرة مرسومة ... وثمة رجل يمسك ثلاثين شخصاً صغاراً من شعورهم راكعين، وأياديهم ممدودة ، وبالقرب منه يمكنك أن ترى الملك جالساً فى عظمة وفى يده سكين جزار كبير ... وفى

مكان آخر هناك شخص راكع يقدم قرداً فى حوض إلى الملك ، وآخر يطعن سلحفاة برمح؛ وبعض الرجال كبار الحجم مثل العمالقة يبدون بطرق مختلفة وهم يحاربون بعض الصقور التى تحمل حلقة كبيرة بين مخالبها؛ والكثير من الرجال الذين يقفون والذين ينامون ، والذين يرقصون، والذين يعزفون الموسيقى، وآخرون عديدون برؤوس ابن آوى (ومن المحتمل أن هذا كان على أعمدة معبد حاتور) . وخارج المعبد على الجانب المواجه حيث يوجد الصرحان ، يوجد اثنان آخران فى نهاية الفناء وهما أعلى قليلاً ، وفى المنتصف توجد بوابة تدلف من خلالها إلى فناء طوله ثمانون خطوة وخمس عشرة خطوة عرضا. وطولاً ، يمكن أن ترى رواقًا يمتد من ناحية إلى أخرى، مبنيًا على بعض الأعمدة على مسافة خطوتين إلى أعلى ومحيطه أربعة عشر شبراً ، وهو مغطى بأحجار كبيرة مسطحة، وعلى امتداد جانب السور هناك الكثير من النوافذ الكبيرة التى تطل على الماء، ويوجد الترتيب نفسه فى أحد أطراف الفناء الذى يشرف على النهر ... وبالقرب من هذه المبانى يوجد مبنى آخر له منظر جميل من بعيد بيد أنه ليس سوى مجموعة من أربعة عشر عموداً ، تشكل غرفة مغلقة من جميع الجوانب ومفتوح سقفه تجاه السماء... وعلى أحد الأسوار شاهدت صليبًا منحوتًا».

وفى اليوم التالى غادروا فيلة، التى كانت آنذاك من أجمل الأماكن فى مصر، وأبحروا على مدى يوم ونصف يوم، ولم يروا شيئًا باستثناء الجبال المنخفضة التى تمتد علي طول ضفاف نهر النيل. وعند قرية طايفة ، كانت هناك بعض البيوت الصغيرة على امتداد الضفة الشرقية وعدد قليل من الحقول، ترويها بعض السواقى التى تحدث صريراً وتعمل طول الوقت. ورأى البندقى «حوالى ثلاثين ضريحًا» لكل منها باب فى الواجهة ، وكان لبعضها ثلاثة أبواب. وعلى العوارض فوق الأبواب كانت توجد الكرات على شكل العالم فى منتصف الأجنحة مثل الحيتين اللتين وصفتهما من قبل». وبعد ذلك بمسافة صغيرة صارت الأرض التى تحف بضفة النهر أوسع قليلاً من ممر للسحب وصار النيل ضيقًا للغاية ، وكان التيار يجرى بقوة وكانت المياه عميقة جداً . وإذ يخرج النهر من هذا المجرى الضيق، صار أكثر اتساعًا وشق مجراه وشق طريقه خلال

الجنادل الصغيرة كان من السهل الإبحار فيه. وفي وسطه عد البندقي خمسًا وعشرين صخرة كبيرة وصغيرة ، كانت منها خمس أو أربع صخور فوقها مبان ظن أنها كنائس صغيرة مدمرة ، على الرغم من أنهم أخبروه أنها ربما كانت قلايات رهبانية لبعض الآباء المقدسين، وبعد ذلك صارت ضفة النهر رملية وغير مناسبة للزراعة ، وصارت جبال الجرانيت جبالاً من الحجارة البيضاء مثل جبال الصعيد.

عند هذه النقطة ، خفت حماسة الرحالة للمعابد القديمة؛ حيث إنه أقرّ بأنه لم يتعب نفسه لكي يرى «أحد هذه الآثار مبنيًا بالطريقة نفسها التي وصفتها في إسنا وإدفو» كان هذا معبد كلابشه الذي بني في عصر البطالمة، والحقيقة أنه أكبر معبد موجود في النوبة ومبني من كتل الحجارة الرملية. وقد تم تفكيكه في سنة ١٩٦٢-١٩٦٣م، ونقلت قطعه التي بلغ عددها ثلاثة عشر ألفًا من الكتل الحجرية ثم أعيد بناؤه بجوار السد العالي الذي بني في زمن الرئيس جمال عبد الناصر.

وواصلوا السير على مدى ساعتين في جوف الليل، لفت نظر البندقي فجأة مشهد «ضريح فخم منحوت في الجبل». وفي الحقيقة كان ذلك المعبد الذي بناه رمسيس الثاني تكريسًا لبتاح على «جرف حسين» ، قائمًا في مواجهة خربة محصنة صغيرة أسماها البندقي Sabbagora . ومن بعيد رأى البندقي المدخل ، الذي كان محتمًا أن يدخل لقياسه فيما بعد، وجد أنه ثلاث خطوات ارتفاعًا وخطوة ونصف خطوة عرضًا وخطوة عمقًا في الوسط. وفي الداخل كانت توجد غرفة فسيحة مساحتها ثماني مسافات مربعة وارتفاعها أربع مسافات:

«هذه القاعة مبنية بطريقة تحول دون انهيارها ، بسبب أنه كانت هناك ثلاثة صحون، الصحن المركزي أوسع قليلاً من الصحنين الآخرين، وهناك ثلاثة أعمدة على كل جانب، على كل منها منحوت تمثال طويل طوله خطوتان، وتقودك هذه التماثيل إلى الاعتماد بأنها تتحمل وزن المبنى كله[1].

---

(١) التماثيل ذات النحت البارز تتكون من مجموعتين : كلتاهما تصور رمسيس الثاني تحف به الآلهة.

وعلى حوائط القاعة المنحوتة فى الصحنين الآخرين، كانت هناك ثمانية وعشرون رسماً بالحجم الطبيعى بالنحت البارز «تتصل ظهورها بالحائط بالأسلوب نفسه... وكل هذه التماثيل تتخذ الشكل الإنسانى فيما عدا بعضها التى تحمل رؤوس الحيوانات، وكلها واقفة فى مواقف مختلفة ؛ وهى ملونة». وقد وصف البندقى مخطط المعبد بدقة شديدة : كان يحتوى على القاعة التى يستند سقفها على صف من الأعمدة التى تصور أوزيريس ، والردهة وحرم المعبد. وفى الداخل بعض الغرف الجنائزية المعتمة، وكانت تسكنها «أعداد لاتحصى من الخفافيش» التى كانت فضلاتها تنتج رائحة نفاذة لاتُطاق . وبصيص من ضوء النهار يتسرب من المدخل قد ساعد البندقى على أن يشاهد فتحة فى الحائط الأخير للقاعة الوسطى، حيث شاهد أربعة تماثيل ضخمة جالسة فى جلالة ملكية . وأمامها على الأرض كان يوجد مذبح صغير ، وفى الخارج، فى فناء كبير مفتوح فى الهواء الطلق ، كانت هناك بعض الأشكال المنحوتة الطويلة مستقرة على قواعد مربعة ، منحوتة بالطريقة التى نحتت بها تلك التماثيل الموجودة بالداخل. ولكن تماثيل رمسيس الضخمة لم تكن تروق فى عينى البندقى: «ولكى أقول الحقيقة فإنها ليست تماثيل من طراز جيد، ولكنك يمكن أن ترى أنها قطعة فنية فاخرة جداً » (سقط هذا المعبد الآن ضحية التقدم ، واختفى تحت مياه بحيرة ناصر) .

وبعد الإبحار إلى الجنوب مسافة أبعد، وفى منتصف الليل، أرسوا مراكبهم عند مكان يعرف بالعقبة على الضفة الشرقية للنيل، حيث كانت هناك ثلاثة خيول عند سفح الجبل، «وهو أعلى جبل فى هذا الإقليم ». وقد أخبر النوبيون البندقى أن الطريق عبر الجبل يؤدى إلى الصحراء وإلى أرض الفونج التى يحكمها ملك أسود من عاصمته فى سنار. وأكدوا له أنه بعد ثلاثة أيام فقط يمكن لأى مسافر أن يلحق بالنيل ثانية وما عليه سوى اتباع مجراه حتى يصل إلى أثيوبيا على الجنوب الشرقى . ولايجب أن يكون هناك خوف من الرحلة حيث لايمكن أن يكون هناك لصوص أو قتلة يقطعون الطريق، ويمكن الحصول على الطعام فى كل مكان للرجال ولجمالهم.

وفى منتصف الطريق باتجاه الجنوب، وصل البندقى إلى قرية توجد بها قلعة، هى مقر الحاكم وعائلته ، وهى تقع فى شريط من الأرض طوله حوالى ثلاثة أو أربعة

أميال وعرضه مائتا خطوة. وكان ذلك موقعًا مهمًا ، وبه حامية قوامها مائتا جندى من المشاة والخيّالة يعيشون فى أكواخ من البوص خارج القلعة . وكان حجم القرية معقولاً ، تضم حوالى خمسمائة بيت نوبى، على الرغم من أن الحقول القريبة لم تكن تُنبت شيئًا غير الدخن والقليل من البصل والخيار. وعلى مسافة حوالى مائة خطوة من القلعة ، شاهد مقبرة أخرى منحوتة فى الجبل المنخفض . وعلى الحوائط الداخلية، وبين عدد من الشخوص الغريبة ، منظر يصور جسدًا ميتًا يحمله عشرة أشخاص وسط موسيقى غريبة من آلات متنوعة ، ورقصات وأغانٍ ، وظن أن هذا يصور الناس فى تلك الأزمة يفرحون ويبتهجون فى إحدى الجنازات. وفى أثناء الأيام الثلاثة التى بقى فيها بالقرية، علم البندقى أن الأتراك قبل عدة سنوات ، كانوا قد أرادوا ضم « دنقلة » الواقعة شمالاً إلى الجنوب فى أرض الفونج (وهى جزء من السودان حاليًا) التى هى موطن عدد من القبائل النوبية. وبناء على ذلك أبحروا لمهاجمتها ، ولكن الله كان مع أهلها ؛ حيث إن الأتراك لقوا الهزيمة من الجنادل بعد ذلك بيومين، وعاد مركب واحد فقط سليمًا ، وقد تكسرت جميع المراكب الأخرى على الصخور.

كانت حدود مملكة الفونج هى منتهى ما وصلت إليه رحلة الاستكشاف التى قام بها الرحالة المجهول . وحتى مع أن طريق القوافل أمامهم كان واضح المعالم ، فإن ذلك لم يدفعه إلى المضى فيه وتركنا مرة أخرى فى الظلام ؛ إذ تنتهى قصته فجأة فى النوبة وليس هناك وصف لرحلة العودة ، على الرغم من أنه اعترف بأنه تكاسل عن الاستمرار فى الرحلة بسبب صحته. من كان هذا الرحالة المجهول؟

على مرّ القرون كان «مجلس العشرة البندقى» يناقش إمكانية مفاتحة سلاطين مصر فى مشروع شق قناة من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر. بيد أن هذا لم يتحقق أبدًا . وقد ثار السؤال مرة أخرى عندما بدأ البرتغاليون طريقهم التجارى إلى الهند، ولكن مع هزيمة المماليك على أيدى العثمانيين بدا أن الفكرة قد سقطت . وعلى أية حال، فإنه يبدو أن العثمانيين أنفسهم هم الذين أحيوا المشروع مرة أخرى؛ لأنهم كانوا مضطرين لبناء سفنهم فى السويس لصد هجمات البرتغاليين فى البحر الأحمر.

ولكن مـرة أخـرى لم ينتج شىء عن ذلك؛ إذ كان يعـتبر مـشروعًا بالـغ الخطورة ؛ لأنه كان هناك خوف من أن الفيضـان الذى سيتدفق من البـحر الأحمر سوف يلوث النيل بالمياه المالحة . ولكن هل يُحتمل أن البندقى كان قد أرسل للقيام بدراسة جدوى ؟ ففى هذا الوقـت أيضًـا، كـانت البندقـيـة تنعـم بفـتـرة من البناء؛ إذ قـامت هناك مـبـانٍ مـثل سكولا دى سـان روكو Scuola di San Rocco ، التى تم الانتـهـاء منها سـنة ١٥٤٩م، ومكتبـة سانسوفينو Sansovino ، التى حولت بياتزا دى سان مـاركو Piazza di San Marco وأفضل ما أبدعـه Palladio كنيـسة سان جـيورجيو الكـبير -S. Giorgio Mag giore التى صُـممت سنة ١٥٦٥م، وبناء الجسر الحجرى فى الريالتو على يد أنطونيو دا بونتى Antonio da Ponte ، والذى تم الدفع لتـمـويله بعـد إلغـاء الدين العـام فى ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر . كل هذه الأعمال كانت تتطلب بالضرورة مهارات عدد هائل من المسَّاحين والحرفيين. وكانت البندقية تتمتع على الدوام بعلاقات تجارية مـهـمـة مـع مـصـر، ولهـذا، هل كـان هذا المؤلف، الذى يتـضـح تمامًـا أن الآثار القديمة قد فتنته ، أحد المواطنين متعددى المواهب فى البندقية تم إرساله إلى القاهرة لبحث مشروع بناء ؟

* * *

بسبب صعوبات السفـر بحـرية فى أنحـاء مصر، فإن قليلاً من الأوروبيين كانوا هم الذين بلغوا أثيوبيا النائية ، وهو اسم تحول فى رواياتهم إلى الحبشة Abyssinia أو Abassia . وكـان سلاطين المماليك يخـشون إمـبـراطور الحبـشة المسـيـحى نصف الأسطورى الذى كان يحكم فيما وراء بلاد الإسلام، والذى عرفه الأوروبيون باسم «حنا القس Prester John». وكـان يُظـن أنه يمـكن أن يـجـعـل النيـل (الذى قيل إنه يخرج فى الحبشة من كهف كبير يحرسه برجان كبيران) يفيض فى اتجاه آخر. والسبب فى أن حاكم الحبشة لم يفعل ذلك هو أن جميع المسيحيين فى مصر كانوا سيهلكون

جوعًا(*). ومع هذا، كان الرحالة يصدقون ما قيل لهم إن السلاطين كانوا يدفعون جزية سنوية لاسترضاء جارهم الجنوبى ، و«الحقيقة » الأخرى المشكوك فيها أن المسيحيين فى بيت المقدس كانوا معفيين من دفع الضرائب.

كانت خرائط المنطقة ترسم من روايات شهود العيان التى أعادها إلى إيطاليا الرهبان الذين ذهبوا إلى بيت المقدس، وروما وفلورنسا . وقد جمع أليساندرو زورزى Alessandro Zozzi (ولد بالبندقية سنة ١٤٧٠م) ، وهو رحالة بندقى، عدداً من هذه الرحلات فى البندقية فيما بين سنة ١٥١٩م وسنة ١٥٢٤م وقارن المعلومات عن اختيار الطرق عبر مصر إلى اكسوم وبربرة ، المدينتين الرئيسيتين للإمبراطور؛ فإلى جانب طريق القوافل من قوص إلى النيل، الذى كثيرا ما استخدمه البطاركة الأحباش إلى ميناء القصير على البحر الأحمر ، كان الرهبان الأحباش يسيرون على طرق نهرية وبرية أخرى إلى مصر ومنها، وقد سجلوها .

فى سنة ١٤٣٩م، وفى أثناء حكم السلطان الظاهر جقمق ، ذهب راهبان حبشيان من القدس لحضور مجمع كنسى فى فلورنسا، كان قد تم ترتيبه بواسطة البابا مع

(*) تخلط المؤلفة هنا بين موقفين مختلفين تماماً : أولهما، علاقة مصر بالحبشة فى عصر سلاطين المماليك، والثانى الأسطورة التى راجت فى أوربا عن «البرسترجون» أو «حنا القس» الذى قالت الإسطورة إن مملكته فى الحبشة، وأحياناً فى الهند بالقرب من الجنة الأرضية التى تصوروا وجودها آنذاك. فقد كانت العلاقات المصرية الحبشية علاقات حقيقية فى بعدها الجغرافى ومداها التاريخى فقد نشر المسيحية فى الحبشة فرومنتيوس الذى صار مطراناً للحبشة، وظلت الحبشة منذ القرن الرابع الميلادى، تابعة لكنيسة الإسكندرية إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية. ومن ناحية أخرى، كان مسلمو الحبشة محل اهتمام سلاطين المماليك. وكانت العلاقات بين شد وجذب بسبب المسيحيين فى مصر والمسلمين فى الحبشة ، ولكن سلاطين المماليك كانوا يعرفون الكثير من «الحقائق» عن الحبشة، ولم يكن هناك سبب يدعوهم إلى الخوف من ملوكها الذين ساعدهم المماليك فى تنظيم شئون دولتهم، وكانوا أدنى كثيراً فى قوتهم من دولة المماليك. وفى بعض الأحيان هدد الأحباش بإغلاق منابع النيل الأزرق لمنع الفيضان من الوصول إلى مصر ، لكن هذه التهديدات لم تؤخذ بجدية، ولم يأبه بها أحد.

أما برسترجون ، فكانت الأساطير الأوربية عنه تتنبأ بأنه سيأتى من بلاده لكى يطبق على بلاد المسلمين، ولم يكن له وجود حقيقى تاريخياً، أو جغرافياً. (المترجم) .

البطريرك القبطى للإسكندرية ونيقوديموس، والذى كان يرأس جماعة القدس. وتم الاتفاق على محاولة توحيد الطوائف المختلفة للكنيسة المسيحية فى روما ، وهى محاولة انتهت بالفشل. وبينما كان المندوبان الحبشيان فى فلورنسا سئلوا بشكل خاص عن بلادهم. وقدمت إجاباتهم معلومات مهمة استخدمها فيما بعد رسامو الخرائط المعاصرون؛ إذ إن كلاً من الـ Egyptus Novelo التى عملت من أجل ألفونسو ملك أراجون، وخريطة الراهب مورو Fra Mauro المستديرة الجميلة، التى رُسمت فى بيت الأخ نيكولو بسان ميشيل دى مورانو ، تضمنت مثل هذه المعلومات الحبشية. والآراء الأوروبية التى ترجع فى أصلها إلى بطليموس الجغرافى أوضحت أن كثيراً من المفاهيم القديمة عن الإقليم كانت خاطئة ويجب تعديلها . وقد سافر الرهبان الأحباش فى ديرهم بالقدس إلى روما وقابلوا آخرين ممن خاطروا بالقيام بالرحلة الطويلة من موطنهم لإقامة جماعة رهبانية فى المدينة المقدسة . وقد ارتبطت هذه الجماعة بسانتو ستيفانو دى مورى Santo Stefano de'Mori وراء كنيسة القديس بطرس فى روما، وصارت فيما بعد مركزاً للدراسات الحبشية.

ويبدو أن الفاتيكان لم يكن راضياً بحصاد مجمع فلورنسا . فقد حكى فرنشسكو سوريانو من دير الفرنسيسكان فى جبل صهيون بالقدس أنه فى سنة ١٤٨٠م ، أرسل رئيس جماعتهم اثنين منهم هما الراهب فرنسيس ساجارا Friar Francis Sagara ، وهو إسبانى، والراهب جون الكلابرى Friar John of Calabria سفيرين بابويين ، وكذلك رجلاً علمانيا هو باتيستا دى إيمولا Battista of Imola ، إلى بلاط «الملك المسيحى المعروف شعبيا باسم القس يوحنا «برسترجون». وقد تم إرسال المبعوثين لكى يخبرا الإمبراطور بأخطائه ولكى يحولاه إلى العقيدة الكاثوليكية الرومانية. وإلى جانب الاختلافات المذهبية، فإن الفاتيكان أبدى تحفظاً شديداً على سلوك الملك المتهاون، الذى قيل إنه ينحدر من نسل سليمان وسبأ ؛ لأنه كان يتخذ العديد من الزوجات ، كلهن شرعيات، إلى جانب عدد من المحظيَّات. ولم يكن جهد هذه البعثة التبشيرية هو أولى محاولات الكنيسة الكاثوليكية . ففى سنة ١٣١٦م أرسل البابا يوحنا الثانى والعشرون

ثمانية من الرهبان الدومينيكان إلى الحبشة؛ حيث حولوا عدداً من المسيحيين إلى الكاثوليكية ، بل إن بعض الأحباش دخلوا فى نظام الرهبان الدومينيكان.

وبعد أن ترك باتيستا الرهبان فى الحبشة، عاد إلى جبل صهيون سنة ١٤٨٣م ، حيث كان فرنشيسكو سوريانو تواقًا إلى سماع تفاصيل الرحلة واجتمع مع باتيستا فى صومعته. وحكى باتيستا أنهم غادروا القاهرة قاصدين بلاط برسترچون (يقصد ملك الحبشة) فى يناير سنة ١٤٨١م . وأبحروا فى نهر النيل جنوبًا على مدى ثلاثين يومًا حتى «وصلوا بلدة تابعة لسلطان القاهرة تسمى نقادة ودفعنا دوكاتًا واحداً لكل منا للنقل» . وبقوا هناك على مدى شهر كامل ؛ لأن الطرق لم تكن آمنة ، وبعد ذلك عبروا إلى الضفة الشرقية للنيل ومشوا طوال اليوم. وفى المساء وصلوا بلدة تسمى «أقيرمان Acherman» (ربما تكون قنا)(*) وجازوا الصحراء شرقًا حتى القصير ؛ حيث أبحروا جنوبًا بحذاء الساحل إلى الحبشة . واستغرقت رحلتهم من القدس أحد عشر شهرًا ، وواجهت العديد من الصعاب. وتقرير فرنشسكو عنها أعيدت تلاوته مرة أخرى فى إيطاليا لإرضاء فضول أخته سيكستا Sister Sixta ، ورهبان Poor Clars فى دير سانتا لوشيا بفلينو Santa Lucia at Foligno. وقدم الراهبة سيكستا باعتبارها محققة كان يجيب على أسئلتها فى شكل شروح طويلة. وقد سألت أخته عن السبب فى أن الفاتيكان لم يرسل مبعوثيه كما جرت العادة إلى مثل هذا السيد العظيم، ولم يتردد فرنشسكو فى الإجابة بصراحة:

«بدافع من التردد والخوف من أن سلطان القاهرة العظيم ، حسبما يسود الاعتقاد فى تقوى، كان سيعرقل الرحلة على أساس ما قد يحدث له بسهولة ، أى إذا اتفقت الكنيسة (الكاثوليكية) مع برسترچون ، فإنهم سوف يستولون فى وقت قصير على كل أملاكهم، وكذلك بسبب أن المندوبين يسافرون بمثل هذه الأبهة الدنيوية ،

(*) الأرجح عندى أن تكون «أرمنت» ؛ لأن التشابه واضح بين الاسمين، كما أنها تقع فى هذه المنطقة .

وليسوا عرضة لأن يتحملوا ما قد يواجهونه فى هذه البلاد، وهى متاعب جمة . ولكن كان من المناسب أن نلقي هذا العبء على رهباننا الذين اعتادوا المعاناة والمشقة».

وحكى باتيستا أنهم بعد أن وصلوا القصير دفعوا ثلاثة دوكات لكل منهم للنقل ونصف دوكات مقابل كيس من الدقيق، حسبما جرت العادة بالنسبة للرحلة البحرية . وبعد رحلة استغرقت خمسة وثلاثين يومًا ، والإبحار حوالى خمسين ميلاً فى اليوم مع الريح المواتية ، وصلوا أخيرًا إلى سواكن ، وهى مدينة على جزيرة تبعد نصف ميل عن قارة أفريقيا ، ويسكنها العرب. «وإلى حاكم سواكن، وحسب العادة ، أعطيناه قماشًا متعدد الألوان ، كما أعطيناه بُرْنُسًا وخمس قطع من الصابون». وعلى مسافة خمسمائة ميل بعد ذلك وصلوا إلى دوكات ، وهو ميناء تجارى يملكه المسلمون (على الرغم من أنه تحت سيطرة الإمبراطور المسيحى برسترجون) . وأبحروا مرورًا بالكثير من الجزر الكبيرة ، ولكنهم عندما لم يجدوا ممرًا بحريًا قرروا السير برًا إلى ماساوا ، واستأجروا دليلاً جيدًا ، واشتروا جملين مقابل ثمانى دوكات . وعلى الرغم من أن أوصاف المسافات مضللة ، فإن رحلتهم البرية إلى بلاط برسترجون استغرقت مائة وخمسة وعشرين يومًا بما فيها فترات التوقف، مزجوا فيها بين ركوب الجمال والبغال والسير على الأقدام . وفى أثناء هذا الوقت كانوا يلقون كرم الضيافة من مختلف السادة الذين عبروا أراضيهم ، وفى نهاية المطاف وصلوا إلى «جنة جيريورجيس» "Gennata Giryorgis" حيث توجد كنيسة الملك وحيث كان الملك الأخير قد ووري التراب[٢]. كانت تحتوى على أرغن كبير مزين «مصنوع على الطراز الإيطالى» ، وهو ما مثل مفاجأة كبيرة لهم. واستمروا فى طريقهم ، وتأخروا لمدة ثلاثين يومًا بفعل الجو السيء ونهر (ظنوا خطأ أنه نهر النيل) فاض بمياه الأمطار، وأخيرًا وبعد عشرة أيام أخرى وصلوا إلى بلاط برسترجون فى مكان يسمى برره. ووفقًا لمن يسمى الراهب

(٢) كان من المعتاد لكل حاكم حبشى أن يبنى كنيسة حجرية لنفسه. ومثل هذه الكنيسة كان الرحالة يشيرون إليها باعتبارها «كنيسة الملك».

زورجي، وهو الذى زود البندقى أليسـاندرو زورزى بالمعلومـات عن الإقليم، فـإن برره حيث الهواء كان معتدلاً ، كانت إحدى المدن الرئيسية للملك الحبشى الذى كان يعيش شطرًا من الوقت فى قلعة على الجبل . وثمة راهب فرنسيسكانى اسمه رفائيل، غادر بيت المقدس فى سنة ١٥١٨م، وصف أيضًا رحلته من برره إلى القاهرة لأليسـاندرو زورزى . وحكى أنه إلى جانب برره كان برسترچون يعيش فى مدينة أكسوم العظيمة ، وهى مدينة ذات مناخ حار. وعلاوة على ذلك، كان يمكن أن تجد حول المدينة جميع أنواع الفواكه والأعشاب والزهور وعدد لايحصى من حيوانات الحليب . وكان الحرير والقطن والصوف من بين المحاصيل التى يصنع منها الناس ثيابهم كما كان الحديد موجوداً بكمية كبيرة . كان الرجال والنساء رفيعى القامة ويطلقون شعورهم طويلة.

ووجد باتيستا إيمولا والراهبان عشرة إيطاليين من ذوى السمعة الحسنة فى بلاط برسترچون، وكان بعضهم يعيشون هناك على مدى خمس وعشرين سنة، وسأل الرجال لماذا ذهبوا إلى ذلك البلد الغريب:

«أجابوا أن قصدهم كان البحث عن المجوهرات والأحجار الكريمة، ولكن لأن الملك لم يسمح لهم بالعودة ، فإنهم جميعًا كانوا مستائين على الرغم من أنهم جميعًا حسب المراتب عنده قد كوفئوا بشكل جيد وكان الملك الذى سره حديثهم السياسى والمدنى يمدهم بما يحتاجونه.

ومن الواضح أن الملك وجد مجموعة الأوروبيين مناسبة له؛ وصار أحد البنادقة واسمه جريجوريو بيتشينى Gregorio Bicini ترك زوجته وأسرته فى البندقية ، سكرتيرًا له، وأعطاه ضيعة وكان يلعب الشطرنج والورق مع الملك كل ليلة.

وكان من بين الإيطاليين الذين يعيشون هناك نيكولو برانكاليونى Nicolo Branca-lone وهو مهندس معمارى بندقى ورسام كان قد استخدم لمدة تزيد على أربعين سنة لتزيين الكنائس للإمبراطور . ورأى الراهب رفائيل مواد التلوين التى كانت تستخدم للصور فى المبانى الدينية تستخرج من الأرض بكميات كبيرة قرب أكسوم. وحكى أن
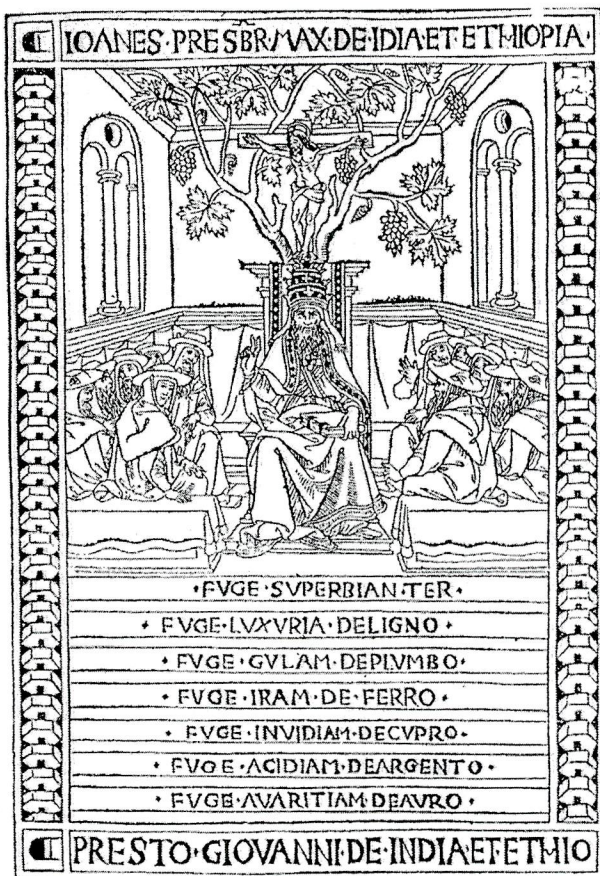
١٠-٥ برسترچون فى صورة تمثله ملكًا على الهند والحبشة

المعابد والقصور والقلاع الحبشية كانت ذات قباب وكانت مغطاة بالرصاص، هذا البناء كان يشبه البناء العسكرى فى أوروبا العصور الوسطى وفى المنطقة العربية فى ملامح مثل الزوايا ذات الأبراج المغطاة بالقباب والعقود الحجرية ذات القباب البرميلية المزينة، وكانت تستخدم فى كل من الكنائس والقصور للسكنى وأماكن دفن الملوك الأحباش حتى منتصف القرن الثامن عشر؛ حيث لم يعد بوسع أولئك الملوك المسيحيين القيام

بمثل هذه الإنشاءات على نطاق واسع . وكان المبعوث الفرنسيسكانى البرتغالى فرنسيسكو الفاريز Francesco Alvarez ، الذى قوبل بترحاب من جانب الامبراطور الحبشى كلوديوس (ابن لبنى دنجل) ، قد قابل نيكولو برافكاليونى الذى كان لا يزال هناك بعد أربعين سنة. وحكى فرنسيسكو أنه كان قد رأى رسوم نيكولو فى كنيسة سان چورچ ، التى بناها فى الأصل الإمبراطور زرعا يعقوب (حكم من ١٤٣٤ إلى ١٤٦٨م) لتكون مدفنًا له (كان زرعا يعقوب هو الذى أرسل الرهبان الأحباش إلى مجمع فلورنسا سنة ١٤٣٩م) .

فى سنة ١٤٨٧م ، وبعد زيارة الرهبان الفرنسيسكان ، فكر الملك البرتغالى أنه من المناسب أن يسعى للصداقة مع برسترچون . وأراد أن يتحقق أيضًا من أنه فى الحقيقة هو الإمبراطور الحبشى، وليس ذلك الحاكم الخرافى الذى قيل إنه يعيش فى الهند حسبما كان الكثير يعتقدون. وبعد أن قام مبعوثه بدرو دى كوڤيلهام Pedro de Covil-ham بزيارتين إلى الهند، وصل أخيرًا إلى بلاط الحبشة سنة ١٤٩٠م . وعلى الرغم من أن بدرو أرسل عدة تقارير إلى البرتغال ، فإنه عند عودته صار أوروبيًا إضافيًا فى المجموعة الأوروبية التى سقطت فى الشباك العنكبوتية الملكية، وإذ هوى فى شباكه الشفافة، لم يحصل أبدًا على الإذن بالرحيل .

وعند عودة باتيستا عن طريق مصر، سأله فرنسيسكو سوريانو بدقة عن أحوال الحبشة وسكانها . وأخبره أن الملك كان يحتفظ بخزائنه فى كهف يخضع لحراسة مشددة:

«كانت مساكنهم مقامة من أعواد البوص الرفيعة التى كسيت من الداخل ، ومن الخارج بطبقة من الطين. ولم يكن هناك مبنى حجرى باستثناء أن كل ملك، كان عليه عندما يعتلى العرش أن يبنى كنيسة لكى يدفن بها ... وفى البلاد ذهب بلا حدود ، وبها قليل من القمح ، ولايوجد بها نبيذ، وبها ما يكفى من اللحم، وبها كثافة سكانية من الناس قبيحى الشكل الخشنين الحمقى. وليست لديهم أسلحة للحرب، وسهامهم

وحرابهم من البوص . ولايذهب الملك أبداً إلى الحرب فى أقل من مائتى ألف أو ثلاثمائة ألف محارب. وكل سنة يحارب من أجل العقيدة . وهو لايدفع لمحاربيه وإنما يطعمهم، وهم معفون من أية ضرائب ملكية . وكل هؤلاء الرجال المحاربين مختارون، ويتم تسجيلهم ويتم كيهم بعلامة ملكية بالنار على أذرعتهم . ولا أحد يلبس الملابس الصوفية التى لايعرفونها، ولكنهم يلبسون الكتان. والرجال والنساء عرايا من السرة إلى أعلى وحفاة ، وهم دائما يملؤهم القمل. وهم شعب ضعيف ناحل قوتهم وقدرتهم على الاحتمال قليلة ، ولكنهم ذوو كرامة وكبرياء. وهم غيورون على الدين وأكثر حمية فى روحهم أكثر من جميع المسيحيين الآخرين».

وبين المعلومات المتنوعة ومنها الصادق والخيالى، أخبر فرنسسكو أن الهواء والماء فى الحبشة تغذى الدود فى جسم الإنسان ، وأن الأحباش لهم لغتهم الخاصة وحروفهم الخاصة فى الكتابة، وأنهم يختتنون ويتم تعميدهم بالماء. وكان فرنسسكو على معرفة بالمجتمع الحبشى بالفعل، و«أفصال برسترچون» (أى أتباعه الإقطاعيون) الذى كانوا يعيشون فى الضريح المقدس فى مدينة القدس، وعلى الرغم من انحيازاته (فقد أكد أنهم «هراطقة من أسوأ نوع، يؤمنون باليعقوبية متبعين هرطقة چيمس بطريرك الإسكندرية») ، فإنه سلَّم بأن الرهبان عاشوا حياة شديدة الزهد:

«إنهم حذرون جدا أثناء الليل وهم ينشدون المزامير . إنهم يقفزون بحماسة الروح وحميتها أثناء إنشادهم وهم يصفقون بالأيدى. وهم أكثر حمية فى الدين من أية أمة مسيحية أخرى . وفى ليالى الأعياد الرئيسية في السنة، يقرأون الأناجيل كلها ولاينامون الليل، ولكنهم يمضون الليل بطوله فى تراتيل دينية».

ووفقا للروايات ، فإن الإمبراطور القوى تماماً برسترچون عاش عيشة غنية ؛ إذ كانت إمبراطوريته الغنية كبيرة تضم عدة ممالك وولايات. وكان الأوروبيون قد صدقوا أن اسم «برسترچون» كان مشتركًا لكل حكام الحبشة ، مثلما كان اسم «فرعون» اسمًا مشتركًا لكل ملوك مصر . وربما كانت كلمة "Perester" تعنى (القسيس) Priest أو (كاهن) Presbyster ، بسبب الصليب الذى كان يحمل عاليًا أمامه . وكان لقبه داود؛ لأن

أباطرة روما كانوا يأخذون لقب قيصر . وكان هناك لحراسته الشخصية خمسون ألفًا من نافخى الأبواق . وعندما كان يذهب إلى الحرب، يكون أمامه صليبان ، أحدهما من ذهب والآخر من الأحجار الكريمة، لكى يُبين أنه أعظم من الملوك الآخرين. وكان سريره الأنيق المطلى بالذهب والمصنوع من الصينى مزينًا بغلالات فاخرة محاطًا بستائر جميلة أعطاها له بطريرك الإسكندرية . وكانت الأغطية والملاءات قد جاءت من الهند والصين ، على حين أن السجاجيد الثمينة من الحرير والجلود تزين حجراته . وعندما كان البلاط يجتمع لتناول الطعام ، كانوا يجلسون على السجاجيد ، وكان طعامهم يقدم على طاولات منخفضة بدون مناديل أو أغطية للطاولات ، وكان الخمر معتدلاً ، مصنوعًا من العسل والشعير والماء. وكان النواب والنبلاء يلبسون على الطراز التركى، وحول أعناقهم كانوا يلبسون سلاسل ذهبية مثل خُصلات الشعر مع الكثير من الغزل التركى، وحول أذرعتهم كانت توجد أساور تجاريها . وكانت أحزمتهم من قطع كبيرة جدًا من الذهب، وسيوفهم كبار توضع فى أغماد من الفضة.

كان البرتغال قد ظن أن من المناسب أن يقيم علاقات صداقة مع ملوك الحبشة لأن البلد تقع فى مكان استراتيجى قريب من طريق تجارتهم إلى الهند. وبعد وصول بدرو دى كوفلهام فى سنة ١٤٩٠م، أرسل وفدًا آخر سنة ١٥٢٠م تحت رئاسة فرنسسكو ألفاريز ودوم رودريجودا ليما Dom Roderigi da Lima قضى خمس سنوات فى بلاط برستر چون ، ونتيجة لهذه الإقامة تم جمع عدد من الأعمال تحت عنوان «تاريخ وعادات وتقاليد الحبشة "The History, Manners and Customs of Ethiopia" ، ألقى الكثير من الضوء على هذه الأرض غير المعروفة نسبيًا .

وقد وصف أدواردو لوبيز Odoardo Lopes، وهو برتغالى وزائر آخر لبلاط الإمبراطور الفاخر، «رجال بلاطه والسادة يرفلون فى ثياب من حرير ويتزينون بالذهب والجواهر النفيسة». وقد شهد أودواردو يوم عيد العذراء فى أغسطس عندما اجتمع كل الملوك والسادة فى المدينة سويًا مع الناس الذين جاءوا من كافة الأرجاء:

١٠- البروسترچون الحاكم المسيحى الأسطورى للحبشة

«كانوا فى موكب رزين جداً ، وخرجوا من الكنيسة ، ومن هناك ساروا ومعهم صورة للعذراء المباركة أم الرب. وهذه الصورة فى حجم الشخص العادى، وكلها من الذهب . وفى مكان العينين ياقوتتان كبيرتان ، وبقية الجسد مزين بالجواهر والأشغال الغريبة . وهذه الصورة محمولة على إطار ذهبى بصنعة مدهشة . فى هذا الموكب أيضًا يخرج بريت چيانى **Prete Gianni** (يقصد برسترچون) نفسه إما فوق عربة ذهبية أو فوق فيل، ليظهر للعامة، وقد غطته الزخارف والزينة بالمجوهرات والأشياء النفيسة

والنادرة ، وكلها مغطاة بقماش ذهبى. وكان عدد الناس الذين يجرون لمشاهدة هذه الصورة من الكثرة ؛ بحيث إن عدداً كبيراً منهم سقطوا فى تدافعهم وماتوا».

وكان من الواضح أن الراهبين اللذين أُرسلا من ديرجبل صهيون فى القدس، وهما فرنسيس ساجارا وچون كالابريا ، أمضيا فترة محبطة فى الحبشة . وقد عاد باتيستا دى إيمولا العلمانى الذى كان برفقتهما بخطابات إلى القدس تقول إنه على الرغم من أن الرهبان بقوا هناك لمدة ثمانية أشهر ، فإنهم كانوا قد فشلوا حتى فى الاجتماع بالملك. وقد بدا أن الملك كان قد مات منذ وقت قريب، وأن ابنه الإسكندر الذى خلفه كان قاصراً وعمره اثنا عشر عاماً. وكان هناك «بعض السادة الذين يحكمون» لم تعجبهم بعثتهم ، ومن ثم منعوا الاجتماع.

ولم تكن الأمور فى القدس أيضا تجرى فى سلاسة ، فعندما كان اثنان من القساوسة الأحباش قد تم إرسالهما سفراء لدى البابا سيكستوس الرابع Sixtus IV فى روما ، قد عادا من المدينة المقدسة ، أعلن أحدهما أنه اعتنق الإسلام افترض أن أنطونى الراهب الثانى، سوف يمضى إلى الحبشة حاملاً إدانة البابوية للملك لهرطقته . وبدلاً من ذلك تلكأ أنطونى سنتين فى بيت المقدس، وبعد أن أنفق كل ما حصل عليه من أموال من الڤاتيكان من أجل الرحلة، لم يجرؤ على العودة إلى الحبشة ، وقدم أعذاراً عن صعوبات السفر. وهذا كله ، حسبما شرح الوصى على دير جبل صهيون، الراهب بول شانيتو Friar Paul of Chaneto «كشف خداع البابوية ومقاصدها» تجاه الإمبراطور.

وإذ نال الإحباط من الأب الوصى الراهب بول ، وعلم بالصعوبات التى يلاقيها رهبانه فى بلاط الإمبراطور الحبشى أملى خطاباً على فرنسسكو سوريانو موجهاً إلى «ملك الحبشة المسمى برسترچون» . وقد أشار إلى الحاكم الشاب (الاسكندر، حكم من ١٤٧٨م إلى ١٤٩٤م) وخطأ أساليبه وحثه على استقبال الراهب چون كالابريا ، الذى كان قد تحمل فى صبر مثل هذه المهالك لكى يزوره (كان رفيقه فرنسيس ساجارا قد تأخر فى الطريق بسبب مرضه:

«أعر أذنا صاغية للرسول المذكور الراهب چون: أرسل إليه رجالك الحكماء، وعلماءك ، وأساقفتك ، ورجال الدين، حتى يمكنهم الوصول إلى نور الكنيسة الرومانية... عجّل، اندفع ، أسرع ، قرر ، لاتدخر ذهبًا ، أرسل رجالاً جديرين بجلالتك الملكية، لاتماطل ؛ لأن فى التأجيل خطرًا . وعلى الرغم من أنك شاب بعدد سنين عمرك ، فأظهر أنك رجل عجوز رمادى الشعر فى فكرك ، وتأكد من أن الحقائق تتسق مع الروايات التى يكتبها سفراؤك ».

وعبر الأب بولس عن حزنه من أن الراهب أنطونى «لايزال يحتفظ بالخطابات الأبوية والسلمية، والهدايا باعتبارها علامات على الحب، وصورة البابا نفسه، والخاتم من إصبعه ، والتى أرسلها لجلالتكم برهانًا على حسن عقيدته ... وكلها أمور لايمكن أن أذكرها دون أن أذرف الدمع» .

كانت الرغبة فى تحويل الإمبراطور الشاب وشعبه إلى الكاثوليكية جارفة ؛ بحيث إن رهبان جبل صهيون قرروا أن يرسلوا باتيستا إيمولا غير المحظوظ مرة أخرى فى الرحلة الطويلة المهلكة إلى البلاط الحبشى مع خطاب من كبيرهم . ولم يذكر فرنسسكو سوريانو حصاد هذه البعثة الإضافية ، ولكن على ضوء الأوصاف اللاحقة للبلاط الحبشى التى كتبها الرحالة البرتغاليون سوف يتضح أنه مرة أخرى، لقيت الغيرة التبشيرية المحمومة للبابوية إحباطًا ، وأن حضهم كان ينزل على آذان صماء.

* * *

ولن نعرف أبدًا كم من الأوربيين المجهولين ماتوا فى أثناء رحلاتهم المصرية. أما أولئك الذين عاشوا لكى يحكوا الحكاية عما واجههم من صعاب اختلطت ببطولتهم، فكانوا ينطلقون من التعاطف والإحساس القوى. وبينما كان الحجاج يلقون التكريم وتعلو مكانتهم من ديانتهم المسيحية كان التجار يعلون بفضل توقع إشباع الأسواق الأوربية الشغوفة على الدوام بالبضائع الشرقية الفاخرة وبالأمل فى الربح ، مهما كانوا

غير مستقرين . وصار كل الرحالة إلى مصر خبراء فى أساليب حياة تختلف تماماً عن حياتهم . وفى هذا الصدد كانت لهم ميزة على المسلمين فى ذلك الوقت الذين لم يكونوا يسافرون إلى أوربا عادة ، حيث كان يمكنهم أيضًا أن يستفيدوا من فهمهم المتزايد لعادات الفرنج. وكتب التذمر والإشفاق على الذات بشأن المتاعب والأخطار التى لم تكن ترد فى رواياتهم إلا بشكل عابر. ولم يحدث حتى القرن التاسع عشر أن كانت الصعوبات والمخاطر ، مع التقدم الحاصل فى التكنولوجيا والمواصلات ، فى السفر فى الصحراء وعلى مياه البحار قد تحسنت إلى حد ما . وروايات هؤلاء الرحالة الأوائل، والتى حكيت بشكل تفصيلى فى مختلف اللغات الفرنجية ، تقدم بانوراما من الرحلات الدرامية ، الخطيرة غالبًا ، على نفس الطرق مستخدمين نفس وسائل النقل التى استخدمها أسلافهم على مدى قرون عديدة . وبعد عودتهم إلى أوطانهم، عندما صاروا بؤرة الاهتمام، كان الرحالة سيلقون من يلتمس لهم الأعذار إذا ما زخرفوا حكاياتهم من حين لآخر تحت وطأة الإغراء. وكان هناك قول شائع فى إيطاليا القرن السادس عشر : «إذا لم يكن هذا صحيحاً فهو اختراع سعيد "Se non é vero é molto ben trovato' وعلى العموم ، وعلى الرغم من هذا، فإن المبالغات كانت قليلة، ولاتنتقص من الإنجازات البطولية الحقة التى صورتها حكايات الرحالة.

هوامش الفصل العاشر

General: Sauneron (ed.). Voyage du Venitien Anonyme, pp. 30(31)-152(153) (even pages in old Venetian dialect); A. Edwards, A Thousand Miles Up the Nile, pp. 107-46; for the modern traveller to follow the Venetian's journey see Seton Williams and Stocks (eds.). Blue Guide Egypt, pp. 483-650; for a discussion of the Venetian Senate's proposal to dig a Suez canal see Fulin, 'Il Canale di Suez e la Repubblica di Venezia', pp. 175-99; Monneret de Villard, 'La prima espio razione archeologica dell'alto Egitto', pp. 19-48; Ethiopia: Beckingham and Hungerford (eds.), Some Records of Ethiopia 1593-1646 (title of Prester John, pp. 3-7; emperor's style of living, pp. 57-60); for a discussion of the identity of Prester John see Denison Ross, 'Prester John and the Kingdom of Ethiopia', pp. 180-94; Crawford (ed.), Ethiopian Itineraries (various journeys of ecclesiastics to and from Jerusalem and Italy); Rey, The Romance of the Portuguese in Abyssinia (general); Lopez, A Report of the Kingdome of Congo, pp. 207-17; Cerulli, 'Eugenio IV egli Ethiopi al consiglio di Firenze del 1441', pp. 347-68; Bellorini and Hoade (ed. and trans.), Francesco Suriano (journey of Franciscan friars from Jerusalem, pp. 94-100).

ملاحق

ملحق رقم ١

الأوروبيون في مصر في عهود سلاطين المماليك حتى سنة ١٥١٧م

تاريخ الوصول إلى مصر	تفاصيل الرحالة	السلطان المحكم
١٣٢٤م	سايمون سمينونيس وهوجو الأيرلندى	الناصر محمد بن قلاون (١٣١٠-١٣٤١)
١٣٥٠م	الراهب نيكولو، فرنسيسكانى من بوجيبونسى	الناصر حسن (١٣٤٧-١٣٥١م)
١٣٨٤	ليوناردو دى نيكولو دى فريسكو	الظاهر برقوق (خلع عن عرشه سنة ١٣٨٢-١٣٨٩م
نهاية القرن الرابع عشر	بالدى وجيبورجيو جوتشى وسيمون سيجولى من تسكانيا	الظاهر برقوق بعد استعادة العرش ١٣٩٠-١٣٩٩م)
١٣٩٦م	برتراندو دى ميجنانللى	الظاهر برقوق ١٣٩٠-١٣٩٩م
١٣٩٨م	إيمانويل بيلتوى، تاجر بندقى من كريت	السلطان الظاهر برقوق (٩٠-١٣٩٩)
حوالى ١٣٩٨م	نيكولاس دى مارتونى كاتب عدل من كارينولا بالقرب من نابولى	السلطان الظاهر برقوق ١٣٩٠-١٣٩٩
	كرياكو دى بيتزيكولى، تاجر وأثرى من أنكونا	السلطان الأشرف قايتباى ١٤٦٨-١٤٩٦
١٤٨٠م	الراهب فليكس فابرى ، راهب حاج	السلطان الأشرف قايتباى
١٤٨٠م	من أول سانوتو براسكا ، نبيل من ميلانو	١٤٦٨-١٤٩٦م
نهاية القرن الخامس عشر	فرنسسكو سوريانو راهب	السلطان الأشرف قايتباى ١٤٦٨-١٤٩٦
	فرنسيسكانى من جبل صهيون- القدس	الأشرف قنصوه الغورى ١٥٠١-١٥١٦م
١٥٠٣م	لودوفيكو دى فاريثما، بندقى ابن طبيب	الأشرف قنصوه الغورى ١٥٠١-١٥١٦م
١٥١٢م	دومينيكو تريفيزان، سفير من البندقية، معه سكرتيره زكريا باجانى	الأشرف قنصوه الغورى ١٥٠١-١٥١٦م

ملحق رقم ٢

الأوروبيون فى مصر فى عهود سلاطين المماليك حتى سنة ١٥١٧م

تاريخ الوصول إلى مصر	تفاصيل الرحالة	السلطان المحكم
١٥٤٧م	بيير بيلون دومانس ، طبيب وعالم طبيعة	سليمان الكبير ١٥٢٠-١٥٦٦م
حوالى ١٥٧٥م	إنجليزى مجهول، مسافر مع قافلة مكة	مراد الثالث ١٥٧٤-١٥٩٥م مراد الثالث ١٥٧٤-١٥٩٥م
١٥٧٧م	فيليبو بيجافيتا ڤيتشينزا	مراد الثالث ١٥٧٤-١٥٩٥م
١٥٨٢م	بروسبيرو ألبينى، طبيب وعالم طبيعة من بادوا	
١٥٨٨م	صمويل كيشيل رحالة ألمانى من أولم	مراد الثالث ١٥٧٤-١٥٩٥م
١٥٨٨م	البارون هانز كريستوفر تويفل من النمسا	مراد الثالث ١٥٧٤-١٥٩٥م
١٥٨٨م	رحلة بندقى مجهول إلى أعلى النيل	مراد الثالث ١٥٧٤-١٥٩٥م
١٥٨٩م	كريستوفر هارانت نبيل من براغ	مراد الثالث ١٥٧٤-١٥٩٥م
١٦١٤م	بيترو ديللاڤالى حاج من روما	أحمد الثالث ١٦٠٣ - ١٦١٧م
١٦٠٦م	يوهان وايلد، عبد من نورمبرج	أحمد الثالث ١٦٠٣ - ١٦١٧م
١٦٣٩م	چون چريڤرز ، أستاذ الفلك من أوكسفورد	أحمد الثالث ١٦٠٣ - ١٦١٧م

المصادر والمراجع

Manuscripts and Works Published before 1800

Alpinus, P., Historiae Naturalis Aegypti, 1590

- De Medicina Aegyptiorum, Venice, 1592

- De Balsamo Dialogus, Venice, 1592

- De Plantis Aegypti, Venice, 1592

- Rerum Aegiptiorum, Leiden, 1735

Anon. (but thought to be D. Mellini), Le died mascherate delle bufole mandatein Firenze il giorno di carnevale l'anno 1565, Florence, Giunti, 1565

Belon, P., De Arboris Coniferis Resiniferis, Alliis, 4 vols, Paris, G. Caullet, 1553

(vol. II entitled De Medicato Funere)

- De admirabilis operum antiquorum et rerum suspiciendarum praestantia,ris, 1553

- Portraits d'Oyseaux, Animeaux, Serpens, Herbes, Arbres. Hommes etFemmes d'Arabic, Paris, 1557

Brasca, Santo, Viaggio alia sanctissima cita di Ierusalem, Milan, P. Leonardus, U.Seinceler, 1481

Cyriaco ofAncona, Ms. Ashburnam, 1174 Florence, Biblioteca Med. Laurenziana

-Ms. Can. Lat. Misc. 2801 Oxford, Bodleian

Giovio, P., Le iscrittione paste sotto le vere imagini de gli houmani famosi,.., Florence, 1557

-Musaei Ioviani Imagines..., Basel, 1557 (this edition has woodcuts by

Theobald Mueller; No. 50 is of 'Magnus Caytbeius Memphicus Sultanus')

- G/;' elogi e vite brevemente scritte d'huomani illustri di guerra antichi e

-modemi..., Florence, 1552

Greaves, J., Pyramidiographia, or a Description of the Pyramids of Aegypt,

London, G. Badger, 1646

Hermes Trismegisti: Liber de Potestate et Sapienti Dei a graeco in Latinium traductus a M. Ficinus, dedicated to Cosimo de' Medici, Treviso, G. de Lise, 1471

kircher, A., Prodomus Coptus sive Aegyptiacus, Rome, Congregazione depropoganda Fide, 1636

- Lingua Aegyptiaca Restituta, Rome, 1644

Leo Joannes Africanus, Primo Volume delle Navigationl et Viaggi nel qual su Contiene la Descrittione dell'Africa et del Paese del Prete lanni, Venice, 1550

Lopez, 0., A Report of the Kingdome of Congo, a Region of Africa, Drawen Out of the Writings and Discourses of Odoardo Lopez by Filippo Pigafetta, London, John Wolfe, 1597

Mandeville, J., Tractate de le piu Cose Meravigliose, Milan, P. de Corneno, 1480

Mehus, L., Kyriaco Anconitani Itinerarium, Florence, 1742

Mercati, M., De Gli obelischi di Roma, Rome, D. Basa, 1589

Nicolay, N. de, Les Navigations, Peregrinations et Voyages faictes en la Turquie ... Anvers, 1576.

Pigafetta, F., Relatione diReame di Congo et delle Circonvicine Contrade

Tratta dalle Scritti et Ragionamaenti di Odoardo Lopez Portoghese con Disegni Vari di Geografia, di Piante, d'Habit; i d'Animali, et Altro, Rome, Grassi, 1591

Ptolemaeus, Claudius, Consmographia, Vicenza, 1475

Ramusio, G.B., La descrittione dell' Africa di Giovan Lioni Africanus.

Delle navigatioui et Viaggi, 3 vols, Venice, L., Giunti, 1554-59

Sandys, G., A Relation of a Journey Began Anno Domini 1616, London, w. Barratt, 1615

Sigoli, S., Viaggio di Terra Santa, Florence, Bib. Riccardiana, ms. 1998 (no date)

Torcellus Sanutus, Marinus, Liber Secretum Fidelium Crucis, Florence, Bib. Riccardiana, ms. 237

Valle, P. della, Viaggi di Pietro delta Valle il Pellegrino ... divisi in tre parti, doe La Turchia, La Persia, e l'India, 3 vols, Rome, Vitale Mascardi, 1650.

Works Published after 1800

Almagia, R., Il Mappamondo di Fra Mauro, Rome, Istiuto Poligrafico dello State, Liveria dello Stato, 1956

al-Maqrizi, Histoire des sultans mamlouks de l'Egypte ecrite en arabe par

Takieddin-Ahmed-Katenrizi, trans. Etienne Quatremere, 2 vols, Paris, 1837- 45.

Ashmole, B., Cyriac of Ancona', Proceedings of the British Academy, 45, 1959, pp. 25-41.

Ashtor, e., Le Cout de la Vie dans l'Egypte Modievale', JESHO, 6, 1960, pp. 59-72.

- 'Volume of Levantine Trade in the Later Middle Ages 1370-1498', JEEH, 4, 1975,pp.573-612

- A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages, London, Collins, 1976

- 'Spice Prices in the Near East in the 15th Century', JRAS, 1976, pp. 28-41

- Studies in the Levantine Trade in the Later Middle Ages, London, Variorum

-Reprints, 1978. See especially 'The Venetian Supremacy in Levantine Trade: Monopoly or Pre-Colonialism?', pp. 5-53

Atiya, A.S., 'An Unpublished XIVth Century fatwa on the Status of Foreigners in Mamluke Egypt and Syria', in Studien zur Geschichte und Kultur des Nahen und Fernen Ostens, Pool Kayle, Leiden, E.J. Brill, 1935, pp. 55-68

Ayalon, D., 'The Plague and its Effects upon the Mamluk Atmy',JRAS, 1946, pp. 67-73

- The Mamluk Military Society, collected studies, London, Variorum Reprints ,1979

- 'Furusyya Exercises and Games in the Mamluk Sultanate', in The Mamluk Mili-

tary Society, pp. 45-57

- L'Esclavage du Mamelouk, Oriental Notes and Studies 1, Jerusalem, 1951

-Studies in al-Jabarti 1, 'Notes on the Transformation of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans', JESHO, 1960, pp. 148-74; 275-325

Babinger, F., 'Lorenzo de' Medici e la corte ottomana', in Archivio Storico Italiana, XXI, Florence, Olschi, 1963

Badia, I. del (ed.), Luca Landucci: A Florentine Diary from 1455-1516, London, 1927

Bagrow, L., and R.A. Skelton, A History of Cartography, London, 1964

Baines, J., and J. Maiek, Atlas of Ancient Egypt, Oxford, Phaidon, 1980

Ball, J., Egypt in the Classical Geographers, Cairo, Government Publication, 1942

Balog, P., 'The Coinage of the Mamluk Sultans of Egypt and Syria', in Numismatic Studies, XII, New York, American Numismatic Society, 1964

Barozzi, N. (ed.), Zaccaria Pagani, Viaggio di Domenico Trevisan Ambasciatore Veneto al Gran Sultano del Cairo nell'anno 1512, Venice, 1875

Bates, E.S., 'Mohammedan Europe', in Touring in 1600 (Introd. G. Bull), London, Century, 1987, pp. 183-239

Beckingham, C.F., Between Islam and Christendom: Travellers, facts and Legends in the Middle Ages, London, Variorum Reprints, 1983

Beckingham, C.F, and G. Hungerford (eds.), Some Records of Ethiopia 1593-1646: Extracts from the History of High Ethiopia or Abassia by M. de Almeida, Together with Bahrey's History of the Galla, Series 2, London, Hakluyt, 1954

Bellorini, T., and E. Hoade (ed. and trans.), Fra Niccolo of Poggibonsi: A Voyage Beyond the Seas, 1346-50, Jerusalem, Publications Studium Biblicum Franciscanum, 4, 1948

- Visit to the Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384, by Frescobaldi, Gucci and Sigoli, Jerusalem, Publications Studium Biblicum Franciscanum, 6, 1948

-Francesco Suriano, Treatise on the Holy Land, Jerusalem, Publications Studium

Biblicum Franciscanum, 8, 1983

Beer, R., 'The Development of the Guide Book until the Early XIX Century', /BAA, 3, 1952

Berattino, G., G. Boaglio, A. Bongioanni, and A. Rolla (eds.). In Egitto Prima di Napoleone: Viaggio delta Palestina, Egitto e Sacro Monte Siinai fatto da' Pietro Lorenzo Pincia... 1719, 1720, 1721, Turin, Galleria del Libro, 1998

Braudel, F., The Wheels of Commerce, 2 vols, London, Collins, 1982

Breccia, E., Alexandria ad Aegyptum, Bergamo, 1922

Brejnik, C., and A. Brejnik (ed. and trans.). Voyage en Egypt de Christophe Harant de Polzic et Bezdruzdic, Cairo, IFAO, 1972

Breydenbach, B. von, Perigrinatio in Terra Sanctum, Mainz, Peter Schoffer for Erhard Renwich, facs. repr., 1986

Brock, E. van den. The Myth of the Phoenix According to Classical and Early Christian Texts, Leiden, E.J. Brill, 1972

Bull, G. (ed. and trans.), Vasari's Lives of the Artists, Harmondsworth, Penguin, 1971

- The Pilgrim: The Travels ofPietro della Valle, London, Hutchinson, 1989

Purton, R., Narrative of a Pilgrimage to El-Medinah and Meccah (introd. J. Scott), Geneva, Heron Books, Edito Service

Burmester, O.H.K., A Guide to the Ancient Coptic Churches of Cairo, Cairo, Societe d'Archeologie Copte, 1955

Bushnaq, I. (ed. and trans.), Arab Folk Tales, New York, Penguin, 1987

Butler, A.J., Butler's Lives of the Saints, Tunbridge Wells, Burns & Oates, 2000

- The Ancient Coptic Churches of Egypt, Oxford, Oxford University Press, 1970

Byron, E., Genoese Shipping in the 12th and 13th Centuries, New York, Medieval Academy of America, 1970

Cerulli, E., 'Eugenio IV egli Ethiopi al consiglio di Firenze del 1441', RendeAccad. Lincei e diSc. Morali, 4.9, 1933, pp. 347-68

Colin, J., Cyriaque d'Ancone: Le voyageur. le marchand, l'humaniste, Paris, 1981

Colvin, S., A Florentine Picture Chronicle, London, Roxburghe Club, 1898

Cragg, F.A., An Italian Portrait Gallery, Boston, 1935

Crawford, O.G.S. (ed.), Ethiopian Itineraries ca. 1400-1524, Cambridge, Cambridge University Press and Hakluyt Society, 1956

- 'Some Medieval Theories About the Nile', Geographical Journal, 114, 1949, pp.25-37

Creques, A., and J. Creques, Carta nautico geografia de 1375 de los mallorquines, denominado Atlas Catalan, Servicio Geografico del Ejercto de Madrid, in Richardo Cerezo Martinex La Cartografia Nautico Espanola en los Siglos, XIV, XV, XVI, Madrid, 1973

Cresswell, K., A Brief History of the Mohammedan Monuments of Egypt to A.D. 1517, Cairo, IFAO, 1919

Creswell, A.C., The Muslim Architecture of Egypt, 1 vols, Oxford, Clarendon Press, 1952, 1959

Cust, R.H.H., The Pavement Masters of Siena 1369-1562, London, Bell, 1901

Dannenfeldt, K., 'Egypt and Egyptian Antiquities in the Renaissance', Studies in the Renaissance, 6, 1959, pp. 12-24

Davies, H.W.M., Bernhard von Breydenbach and his Journey to the Holy Land, London,1911

Dawood, N., The Thousand and One Nights, London, Penguin, 1955

Dawson, W.R., 'Refences to Mummification by Greek and Latin Authors', Aegyptus, 9, 1928, pp. 106-12

Day, J., The Medieval Market Economy, Oxford, Oxford University Press, 1987

Demus, 0., The Mosaics of San Marco Venice, Chicago, Dumbarton Oaks, 1988

Denison Ross, E., 'Prester John and the Kingdom of Ethiopia', in A.P. Newton (ed.), Travels and Travellers in the Middle Ages, London, Kegan Paul, 1926,pp.174-94

Description de l'Egypte, ed. G. Neret, Cologne, Benedikt Taschen, 1967 (facs. repr. of 1st edn, Paris, Imprimerie Imperiale, 1809)

Dilke, O., and M. Dilke, 'Marin Sanudo - Was he a Great Mapmaker?', in The Map Collector, Vol. 39, Tring, Map Collector Publications, 1982, pp. 29-34

Dioxiadis, E., The Mysterious Fayum Portraits: Faces from Ancient Egypt, London, Thames and Hudson, 1995

Dopp, P.H. (ed.), L'Egypte au commencement du quinzieme siecle d'apres le traite d'Emmanuel Piloti de Crete incipit 1420, Cairo, University Fuad I, 1950

d'Onofrio, C., Gli Obelischi di Roma, 2nd edn, Rome, 1965

Dorigato, A., Murano Glass Museum, Milan, Electra, 1986

Edwards, A., A Thousand Miles up the Nile, London, Century Hutchinson, 1982

Edwards, I., The Pyramids of Egypt, Harmondsworth, Penguin, 1962

Empereur, J.-Y., Alexandria Rediscovered, London, British Museum Press, 1998

Encyclopedia of Islam, Leiden, E.J. Brill, 1993

Esposito, M. (ed.), Itinerarium Symon Semeonis am Hibernia ad Terra Sanctum, Scriptoris Latini Hyberniae, 4, Dublin, 1960

Evans, A. (ed.), Francesco Pegolotti, La Practica delta Mercatura, Cambridge, MA, Harvard University Press, 1936

Fischel, W., 'The Spice Trade in Mamluk Egypt', JESHO, 1958, pp. 154-74

- Jews in the Economic and Political Life of Medieval Islam, London, Royal Asiatic Society, 1937

Fischel, W. (ed. and trans.), 'Ascensus Barcoch -A Latin Biography of the Mamluk Sultan Barquq of Egypt (d. 1399), written by B. de Mignanelli in 1416', Arabica, 6, 1959, pp. 57-74, 152-72

Forster, E.M., Alexandria: A History and a Guide, New York, Doubleday, 1961

- Pharos and Pharillon, London, Michael Haag, 1983

Eraser, P., Ptolemaic Alexandria, 3 vols, Oxford, Oxford University Press, 1972

Fulin, R., 'Il Canale di Suez e la Repubblica di Venezia', Archivio Veneto, 2,1871, pp.175-99

Gabra, G., and A. Alcock, Cairo: The Coptic Museum and Old Churches, Cairo, Egyptian International Publishing Co., 1993

Garcin, J.-C., 'The Regime of the Circassian Mamluks', in C. Petry (ed.), Islamic Egypt (The Cambridge History of Egypt, I), Cambridge, Cambridge University Press, 1998

Geramb, M.J., Pelerinage a Jerusalem et au Mont Sinai, 3 vols, Paris, 1839

Gibb, H.A.R. (ed.), Ibn Battuta, Travels in Asia and Africa, 1325-1354, London, Routledge and Kegan Paul, 1983

Gindici, P., Niccolo di Poggibonsi, Viaggio in Terra santa, descritto da un anonimo trecentista. Bologna, 1867

Giovio, P., Catalogue for the 5th Century of his Birth 1433-1983, Como, Fondi Archivistici Gioviani, 1983

Glubb, J., Soldiers of Fortune: The Story of the Mamalukes, New York, Stein and Day,1973

Golubovich, G., Biblioteca Bibliografica delta Terra Santa e dell'oriente

Francescano, 5 vols, Tipografia di Collegio di S. Bonaventura, Quarachi, Florence, 1906-27 (vol. III 1300-1332, vol. IV 1338-1345, vol. V 1346-1400)

Haag, M., Discovery Guide to Cairo, London, Michael Haag, 1990

Hakluyt, R. (ed), Anon., 'A Description of the Yearley Voyage or Pilgrimage of the Mahomitans, Turks and Moores into Mecca in Arabia', in R. Hakluyt, The Principal Navigations, Voyages, Trafiiques and Discoveries of the English Nation Made by Sea or Overland to the Remote and Furthest Distant Quarters of the World, III, London, J.M. Dent, 1927, pp. 167-97

Harris, R., 'Medicine', in R. Harris (ed.). The Legacy of Egypt, 2nd edn, Oxford, Clarendon Press,'1971, pp. 130-37

Hattox, R., Coffee and Coffee Houses: The Origins of a Social Beverage in the Medieval Near East, Seattle, University of Washington Press, 1991

Heers, J., Genes au XVe Siecle, Affaires et Gens d'Affaires, 24, Paris.1961

Heyd, W., Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age, trans. F. Reynaud, 2 vols, Leipzig, 1885-86 (repr. Amsterdam, 1967)

Hildebrand, C., The Crusades: Islamic Perspectives, Edinburgh, Edinburgh University Press, 1999

Holt, P.M., 'The Treaties of the Early Mamluk Sultans with the Frankish States', BSOAS, 43,1980, pp. 67-76

- The Age of the Crusades: The Near East from the Eleventh Century to 1517, New York, Longman, 1986

Honey, W.B., Glass: A Handbook for the Study of Glass Vessels of All Periods, London, Victoria and Albert Museum, 1946

Hyde, J., 'Navigation in the Eastern Mediterranean According to Pilgrim's Books', Papers in Italian Arch. 1, the Lancaster Seminar Part 1, BAR supplementary series 41, 1,1978, pp. 521-40

Inalci, R., The Ottoman Empire: The Classical Age 1300-1600, London, Phoenix, 1997

Irwin, R., The Middle East in the Middle Ages: The Early Mamluk Sultanate 1250-1382, London, Croom Helm, 1986

- The Arabian Nights: A Companion, London, Alien Lane, 1994

Iverson, E., 'The Hieroglyphic Tradition', in J. Harris (ed.). The Legacy of Egypt, Oxford, Oxford University Press, 2nd edn, 1971, pp. 170-97

Jacquet, J., 'Des couveuses artificiels au sixieme siecle de notre era', in Homages a Serge Sauneron, II, Cairo, IFAO, 1979, pp. 165-74

Janssen, J., 'Athanase Kircher Egyptologue', Chronique d'Egypte, 36, 1943, pp. 140-41

Jones, M. (ed.). The New Cambridge Medieval History, VI, c.1300- c.1415,

Cambridge, Cambridge University Press, 2000 (see especially Part 1, P. Spufford, 'Trade in Fourteenth-Century Europe', pp. 155-208)

Kamil, J., The Monastery of Saint Catherine in Sinai, Cairo, 1996

Kimble, G.H.T., Memoirs on the Catalan World Map of the Royal Biblioteca Estense at Modena, London, Royal Geographical Society, 1934

- Geography in the Middle Ages, New York, Russell and Russell, 1968

Lane, E.W., The Modern Egyptians, London, J.M. Dent, 1936

Lane, F.C., Venetian Ships and Ship Builders of the Renaissance, Baltimore,

Johns Hopkins University Press, 1934

-Andrea Barbarigo, Merchant of Venice, 1418-49, Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1944

- Fleets and Fairs: The Functions of the Venetian Muda, Studi in honori di Armando Sapori, 2 vols, Milan, 1956

- The Merchant Marine of the Venetian Republic in Venice and History, Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1966

Lapidus, I., Muslim Cities in the Late Middle Ages, Cambridge, MA, Harvard University Press, 1984

Latham, R. (trans.), The Travels ofMarco Polo, Harmondsworth, Penguin, 1972

Leclerc, L., Histoire de la Medecine Arabe, 2 vols, Paris, 1876

Legrand, L., 'Relation du Pelerinage a Jerusalem de Nicolas de Martoni', Revue de l'Orient Latin, 3, 1895, pp. 566-669

Lehmann, P., Cyriacus of Ancona's Egyptian Visit, New York, 1977

Lepschy,A.L.M.(ed.), Viaggio in Terrasanta di Santo Brasca 1480 con l'Itinerario di Gabriele Capodilista 1458,1 Cento Viaggi, 4, Milan, Longanesi, 1966

Lestringant, F. (ed. and introd.). Voyages en Egypte des Annees 1549-1S52, Cairo, IFAO, 1984 (contains Andre Thevet's Cosmographie de Levant and Cosmogrophie Universelle) Letts, M., Sir John Mandeville, the Man and his Book, London, Batchworth, 1949

Letts, M. (ed.), Mandeville's Travels, London, Hakluyt, 1953

Letts, M. (ed. and trans.). The Pilgrimage of Amold von Harff from Cologne, London, Hakluyt, 1946

Levanoni, A., A Turning Point in Mamluk History: The Third Reign of al-Nasr Muhammad 1310-1341, Leiden, E.J. Brill, 1995

Lewis, B., 'The Contribution to Islam', inJ.R. Harris (ed.), The Legacy of Egypt, 2nd edn, Oxford, Oxford University Press, 1971, pp. 456-77

- The Arabs in History, Oxford, Oxford University Press, 1993

- The Muslim Discovery of Europe, London, Phoenix, 1994

- The Middle East, London, Weidenfeld and Nicolson, 1996

Lyster, W., The Citadel of Cairo: A History and Guide, 2nd edn, Cairo, The Palm Press, 1993

Maalouf, A., The Crusades through Arab Eyes, Cairo, Al Saqi Books, 1984

Mandowsky, E., and C. Mitchell, Pirro Ligorio's Roman Antiquities, London, Warburg Institute, 1963

Mansel, P., Constantinople, City of the World's Desire, 14S3-1924, London, Penguin Books, 1997

Mayer, L.A., Mamluk Costume: A Survey, Geneva, Albert Kundig, 1952

Meinhardus, 0., Monks and Monasteries of the Egyptian Deserts, Cairo,

American University in Cairo Press, 1961

- 'An Examination of the Traditions Pertaining to the Relics of St Mark',

Orientalia Christiana Periodica, 36, 1970, pp. 348-76

- The Holy Family in Egypt, Cairo, American University in Cairo Press, 1986

Mitchell, C., 'Ex Libris Kiriaci Anconitani', Italta medievale e ummanistica, 5, 1962,pp.282-99

Mitchell, R., The Spring Voyage, London, John Murray, 1964

Monneret de Villard, U., 'La prima esplorazione archeologica dell'alto Egitto', Bull. de laSociete Royale de Geographic d'Egypte, 17, 1929, pp. 19-48

Morani, J. (ed.), Del Viaggio in Terra Santa di Mariano di Sienna, Florence, 1822

Morelli, J., Dissertazione intorno ad alcuni viaggiatori eruditi veneziana poco noti, Venice, 1803

Morris, J., Venice, London, Faber & Faber, 1961

- The Venetian Empire, London, Faber & Faber, 1980

Miintz, E., 'Le musee de portraits de Paul Jove', Memoirs de l'Academie des inscriptions et belles-lettres, 36.2, 1900-1901

Newett, M., Pilgrimage of Canon Casola, Manchester, Manchester University Press, 1907

Norwich, J., A History of Venice, London, Penguin, 1986

Origo, I., The Merchant ofPrato, Francesco di Marco Datini, London, Penguin,1986

Papaioannou, E., The Monastery ofSt Catherine Sinai, Cairo, Isis Press, 1980

Parlasca, K., Mumienportrdts und Verwandte Denkmaler, Wiesbaden, F. Steiner Verlag, 1966

Peters, L., The Hajj: The Muslim Pilgraimage to Mecca and the Holy Places, Princeton, NJ, Princeton University Press, 1994

Petrie, W.F., Pyramids and Temples of Gizeh, London, 1893

Petry, C., The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Ages, Princeton, NJ, Princeton University Press, 1981

- 'Late Mamluk Military Institution and Innovation', in Petry (ed.), Islamic Egypt, PP. 464-85

Petry, C. (ed.), Islamic Egypt (Cambridge History of Egypt, I), Cambridge, Cambridge University Press, 1998

Pettigrew, T.D., A History of Egyptian Mummies, London, 1834

Pigafetta, F., 'Further Travels of Filippo Pigafetta with Anton Maria Ragone', in Viaggio di Anton Maria Ragona in Francia, Inghiliterra e Spagna negli anni MDLXXXII, Viaggi inediri. Bib. civ. Bertoliana Gonz. 5954, Vicenza, 1878

Popper, K., Egypt and Syria under the Circassian Sultans 1382-1466 A.D.:

Systematic Notes to Ibn Taghri Berdi's Chronicles of Egypt, University of California Publications in Semitic Philology, 15, Berkeley, University of California, 1955

Prescot, H., Jerusalem Journey, London, Eyre and Spottiswoode, 1954

- Once to Sinai, Cambridge, Cambridge University Press, 1957

Quatremere, M. (trans.), Al-Maqrizi: Histoire des Sultans Mamlouks d'Egypt, 2 vols, Paris, 1837

Raymond, A., and G. Weit (ed. and trans.), Les Marches du Cairo, Textes Arabes et Etudes Islamiques, 14, Cairo, IFAO, 1979

Rey, C.L., The Romance of the Portuguese in Abyssinia, London, Witherby, 1929

Roberts, D., A journey in Egypt, Florence, Casa Editrice Bonechi, 1994

Rodenbeck, M., Cairo, London, Picador, 1998

Rohricht, R., Biblioteca Geografia Palestinae, Berlin, 1890 (lists 570 narratives of pilgrims AD 300-1500)

Rohricht, R. (ed.), 'Liber Perigrinationis Fr. Jacobi de Verona 1335', Revue de l'Orient Latin, 3, 1895, pp. 155-230

Rovelli, L., Paolo Giovio nella storia e nell' arte, Como, 1952

Runciman, S., A History of the Crusades, 3 vols, Cambridge, Penguin, 1978

Russell, J.C., 'The Population of Medieval Egypt,]ARCE, 5, 1966, pp. 69-82

Sandys, J., A History of Classical Scholarship from the 6th Century to the End of the Middle Ages, 3 vols, Cambridge, Cambridge University Press, 1921

Sauneron,J. (ed.). Voyage en Egypte de Pierre Belon du Mans 1547, Cairo, IFAO, 1970

- Voyage en Egypte du Venitien Anonyme 1589, Cairo, IFAO, 1970

- Voyage en Egypte de Jean Paleme Forestien 1581, Cairo, IFAO, 1971

- Voyages en Egypte Pendant les Annees 1587-1588, S. Kiechel, H. Teufel, Cairo, IFAO, 1972

Schio, A. da (introd.), Filippo Pigafetta, Viaggio da Creta in Egitto ed al Sinai 1576-1577, facs. ms. Malacame, Vicenza, Biblioteca Civica Bertoliana diVicenza, 1984

Seif, 0., Khan al-Khalili: A Comprehensive Mapped Guide to Cairo's Historic Bazaar, Cairo, American University in Cairo Press, 1993

Seton Williams, M.V., and P. Stocks (eds). Blue Guide Egypt, 2nd edn,London, A. & C. Black, 1988

Shaw, M. (ed. and trans.) Joinville and Villehardoun, Chronicles of the Crusades, London. Penguin, 1963, pp. 201-64

Silliotti, A. (ed.), Viaggiatori Veneti alia Scoperta dell' Egitto: Cataloga della Mostra da Rassegna Intemazionale di Cinematografia Archeologica, Verone, Venice, 1985

Simpson, W.K. (ed. and introd.). The Literature of Ancient Egypt, London, Yale University Press, 1973 (The Shipwrecked Sailor, pp. 50-56)

Smith, R. (ed.). Medieval Muslim Horsemanship: A Fourteenth-Century Arab Cavalry Manual, London, British Library, 1979

Spufford, P., Power and Profit: The Merchant in Medieval Europe, London, Thames & Hudson, 2002

Stevenson, E.L., 'Genoese World Map 1457', in Stevenson and Fisher World Maps, New York, Hispanic Society of America, 1912, p. 83

Stewart, A. (ed. and trans.). The Book of Wanderings of Brother Felix Fabri c.AD 1480-1483, London, Palestine Pilgrims' Text Society, 1893

- Ludolphus de Suchen: Ludolph von Suchen's Description of the Holy Land, London, Palestine Pilgrims' Text Society, 1895

- Marino Sanuto's Secrets for True Crusaders, Part XIV of Book III, London, Palestine Pilgrims' Text Society, 1896

Suys, E., 'Un Venitien en Egypte et en Nubie au XVIieme siecle', Chroniaue d'Egypte, 22, 1933, pp. 51-63

Thompson, D., Mummy Portraits from the Paul Getty Museum, Malibu, CA, Paul Getty Museum, 1982

Van Essen, C.C., 'Cyriaque d'Ancone en Egypte', Mededelingen der Koninklijke Nederlanse Akademie van Wetenschappen, Afd Letterkunde NR 21,22,1958.

van Gennep, A., 'Le Ducat Venitien en Egypte', Revue Numismatique, Set. 4, 1, 1897, pp. 373-81,494-506

Varthema, L. di. Travels in Egypt, Syria and Arabia AD IS 03-1508, London, Hakluyt, 1863

Vecellio, C., Vecellio's Renaissance Costume Book, New York, Dover, 1977

Volkoff, 0., 'A la Recherche de Manuscrits en Egypte', Recherches d'Archeologie de Philologie et d'Histoire, 30, 1970, pp. 45^7

Volkoff, 0. (ed.), Le voyage en Egypte deJohann Wild 1606-1610, Cairo, IFAO, 1970

Voraigne, J. de, The Golden Legend (trans. W. Caxton), Cambridge, Cambridge University Press, 1914

Vyse, H., The Pyramids of Gizeh, 2 vols, London, 1840

Wansburgh, J., 'A Mamluk Ambassador to Venice in 913/1507', BSOAS, 26, 1963, pp.503-29

- 'Venice and Florence in the Mamluk Commercial Privileges', BSOAS, 28,1965, pp.483-95

Weit, G., 'Les marchands d'epices sous les sultans mamlouks', Cahiers d'historie Egyptienne, 7, 1955, pp. 69-82

Weit, G. (trans.), Ibn Iyas, Histoire des Mamlouks circassien, Cairo, 1945

Whitehouse, H., 'Egyptology and Forgery in the Seventeenth Century: The Case of the Bodleian Shabti', Journal of the History of Collections, 12, 1989, pp. 187-95

- 'Towards a Kind of Egyptology: The Graphic Documentation of Ancient Egypt, 1587-1666', in E. Cropper and G. Perrini (eds). Documentary Culture:

Florence and Rome from Grand Duke Ferdinand I to Pope Alexander VI, Villa Spelman Colloquie, III, Bologna, Nuovo Alfa, 1992, pp. xxii-xxiii, 65-73 Wilson, C.W. (trans.), Beha Ed-Din (AD 1137-1193): Life of Saladin, London, Palestine Pilgrims' Text Society, 1897

Winter, M., Egyptian Society under Ottoman Rule, 1517-1798, Cambridge, MA, Harvard University Press, 1967

- 'Ottoman Occupation', in C. Petty (ed.), Islamic Egypt, pp. 493-506

Wolff, A., 'Two Pilgrims to St Catherine's Monastery, Niccolo di Poggibonsi and Christopher Harant', in J. Starkey and 0. El-Daly (eds). Desert Travellers:

From Herodotus to T.E. Lawrence, Durham, Astene, 2000, pp. 33-58

Wright, J.K., Geographical Lore of the Time of the Crusades, American

Geographical Society Research Series, New York, American Geographical Society, 1925

Ziegler, P., The Black Death, London, Penguin, 1998

Zuria, P. (ed.),DiMarcoPolo e deglialtriviaggiatori.,.,2 vols, Venice, 1818 (vol.II contains Viaggi di Pietro della Valle il Pelegrino mandate in Napoliall all' erudito e fra piu cari di moiti anni suo amico Mario Schapiro, Rome, Vitale Mascardi, 1650)

المؤلفة فى سطور:

آن وولف

مصرية المولد ؛ حيث كان أبوها تاجر قطن ، وكان على عكس الكثيرين من التجار الأجانب المقيمين فى مصر ، يعرف اللغة العربية، وقد قامت بإلقاء عدة محاضرات عن الرحالة الأوروبيين الذين سافروا إلى مصر بعد عصر الحروب الصليبية . ومن الواضح أنها سافرت إلى أنحاء مصر ، كما أنها ما تزال تتابع الأحوال فى مصر .

المترجم فى سطور:

قاسم عبده قاسم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق

له عدة مؤلفات فى تاريخ عصر سلاطين المماليك ، والحروب الصليبية ، كما ترجم عدداً من الكتب المتخصصة فى تاريخ المماليك وعصر الحروب الصليبية وتاريخ العصور الوسطى بشكل عام .

التصحيح اللغوى : د. عبد الرحمن حجازى

الإشـــراف الفنى : حــــسن كـــــامـل